
ايفان تورغينيف
المؤلفات المختارة
في 5 مجلدات
ايفان تورغينيف
3

ايفان تورغينيف

المؤلفات المختارة
فى ٥ مجلدات

المجلد
٣

فى العشية
الآباء والبنون



دار «رادوغا»
موسكو

فى العشية (١)

في العشية . ترجمة غائب طعمة فرمان
الاباء والبنون . ترجمة خيري الضامن

И. С. Тургенев

ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ
В 5 ТОМАХ

ТОМ III
Накануне. Отцы и дети.

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

T $\frac{4702010100-366}{031(05)-85}$ 077—85

ISBN 5-05-000091-2
ISBN-5-05-000094-7

١

في يوم من اشد الايام قيظاً من صيـف ١٨٥٣ كان شابان يستلقيان على العشب في ظل شجرة زيزفون عالية على شاطئ نهر موسكو ، غير بعيد عن كونتسوفو . كان احدهما ، وهو شاب طويل القامة ، اسمر البشرة ، اسود الشعر ، ذو انف حاد معوّج بعض الشيء ، وجبين عال ، في نحو الثالثة والعشرين كما يدل مظهره ، مستلقياً على ظهره ، ينظر الى البعيد في استغراق ، وقد قلّص قليلاً عينيه الرماديتين الصغيرتين ، ورسم على شفتيه العريضتين ابتسامـــة متحفظة . وكان الثاني يرقد على صدره ، وقد اسند راسه الاشقر الشعر ، والأجعد على يديه كلتيهما ، متطلعاً ايضاً الى البعيد . كان اكبر سناً من رفيقه بثلاث سنوات ، ولكنه يلوح اصغر منه بكثير ، وقد طرّ شارباه او كادا ، وعلى ذقنه زغب خفيف . وكان في القسمات الدقيقة لوجهه المدور الغض ، وفي عينيه البنيتين المسليتين ، وشفتيه الجميلتين البارزتين ، ويديه البيضاوين شيء طفولي حلو ، شيء رشيق على نحو جذاب . وكان كل شيء فيه يفوح بمرح العافية السعيد ، يفوح بالفتوة – بخلو البال ، وبالثقـــة بالنفس ، والدلال ، بسحر الشباب . كان يقلّب عينيه ، ويبتسم ، ويسند راسه ، وكل ذلك على طريقة الصبيان الذين يعرفون ان الابصار تتطلع اليهم بلطف . كان يرتدي معطفاً ابيض فضفاضاً اشبه بالبلوزة ، ويلف على رقبته النحيلة منديلاً ازرق ، وقد انطرحت قبعة قش مدعوكة على العشب ، بالقرب منه .

كان رفيقه ، بالقياس اليه ، يبدو عجوزاً ، وما كان لأحد ان يظن ، وهو ينظر الى شكله النافر ، بانه هو الآخر كان يستمتع ، ويحس بالارتياح . كان يرقد في وضع غير مريح ، وراسه الكبير

العريض من الأعلى ، والضيق الى الاسفل ، يستقر على رقبته الطويلة بطريقة خرقاء . وكان التثاقل يبدو حتى في وضعية يديه ، وفي جذعه المشدود باحكام بسترة سوداء قصيرة ، ورجليه الطويلتين بركبتيها المرفوعتين ، الشبيهتين بقائمتي الجندب الخلفيتين . ومع كل هذه الاوصاف لا يفوت المرء ان يرى فيه رجلاً حسن التربية ، فان طابع «الاستقامة» كان يبدو في كل كيانه المتخلخل ، كما ان وجهه غير الوسيم ، بل والمضحك بعض الشيء ، كان ينم عن تعوده على التأمل ، وعن الطيبة . كان يدعى اندريه بيتروفيتش بيرسينيف ، وكان اسم رفيقه الشاب الاشقر الشعر بافل ياكوفليتش شوبين .

ابتدر شوبين يقول :

– لماذا لا تستلقي على صدرك ، مثلما استلقي انا ؟ ذلك احسن بكثير . لاسيما حين ترفع ساقيك ، وتضرب كعبيك احدهما بالآخر . هكذا . والعشب قرب انفك . وحين تمل من التطلع الى المنظر الطبيعي انظر الى حشرة منتفخة البطن ، كيف تدب على العشب ، او الى نملة ، وكيف تروح وتجيء . حقاً ، ذلك افضل . والا فها انت الآن قد اتخذت وضعاً كلاسيكياً مزيفاً ، تماماً كراقصة الباليه ، حين ترتفق على طنف كارتوني . تذكر ان لك الآن كامل الحق في الاستراحة . فليس مزاحاً ان تحصل على درجة علمية وتصبح مرشحاً ثالثاً . استرح ، سيد ، وكفّ عن التصلب ، ارخِ اطرافك !

نطق شوبين بكل هذا الكلام بخنة ، في شبه تكاسل ، وفي شبه مزاح (الاطفال المدللون يتكلمون بهذا الشكل مع اصدقاء العائلة الذين يجلبون لهم الحلوى) ، واستطرد قائلاً ، دون ان ينتظر رد صاحبه :

– اكثر ما يبهرني في النمل والخنافس وغيرها من السادات الحشرات جديتها المدهشة . انها تركض رواحاً ومجيئاً وفي مظهرها عظمة واهمية وكأن لحياتها معنى ما ! حقاً فان الانسان ، ملك الكائنات ، المخلوق الأسمى ، يتطلع اليها باهتمام ، فلا يبدو عليها اكتراث به . والاكثر من ذلك ان بعوضة ما تحط على انف ملك الكائنات هذا ، وتستخدمه طعاماً لها . هذا شيء مهين . ومن ناحية اخرى : بأي شيء تقصر حياتها عن حياتنا ؟ ولماذا لا تتبختر ، اذا كنا نحن نسمح لانفسنا بالتبختر ؟ طيب ، يا فيلسوف ، حلّ هذه المسألة لي ! لماذا انت ساكت ؟ ها ؟

انتفض بيرسينيف وقال :

– ماذا ؟

– ماذا ! – كرر شوبين – ان صديقك يطرح امامك افكاراً عميقة ، بينما انت لا تستمع له .

– كنت استمتع بالمنظر . انظر الى هذه الحقول ، كيف تلمع ساخنة في الشمس ! (كان بيرسينيف يلفظ حرف السين بدلا من حرف الشين .)

قال شوبين :

– الوان عظيمة زاخرة . الطبيعة ، بكلمة واحدة .

هزّ بيرسينيف رأسه .

– كان ينبغي ان تعجب بذلك اكثر مني . هذا ميدانك . فانت فنان .

– لا ، ! هذا ليس ميداني – اعترض شوبين ، ولبس قبعته على قفاه – انا نحّات . وشغلي اللحم . تشكيل اللحم ، الاكتاف ، والاقدام ، الايدي . وهنا لا يوجد شكل ، ولا إكتمال . انفرط على كل الجوانب . . . ولا تستطيع ان تجمعه !

قال بيرسينيف مذكراً :

– ولكن هنا الجمال ايضاً . بالمناسبة ، هل انتهيت من لوحتك المحفورة ؟

– اي لوحة ؟

– الطفل والعنز .

– الى جهنم ! الى جهنم ! – هتف شوبين بصوت ممطوط – نظرت الى اعمال الفنانين القدامى الحقيقيين ، الى الفن القديم ، فحطمت لوحتي التافهة . انت تشير عليّ الى الطبيعة ، وتقول : «هنا الجمال ايضاً» . الجمال ، بالطبع ، في كل شيء ، الجمال حتى في انفك ، ولكنك لا تستطيع ان تتسقط كل جمال . حتى القدامى لم يحاولوا ان يتسقطوه . بل هو انصبّ في خليقتهم من تلقاء نفسه ، والله يعلم من اين او لعله من السماء . كان العالم كله ملكاً لهم . ولكنه يعزّ علينا ان نحيط به على سعة . فاليد قصيرة . نحن نلقي الشص على نقطة واحدة صغيرة ، وننتظر . فاذا علق به شيء ، فمرحى بك ، واذا لا يعلق . . .

واخرج شوبين لسانه .

اعترض بيرسينيف قائلاً :

– على مهلك ، على مهلك . هذه معاضلة . اذا كنت لا تتجاوب مع الجمال ، ولا تحبه في اي مكان تلتقيه ، فلن يظهر في فنك ايضاً . واذا كان المنظر الجميل ، والموسيقى الجميلة لا يقولان شيئاً لروحك ، اريد ان اقول اذا انت لا تتجاوب معهما . . .

– آخ ، يا متجاوب ! – قال شوبين فجأة ، وضحك نفسه من كلمته المبتكرة ، بينما غرق بيرسينيف في افكاره . ومضى شوبين يقول : – لا ، يا اخ ، انت ذكي ، فيلسوف ، مرشح ثالث في جامعة موسكو ، من الفظاعة الجدال معك ، لاسيما بالنسبة لي ، انا الطالب الذي لم يكمل دراسته . ولكنني اقول لك : ما عدا فني ، لا احب الجمال الا في النساء . . . في الفتيات ، وحتى هذا لم يكن الا منذ بعض الوقت . . .

وانقلب على ظهره ، ووضع يديه تحت راسه .

مضت بضع لحظات في صمت . كان سكون قيظ الظهيرة يجثم على الارض اللامعة الغافية .

وعاد شوبين يقول :

– بمناسبة النساء ، كيف لا يستطيع احد ان يسيطر على ستاخوف ؟ هل رايته في موسكو ؟

– لا .

– فقد عقله تماماً ، العجوز هذا . يقضي اياماً كاملة قاعداً عند صاحبته افغوستينا خريستيانوفنا ، ويسأم كثيراً ، ولكنه يظل قاعداً . يحدق احدهما في الآخر ، شيء سخيف . . . بل من المقرف النظر اليهما . عجيب ! ان الله مَنّ على هذا الرجل بعائلة طيبة ، فلا يقنع ، ويريد افغوستينا خريستيانوفنا ! انا لا اعرف امقت من بوزها الوزي ! قبل ايام ، شكلت لها صورة كاريكاتورية ، على طريقة دانتان (٢) . فطلعت لا بأس بها تماماً . سأريـــك اياها . . .

فسأل بيرسينيف :

– وتمثال يلينا نيقولايفنـــا النصفي ؟ هل يتقدم فـــي يديك ؟

– لا ، يا اخ ، لا يتقدم . ان هذا الوجه يمكن ان يسلمك الى القنوط . فانت ترى امامك خطوطاً صافية ، حادة ، مستقيمة ،

فتتصور ان إلتقاط الشبه ليس بالأمر الصعب ولكن ليس الامر كذلك . . . لن تظفر به ، مثل كنز . هل لاحظت كيف تصغي هي ؟ لا تتحرك قسمة واحدة من قسمات وجهها ، سوى ان تعبير نظراتها يتغيّر باستمرار ، وبسببها تتغير صورتها كلها . فماذا يمكن ان يفعل نحّات في هذه الحال ، ولا سيما اذا كان سيئاً ؟ مخلوقة مدهشة . . . مخلوقة عجيبة .

اضاف ذلك بعد صمت قصير . فكرر بيرسينيف في اثره :

– نعم ، انها فتاة مدهشة .

– بينما هي ابنة نيقولاي ارتيمييفيتش ستاخوف ! وبعد ذلك حاول ان تتناقش عن الدم ، وعن الطبيعة . . الطريف انها ابنته بالضبط ، تشبهه ، وتشبه امها ، آنا فاسيليفنا . انا احترم آنا فاسيليفنا من كل قلبي ، فهي راعيتي . ولكنها بلهاء، كالدجاجة . فمن اين اخذت يلينا طبيعتها ؟ مَنْ اشعل هذه الجذوة ؟ هذه مسالة اخرى ، عليك ان تحلها ، يا فيلسوف !

ولكن «الفيلسوف» كالسابق لم يجب بشيء ! كان بيرسينيف ، بشكل عام ، لا يحب الكلام الكثير ، وحين كان يتكلم ، كان يتكلم بابتسار ، وبلعثمات ، وبتلويح زائد من يديه . اما في هذه المرة ، فقد لفّت روحه سكينة غير اعتيادية ، اشبه بالتعب ، والحزن . كان قبل وقت قصير قد انتقل الى السكن في بيت خارج المدينة ، بعد عمل طويل شاق ، كان يضنيه خلال بضع ساعات في اليوم . وكان الاسترخاء، وطيب الهواء، ونقاوته ، والوعي بادراك المرام ، والحديث المتقلّب الطليق مع صديقه ، وصورة المخلوق الحبيب تبرز في خياله فجأة ، كل هذه الانطباعات المختلفة والمتواشجة لسبب ما ، انصبـــت فيه بشعور شامل واحد كان يهدئـــه ، ويقلقه ، ويستل قوته في وقت واحد . . . لقد كان شاباً شديد التأثر جداً .

كان الظل تحت شجرة الزيزفون ندياً ساكناً ، وكان الذباب والنحل الحائم تحتها يبدو وكأنما خفف من طنينه . وكان العشب الصغير النظيف ، بلون الزمرد ، لا يتمايل ولا تتمازج فيه التلاوين الذهبية . كانت الانصال الطويلة تقف جامدة كالمسحورة ، وعناقيد الازاهير الصغيرة الصفر تتدلى جامدة على اغصان الزيزفون السفلى . كانت الرائحة الحلوة تنفذ الى اعماق الصدر مع كل شهيق ، ولكن

مدرك كان يستنشقها بارتياح . وفي البعيد ، وراء النهر ، وحتى انطباق السماء كان كل شيء يلتمع ، كل شيء يتألق ، ومن حين لآخر كانت نسمة تهب هناك ، وتخترق اللمعان وتزيد حدته ، وكان الاغبشاش المشع يتماوج فوق الأرض . والطيور لا يسمع لها صوت ، فهي لا تغرد في ساعات القيظ ، ولكن الجنادب كانت تشقشق في كل مكان ، وكان لطيفاً سماع صوت الحياة الحار هذا ، وانت في مكان ندي ، والسكون يهدهد اليك سنة من النوم ، مثيراً فيك الاحلام .

وفجأة قال بيرسينيف معيناً لسانه بحركات يديه :

– هل لاحظت اى شعور غريب تثيره الطبيعة فينا ؟ كل شيء فيها على درجة عالية من الامتلاء والصفاء ، واريد ان اقول ، الاكتفاء بالنفس ، ونحن ندرك ذلك ، ونستمتع به ، والطبيعة في الوقت ذاته ، على الاقل بالنسبـــــة لي ، تثير دائماً قلقاً ، فزعاً ، بل وشجناً . ما يعني هذا ؟ ايعني اننا ، حين نقف امامها ، ونجابهها ، نعي اكثر بعدم امتلائنا ، وغموضنا ، ام لا يكفينا ما يشعرها هي بالاكتفاء ، في حين الشيء الآخر ، واريد ان اقول ، الشيء الذي نحتاجه لا نجده فيها ؟

قال شوبين :

– حم . سأقول لك ، يا اندريه بيتروفيتش ، ما مبعث هذا كله . لقد وصفت انت احاسيس انسان وحيد لا يعيش ، بل ينظر فقط ، ويصيبه الانبهار . فما فائدة النظر ؟ عش حياتك ، وستكون نِعْمَ الفتى . مهما طرقت باب الطبيعة ، فلن ترد عليك بكلمـــة مفهومة ، لانها لا تنطق . سترن وتئن كالوتر ، فلا تنتظر منها غناء . النفس الحيّة هي التي ترد ، والنفس النسائية في الغالب الأعم . ولهذا ، انصحك ، ايها الصديق النبيل ، أن توفر صديقة لقلبك ، وستختفي احاسيسك الشجية على الفور . هذا «ما نحتاجه» على حد تعبيرك . ذلك لأن هذا الفزع ، هذا الشجن ، ما هو الا جوع من نوع خاص . قدّم للمعدة طعاماً حقيقياً ، وسيكون كل شيء على ما يرام . احتلّ موضعك من العالم ، كن جسماً ، يا اخي . ثم ما هي الطبيعة ، وما شأنها هنا ؟ أعِرْ اذنك واسمع : الحب . . . اية كلمة قوية ، حارة ! الطبيعـــــة . . . اي تعبير بارد ، مدرسي للتلاميذ ! ولهذا (واخذ شوبين يغني) «تحيا ماريا بيتروفنا !» (٣)

– او ، لا – اضاف قائلاً – ليس ماريا بيتروفنا ، ولكن لا فرق ! فو مي كومبرنيه * .

رفع بيرسينيف جسمه قليلا ، واسند ذقنه على ذراعيـــــه المطويتين . وقال دون ان ينظر الى صاحبه :

– ما الحاجة الى التهكم ، ما الحاجة الى السخرية ؟ ولكنك على حق . الحب كلمة عظيمة ، عاطفة عظيمة . . . ولكن عن اي حب تتحدث ؟

رفع شوبين جسمه قليلاً ايضاً .

– عن اي حب ؟ عن اي حب تشاء ، فقط ان يكون موجوداً . واعترف لك بانني لا اظن ان هناك انواعاً مختلفة من الحب . اذا احببت . . .

فابتدر بيرسينيف قائلاً :

– من كل قلبي .

– نعم ، هذا طبيعي ، فالقلب ليس تفاحة ليُقسم . فاذا احببت ، فانت على حق . ولكن لم يخطر في بالي ان استهزئ . فان في قلبي الآن من الرقة ما يجعله ناعماً . . . اردت فقط ان اوضح لك ، لماذا تؤثر الطبيعة فينا هذا التأثير ، حسب رأيك . لانها تثير فينا الحاجة الى الحب ، دون ان تقدر هي على تلبيتها . انها تدفعنا بهدوء الى احضان اخرى حيّة ، بينمـــا نحن لا نفهمها ، وننتظر منها شيئاً . آه ، اندريه ، اندريه ، رائعة هذه الشمس ، وهذه السماء ، ورائع كل ما حولنا ، بينما انت تحزن . ولكن لو امسكت بيدك ، في هذه اللحظة ، يد إمرأة تحبها ، ولو ان هذه اليد ، وتلك المرأة كلها كانتا ملكاً لك ، بل ولو كنت تنظر بعينيها ، وتشعر بعاطفتها ، وليس بعاطفتك الوحيدة ، لما اثارت هذه الطبيعة فيك شجناً ، يا اندريه ، ولا فزعاً ، ولما صرت تلاحظ جمالها . ولابتهجت الطبيعة نفسها وغنّت ، وكأنما تردد نغمك ، لانك ، عند ذاك ، كنت ستجعل لها ، لهذه العاجزة عن النطق ، لساناً ينطق !

وثب شوبين على قدميه ، ومشى مرتين او نحوهما جيئة وذهاباً ، بينما احنى بيرسينيف رأسه ، وغشيت وجهه حمرة خفيفة . قال :

– لست متفقاً معك تماماً . الطبيعة لا توحي لنا دائماً . . .

---

* انت تفهمني (بالفرنسية تلفظاً ، كما ورد في الاصل) .

بالحب (لم ينطق بهذه الكلمة راساً) . انها تهددنا ايضاً . تذكرنا بالاسرار المخيفة ، اجل ، الاسرار التي لا تنال . اليست هي التي ينبغي ان تبتلعنا ، والتي تبتلعنا باستمرار ؟ فيها الحياة والموت . وللموت صوت عال فيها ، كما للحياة .

قاطعه شوبين قائلاً :

– وفي الحب ايضاً حياة وموت .

فمضى بيرسينيف يقول :

– ثم ، مثلاً ، حين اقف في الربيع ، في غابة ، في حرش اخضر ، ويخيل اليّ انني اسمع انغاماً رومانسية لبوق اوبيرون (٤) . (اعترى بيرسينيف بعض الخجل ، وهو ينطق هذه الكلمات) . – امعقول ان هذا ايضاً . . .

فاسرع شوبين يقول :

– ظمأ للحب ، ظمأ للسعادة ، ولا اكثر ! انا اعرف هذه الانغام ايضاً ، واعرف ايضاً ذلك الحنان والتوقع اللذين يغمران النفس وهي في حِمى الغابة ، في احضانها ، او عند المساء ، في الحقول المكشوفة ، حين تغرب الشمس ، والنهر تتصاعد انفاسه وراء الاجمات . ولكنني اتوقع ، واريد السعادة من الغابة ، ومن النهر ، ومن الارض ، ومن السماء ، ومن كل غيمة ، ومن كل عُشبة ، واحس في كل شيء باقترابها ، واسمع نداءها ! «ربي منير وبهيج !» بهذا بدأت احدى قصائدي . ولا بد ان تقر بانه مطلع رائع ، ولكن لم استطع ان اتمّه . السعادة ! السعادة ! ما دامت الحياة لم تنقض ، وما دامت كل اعضائنا تحت سيطرتنا ، ما دمنا نصعد التل ، لا ان ننحدر منه ! اوه ، اللعنة ! – مضى شوبين يقول في اندفاع فجائي – نحن شبان ، ولسنا ذوي عاهة ، ولا بُلهاً . سنكسب السعادة لانفسنا .

وهزّ خصلات شعره ، ونظر الى فوق ، الى السماء ، بثقة في النفس ، وبتحد تقريباً . رفع بيرسينيف اليه بصره . وقال بخفوت :

– كانما لا شيء ارفع من السعادة ، هيه ؟

سأل شوبين :

– مثلاً ؟

– خذ هذا مثلاً . ها نحن ، انا وانت شابان ، كما تقول ، ولنفرض اننا طيبان ، وكل واحد منا ينتظر لنفسه السعادة . . .

ولكن هذه الكلمة «السعادة» هي التي يمكن أن توحدنا ، وتلهبنا نحن الاثنين ، وتجعل احدنا يمد يده للآخر ؟ اليست انانية هذه الكلمة ، اقصد اليست كلمة مفرّقة ؟

– وانت هل تعرف الكلمات التي توحّد ؟

– نعم ، وهي ليست قليلة ، وانت ايضاً تعرفها .

– حقاً ؟ ما هي هذه الكلمات ؟

– الفن ، على الاقل ، ما دمت فناناً ، والوطن ، والعلم ، والحرية ، والعدالة .

فسأل شوبين :

– والحب ؟

– الحب كلمة موحّدة ، ولكن ليس الحب الذي تتعطش انت اليه الآن . ليس الحب ـ المتعة ، الحب ـ الضحية .

تعبّس شوبين .

– هذا جيد للالمان . ولكنني اريد الحب لنفسي ، اريد ان اكون الرقم الأول .

كرر بيرسينيف :

– الرقم الاول . اما أنا فاعتقد أن كل هدف حياتنا هو في ان نجعل انفسنا الرقم الثاني .

قال شوبين بتعبيسة شاكية :

– اذا كان الجميع سيتصرفون كما تقول انت فلن ياكل احد على الارض اناناساً ، لان الجميع سيقدمونه للآخرين .

– اذن ، لا حاجة الى الاناناس . وعلى اية حال لا تخف ، فلن تعدم ابداً اناساً هواة حتى في انتزاع الخبز من افواه الآخرين .

وصمت الصديقان كلاهما . ثم قال بيرسينيف :

– قبل ايام التقيت مرة اخرى باينساروف . دعوته الى بيتي ، اريد ، من كل بد ، ان اعرفه بك . . . وبافراد عائلة ستاخوف .

– من اينساروف هذا ؟ آه ، تذكرت ، اهو الصربي او البلغاري الذي كنت تحدثني عنه ؟ اهو هذا المناضل ؟ العله هو الذي اوحى لك بكل هذه الافكار الفلسفية ؟

– ربما .

– اتراه شخصاً فريداً ؟

– نعم .

– ذكي ؟ موهوب ؟
– ذكي ؟ . . نعم . موهوب ؟ لا ادري . لا اظن .
– لا ؟ فماذا فيه ملفت للنظر ؟
– ستراه . والآن ، اعتقد ان علينا ان نذهب . آنا فاسيليفنا في انتظارنا ، على ما اظن . كم الساعة ؟
– الثالثة . لنذهب . ما اكتم الهواء ! ان هذا الحديث أجج كل دمي . كما انك تجلّيت ايضاً . . . وليس دون طائل انني فنان . الحظ كل شيء . اعترف بان امراة تشغلك ، اليس كذلك ؟
واراد شوبين ان ينظر الى وجه بيرسينيف ، الا ان هذا اشاح بوجهه ، وخرج من تحت شجرة الزيزفون . تبعه شوبين ، منقلاً قدميه الصغيرتين بتراخ ورشاقة . كان بيرسينيف يمشي مشية ثقيلة ، يرفع كتفيه عالياً اثناء سيره ، ويمد رقبته ، ومع ذلك فقد بدا اكثر «استقامة» من شوبين ، وكان من الممكن ان نقول اكثر جنتلمانية ، لو لم تبتذل هذه الكلمة عندنا كثيراً .

٢

نزل الشابان الى نهر موسكو ، وسارا بمحاذاة الشاطئ . كانت النداوة تهب من النهر ، وطرطشة الامواج الصغيرة تداعب السمع . انشأ شوبين يقول :
– كنت سأسبح مرة اخرى ، ولكني اخشى ان اتأخر . انظر الى النهر ، فكأنه يغمز لنا غاوياً . لو ان الاغريق القدامى كانوا هنا لرأوا فيه حورية ، ولكننا لسنا اغريقاً ، يا حورية ! نحن سكيفيون غلاظ الجلود .
قال بيرسينيف :
– عندنا ما يقابلها . . . حورية الماء .
– اف منك ومن حورياتك ! ما الذي تجديني ، انا النحات ، هذه ، سعلاة * الخيال المذعور البارد ، هذه الأطياف المولودة في كوخ ريفي مكتوم الهواء ، في عتمة ليالي الشتاء ؟ انا بحاجة الى

* السعلاة : حيوان خرافي يثير الفزع . **المترجم** .

النور ، الى الرحابة . . . اوه ، يا الهي ، متى ساسافر الى ايطاليا ؟ متى . . .
– يعني تريد ان تقول الى اوكرانيا ؟
– اخجل من نفسك ، يا اندريه بيتروفيتش على تعييري بحماقة طائشة ، انا بدون ذلك نادم عليها ندامة مرة . حسناً ، لقد تصرفت كالاحمق ، حين اعطتني آنا فاسيليفنا الفائقة الطيبة نقوداً لاسافر إلى ايطاليا ، فسافرت إلى الاوكرانيين ، لآكل اللقم الاوكرانية و . . .
قاطعه بيرسينيف :
– لا تكمّل كلامك ، ارجوك .
– ولكني اقول ان هذه النقود لم تنفق هباء . فقد رأيت هناك نماذج من الناس ، ولاسيما من النساء . . . بالطبع ، انا اعرف ان لا خلاص خارج ايطاليا .
قال بيرسينيف دون ان يلتفت اليه :
– تذهب الى ايطاليا ، ولا تقوم بشيء . مجرد ان تخفق بجناحيك ، ولا تطير . نحن نعرفك !
– ستافاسير (٥) طار . . . وليس هو الوحيد في ذلك . . . اذا كنت لا اطير ، فانا بطريق بحري ، بلا اجنحة – ثم مضى قائلاً – انا اختنق هنا ، اريد ان اسافر الى ايطاليا . فهناك الشمس ، هناك الجمال . . .
في تلك اللحظة ظهرت في الدرب الذي يسيران فيه فتاة في مقتبل العمر ، ترتدي قبعة عريضة من القش ، وعلى كتفها مظلة وردية .
هتف شوبين فجأة ، وهو يلوح بقبعته في حركة مسرحية :
– اوه ، ماذا ارى ؟ وهنا ايضاً يأتي الجمال للقيانا . تحية فنان خاشع للفاتنة زويا .
توقفت الفتاة التي خاطبها بهذه الكلمات ، وهددته باصبعها ، وتركت كلا الصديقين يقتربان منها ، وقالت بصوت صدّاح مع شيء من اللثغة :
– لماذا لا تأتيان الى الغداء ، يا سادة ؟ المائدة جاهزة .
قال شوبين ثانياً ذراعيه :
– ما هذا الذي اسمعه ؟ هل معقول أنك ، زويا الفاتنة ، عزمت

على الخروج في مثل هذا الحر لتبحثي عنا ؟ اهكذا يجب ان افهم معنى كلامك ؟ قولي ، معقول ؟ او ، لا ، الافضل ان لا تنطقي بهذه الكلمة . ستقتلني الندامة في الحال .

قالت الفتاة دون ان يخلو كلامها من الضيق :

— اوه ، كفّ عن ذلك ، بافل ياكوفليفيتش . لماذا لا تتحدث معي بجدية ابداً ؟ سازعل .

اضافت بحركة غنجة من جسمها ، ومطت شفتيها .

— لا تزعلي عليّ ، يا زويا نيكيتيشنا المثلى . فانت لا تريدين ان ترميني في الهاوية الكئيبة من الياس المسعور . اما الكلام الجدي فلا اجيده ، لانني لست رجلاً جدياً .

هزّت الفتاة كتفيها ، وتوجهت الى بيرسينيف قائلة :

— انه دائماً بهذا الشكل . يعاملني كما يعامل طفلاً ، بينما تخطيت انا الثامنة عشرة . انا الآن كبيرة .

— اه ، يا الهي !

توجع شوبين ، مقلباً عينيه الى الأعلى . وكشّر بيرسينيف عن ابتسامة قصيرة في صمت .

ضربت الفتاة الارض بقدمها . ومضت تقول :

— بافل ياكوفليفيتش ! سازعل ! ارادت Helène ان تذهب معي ، ولكنها بقيت في الحديقة . خافت من الحر ، ولكنني لم اخف منه . هيّا لنذهب .

وسارت في الدرب في المقدمة ، تميس قليلاً بقدها الممشوق في كل خطوة ، وتزيح عن وجهها خصلات شعرها الناعمة الطويلة بيدها الحلوة المقفّزة بقفاز غير مصبّغ .

سار الصديقان في اثرها (كان شوبين تارة يضغط يديه على قلبه بصمت ، وتارة يرفعهما اعلى من راسه) . وبعد لحظات وجدا انفسهما امام احد البيوت الريفية العديدة المحيطة بكونتسوفو . كان هذا البيت الخشبي الصغير ذو العُلية والمطلي بالطلاء الوردي يقع وسط حديقة ، ويطل من وراء خضرة الاشجار في شيء من السذاجة . كانت زويا اول مَنْ فتح باب الحديقة . وركضت في الحديقة ، وراحت تصيح : «جئت بالأفاقين !» . نهضت من مسطبة قرب الممر فتاة في ريعان الشباب ذات وجه شاحب معبّر ، وظهرت

على عتبة البيت إمراة في ثوب حريري ليلقي ، ورفعت منديلاً مطرزاً من القماش القطني فوق راسها إتقاء الشمس ، وابتسمت بونى وفتور .

٣

كانت آنا فاسيليفنا ستاخوفا (الملقبة بشوبينا ، قبل زواجها) قد تيتمت من والديها ، وهي في السابعة من العمر ، وورثت ضيعة على قدر كاف من السعة . وكان لها اقارب اثرياء جداً ، وفقراء جداً . الفقراء من ابيها ، والاغنياء من امها : الشيخ فولغين ، وامراء آل تشيكوراسوف . وقد وضعها الامير اردالیون تشيكوراسوف الذي صار وصياً عليها ، في احسن مدرسة داخلية في موسكو ، وبعد تخرجها من المدرسة ، اخذها لتعيش في بيته . وكان يعيش حياة غير مغلقة ، ويقيم حفلات راقصة في الشتاء . وقد استمالها نيقولاي ارتيميفيتش ستاخوف ، زوجها المقبل ، في واحدة من هذه الحفلات ، حين كانت «في ثوب وردي فاتن بغطاء الراس من الورود الصغيرة» . وقد احتفظت بهذا الغطاء . . . ونيقولاي ارتيميفيتش ستاخوف هو ابن رائد متقاعد جرح في عام ١٨١٢ ، وحصل على وظيفة مربحة في بطرسبورغ . وقد دخل الابن ، وهو في السادسة عشرة ، في مدرسة عسكرية ، وتخرج ضابط حرس . كان وسيم الطلعة ، حسن البنيان ، يكاد يكون الفارس الاول في حفلات الطبقة المتوسطة التي كان يشهدها في الغالب . اما المجتمع الراقي فلم يكن له سبيل اليه . وكانت له امنيتان منذ شبابه : ان يكون ضابط حاشية ، وان يتزوج زواجاً مربحاً . وسرعان ما تخلى عن امنيته الاولى ، الا انه تشبث اكثر في امنيته الثانية . وتبعاً لذلك كان يسافر في كل شتاء الى موسكو . كان نيقولاي ارتيميفيتش يتكلم الفرنسية بشكل لا بأس به ، واشتهر بانه فيلسوف ، لانه لم يكن يشترك في موائد الخمور . وصار ، وهو ما يزال برتبة ملازم ، يحب ان يجادل بحماس ، مثلاً ، هل في استطاعة الانسان ، ان يطوف الكرة الارضية خلال عمره كله ، وهل يقدر ان يعرف ماذا يجري في قاع البحر . وكان دائماً يجيب بالنفي .

كان نيقولاي ارتيميفيتش قد تخطى الخامسة والعشرين حين

«تعلّق» بآنا فاسيليفنا . وقد تقاعد عن الخدمة ، وسافر الى الريف ليدير شؤون الضيعة . وسرعان ما سئم حياة القرية ، فاعطى الضيعة الى الفلاحين باللزمة ، واقام في موسكو ، في بيت زوجته . في صباه لم يكن قد اشترك في لعبة ورق ، ولكن ولع في موسكو باليانصيب ، وحين أُلغي اليانصيب ، اغرم بلعبة الورق . وكان يسأم في البيت ، وصارت له علاقة مع ارملة من اصل الماني ، وصار يقضي معها اوقاته كلها تقريباً . وفي صيف ١٨٥٣ لم ينتقل الى كونتسوفو ، بل بقي في موسكو ، ليتعاطى المياه المعدنية ، على حد زعمه ، بينما اراد ، في الحقيقة ، ان يظل مع صاحبته الارملة . وعلى اية حال ، كان يتكلم قليلاً معها ايضاً ، ويجادل اكثر عما اذا كان في مستطاع الانسان ان يتنبأ بالطقس الى غير ذلك . وذات مرة سماه أحد الناس * Frondeur ، فراق له هذا اللقب كثيراً . كان يفكر مُرخياً طرفي شفتيه في رضى عن النفس هازاً جذعه : «نعم ، ليس من السهل ارضائي ، ولا سبيل الى خداعي» . وكان اعتراض نيقولاي ارتيميفيتش يتمثل في انه اذا سمع ، على سبيل المثال ، كلمة «اعصاب» ، فانه سيقول : «اي شيء هذه الاعصاب ؟» واذا ذكر احد في حضوره نجاحات الفلـــك ، قال : «وهل تصدقون بالفلك ؟» . وحين كان يريد دحر الخصم كلياً كان يقول : «كل هذه مجرد اقوال» . ولا بد من الاعتراف بان الكثيرين كانوا (وما يزالون حتى الآن) يرون هذا اللون من الاعتراض لا يمكن ان يُدحض . ولكن نيقولاي ارتيميفيتش لم يكن يظن ان افغوستينا خريستيانوفنا كانت تسميه في رسائلها الى ابنة عمها فيودوليندا بيترزيليوس بـ«Mein Pinselchen» ** .

كانت آنا فاسيليفنا ، زوجة نيقولاي ارتيميفيتش إمرأة صغيرة الجسم نحيلة دقيقة القسمات ، ميّالة الى الانفعال والاكتئاب . كانت في المدرسة الداخلية تدرس الموسيقى ، وتقرأ الروايات ، ثم تركت كل ذلك . وصارت تتأنق في ملابسها ، وحتى هذا تركته ، وانشغلت بتربية ابنتها ، الا انها وهنت ، فسلمتها الى يدي مربية وانتهى بها المطاف الى ان تنقطع الى الاكتئاب والانفعال الهادئ ، ولا شيء

* الوعق المعترض (بالفرنسية اصلاً) .
** احمقي (بالالمانية في الاصل) .

آخر . اضرّت ولادتها ليلينا نيقولايفنا بصحتها ، ولم تعد قادرة على انجاب اولاد آخرين . وكان نيقولاي ارتيميفيتش يلمح الى ذلك مبرراً علاقته بافغوستينا خريستيانوفنا . كانت خيانة الزوج تُحزن آنا فاسيليفنا كثيراً ، وقد آلمها بشكل خاص انه اهدى ، ذات مرة ، لصاحبته الالمانية بالخديعة حصانين رماديين من حظيرتها ، حظيرة آنا فاسيليفنا . لم تكن تعاتبه وجهاً لوجه قط ، ولكنها كانت تشكوه ، خفية ، الى اهل بيتها واحداً واحداً ، وحتى لابنتها . وكانت آنا فاسيليفنا لا تحب الخروج من البيت ، وكان يطيب لها ان يكون لديها ضيف يروي لها شيئاً ، وكانت الوحدة تسلمها إلى المرض في الحال . كان قلبها رقيقاً يحب الناس كثيراً ، ولكن الحياة سرعان ما طحنتها .

كان بافل ياكوفليفيتش شوبين ابن عمها الاكبر . وكان ابوه يعمل في وظيفة في موسكو ، واخواه يدرسان في مدرسة عسكرية . وكان هو اصغرهم ، والمفضّل لدى امه ، وكان هزيل البنية فبقي في البيت . وكان الاهل يودون لو يدخل الى الجامعة ، ويجدون عسراً في توفير متطلبات دراسته الثانوية . وكان قد اظهر ، منذ صغره ، ميلاً الى النحت . وذات مرة ، رأى الشيخ فولغين ، الضخم البنية ، تمثالاً صغيراً لدى عمته (كان آنذاك في السادسة عشرة) فاعلن انه ينوي ان يشمل هذا النابغ الشاب برعايته . وقد غيّرت وفاة ابي شوبين المفاجئة كل مستقبل ابنه الشاب او كادت . اهدى له الشيخ راعي المواهب ، تمثالاً نصفياً من الجبس لهوميروس ، ولا اكثر . ولكن آنا فاسيليفنا اعانته بالنقود ، فدُبّر ، على نحو ما ، امر دخوله الى كلية الطب ، في الجامعة وهو في التاسعة عشرة . وكان بافـــل لا يحس اي ميل الى الطب ، ولكن كان من المستحيل حســب عدد الطلاب الموجــود آنذاك التحاقــه في كلية اخرى ، وفي الوقت ذاته كان يأمل بان يدرس التشريـــح . ولكنه لم يتعلم التشريح ، ولم ينجح الى السنـــة الثانية ، وخرج من الجامعـــة دون ان ينتظر الامتحان ، يتفرغ كلياً الى مهمتـــه . فعمل بدأب ، ولكن على فترات . وراح يتجول في ضواحـــي موسكو ، ويصيغ ويرسم الصور الشخصية للفلاحات الشابات ، ويلتقـــي باناس مختلفين ، شباناً وشيوخاً من ذوي المراتب العالية والواطئة ومع المقوّلبين الايطاليين ، والفنانين الروس ، وكان يرفض

الاكاديمية ، ولا يعترف باي استاذ . وكان لا يخلو من موهبة ، فصار الناس يعرفونه في موسكو . وكانت امه ، وهي امراة طيبة ذكية وباريسية المولد من عائلة معتبرة ، قد علمته اللغة الفرنسية ، واهتمت به ، واخذت ترعاه ليل نهار ، وتفتخر به ، ولدى احتضارها ، وهي لم تودع الشباب بعد ، متأثرة بمرض السل رجت آنا فاسيليفنا ان تضمه اليها وتاخذ بزمامه . وكان هو آنذاك في الحادية والعشرين . ونفذت آنا فاسيليفنا رغبة الام الاخيرة . فصار بافل يحتل غرفة صغيرة في ملحق بيتها الريفي .

٤

قالت ربة البيت بصوت مشفق :

— لنذهب الى الغداء ، لنذهب — واتجه الجميع الى غرفة الطعام ، ومضت آنا فاسيليفنا تقول — اجلسي بقربي Zoé ، اما انت يا Helène فداري الضيف ، وانت يا Paul ، ارجوك لا تشاكس ، ولا تناكد Zoé . راسي يوجعني اليوم .

قلّب شوبين عينيه صوب السماء ثانية ، فردت عليه Zoé بشبه ابتسامة . و Zoé هذه ، او بعبارة اصح ، زويا نيكيتشنا ميولر فتاة روسية ، المانية الاصل حلوة ، حولاء قليلاً ، ذات انف صغير عريض المنخرين ، وشفتين صغيرتين حمراوين ، شقراء الشعر ، ممتلئة الجسم . كانت تغني اغاني الرومانس الروسية بطريقة لا بأس بها ، وتعزف على البيانو بسلامة معزوفات مختلفة مرحة تارة ، ومؤثرة تارة اخرى . وكانت تختار ملابسها بذوق ، ولكن بشيء من الطفولية ، وبعناية مفرطة . اخذتها آنا فاسيليفنا كمرافقة لابنتها ، وابقتها قريبة الى نفسها على الدوام تقريباً . ولم تنشك يلينا من ذلك . وحين يصدف ان تخلو الى زويا كانت لا تعرف قطعاً عم تتحدث معها .

استمر الغداء وقتاً طويلاً ، وصار بيرسينيف يتحدث مع يلينا عن الحياة الجامعية ، وعن نواياه وآماله . وكان شوبين يستمع ويلازم الصمت ، وياكل بنهم مبالغ فيه ، ملقياً ، من حين لآخر نظرات جزعة بشكل فكاهي ، الى زويا التي كانت ترد عليه بنفس الابتسامة الفاترة . وبعد الغداء خرجت يلينا مع بيرسينيف وشوبين

الى الحديقة . شيعتهم زويا بنظراتها ، وقد هزّت كتفيها قليلاً ، وجلست الى البيانو . اخذت آنا فاسيليفنا تقول : «لماذا لا تتمشين انت ايضاً ؟» إلا انها اضافت ، دون ان تنتظر الجواب : «اعزفي لي شيئاً مشجياً . . .»

سألت زويا : — « La dernière pensée » de Weber? *

— آه ، نعم فيبر .

قالت آنا فاسيليفنا ، وقعدت على الكرسي ، واطلت الدمعة على رموشها .

وخلال ذلك قادت يلينا الصديقين الى تعريشة من الاقاصيا توسطها طاولة خشبية حولها مساطب . تلفت شوبين فيما حوله ، وقفز عدة مرات ، وقال همساً : «انتظرا قليلاً» ، وركض الى حجرته ، وجاء بقطعة من الطين،واخذ يعجن تمثالاً لزويا ، وهو يهز راسه ، ويغمغم ، ويضحك .

— عاد الى مزحته القديمة .

قالت يلينا ، بعد ان نظرت الى ما يفعله ، مخاطبة بيرسينيف الذي كانت تتابع معه الحديث الذي بدئ على مائدة الغداء .

كرر شوبين :

— مزحته القديمة . موضوع لا ينضب ابداً . اليوم بشكل خاص تحرق الاعصاب .

سألت يلينا :

— ولماذا ؟ كانك تتكلم عن عجوز مزعجة خبيثة . إنها فتاة حلوة في ريعان الشباب . . .

قاطعها شوبين :

— حلوة ، بالطبع ، وحلوة جداً . انا واثق من ان اي عابر سبيل ينظر اليها ، لا بد ان يفكر : هذه هي الفتاة التي تحلو معها . . . رقصة «البولكا» . كما انني واثق من انها تعرف ذلك ، وتستلذ به . . . لِمَ هذه الحركات المخجلة ، هذا التواضع الزائف ؟ طيب ، انتما تعرفان ما اريد ان اقوله . — اضاف من خلل اسنانه — على العموم ، انتما الآن مشغولان بشيء آخر .

---

* «الفكرة الاخيرة» لفيبر (بالفرنسية في الاصل) .

خرّب شوبين تمثال زويا ، واخذ يعجن الطين ويدعكه بعجالة ، وكان ذلك عن انزعاج .

سالت يلينا بيرسينيف :

– اذن ، فانت تود ان تكون استاذاً ؟

– نعم – ردّ هذا ، ضاغطاً يديه الحمراوين بين ركبتيه – هذه اُمنيتي المفضلة . بالطبع انا اعرف جيداً كل ما ينقصني لاستجيب لمتطلبات هذا المرام الرفيع . . . اريد ان اقول انا قليل التاهل للغاية ، ولكن آمل في الحصول على السماح بالسفر للخارج . واقيم هناك ثلاث او اربع سنوات ، اذا اقتضى الامر ، وعندئذ . . .

وتوقف ، واطرق ببصره ، ثم رفع عينيه بسرعة ، وعدّل شعره ، مبتسماً بحراجة . وكان بيرسينيف حين يتكلم مع امراة ، يصير كلامه ابطا من ذي قبل ، واكثر تلفظاً بحرف السين .

سالت يلينا :

– اتريد ان تكون استاذ التاريخ ؟

– نعم ، او الفلسفة – واضاف مخفضاً صوته – اذا كان ذلك ممكناً .

– انه منذ الآن قوي في الفلسفة ، كالشيطان – قال شوبين ، وهو يحز خطوطاً عميقة في الطين باظفره – فما حاجته الى السفر للخارج ؟

سالت يلينا ، وقد ارتفقت على كوعها ، وراحت تنظر في وجهه :

– وستكون راضياً تماماً عن وضعك ؟

– تماماً ، يلينا نيقولايفنا ، تماماً . فاي شيء يمكن ان يكون ارفع من هذه الرسالة ؟ السير على خطـــا تيمرفي نيقولايفيتش (٦) . . . مجرد التفكير في مثل هذه الممارســـة يملؤني حبوراً وخجلاً ، – نعم . . . خجلاً من ادراكي لصغر قابلياتي . ابي المرحوم باركني على هذا الامر . . . انا لن انسى ابداً كلماته الاخيرة .

– ابوك توفي في شتاء هذا العام ؟

– نعم ، يلينا نيقولايفنا ، في شباط .

فمضت يلينا تقول :

– يقال انه ترك مخطوطة مؤلف عظيم ، اهذا صحيح ؟

– نعم ، صحيح . لقد كان رجلاً رائعاً ، كنت ستحبينه لو كنت تعرفينه ، يلينا نيقولايفنا .

– انا واثقة من ذلك . وما هو محتوى هذا المؤلف ؟

– هناك بعض الصعوبة في تقديم محتوى هذا المؤلف لك بكلمات قليلة . كان ابي رجلاً متعلماً جداً من اتباع شيلينغ (٧) . وكان يستخدم تعابير ليست واضحة دائماً . . .

قاطعته يلينا :

– اندريه بيتروفيتش ، اعذرني على جهلي : ما معنى من اتباع شيلينغ ؟

ابتسم بيرسينيف ابتسامة خفيفة .

– الفيلسوف الالماني شيلينغ ، وكانت تعاليم شيلينغ . . .

وفجاة هتف شوبين :

– اندريه بيتروفيتش ! إكراماً للرب ذاته ! يعني تريد أن تلقي محاضرة على يلينا نيقولايفنا عن شيلينغ ؟ رحماك !

تمتم بيرسينيف واحمرّ :

– ليست محاضرة اطلاقاً ، بل اردت . . .

فاسرعت يلينا تستدركه :

– ولماذا لا محاضرة ؟ انا وانت محتاجان الى محاضرات ، بافل ياكوفليفيتش .

تفرّس شوبين فيها ، وقهقه فجاة .

استفهمت ببرود ، وبحدة تقريباً :

– ولِمَ تضحك ؟

سكت شوبين . وبعد برهة قال :

– طيب ، يكفي . لا تزعلي . انا المقصّر . ولكن مع ذلك ، ما الحاجة الى الكلام عن الفلسفة الآن ، في مثل هذا الطقس ، وتحت هذه الاشجار ؟ الافضل ان نتحدث عن البلابل ، عن الورود ، عن العيون الغضة ، والبسمات .

فاستطردت يلينا قائلة :

– نعم ، وعن الروايات الفرنسية ، وعن الملابس النسائية .

فردّ شوبين :

– وليكن عن الملابس النسائية ، اذا كانت جميلة .

– ممكن ، ولكن اذا كنا لا نريد ان نتحدث عن الملابس ؟ انت

تعتبر نفسك فناناً حراً ، فلماذا تعتدي على حرية الآخرين ؟ ثم اسمح لي ان اسالك لماذا تهاجم زويا اذا كنت تفكر بهذه الطريقة ؟ الحديث عن الملابس وعن الورود يناسبها بشكل خاص .

احتدم شوبين فجأة ، ووثب من على المسطبة . وراح يقول بصوت متهدج :

– هكذا اذن ؟ انا فاهم تلميحك . انت تريدين ان تعيديني اليها ، يلينا نيقولايفنا . يعني انا زائد هنا ، بعبارة اخرى ؟

– لم افكر في ابعادك عن هنا .

فتابع شوبين يقول محتد المزاج :

– انت تريدين ان تقولي انا لا استاهل صحبة اخرى ، وانني لا اصلح الا لها ، فانا فارغ وسخيف ، وتافه ، كتلك الالمانية المعسولة . اليس كذلك ؟

قطبت يلينا حاجبيها . وقالت :

– لم يكن لك فيها هذا الراى دائماً ، يا بافل ياكوفليفيتش .

صاح شوبين :

– اها ! توبيخ ! توبيخ هذه المرة ! طيب ، نعم ، كانت هناك لحظة ، انا لا انكر ، لحظة واحدة فقط، حين كان ذانك الخدان الطريان ، المبتذلان . . . ولكن لو كنت اريد ان ابادلك التوبيخ ، واذكّرك . . . وداعاً – اضاف فجأة – انا مستعد ان اتخبط في الكذب .

وضرب بيده الراس الذي صاغه من الطين ، وخرج راكضاً من التعريشة ، ولاذ في حجرته .

قالت يلينا ، وهي تشيعه بنظرها :

– طفل .

قال بيرسينيف بابتسامة خفيفة :

– فنان . كل الفنانين بهذا الشكل . يجب ان يسامحوا على نزواتهم . هذا من حقهم .

قالت يلينا :

– نعم . ولكن بافل لم يات حتى الآن بشيء يثبت له هذا الحق . ماذا صنع حتى الآن ؟ هات يدك ، ولنتمشى في الدرب المعرّش . قطع بافل علينا حديثنا . كنا نتحدث عن مؤلف والدك .

تناول بيرسينيف يد يلينا ، وسار وراءها في الحديقة ، ولكن

الحديث الذي استهل لم يستانف ، بعد ان قطع مبكراً جداً . عاد بيرسينيف يطرح من جديد تصوراته عن لقب الاستاذية ، وعن نشاطه المقبل . كان يسير جنب يلينا ببطء ، وبخطوات مرتبكة ، ويمسك بيدها غير متمالك حركاته ، يصدمها بكتفه احياناً ، ولم ينظر اليها قط . ولكن كلامه كان يجري بخفة وبطلاقة تامة تقريباً ، وكان يعبر ببساطة وثقة . وكانت عيناه المطوفتان ببطء في جذوع الاشجار ، ورمل الدرب والعشب ، تشعان بالرقة الهادئة للمشاعر النبيلة ، وصوته المطمئن يفصح عن فرحة انسان يدرك ان التوفيق يحالفه في الاعراب عن نفسه امام شخص آخر عزيز عليه . وكانت يلينا تصغي اليه بانتباه ، وقد ادارت جسمها نحوه نصف استدارة ، ولم تصرف بصرها عن وجهه الشاحب قليلاً ، وعن عينيه الودودتين الوديعتين ، المتحاشيتين في الوقت ذاته ، الالتقاء بعينيها . وكانت روحها تتفتح ، وتشعر بشيء رقيق عادل وطيب ينصب في قلبها ، او يتنامى فيه .

٥

ظل شوبين معتكفاً في حجرته حتى الليل . احلولك الظلام تماماً . وكان الهلال عالياً في السماء . وكانت المجرّة قد طلعت ، والنجوم شرعت تتوامض ، حين ودّع بيرسينيف آنا فاسيليفنا ، ويلينا ، وزويا ، وتقدّم من باب حجرة صديقه . وجد الباب مغلقاً ، فأخذ يطرقه . فصدر صوت شوبين :

– مَنْ هناك ؟

اجاب بيرسينيف :

– انا .

– ماذا تريد ؟

– بافل ، دعني ادخل ، لا تشاكس . كيف لا تخجل ؟

– انا لا اشاكس . انا نائم واحلم بزويا .

– كفى ، ارجوك . لستَ طفلاً . دعني ادخل ، اريد ان اتحدث اليك .

– الم تشبع بعدُ حديثاً مع يلينا ؟



– يكفي ، يكفي ، دعني ادخل !

ردّ شوبين بشخير مصطنع . هزّ بيرسينيف كتفيه ، وسار الى البيت .

كانت الليلة دافئة وساكنة سكوناً غير عادي وكان كل ما فيها يتسمع ويتربص . وكان بيرسينيف الذي شمله الظلام الساكن يتوقف دون ارادته ويتسمع ويتربص . وكان الحفيف الخافت الشبيه برفيف ثوب نسائي يرتفـع من حين الى آخر في ذرى الاشجار القريبة ، ويثير في نفس بيرسينيف احساساً حلـواً ومتوجساً ، احساساً في منتصف الطريق الى الرهبة . سرى دبيب القشعريرة على خديه ، وتثلّجت عيناه بدمعة خاطفة . فقد كان يود لو انـه يسير بلا صوت تماماً ، يتخبأ ، ينسل انسلالاً . مرّت خفقة ريح حادة على جنبه ، فكاد يجفل ، وجمد في مكانه . وقعت خنفسـاء ناعسة من على غصن ، وارتطمت في الطريق . صاح بيرسينيف بخفوت : «ها !» وتوقف مرة اخرى . ولكنه شرع يفكر في يلينا ، فاختفت كل هذه الاحاسيس العابرة دفعة واحدة . ولم يبـق الا الوقع المنعش لطراوة الليل ، لنزهة ليلية . وامتلأت روحه كلها بصورة الفتاة . سار بيرسينيف مطرق الراس ، وراح يسترجع في ذاكرته كلماتها واسئلتها . وخيل اليه انه يسمع وقع خطوات سريعة خلفه . ارهف سمعه . كان شخص يجري ، ليلحـق به . ترددت انفاس متلاحقة ، وفجأة طلع شوبين امامه من دائرة الظل السوداء لشجرة كبيرة ، حاسر الراس ، منفوش الشعر ، ممتقعاً بكليته في ضوء القمر . وراح يقول بصعوبة :

– انا مسرور لأنك سلكت هذا الطريق . لو لم الحق بك لبقيت مسهداً طوال الليل . اعطني يدك . انت ذاهب الى البيت ، أليس كذلك ؟

– نعم .

– سأرافقك .

– ولكن كيف تسير حاسر الراس ؟

– لا بأس . وخلعت ربطة عنقي ايضاً . الجو دافئ الآن .

قطع الصديقان عدة خطوات . وسأل شوبين فجأة :

– كنتُ اليوم شديد الحماقة . أليس صحيحاً ؟

– نعم ، بصريح العبارة . لم استطع ان افهمك . انا لم ارك

بهذا الشكل قط . يا الله . ما الذي جعلك تغضب ! من اجل مثل هذه التوافه ؟

غمغم شوبين :

– حم . هذه طريقتك في التعبير ، ولكن هذه ليست توافه بالنسبة لي . اسمع – اضاف قائلاً – يجب ان انبهك الى اني . . . اني . . . ولك ان تظن بي ما تشاء . . انا . . اي ، نعم . . انا مغرم بيلينا .

– مغرم بيلينا !

كرر بيرسينيف ، وتوقف . فمضى شوبين يقول متصنعاً عدم المبالاة :

– نعم . وهل يدهشك ذلك ؟ ساقول لك اكثر من هذا . انني ، حتى هذا المساء ، كنت آمل بانها ستحبني ، هي الاخرى ، مع مرور الزمن . ولكن اليوم اقتنعت بان امنياتي خائبة ، اذ انها احبت شخصاً آخر .

– شخصاً آخر ؟ من هو ؟

– مَنْ ؟ احبتك انت !

صاح شوبين ، وضرب بيرسينيف على كتفه .

– احبتني !

كرر شوبين :

– احبتك .

تراجع بيرسينيف خطوة . وجمد بلا حراك . امعن شوبين النظر فيه بحدة .

– ويدهشك هذا ، ايضاً ؟ انت فتى متواضع . ولكنها تحبك . وفي وسعك ان تطمئن بهذا الخصوص .

قال بيرسينيف اخيراً في ضيق :

– اي هراء تقول !

– لا ، ليس هراء . على العموم ، لماذا نحن واقفان ؟ لنواصل السير . المشي اخف على النفس . انا اعرفها منذ زمان ، واعرفها بشكل جيد . ولا يمكن ان اخطأ . وقعت في قلبها موقعاً حسناً . في وقت ما كانت معجبة بي ، ولكنني اولاً شاب طائش جداً بالنسبة لها بينما انت مخلوق جدي ، انت شخصية نظيفة خلقياً وجسدياً ، انت . . . انتظر ، انا لم اكمل ، انت متحمس معتدل نقي الضمير

ممثل حقيقي لكهنة العلم الذين تنفر بهم عن حق طبقة النبلاء الروس المتوسطي الحال ! وثانياً ، رأتني يلينا ، قبل ايام ، اقبل يد زويا .

– يد زويا ؟

– نعم ، يد زويا . فماذا تأمر أن افعل ؟ كتفاها جميلتان .

– كتفاها ؟

– نعم ، كتفاها ، يداها ، هل هناك فرق ؟ وجدتني يلينا وسط هذه الممارسات الحرة بعد الغداء ، بينما كنت قبل الغداء اشتم زويا بحضورها . ويلينا ، مع الاسف ، لا تفهم كل مثل هذه التناقضات الطبيعية . واذا بك تظهر هنا ، انت مثالي وتؤمن . . . على فكرة ، باي شيء تؤمن ؟ . . تحمر ، وترتبك ، وتتحدث عن شيللر (٨) ، عن شيلينغ (وهي دائماً تبحث عن الناس المرموقين) فصار النصر حليفك ، بينما أنا ، التعيس ، احاول ان امزح . . . و . . . في غضون ذلك . . .

وانفجر شوبين بالبكاء فجأة ، وانتحى جانباً ، وجلس على الارض ، وانشب اصابعه في شعره .

اقترب بيرسينيف منه . وقال :

– بافل . ما هذه الطفولية ؟ رحماك ! ماذا بك اليوم ؟ الله يعلم اية سخافة دارت في رأسك ، وتبكي ايضاً . في الحقيقة يبدو لي انك تتظاهر .

رفع شوبين رأسه . والتمعت الدموع على خديه في ضوء القمر ، ولكن وجهه كان يبتسم . قال :

– اندريه بيتروفيتش ، تستطيع ان تظن بي ما تشاء . بل ويمكن ان اوافق على انني الآن في حالة هستيريا ، ولكنني اعشق يلينا ، قسماً بالله ، ويلينا تحبك . على العموم ، وعدتك بأن ارافقك الى البيت ، وسأفي بوعدي .

ونهض .

– ما اروع الليل ! فضياً ، داجياً ، فتياً ! ما اطيب الوقت الآن للمحبوبين ! وما ابهج سهرهم ! هل ستنام ، يا اندريه بيتروفيتش ؟

لم يجب بيرسينيف ، وغذ خطاه . ومضى شوبين يقول :

– الى اين تستعجل ؟ صدق بكلامي ، لن تتكرر مثل هذه

الليلة في حياتك ، بينما ليس في انتظارك في البيت غير شيلينغ . حقاً انه قدم لك خدمة اليوم ، ولكن لا تستعجل ، على اية حال . غنِّ ، اذا كنت تحسن الغناء ، وغنِّ بصوت اعلى ، اذا كنت لا تحسنه : اخلع قبعتك ، وادفع رأسك الى الوراء ، وابتسم للنجوم . انها جميعاً تصوب انظارها اليك ، واليك وحدك . النجوم لا تفعل شيئاً غير النظر الى العشاق ، ولهذا السبب نراها بهذه الفتنة . انت عاشق . يا اندريه بيتروفيتش ، اليس كذلك ؟ لا تجيبني . . . لماذا لا تجيبني ؟ – وعاد شوبين يقول – اوه ، لو كنت تشعر بأنك سعيد ، فاصمت ، اصمت ! انا اثرثر ، لانني عاثر الحظ ، غير محبوب ، حاوٍ ، ممثل ، بهلوان ، ولكن اي سرور صامت كنت سأشعر به في هذه النسائم الليلية ، تحت هذه النجوم ، تحت احجار الالماس هذه ، لو كنت اعرف أنني محبوب ! . . بيرسينيف ، هل انت سعيد ؟

ظل بيرسينيف على صمته ، يسير بسرعة في الطريق المستوية . والى الامام كانت انوار القرية التي يعيش فيها تتوامض من خَلَل الاشجار . وكانت القرية كلها مؤلفة من عشرة بيوت ريفية صغيرة . وفي بداية القرية تماماً ، الى يمين الطريق ، تحت شجرتي البتولا كثيرتي الفروع كان الحانوت الصغير قد اغلق كل نوافذه ، ولكن شريطاً عريضاً من النور كان يرتمي كالمروحة من بابه المفتوح ، على العشب المسحوق بالاقدام ، ويسقط في الاعلى على الشجرتين ، مضيئاً بقوة بطون اوراقهما المتكاثفة الضاربة الى بياض . وكان ثمة فتاة ، خادمة كما يدل مظهرها ، تقف في الحانوت مديرة ظهرها الى العتبة ، تماكس صاحب الحانوت . وكان خدها المدوَّر وعنقها الرقيق لا يكادان يبدوان من تحت المنديل الاحمر الذي القته على رأسها ، واسندته بيدها العارية عند الذقن . دخل الشابان شريط الضوء . نظر شوبين داخل الحانوت ، وتوقف ، وهتف : «آنوشكا !» التفتت الفتاة بخفة ، ولاح وجه حلو المحيّا عريض قليلاً ، ولكنه غض ذو عينين بنيتين مرحتين ، وحاجبين اسودين . كرر شوبين : «آنوشكا !» امعنت الفتاة النظر فيه ، وارتعبت ، وعلاها الخفر ، ونزلت من درجات مدخل الحانوت ، دون ان تكمل شراءها ، وانسلت مارة بهما بخفة ، وعبرت الطريق الى اليسار ، متلفتة قليلاً . تنحنح الحانوتي ، وتثاءب في اثرها . وكان رجلاً مترهلاً لا يكترث لأي

شيء في الدنيا ، مثل جميع اصحاب الحوانيت الصغار في الضواحي .

بينما خاطب شوبين بيرسينيف بهذه الكلمات : «ها . . . ها انت ترى . . . عندي عائلة اعرفها هنا . . . كما هو عندهم . . . لا يذهب بك الظن . . .» وركض وراء الفتاة المبتعدة دون ان يكمل كلامه .

صاح بيرسينيف في اثره :

— امسح دموعك ، على الأقل .

ولم يستطع ان يكبح ضحكته . ولكنه ، حين عاد الى بيته ، لم يكن على وجهه اثر للمرح . ولم يضحك بعد . لم يصدق لحظة واحدة بما قاله شوبين له ، ولكن الكلمة التي نطق بها نفذت عميقاً في قلبه ، وفكر مع نفسه : «بافل يستغفلني . . . ولكنها ستحب في وقت ما . . . فمن ستحب ؟»

كان في حجرة بيرسينيف بيانو غير كبير ولا جديد ، ولكن له نبرة ناعمة ولطيفة ، وان لم تكن صافية تماماً . جلس بيرسينيف اليه ، وأخذ يضرب على مفاتيحه . وكان مثل جميع النبلاء الروس قد تعلّم الموسيقى منذ الصغر ، ومثل جميع النبلاء الروس تقريباً كان سيئاً في عزفه الى درجة كبيرة ، ولكنه كان كثير الولع بالموسيقى . في الواقع كان لا يحب في الموسيقى الفن ، ولا تلك الاشكال التي تعبّر بها (كانت السيمفونيا والسوناته بل حتى الاوبرا تسلمه الى الضجر) ، بل كان يحب عفويتها ، يحب تلك الاحاسيس المبهمة واللذيذة ، الهائمة والشمولية التي يثيرها في النفس تآلف الاصوات وتنقلها من درجة الى اخرى . ظل اكثر من ساعة ملازماً البيانو ، مكرراً عدة مرات نفس النغمات ، باحثاً عن نغمات جديدة في غير اتقان ، متوقفاً وجامداً على السباعيات المصغّرة . وكان قلبه يئن ، وعيناه تمتلئان بالدموع غير مرة ، ولم يخجل منها . فقد كان يسكبها في الظلام . ويفكر مع نفسه : «بافل على حق . انا اشعر ان هذا المساء لن يتكرر» . واخيراً وقف ، واشعل الشمعة ، والقى الروب على كتفيه ، وتناول من الرف المجلد الثاني لكتاب «تاريخ اسرة هوغينشتاوفين» لراومر (٩) ، وزفر مرتين او نحوهما ، وانكب على القراءة بدأب .

٦

وفي اثناء ذلك كانت يلينا قد عادت الى غرفتها ، وجلست امام النافذة المفتوحة ، واسندت رأسها على يديها . صارت لها عادة الجلوس الى نافذة غرفتها زهاء ربع ساعة كل مساء . كانت تتحادث مع نفسها في هذا الوقت ، وتراجع ما حصل في اليوم الجاري . قبل حين اتمت العشرين من عمرها . كانت طويلة القامة ، شاحبة الوجه بسمرة ، وعيناها الوسيعتان الرماديتان تحت حاجبين مستديرين كانتا محاطتين بنمش صغير ، وانفها وجبينها مستقيمين تماماً ، وفمها مطبقاً ، وذقنها مستدقاً بدرجة معتبرة . وكانت ضفيرتها الذهبية الداكنة تسرح الى الاسفل من جيدها الرقيق . وكان في كيانها كله ، في تعبير وجهها المنتبه المرتعب قليلاً ، وفي نظرتها الصافية والمتقلبّة في الوقت ذاته ، وفي ابتسامتها المتوترة ، كما تبدو ، وفي صوتها الهادئ ، غير المستوى في نبراته ، شيء عصبي ، منفعل ، شيء مندفع عجول ، وباختصار ، شيء لا يروق لكل الناس ، بل ينفّر بعضهم . وكانت يداها ضيقتين ، ورديتين ، ذواتي اصابع طويلة وكانت قدماها ضيقتين ايضاً . وكانت مشيتها سريعة ، مندفعة تقريباً ، في شيء من الميلان الى الامام . وقد نشأت نشأة غريبة جداً . في البداية كانت تعبد اباها ، وبعد ذلك تعلقت بامها بهيام ، ثم بَرُدَ شعورها نحوهما كليهما ، لاسيما نحو الأب . وفي المدة الاخيرة كانت تعامل امها ، وكأنها جدتها المريضة . وصار ابوها الذي كان يفتخر بها ، حين كانوا يعتبرونها طفلة غير اعتيادية ، يخشاها حين كبرت . وراح يقول عنها انها جمهورية متحمسة ، والله يعلم على مَنْ طلعت ! كان الضعف يضايقها ، والحماقة تغضبها ، والكذب لن تغفره لأحد «ابد الآبدين» . وكانت متطلباتها لا تتراجع امام اي شيء ، وحتى الصلوات كانت تمزجها احياناً بالتقريع . وحالما يفقد الانسان احترامها — وكانت تكوّن رأيها بسرعة ، وفي احيان كثيرة ، بسرعة شديدة جداً — حتى يكف عن الوجود بالنسبة لها ..و كانت كل الانطباعات تلتصق بقلبها بقوة . فالحياة ليست سهلة عليها .

كانت المربية التي عهدت آنا فاسيليفنا اليها اكمال تربية ابنتها — وهذه التربية ، ونضعها بين القوسين ، لم تبدأها السيدة

الضجرة امها ابداً – من الروسيات ، ابنة مرتش قد افلس ، وخريجة معهد ، مخلوقة شديدة الحساسية ، طيبة ، كاذبة . كانت تعشق من حين لآخر ، حتى انتهى بها الأمر الى ان تتزوج ١٨٥٠ (حين دخلت يلينا سنتها الثامنة عشرة) ضابطاً ، هجرها في الحال . وكانت هذه المربية شغوفة جداً بالادب ، تقوم بنظم الشعر ، وهي التي حببت القراءة الى يلينا ، ولكن القراءة لوحدها لم تكن ترضي يلينا ، فقد كانت تتعطش الى العمل والبرّ منذ الطفولة ، وكان المتسولون والجياع والمرضى يشغلون بالها ، ويثيرون قلقها ويسلمونها الى العذاب . كانت تراهم في احلامها ، وتسأل عنهم كل معارفها ، وتقدم الاعانات باهتمام ، وبعظمة لاارادية ، وبانفعال تقريباً . وكان جميع الحيوانات المنبوذة وكلاب الحراسة النحاف ، والقطط المحكومة بالموت ، والعصافير الساقطة من اعشاشها ، وحتى الحشرات والزواحف تجد عند يلينا الرعاية والحماية . كانت تطعمها بنفسها ، ولا تقرف منها . وكانت امها لا تمنعها ، بينما كان ابوها يزعل على ابنته بسبب عاطفيتها المبتذلة ، على حد قوله ، ويؤكد ان البيت مملوء بالكلاب والقطط ، ولا محط لقدم فيه . وكان يصيح عليها احياناً : «لينوتشكا * ، هذا عنكبوت يبتلع ذبابة ، فتعالي بسرعة ، وانقذي الذبابة البائسة !» فكانت لينوتشكا تجري مذعورة تماماً وتحرر الذبابة من شراك العنكبوت وتنظف قوائمها . وكان ابوها يقول متهكماً : «والآن ، دعيها تلسعك ، إذا كنت بهذه الطيبة» . ولكنها لم تكن تصغي اليه . وعندما كانت في العاشرة تعرفت بفتاة متسولة تدعى كاتيا كانت تذهب للقائها في الحديقة سراً ، تجلب لها الاطايب ، وتهدي لها المناديل ، والقطع النقدية من فئة العشرة كوبيكات ، لأن كاتيا لم تكن تأخذ اللعب . كانت تجلس الى جانبها على الارض الصلبة ، في مكان منعزل ، وراء اجمة القرّاص . وتأكل خبزها الناشف بشعور الفرح المستكين ، وتستمع الى حكاياتها . وكانت لكاتيا عمة ، هي عجوز حقود ، كثيراً ما كانت تضربها . وكانت كاتيا تكرهها ، ولا تفتأ تقول انها ستهرب منها وتعيش **طليقة في ارض الله الواسعة** وكانت يلينا تنصت باحترام خفي وذعر الى تلك الكلمات الجديدة التي لم تعهدها من قبل ،

---

* صيغة تدليل من اسم يلينا . **المترجم** .

وتتفرس في كاتيا ، وعند ذاك كان كل شيء فيها ، عيناها السوداوان البريعتان مثل عيني وحش صغير ، ويداها الملوحتان ، وصوتها النحيل الكامد ، وحتى ثوبها الممزق يبدو ليلينا غير عادي وله لون خاص ويكاد ان يكون مقدّساً . وكانت يلينا تعود الى البيت ، وتفكر طويلاً . بعد ذلك ، في المتسولين ، في ارض الله الواسعة ، وتفكر كيف ستقطع لها عصا من شجرة جوز ، وتضع جرابها على كتفها ، وتهرب مع كاتيا ، وكيف ستتضرب في الطرقات ، وعلى راسها اكليل من القنطريون العنبري ، مثل ذلك الذي رأته على كاتيا ذات مرة . وكان اذا دخل احد من اهلها غرفتها ، في ذلك الوقت ، كانت تنكمش ، وتتعبس . وذات مرة هرعت للقيا كاتيا ، والمطر منهمر فتوسخ ثوبها ، ورآها ابوها ، وعيّرها بأنها بنت قذرة ، فلاحة . فصعد الدم الى وجهها ، وجثم على قلبها شعور بالرعب والهناءة . كانت كاتيا كثيراً ما تغني اغنية خشنة من اغاني الجنود . وقد تعلمتها يلينا منها . . . سمعتها آنا فاسيليفنا تغنيها ، فاستولى عليها الغيظ . وسألتها :

– من اين جئت بهذه الوضاعة ؟

فاكتفت يلينا بالنظر الى امها ، ولم تحر جواباً . فقد احست بأن تقطيعها ارباً اهون عليها من البوح بسرها ، وعاد الى قلبها الشعور بالرهبة والعذوبة معاً . وعلى اية حال ، لم تستمر صحبتها لكاتيا طويلاً . فقد اصابت الحمى هذه الفتاة المسكينة ، وتوفيت بعد بضعة ايام .

وعندما سمعت يلينا بوفاة كاتيا افتقدتها كثيراً وتأرق كثيراً في الليل . وظلت آخر كلمات المتسولة ترن في اذنيها بلا انقطاع ، بل وكان يخيل اليها انها تسمع صوتاً يناديها . . .

وتتابعت الاعوام ، ومرّ صبا يلينا سريعاً وغير ملحوظ كالمياه تحت طبقة الجليد ، خاملاً من الخارج ، بينما هو في صراع واضطراب في الداخل . ولم تكن لها صديقات ، فهي لم تصادق واحدة من جميع الفتيات اللاتي كن يترددن على بيت آل ستاخوف . ولم تثقل سلطة الوالدين على يلينا قط ، حتى انها اصبحت ، وهي في السادسة عشرة ، في كامل الاستقلال تقريباً فعاشت حياتها الخاصة لكنها حياة وحيدة ، وكانت نفسها تهفو وتخمد وحيدة . كانت قلقة مثل طائر في القفص وان لم يكن للقفص وجود ، ولم يمنعها احد ، ولكنها

كانت تتحرق شوقاً ، وتتعذب . ولم تكن هي نفسها تفهم احياناً ذاتها ، بل كانت تخاف منها . كان كل شيء يحيط بها يبدو لها فاقد المعنى او غير مفهوم . وكانت تفكر : «كيف ساعيش بدون حب ؟ ولكن لا احد احبه !» فترعبهـا هذه الافكار ، هذه الاحاسيس . وكادت حمى خبيثة ان تودي بها ، وهي في الثامنة عشرة ، وظل كيانها يصارع زمناً طويلاً ، وإن كان معافى وقوياً بطبيعته ، ولكنه هزّ من الاساس . واخيراً اختفت عقابيل الداء . ولكن اباها ما زال يتحدث عن اعصابها بشيء من الحنق . احياناً كان يخطر في ذهنها انها تريد شيئاً لا يريده احد ولا يفكر فيه في كل روسيا . ثم هدأت ، بل وضحكت من نفسها ، وراحت تقضي الأيام خليّة البال ، ولكن شيئاً قوياً لا اسم له ، صار فجأة يغلي في داخلها ، دون ان تقدر على مقاومته ، حتى ليكاد يطفـح الى الخارج . ومرّت العاصفة ، وارتخى جناحاها بتعب قبل ان يطيرا بها ، ولكن هذه العواصـف خلفت اثراً فيها . ومهما حاولت ان تخفي ما كان يجري في داخلها فقد كان الاضطراب والوحشة المعتملة في صدرها تظهر حتى فـي هدوئها الظاهري ، وكان أهلها غالباً ما كانوا على حق ، حين يهزون اكتافهم ، في دهشة ، غير فاهمين سرّ «غرابة اطوارها» .

في اليوم الذي بدأت فيه قصتنا ظلت يلينا ملازمة النافذة اطول من المعتاد . فكرت طويلاً في بيرسينيف ، وفي حديثها معه . لقد راق لها . صدّقت بدفء مشاعره ، ونقاء مقاصده . وكان من قبل لم يتحدث اليها قط كما تحدث في ذلك المساء . تذكرت تعبير عينيه المتهيبتين ، وابتسامته ، وكانت هي الاخرى تبتسم ، وتستغرق في التفكير ، ولكنها لم تعد تفكر فيه . اخذت تحدق «في الليل» من خلال النافذة المفتوحة . وحدقت طويلاً في السماء القاتمة الواطئة . ثم نهضت ، وازاحت شعرها عن وجهها بحركة من راسها ، ودون ان تعرف السبب ، مدّت الى هذه السماء ذراعيها العاريتين المتجمدتين ، ثم اسبلتهما ، وركعت على ركبتيها امام سريرها ، وضغطت وجهها على الوسادة ، وراحت تبكي بدموع غريبة محيّرة لكنها حارقة رغم كل جهودها لكبت العاطفة المسيطرة عليها .

٧

في نحو الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي اتخذ بيرسينيف العربة العائدة الى موسكو . فقد كان بحاجة الى تسلم نقود من البريد ، وشراء بعض الكتب ، كما كان يريد ان ينتهز الفرصة ، ويلتقي بإينساروف ، ويتحدث اليه . فقد عنّ له ، اثناء حديثه الاخير مع شوبين ، ان يدعو إينساروف الى بيته الريفي . الا انه لم يعثر عليه بسرعة ، فقد انتقل اينساروف من شقته القديمة الى شقة لم يكن الوصول اليها سهلاً . كانت تقع في فناء خلفي لبيت آجري قبيح ، شيّد على الطراز البطرسبورغي بين اوبات وشارع بوفارسكيا . راح بيرسينيف ينتقل بدون جدوى من مدخل بيت قذر الى آخر ، ويستفهم عبثاً من بواب تارة ، ومن «مستطرق» تارة اخرى . في بطرسبورغ يحاول البوابون تحاشي نظرات الزائرين ، الا انهم في موسكو اكثر تحاشياً . لم يستجب احد لبيرسينيف ، سوى خياط فضولي ليس عليه غير صدار ، وشلة من الخيوط الرمادية متدلية من كتفه ، اطلّ صامتاً من فتحة شباكه العالية ، بوجهه الكابي غير الحليق وعينه المكدومة ، وسوى ماعز اسود بلا قرون التفت اليه ، وهو فوق كومة من الزبالة ، وارسل ثغاء شاكياً ، وصار يجتر طعامه اسرع من ذي قبل . واخيراً اشفقت على بيرسينيف امراة في معطف قديـم وحذاء بالٍ ، واشارت لـه الى شقة اينساروف . وجده بيرسينيف في البيت . وكان اينساروف يستأجر غرفة من نفس الخياط الذي نظر من فتحة الشباك في كثير مـن اللامبالاة الى ورطة رجل ضائع ، وهي غرفة كبيرة تكاد تكون فارغة ، ذات جدران خضراء داكنة ، وثلاث نوافذ مربعة ، فيها سرير صغير موضوع في ركن ، واريكة جلدية في ركن آخر ، وقفص ضخم متدل قرب السقف تماماً ، كان مأوى لبلبل في وقت ما . وحالما اجتاز بيرسينيف عتبة الباب ، حتى اقبل اينساروف للقائه ، ولكنه لم يهتف : «أها ، هذا انت !» او : «اوه ، يا إلهي ! اية مصادفة ؟» بل لم يقل حتى «مرحباً» ، بل شدّ على يده فقط ، وقاده الى المقعد الوحيد الموجود في الغرفة . وقال له :

— اجلس .

وجلس هو على حافة الطاولة . واضاف اينساروف وهو يشير الى تل من الاوراق والكتب على الارض :

– ها انت ترى ما تزال هناك فوضى ، ولم ارتب اموري ، كما ينبغي . لم يتح لي الوقت .

كان اينساروف يتكلم الروسية بطريقة سليمة جداً ، ناطقاً كل كلمة بقوة وصفاء ، ولكن صوته الحنجري ، واللطيف في الوقت ذاته فيه رنة غير روسية . وكان اصله الاجنبي (كان بلغاري المولد) يظهر بوضوح اكثر في مظهره الخارجي . كان شاباً في نحو الخامسة والعشرين ، نحيفاً ومعروقاً ، ذا صدر غائص ، ويدين معقدتين ، وقسمات وجه حادة ، وانف معكوف ، وشعر مسبط اسود فاحم ، وجبهة صغيرة ، وعينين صغيرتين غائصتين متفرستين ، وحاجبين كثيفين ، وكانت اسنانه البيضاء الجميلة تلوح للحظة ، حين يبتسم ، من بين شفتيه النحيلتين القاسيتين المرسومتين بدقة بالغة . وكان يلبس سترة قديمة ، ونظيفة مزرورة الى الرقبة .

ساله بيرسينيف :

– لماذا انتقلت من منزلك السابق ؟

– هذا ارخص ، واقرب الى الجامعة .

– ولكن الآن عطلة . . . ثم ما هذه الرغبة في العيش في المدينة صيفاً ! كان الاحرى بك ان تستاجر بيتا ريفياً ، ما دمت قد عزمت على الانتقال .

لم يرد اينساروف بشيء على هذه الملاحظة ، وقدم لبيرسينيف غليونه قائلاً : «ارجو المعذرة ، لعدم توفر السيكائر والسيغار لدي» .

اشعل بيرسينيف الغليون . ومضى يقول :

– ها انا قد اجرت بيتاً صغيراً قرب كونتسوفو . رخيص ، ومريح جداً . بل عندي حجرة زائدة في الأعلى .

ومرة اخرى لم يرد اينساروف بشيء .

مص بيرسينيف نفساً من غليونه ، وعاد يقول نافثاً خيطاً رفيعاً من الدخان .

– بل قلت لنفسي : ما الطف لو رغب احد من الناس . . . انت مثلاً كما دار في ذهني . . . لو وافق ان يسكن في تلك الحجرة في الأعلى . ما رايك ، يا دميتري نيكانوريتش ؟

رمقه اينساروف بعينيه الصغيرتين .

– اتقترح علي ان اعيش معك في البيت الريفي ؟

– نعم ، عندي في الاعلى حجرة زائدة .

– انا شاكر لك كثيراً ، يا اندريه بيتروفيتش ، ولكن اعتقد ان مواردي لا تسمح لي بذلك .

– كيف هذا ، لا تسمح ؟

– لا تسمح بان اعيش في بيت ريفي في الضواحي . من المستحيل ان ادفع اجرة مسكنين .

– ولكنني . . . – شرع بيرسينيف يقول وتوقف ، ثم مضى يقول – لن يكلفك ذلك اي مصرف زائد . لنقل ستظل هذه الحجرة مؤجرة لك ، وفي المقابل سيكون كل شيء رخيصاً جداً في الريف . بل يمكن ان نعد طعامنا سوية ، على سبيل المثال .

صمت اينساروف . وشعر بيرسينيف بالحراجة . وبعد برهة شرع يقول :

– على الأقل زرني في احد الاوقات . على مقربة دانية مني تقيم عائلة كم اود ان اعرفك بها . ليتك تعرف يا اينساروف ، اية فتاة رائعة في هذه العائلة ! ثم هناك صديق قريب الي ، انسان ذو موهبة كبيرة ، وانا واثق من انك ستصادقه . (الروسي يعرض عليك معارفه . اذا لم يكن لديه ما يضيفك عليه .) تعال ، حقاً . والافضل من ذلك ان تنتقل الينا . حقاً . اذن ، لاستطعنا ان نعمل سوية ونقرا سوية . . انت تعرف انني ادرس التاريخ والفلسفة وانت تهتم بكل ذلك . ثم ان لدي كتباً كثيرة .

نهض اينساروف ، وصار يذرع الغرفة . واخيراً سال :

– هل لي ان اعرف كم تدفع ايجاراً لبيتك الريفي ؟

– مائة روبل فضي .

– وكم غرفة فيه ؟

– خمس .

– يعني حسابياً كل غرفة بعشرين روبلاً ؟

– حسابياً . . . ولكنني لا احتاج اليها اطلاقاً . وستظل فارغة .

– ربما ، ولكن اسمع – اضاف اينساروف بحركة من رأسه قاطعة ، وسمحة في الوقت ذاته – لا استطيع ان اقبل اقتراحك ، الا اذا قبلت انت ان تاخذ النقود مني وفق الحساب . في مقدوري

ان ادفع عشرين روبلاً ، لاسيما انني ساقتصد فيما عدا ذلك ، حسب اقوالك .

– بالطبع . ولكنني ، في الحقيقة ، خجلان .

– والا لا يجوز ، يا اندريه بيتروفيتش .

– حسب ما تشاء . ولكن كم انت متصلب !

ومرة اخرى لم يرد اينساروف بشيء .

واتفق الشابان على اليوم الذي ينبغي ان ينتقل اينساروف فيه . واستدعيا صاحب البيت ، الا ان هذا اكتفى ، في البداية ، بارسال إبنته ، وهي صبية في نحو السابعة من العمر ، تضع على راسها منديلاً زاهياً كبيراً . استمعت الى كل ما قاله اينساروف بانتباه ، وبشيء من الفزع ، وخرجت صامتة . وعلى اثرها ظهرت امها ، وهي حامل في شهرها الاخير ، تضع على راسها منديلاً ايضاً ، ولكنه صغير جداً . واوضح لها اينساروف انه سينتقل الى بيت ريفي قرب كونتسوفو ، ولكنه سيُبقي الغرفة على حسابه ، ويأتمنها على كل اغراضه . وبدا الفزع على زوجة الخياط ايضاً ، وانصرفت . واخيراً جاء صاحب البيت ، وبدا انه فهم كل شيء في اول الامر ، سوى انه قال في سهوم : «قرب كونتسوفو ؟» ، ثم فتح الباب فجاة ، وراح يصرخ : «الغرفة تبقى على حسابك ؟» وهداه اينساروف فكرر الخياط بحدة : «لانني اريد ان اعرف» ، وانصرف .

عاد بيرسينيف الى بيته راضياً جداً على نجاح اقتراحه . ورافقه اينساروف الى الباب بلطف وادب قلّ ان يؤدى في روسيا ، وحين بقي وحده ، خلع سترته بحرص ، واخذ يصف اوراقه .

٨

في مساء ذلك اليوم جلست آنا فاسيليفنا في حجرة الجلوس في بيتها ، وهي توشك ان تبكي . وكان في الحجرة ، فيما عداها ، زوجها ، وشخص يدعى اوفار ايفانوفيتش ستاخوف ، هو احد اقارب زوجها البعيدين ، ضابط متقاعد في الستين من العمر ، سمين الى حد الجمود ، ذو عينين ناعستين صفراوين ، وشفتين سميكتين بلا لون في وجه منتفخ اصفر . وكان منذ تقاعده يعيش دائماً في موسكو

من فوائد راسمال صغير خلفته له زوجته ، وهي من عائلة تجار . وكان لا يفعل شيئاً ، ومن المستبعد انه كان يفكر ، وحتى اذا فكر ، فقد كان يحتفظ بافكاره في سره . مرة واحدة فقط انفعل في حياته وابدى نشاطاً ، اي انه قرا في الجرائد نبأ عن آلة موسيقية جديدة في معرض لندن الدولي تدعى «كونتروبومباردون» ورغب ان يوصي عليها ، بل وراح يسال الى اين يرسل النقود ، وبوساطة اية دائرة ؟ وكان اوفار ايفانوفيتش يرتدي سترة فضفاضة بلون التبغ ، ومنديلاً ابيض حول رقبته ، وكان ياكل مرات عديدة وبكميات كبيرة ، وفي الحالات الحرجة فقط ، اي حين يتعين عليه ان يبدي رايا ، كان يحرك اصابع يده اليمنى في الهواء بارتعاص – ابتداء من الابهام حتى الخنصر ، وبعد ذلك من الخنصر حتى الابهام ، قائلاً بتعسر : «بالاحرى . . . على نحو ما ، ذاك . . .»

كان اوفار ايفانوفيتش جالساً في مقعد وثير قرب النافذة يتنفس بضيق . وكان نيقولاي ارتيميفيتش يذرع الحجرة بخطى كبيرة ، وقد حشر يديه في جيبيه ، وارتسم على وجهه عدم الرضى .

واخيراً توقف ، وهزّ راسه . وقال :

– اجل ، في زماننا كانت تربية الشبان تختلف . ولم يكونوا يبيحون لانفسهم الاستهانة بالشيوخ (لفظ النون من انفه على طريقة الفرنسيين) . والآن انظر فيما حولي ، ولا يسعني الا ان اندهش . ربما **لست** على صواب ، **وهم** الذين على صواب ، وربما . ومع ذلك فان لي نظرتي الخاصة الى الاشياء . فلست اهبل بالولادة . ما رايك في هذا ، يا اوفار ايفانوفيتش ؟

اكتفى اوفار ايفانوفيتش بان نظر اليه ، وحرك اصابعه . ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

– يلينا نيقولايفنا ، مثلاً ، لا افهمها تماماً . فانا بالنسبة لها لست على درجة كافية من السمو . وقلبها من السعة بحيث يحتضن الطبيعة كلها ، الى اصغر صرصار او ضفدعة ، وباختصار ، يحتضن كل شيء باستثناء ابيها الذي انجبها . طيب ، رائع . انا اعرف ذلك ، ولا احشر نفسي . لان في ذلك اعصاباً ، ودرجة عالية من التعلم ، وافكاراً سامية . وكل ذلك ليس من اختصاصي . ولكن السيد شوبين ، وليكن فناناً مدهشاً غير اعتيادي ، فليس ذلك موضع جدالي ، الا انه يستهين بمن هو اكبر سناً منه ، ويمكن ان

يقال ايضاً ، بمن يدين له بالكثير ، على اية حال . وهذا ما لا استطيع ان اسمح به dans mon gros bon sens * واعترف بذلك . ولست متصلباً في طبيعتي . ولكن لكل شيء حده .

دقت آنا فاسيليفنا الجرس بانفعال ، فدخل الصبي الخادم . قالت :

– لماذا لا ياتي بافل ياكوفليفيتش ؟ يعني ، لماذا لا ياتي وقد استدعيته ؟

هز" نيقولاي ارتيميفيتش كتفيه .

– ولكن لماذا تريدين استدعاءه؟! انا لا اطلب ذلك مطلقاً ، بل ولا ارغب فيه .

– كيف لماذا ، نيقولاي ارتيميفيتش ؟ هو الذي ضايقك ، ولربما اعاق دورة علاجك . اريد ان استوضحه ! اريد ان اعرف بم استطاع ان يثير غضبك ؟

– اكرر لك انني لا اطلب ذلـــك . ما هذا الهوس . . . devant les domestiques . **

احمر"ت آنا فاسيليفنا قليلاً .

– عبثاً ان تقول ذلـــك ، يا نيقولاي ارتيميفيتش . انـــا سنحيل . . . devant... les domestiques . . . اذهب ، فيديوشكا ، وات ببافل ياكوفليفيتش الى هنا ، حالاً . . .

خرج الصبي الخادم .

– لا حاجة الى كل ذلك مطلقاً – قال نيقولاي ارتيميفيتش من خلال اسنانه ، وعاد يذرع الحجرة – لم يكن هذا غرضي من كلامي .

–وكيف . يجب ان يعتذر Paul امامك .

– لا ، وما حاجتي الى اعتذاراته ؟ ثم ما هي الاعتذارات ؟ كلها اقوال .

– وكيف ما الحاجة ؟ يجب ان ترده الى الصواب .

– رديه انت الى الصواب . فهو يطيعك اكثر . اما انا فليس لي عتب عليه .

* مع كل ما املك من الادراك السليم (بالفرنسية في الاصل) .

** امام الخدم (بالفرنسية في الاصل) .

– لا ، يا نيقولاي ارتيميفيتش ، انت اليوم متعكر المزاج منذ قدومك . بل اراك تنحف في المدة الاخيرة . اخشى أن دورة علاجك لا تساعدك .

قال نيقولاي ارتيميفيتش :

– دورة العلاج ضرورية لي . كبدي ليست على ما يرام .

وفي تلك اللحظة دخل شوبين . وكان يبدو متعباً . وكانت ابتسامة خفيفة وساخرة بعض الشيء ترف على شفتيه . قال :

– هل طلبت مجيئي ، يا آنا فاسيليفنا ؟

– نعم ، طلبت ، طبعاً . لا ، يا Paul ، هذه فظاعة . انا مستاءة منك كثيراً . كيف يمكنك ان تستهين بنيقولاي ارتيميفيتش ؟

– وهل تشكى لك نيقولاي ارتيميفتش مني ؟

سأل شوبين ذلك ، ونظر الى ستاخوف بنفس تلك الابتسامة الساخرة .

استدار هذا ، واطرق ببصره .

– نعم ، اشتكى . انا لا اعرف بم اذنبت في حقه ، ولكنك يجب ان تعتذر حالاً ، لان صحته منحرفة جداً الآن ، واخيراً ، يجب علينا جميعاً ، ونحن في سن الشباب ، ان نحترم اصحاب الافضال علينا .

«آه ، يا للمنطق !» – فكر شوبين ، ووجه كلامـــه الى ستاخوف .

– انا مستعد للاعتذار اليك ، نيقولاي ارتيميفيتش – قال بانحناءة احترام خفيفة – اذا كنت قد اسأت اليك بشيء حقاً .

– انا اطلاقاً . . . لست – رد" نيقولاي ارتيميفيتش ، وهو يتحاشى النظر الى شوبين كالسابق – على العموم ، اسامحك بطيب خاطر ، لانني ، كما تعلم ، لست انساناً متصلباً .

قال شوبين :

– اوه ، هذا ليس موضع شك مطلقاً . ولكن اسمح لي ان استفسر : هل تعرف آنا فاسيليفنا ما يشكل ذنبي ازاءك ؟

قالت آنا فاسيليفنا :

– لا ، انا لا اعرف شيئاً .

واشرأبت بعنقها . فاسرع نيقولاي ارتيميفيتش يهتف :

– اوه ، يا ربي ! كم مرة ترجيت ، وتوسلت ، كم مرة قلت :

ما ابغض كل هذه الايضاحات والتمثيليات على نفسي ! مرة في العمر يأتي الانسان الى بيته ، ويريد ان يستريح – والناس تقول محيط عائلي ، interieur * ، والانسان يجب ان يكون وسط عائلته ويجد امامه التمثيليات والمنغصات . ولا لحظة راحة . فالانسان مضطر الى ان يذهب الى النادي . . . او الى مكان آخر . والانسان كائن حيّ ، ولكيانه العضوي مطالب ، بينما هنا . . .

ولم يتم نيقولاي ارتيميفيتش كلامه ، وخرج بسرعة وصفق الباب . وراقبته آنا فاسيليفنا ، وهو يخرج . وهمست بمرارة :

– الى النادي ؟ انت لا تذهب الى هناك ، ايها الطائش ! لا احد في النادي تهدي اليه الخيول من مجموعتي ، وخيول رمادية فضلاً عن ذلك ! اللون المفضل لديّ . نعم ، نعم ، ايها الرجل المستخف – اضافت بعد ان رفعت صوتها – انت لا تذهب الى النادي . اما انت يا Paul – قالت ذلك واقفة – كيف لا تخجل من نفسك ؟ لا اظنك طفلاً صغيراً . والآن صار راسي يوجعني . هل تعرف اين زوريا ؟

– يبدو انها في حجرتها في الأعلى . الثعلبة الحصيفة الصغيرة تلك تلوذ دائماً في جحرها ، في مثل هذا الطقس .

– طيب ، ارجوك – وراحت آنا فاسيليفنا تبحث فيما حولها – هل رايت القدح الذي اضع فيه الفجل الحار المدقوق؟ Paul ، اعمل معروفاً ، ولا تجعلني اغضب في المستقبل .

– كيف يمكن ان اغضبك ، يا عمة ؟ اعطيني يدك لاقبلها . اما فجلك الحار فقد رايته على المنضدة الصغيرة في غرفة مكتبك .

– داريا دائماً تنساه في مكان ما .

قالت آنا فاسيليفنا ، وخرجت مع حفيف ثوبها الحريري .

اراد شوبين ان يتبعها ، ولكنه توقف ، بعد ان سمع وراءه صوت اوفار ايفانوفيتش البطيء .

قال الضابط المتقاعد مباعداً بين الكلمات :

– ما كان . . . تعامل . . . هكذا . . . يا رضيع .

اقترب شوبين منه .

– على اي شيء اتعامـــــل ، يا اوفار ايفانوفيتش المحترم الخصال ؟

---

* المقصود هنا جو راحة في البيت (بالفرنسية في الاصل) .

– على اي شيء ؟ انت شاب . يعني إحترم . نعم .

– احترم مَنْ ؟

– مَنْ ؟ معروف من . لا تكشر ، هيه .

صالب شوبين ذراعيه على صدره . وهتف :

– آه منك ، يا ممثل مبدأ المشاعة الفلاحية . انت قوة الارض السوداء ، اساس الصرح الاجتماعي !

شرع اوفار ايفانوفيتش يحرك اصابعه .

– كفى ، يا اخ ، لا تثيرني .

ومضى شوبين يقول :

– هذا نبيل تخطى سن الشباب ، على ما يبدو ، ولكن اي إيمان طفولي سعيد ما يزال يكمن فيه ! احترم ! ولكن هل تعرف ، ايها الرجل العاطفي ، السبب في غضب نيقولاي ارتيميفيتش عليّ ؟ لانني قضيت معه صباح اليوم كله عند صاحبته الالمانية ، واليوم غنينا ، ثلاثتنا : «لا تبتعدي عني» (١٠) . فليتك سمعتنا . يبدو ان ذلك يؤثر فيك . غنينا ، يا سيدي ، غنينا . ولكن شعرت بالوحشة ، بعد ذلك ، اذ رايت الامر ليس على ما يرام ، والعواطف الرقيقة اكثر من اللازم . فاخذت اناكدهما كليهما . وكانت النتيجة جيدة . في البداية غضبت الالمانية عليّ ، وبعد ذلك عليه ، وبعدها غضب هو عليها ، وقال لها إنه سعيد في بيته فقط ، وان الجنة هناك ، في بيته . فقالت له انه بلا خلق ، فقلت لها : «آخ» بالالمانية . وخرج هو ، وبقيت انا . وجاء الى هنا ، اقصد ، الى الجنة ، واذا به يقرف من الجنة . وهكذا اخذ يتذمر . . طيب ، والآن ، مَنْ المذنب ، في رايك ؟

قال اوفار ايفانوفيتش :

– انت ، بالطبع .

تفرس شوبين فيه . وشرع يقول بصوت متذلل :

– هل لي ان اتجرأ واسالك ، ايها الفارس المحترم : هل هاتان الكلمتان الغريبتان اللتان تكرمت بقولهما كانتا نتيجة لفعل قابليتك على التفكير ، ام استجابة غريزية لحاجة فجائية في ان تنطق بشيء يهز الهواء يسمى صوتا ؟

قال اوفار ايفانوفيتش كالمتأوه :

– قلت . . لا تثيرني . . .

اخذ شوبين يضحك ، وخرج مسرعاً .

– اي – نطق اوفار ايفانوفيتش بعد ربع ساعة – هات .. قدح فودكا .

جلب الصبي الخادم الفودكا والمزة على صينية . تناول اوفار ايفانوفيتش قدح الفودكا من الصينية بهدوء ، ونظر اليه باهتمام مشدد ، ولمدة طويلة ، وكأنه لا يفهم بشكل واضح ماذا في يده . ثم نظر الى الصبي الخادم ، وسأله هل اسمه فاسكا ؟ ثم اتخذ سمت المغموم ، وشرب الفودكا ، وتمزز ، ودس يده في جيب ليخرج المنديل . ولكن الصبي الخادم كان قد عاد بالصينية والقارورة الى مكانهما منذ وقت طويل ، ولحق ان يأكل الزائد المتبقية من المزة ، وان يغط في سنة من النوم سانداً ظهره الى معاطف اسياده ، واوفار ايفانوفيتش ما زال ممسكاً بمنديله امامه على اصابعه المتباعدة ، ينظر في النافذة تارة ، والى ارض الحجرة وجدرانها في نفس الاهتمام المشدد .

٩

عاد شوبين الى مسكنه في ملحق البيت ، وفتح كتاباً . دخل خادم نيقولاي ارتيميفيتش الشخصي الى غرفته بحذر ، وقدم له مذكرة صغيرة ثلاثية الشكل مختومة بختم ضخم يمثل شعار العائلة . وقد جاء في هذه المذكرة : «آمل بأنك ، كرجل نزيه ، لن تبيح لنفسك التلميح ، حتى بكلمة واحدة ، الى السند النقدي الذي اشير اليه اليوم صباحاً . فانت تعرف علاقاتي ، والقواعد التي اتبعها وضآلة المبلغ نفسه ، وغير ذلك من الظروف . واخيراً ، هناك اسرار عائلية يجب احترامها ، والطمأنينة العائلية شيء مقدس لا يذكره الا êtres sans coeur * ، وليس لي سبب في ان اعدك منهم (ارجو ان تعيد لي هذه المذكرة) ن . س .» .

كتب شوبين بقلم الرصاص في الاسفل : «لا تقلق ، فانا لا ازال لا استل المناديل من الجيوب» واعاد المذكرة الى الخادم .

* الذين لا قلب لهم (بالفرنسية في الاصل) .

واستمر في قراءته . ولكن الكتاب سرعان ما انزلق بين يديه . نظر الى السماء الآخذة بالتوهج بحمرة المساء ، والى شجرتي الصنوبر الفتيتين الضخمتين المنتصبتين بمعزل عن الاشجار الأخرى ، وفكر مع نفسه : «اشجار الصنوبر ضاربة الى الزرقة في النهار ، ولكنها بهذه الخضرة الرائعة في المساء» ، وخرج الى الحديقة ، بأمل خفي في ان يلتقي يلينا . ولم يخدعه امله . فقد لاح فستانها في الطريق الى الامام بين الاجمات . لحق بها ، ولما حاذاها ، قال :

– لا تنظري في ناحيتي . فانا لا استحق .

القت عليه نظرة خاطفة ، وابتسمت ابتسامة خاطفة ، وواصلت سيرها في اعماق الحديقة . فمضى شوبين في اعقابها . وقال :

– ارجوك ان لا تنظري اليّ . ومع ذلك فانا اتحدث اليك . وتلك هي ظاهرة متناقضة تماماً ! ولكن هذا لا يهم . ليست هذه اول مرة يحدث لي ذلك . تذكرت هذه اللحظة انني ، حتى الآن ، لم اسألك صفحاً ، كما ينبغي ، عن تصرفي الاحمق يوم امس . الست غاضبة عليّ ، يا يلينا نيقولايفنا ؟

توقفت ، ولكنها لم تجبه على الفور ، لا لأنها غاضبة ، بل لأن افكارها كانت بعيدة عنه . واخيراً قالت :

– لا ، لست غاضبة ، البتة .

عض شوبين على شفته . وغمغم :

– اي وجه مستغرق لامبالٍ – ثم مضى يقول رافعاً صوته – يلينا نيقولايفنا ، اسمحي لي بأن اقص عليك حادثة صغيرة . كان لي صديق ، وكان لهذا الصديق صديق ايضاً . كان في بادئ الامر ، يتصرف كما يجدر بانسان معتبر ، وبعد ذلك صار يسرف في الشرب . وفي صباح باكر من احد الايام التقاه صديقي في الشارع (وكانت علاقتهما قد انقطعت ولاحظي ذلك) ، التقاه ورآه سكران ، فصدّ صديقي عنه . ولكن الرجل دنا منه وقال : «ما كنت سأزعل لو لم تسلّم عليّ ، ولكن لماذا تصد عني ؟ ربما سكرت لانني في ضائقة . ويتغمدني الله برحمته !»

وصمت شوبين . فسألت يلينا :

– هذا فقط ؟

– فقط .

– انا لا افهمك . الى اي شيء تغمز ؟ قبل لحظة كنت تقول لي لا تنظري في ناحيتي .

– نعم ، وقلت لك الآن : الصدُّ غير لطيف .

فشرعت يلينا تقول :

– ولكن هل معقول انني . . .

– غير معقول ؟

احمرّت يلينا قليلاً ، ومدّت يدها لشوبين . فصافحها بقوة .

قالت يلينا :

– كانما ضبطتني بشعور سيء ازاءك . ولكنك غير منصف في ارتيابك . لم يخطر في بالي ان اتجنبك .

– وليكن ، وليكن . ولكن يجب ان تقري بان آلافاً من الافكار تدور في راسك الآن ، فلا تأتمنيني على اي واحد منها . ها ؟ ألست اقول الحقيقة ؟

– ربما .

– ولِمَ ذاك ؟ لِمَ ؟

قالت يلينا :

– افكاري ليست واضحة حتى لي .

فاهتبلها فرصة ليقول :

– ولهذا بالذات يجب ان تأتمنيها لأحد . ولكن سأقول لك لماذا لا تفعلين ذلك . إن لك فكرة سيئة عني .

– انا ؟

– نعم ، انت . تتصورين ان نصف ما في نفسي مصطنع ، لانني فنان ، وانني غير مقتدر ليس فقط على اي عمل – ولربما انت على حق في ذلك – بل وعلى اية عاطفة عميقة حقيقية . وانني لا استطيع حتى ان ابكي بصدق ، وانني ثرثار وناشر اقاويل . كل ذلك لانني فنان . هل نحن بعد هذا ، اناس بؤساء ، نحن مغضوب عليهم من قبل الرب؟ انت ، مثلاً ، وانا مستعد الى ان اقسم ، لا تصدقين بندامتي .

– لا ، يا بافل ياكوفليفيتش ، انا مصدقة بندامتك ، واصدق بدموعك . ولكن يبدو لي ان ندامتك بحد ذاتها ودموعك ايضاً تلذ لك .

جفل شوبين .

– اوه ، احسب ان هذه حسب تعبير الاطباء ، حالة مستعصية casus incurabilis . عندئذ لا يبقى امامي غير ان احني راسي ، واذعن . ومع ذلك ، آه ، يا إلهي ! هل من الممكن حقاً ، هل من الممكن ان انشغل طوال الوقت بنفسي ، بينما تعيش الى جانبي مثل هذه النفس ؟ وانا اعرف انني لن استطيع ابداً ان انفذ اليها ، ولا ان ارى ما يحزنها ويفرحها ، وما يطوف في ذهنها ، وماذا تريد والى اين تسير . . . خبريني – قال بعد برهة من الصمت – اتظنين انك لن تحبي فناناً ابداً ، ومهما تكن الظروف والدوافع ؟

حدقت يلينا في عينيه تماماً .

– لا ، بافل ياكوفليفيتش ، لا .

قال شوبين بجزع هزلي :

– وهذا ما اقتضى البرهنة عليه . اذن ، كان من الأليق على ما اظن ، الا اعرقل نزهتك الانفرادية . لو كنت معلماً لسألتك : على اساس اية معطيات قلت : لا ؟ ولكنني لست معلماً . انا طفل ، حسب مفاهيمك ، ولكن الناس لا يصدون عن الاطفال ، تذكري هذا . وداعاً ، وليتغمدني الله برحمته !

ارادت يلينا ان توقفه ، ولكنها فكرت قليلاً ، ثم قالت ايضاً :

– وداعاً .

خرج شوبين من الفناء ، والتقاه بيرسينيف على مسافة قصيرة من بيت آل ستاخوف الريفي . كان يسير بخطى نشيطة ، وقد احنى راسه ، ودفع قبعته على علبائه .

هتف شوبين :

اندريه بيتروفيتش !

توقف هذا . فمضى شوبين يقول :

– سر في طريقك ، سر . لا شيء . لم يكن في نيتي ان اوقفك . اذهب قدماً الى الحديقة ، وستجد يلينا هناك . اظنها تنتظرك . على اية حال انها تنتظر احداً . . . انت تفهم قوة هاتين الكلمتين : انها تنتظر ! اتعرف يا اخ اي ملابسة مدهشة ؟ تصوّر انني اعيش معها ، منذ سنتين ، في بيت واحد واعشقها ، ولكن الآن فقط ، في هذه اللحظة رايتها لاول مرة ، ولا اقول فهمتها لأول مرة ، رأيتها وبسطت ذراعي باندهاش . ارجوك لا تنظر اليّ بهذه الابتسامة الزائفة السخرية التي لا تناسب ملامحك الرصينة . افهم انك تريد

ان تذكرني بآنوشكا . ثم ماذا ؟ انا لا ارفض . آنوشكا تناسب مقامي . فلتعش الانوشكات والزويات ، وحتى الافغوستينات الخريستينوفات انفسهن ! اذهب الى يلينا ، الآن ، وانا ذاهب ، فهل تظنني ذاهباً الى آنوشكا ؟ لا ، يا اخ ، بل اسوأ ، انا ذاهب الى الامير تشيكوراسوف . هناك راعي فنون بهذا الاسم ، من تتر قازان ، مثل فولغين . هل ترى رسالة الدعوة هذه ، وهذه الحروف R.S.V.P. * ؟ لا راحة لي في القرية ايضاً . Addio ! ** .

استمع بيرسينيف الى خطبة شوبين الرنانة في صمت ، وكان ياخذه شيء من الارتباك نيابة عنه ، ثم دخل فناء بيت ستاخوف . اما شوبين فقد ذهب بالفعل ، الى الامير تشيكوراسوف وصار يحدثه بالكثير من اوقح العبارات ، باكثر الطرق تهذيباً . وقد ضحك راعي الفنون هذا ، من تتر قازان ، وضحك ضيوفه ، دون اي مرح من جانب احدهم ، وتفرقوا ، مغتاظين جميعاً مثل سيدين التقيا ، في شارع نيفسكي ، واحدهما قليل المعرفة بالآخر ، فاذا بهما يكشران عن اسنانهما بابتسامة ، ويحركان عيونهما وانفيهما وخديهما بعذوبة مفتعلة ، وحالما يبتعد احدهما عن الآخر يتخذان عدم اكتراثهما السابق ، او سحنتهما الوعق البواسيري في اغلب الاحيان .

١٠

استقبلت يلينا بيرسينيف ببرود ، ولكن ليس في الحديقة ، بل في حجرة الجلوس ، واستأنفت حديث الامس حالاً ، وفي شيء من نفاد الصبر . وكانت وحدها . فقد انسلّ نيقولاي ارتيميفيتش بهدوء الى حيث لا تعلم . بينما كانت آنا فاسيليفنا منطرحة في الاعلى ، وعلى راسها عصابة مبللة . وكانت زويا جالسة الى جانبها ، وقد عدّلت تنورتها باعتناء ، وطوت يديها على ركبتيها . وكان اوفار ايفانوفيتش ياخذ غفوة في العلية على اريكة عريضة مريحة اطلق

* الحروف الاول من جملة فرنسية معناها : الرجاء اعلامنا بالجواب (بالفرنسية في الاصل) .

** وداعاً (بالايطالية في الاصل) .

عليها «جالبة النوم» . عاد بيرسينيف الى تذكر ابيه من جديد ، فقد كان يحمل له ذكرى قدسية . فلنذكر نحن بعض الكلمات عنه .

كان والد بيرسينيف يملك اثنين وثمانين قناً اعتقهم قبيل وفاته ، وكان من المتنورين (١١) ومن طلاب جامعة غوتينغين القدامى ، وله مؤلف مخطوط عن «تجليات او تحولات الروح في العالم» هو خليط فريد من فلسفة شيلينغ وسفيدينبورغ (١٢) والنزعة الجمهورية . وقد اخذ ابنه الى موسكو ، وهو صبي ، بعد وفاة امه مباشرة ، وتولى تربيته بنفسه . وكان يتهيأ لكل درس ، ويجتهد بنقاء ضمير غير اعتيادي ، وبدون توفيق على الاطلاق . لانه كان حالماً وكُتُبياً ، وصوفياً ، ويتكلم بلعثمة ، وبصوت كامد ، ويستخدم كلمات مبهمة ومنمّقة ، وبتشابيه ، على الاغلب ، وكان ينكمش حتى من ابنه ، الذي كان متعلقاً به كثيراً . فلا غرابة في ان الإبن كان لا يفتأ يحملق بعينيه خلال دروسه ، ولا يتقدم في الدراسة اطلاقاً . واخيراً حدس العجوز (كان في نحو الخمسين من العمر ، فقد تزوج متأخرا جداً) ان الامور لا تسير على ما يرام ، فادخل ابنه «اندريوشا»* في مدرسة داخلية . وصار اندريوشا يتعلم ، ولكنه لم يخرج من رقابة ابيه . فكان ابوه يزوره باستمرار ، مضجراً صاحب المدرسة بمواعظه واحاديثه ، كما ان الضيف غير المدعو اثقل على المراقبين ايضاً ، اذ كان من حين لآخر يحمل لهم كتباً في التربية معقدة جداً على حد تعبيرهم . وحتى تلامذة المدرسة صاروا يتحرجون لدى رؤيتهم وجه العجوز الاسمر المجدور وجسده الضامر في سترة فراك رمادية مدببة الذيل يرتديها دائماً . وكانوا لا يحدسون قط في ان هذا السيد الجهم الذي لم تلح الابتسامة على شفتيه قط ، بانفه الطويل ومشيته الشبيهة بمشية الغرانق كان ياسو بقلبه على كل واحد منهم ، ويشفق تماماً تقريباً كما ياسو ويشفق على ابنه من صُلبه . وذات مرة عنّ له ان يتحادث معهم عن واشنطن (١٣) . وخاطبهم قائلاً «يا تلامذتي الصغار» ولكن تلامذته الصغار انفضّوا من حوله حالما سمعوا الرنات الاولى من صوته الغريب . لم يكن طريق خريج

* صيغة تدليل من اسم اندريه . **المترجم** .



جامعة غوتينغين النزيه هذا مفروشاً بالورود . كان دائماً مسحوراً بسير التاريخ ، وبمختلف ضروب الاسئلة والتخيلات . وحين دخل بيرسينيف الابن الى الجامعة ، كان الأب يذهب معه الى المحاضرات ، ولكن صحته اخذت تخونه . وهزتـــه احداث ١٨٤٨ من الاساس (وكان عليه ان يغير الكتاب كله) غير انه توفي شتاء ٥٣ قبل تخرج ابنه من الجامعة ، الا انه قد هنأه مسبقاً بدرجة علميـة وباركه لخدمة العلم . وقال له قبل ساعتين من وفاته : «اقدم المشعل لك ، فقد حملته انا طوال ما كنت قادراً على حمله ، فلا تتخل انت عنه الى آخر العمر» .

تحدث بيرسينيف ليلينا طويلاً عن ابيه . واختفى الارتباك الذي كان يحسه في وجودها ، ولم يعد يلفظ السين شينا كثيراً . وانتقل الحديث الى الجامعة . فسألته يلينا :

– قل لي هل كان بين رفاقك أناس مرموقون ؟

وتذكر بيرسينيف كلام شوبين .

– لا ، يلينا نيقولايفنا ، الحق اقول لك ، لم يكن بيننا رجل واحد مرموق . ومِنْ اين ياتي ! يقال ان جامعة موسكو مرت بعهد طيب (١٤) ، ولكن ليس الآن . هي الآن مدرسة وليست جامعة . كنت اجد صعوبة مع رفاقي .

اضاف ذلك مخفضاً صوته . همست يلينا :

– صعوبة ؟

فمضى بيرسينيف يقول :

– على اية حال ، لا بد ان اذكر انني اعرف طالباً – لم يكن في فصلي في الحقيقة ، وهو بالفعل انسان مرموق .

سألت يلينا بحماس :

– وما اسمه ؟

– اينساروف ، دميتري نيكانوريتش . وهو بلغاري .

– ليس روسياً ؟

– لا ، ليس روسياً .

– ولماذا يعيش في موسكو ، اذن ؟

– جاء اليها للدراسة . وهل تعرفين لأي هدف يدرس ؟ هناك فكرة واحدة تشغلـــه : هي تحرير بلاده . وسيرتـــه ايضاً غير اعتيادية . فقد كان ابوه تاجراً ميسوراً جداً ، من مواليد تيرنوف .

وتيرنوف الآن بلدة صغيرة ، بينما كانت في ماضيها عاصمة بلغاريا ، عندما كانت بلغاريا مملكة مستقلة . وكانت تجارته في صوفيا ، وله علاقات مع روسيا . وشقيقته ، عمة اينساروف ، ما تزال تعيش في كييف ، وقد تزوجت معلماً اقدم للتاريخ في مدرسة ثانوية هناك . وفي عام ١٨٣٥ ، اي قبل ثمانية عشر عاماً ، وقعت حادثة نكراء ، اذ اختفت ام اينساروف فجاة ، وبعد اسبوع وجدت مذبوحة .

ارتعدت يلينا ، فتوقف بيرسينيف ، ولكنها قالت :

– واصل ، واصل .

– وأُشيع ان احد الاغوات الاتراك اختطفها وقتلها . ولما عرف والد اينساروف بالحقيقة اراد ان ينتقم ، ولكنه تمكن من جرح التركي بخنجر لا غير . . . وقد قُتل رمياً بالرصاص .

– قتل ؟ بدون محاكمة ؟

– نعم ، وكان اينساروف في ذلك الحين في سنه الثامنة فبقي بين ايدي الجيران . وعرفت الأخت بما حدث لعائلة اخيها ، فاعلنت رغبتها في احتضان ابن اخيها . فأُرسل الى اوديسا ، ومن هناك الى كييف . وقضى في كييف اثنتي عشرة سنة كاملة ، ولهذا يتكلم الروسية جيداً .

– يتكلم الروسية ؟

– مثلك ومثلي . وحين اتم العشرين من العمر (وكان ذلك في بداية ١٨٤٨) رغب في السفر الى بلاده ، وزار صوفيا وتيرنوف ، وجاب بلغاريا كلها طولاً وعرضاً ، وقضى فيها سنتين تعلم فيها لغته القومية من جديد . ولاحقته الحكومة التركية ، ومن المحتمل انه تعرض ، في هاتين السنتين ، الى مخاطر كبيرة . فقد رايت على رقبته ذات مرة ندبة عريضة ، لا بد انها كانت اثراً لجرح ، ولكنه لم يكن يحب الكلام عن ذلك . فهو صموت ايضاً بطبعه . كنت احاول الاستفسار منه ولكنني لم اظفر بطائل . فهو يرد بعبارات شائعة ، انه عنود جداً . وفي عام ١٨٥٠ عاد من جديد الى روسيا ، الى موسكو بنية إكمال تعليمه كلياً ، والاختلاط بالروس ، وفيما بعد ، حين يتخرج في الجامعة . . .

قاطعته يلينا :

– ماذا فيما بعد ؟

– ما يقضي به الله . فمن الصعب التنبؤ بالمستقبل .

ظلت عينا يلينا معلقتين ببيرسينيف وقتاً طويلاً . ثم قالت :

– اثرت اهتمامي الشديد بقصتك . كيف شكل صاحبك هذا الذي سميته . . . اينساروف ؟

– كيف اقول لك ؟ ليس قبيحاً ، على ما اظن . حسناً ، سترين بنفسك .

– وكيف ؟

– سآتي به اليك ، هنا . بعد غد سينتقل الى قريتنا ، ليعيش معي في مسكن واحد .

– صحيح ؟ ولكن هل سيقبل بزيارتنا ؟

– دون شك ! سيكون مسروراً جداً .

– وهل هو فخور ؟

– هو ؟ لا ، البتة . يعني اذا اردت الحقيقة ، فهو فخور ، ولكن ليس في المعنى الذي تقصدين . فهو مثلاً لا يستدين الفلوس من أحد .

– وهل هو فقير ؟

– نعم ، ليس غنياً . عندما سافر الى بلغاريا جمع ما تيسر له من مخلفات ابيه الصغيرة ، كما تساعده عمته . ولكن كل ذلك ضئيل تافه .

فلاحظت يلينا قائلة :

– لعل له الكثير من ضبط النفس .

– نعم . انه رجل من حديد . وفيه ، في الوقت ذاته ، وسترين ذلك بنفسك ، شيء طفولي منزّه ، مع كل تمركزه وصرامته وحتى تكتمه . والحق ان نزاهته ليست نزاهتنا التافهة ، نزاهة الذين ليس لهم ما يخفونه . . . ولكن انتظري ، سآتي به اليك .

سالت يلينا مرة أخرى :

– وهل هو خجول ؟

– لا ، ليس خجولاً . المغرورون وحدهم خجولون .

– وهل انت مغرور ؟

ارتبك بيرسينيف ، وبسط ذراعيه بحيرة . فمضت يلينا تقول :

– انت تثير فضولي . طيب ، قل لي الم يثأر من الاغا التركي ؟

ابتسم بيرسينيف :

– الثأر يوجد في الروايات فقط ، يلينا نيقولايفنا . فضلاً عن ان هذا الاغا ربما كان قد مات في غضون الاثنتي عشرة سنة هذه .

– على اية حال ، الم يقل السيد اينساروف لك شيئاً عن هذا ؟

– لم يقل شيئاً .

– فلماذا سافر الى صوفيا ؟

– كان ابوه يعيش هناك .

غرقت يلينا في تفكير ، ثم قالت :

– يحرر وطنه ! حتى النطق بهذه الكلمتين رهيب ، لعظمتهما . . .

وفي تلك اللحظة دخلت الغرفة آنا فاسيليفنا ، فانقطع الحديث .

عندما كان بيرسينيف في طريق عودته الى البيت هذا المساء انتابته احاسيس غريبة . لم يندم على نيته في تعريف يلينا باينساروف . ورأى من الطبيعي جداً ان تخلف احاديثه عن البلغاري الشاب ذلك التأثير العميق لدى يلينا . . . كما انه هو نفسه حاول ان يقوّي ذلك التأثير ! ولكن شعوراً مبهماً ومعتماً تسلل خفية الى قلبه . فاكتأب إكتئاباً مسموماً . الا ان هذا الاكتئاب لم يعقه عن الانكباب على «تاريخ اسرة غوغينشتاوفين» ، وبدأ يقرأه من الصفحة التي توقف عندها مساء اليوم الفائت .

١١

بعد يومين وصل اينساروف الى مسكن بيرسينيف مع متاعه ، بما عاهد به بيرسينيف . لم يكن لديه خادم ، الا انه نظم غرفته ، ورتب الاثاث ، ومسح الغبار ، وكنس الارضية دون اية مساعدة . وامضى وقتاً طويلاً جداً في وضع منضدة الكتابة في المكان الذي أبا ان يستوعبها ، ولكن اينساروف بما جبل عليه من اصرار صموت ، حقق ما يريد . ولمّا هيأ حجرته ، رجا بيرسينيف ان يتقبل منه عشرة روبلات كمقدمة ، واخذ عصا غليظة ، وخرج يتفقد ما يحيط بمنزله الجديد . وعاد بعد حوالى ثلاث ساعات فدعاه

بيرسينيف الى ان يشاركه طعامه ، فاجابه انه لا يمانع في تناول
الغداء معه اليوم ، ولكنه قد تفاوض مع ربة البيت بالفعل
وسيتلقى طعامه منها . اعترض بيرسينيف قائلاً :

– وحماك ! ستطعمك بشكل سيئ . ان هذه المراة لا تجيد الطبخ نهائياً . فلماذا لا تريد ان تشاركني طعامي ؟ سنقتسم المصروفات بالمناصفة .

اجاب اينساروف بابتسامة هادئة :

– امكانياتي لا تساعدني ان آكل مثلما تأكل .

وكان في ابتسامته تلك شيء لا يبيح اية مقاومة . فلم ينطق بيرسينيف كلمة . وبعد الغداء عرض بيرسينيف عليه ان يأخذه الى آل ستاخوف ، الا ان اينساروف ردّ بانه يريد ان يكرس كل المساء للكتابة الى اصحابه البلغار ، ولهذا يرجو ان تؤجل زيارة آل ستاخوف الى يوم غد . وكان بيرسينيف يعرف من قبل صلابة اينساروف فيما يريده ، ولكنه الآن فقط ، وهو معه تحت سقف واحد ، استطاع ان يقتنع كلياً بان اينساروف لم يغير قط قراراً كان قد اتخذه ، مثلما لم يؤجل قط تنفيذ وعد كان قد قطعه . في البداية كان هذا الضبط الاكثر شدة من الضبط الالماني يبدو لبيرسينيف ، الروسي القح ، غريباً بعض الشيء ، بل ومضحكاً قليلاً . ولكنه سرعان ما الفه ، واخيراً صار يجده مريحاً جداً ، او على اقل تقدير ، ان لم يكن اهلاً للاحترام .

في اليوم الثاني من وصول اينساروف استيقظ في الرابعة صباحاً ، وطاف طوافاً سريعاً في كل كونتسوفو تقريباً ، وسبح في النهر ، وشرب كوباً من الحليب البارد ، وجلس يعمل . ولم يكن عمله قليلاً ، فقد كان يدرس التاريخ الروسي ، والقانون والاقتصاد السياسي ، وكان يترجم الاغاني والمدونات التاريخية البلغارية ، ويجمع المواد عن المسألة الشرقية ، ويضع كتاباً في النحو الروسي للبلغار ، وكتاباً في النحو البلغاري للروس . جاء بيرسينيف ، وتحدث معه عن فورباخ (١٥) . استمع اينساروف اليه بانتباه ، ولم يعترض الا نادراً ، ولكن باقتدار ، وكان واضحاً من اعتراضاته انه كان يحاول ان يحدد لنفسه مساراً ، فاما الى دراسة فورباخ ، واما الى امكانية الاستغناء عنه . وبعد ذلك سما بيرسينيف الحديث الى دراساته ، وساله هل سيريه شيئاً منها

فقرا اينساروف له اغنيتين او ثلاثاً من الاغاني البلغارية التي ترجمها ، ورغب في ان يسمع رايه فيها . فراى بيرسينيف ان الترجمة صحيحة ، وان كان ينقصها القدر الكافي من التدفق . فاخذ اينساروف ملاحظته بعين الاعتبار . وانتقل بيرسينيف من الاغاني الى وضع بلغاريا الراهن ، فلحظ ، لاول مرة ، التغيّر الكبير الذي ظهر على اينساروف ، بمجرد ذكر اسم وطنه . لم يتوهج وجهه او يرتفع صوته ، لا ، ابداً ! بل ان كيانه كله ، بدا كما لو صبت فيه صلابة واندفاع ، ولاحت خطوط شفتيه اكثر حدة واصراراً ، واشتعلت في اغوار عينيه نار صماء اقوى من ان تخمد . لم يكن اينساروف يحب الافاضة في الحديث عن سفرته الى وطنه ، ولكنه كان يتحدث عن بلغاريا عموماً بطواعية مع كل انسان . كان يتحدث بتؤدة ، عن الاتراك وعن مظالمهم ، وعن محن ورزايا اهل وطنه ، وعن امانيهم ، وكانت كل كلمة من كلماته تنطق بهوى وحيد طالما تروّى فيه وركز تفكيره عليه من زمان .

وكان بيرسينيف في غضون ذلك يفكر مع نفسه : «اغلب الظن ان الاغا التركي دفع ثمن قتله لابيه وامه» .

وما كاد اينساروف يسكت حتى فتح الباب ، وظهر شوبين على العتبة .

دخل الحجرة مسترخياً . وبيرسينيف الذي كان يعرفه جيداً ، ادرك على الفور انه مغتاظ من شيء ما .

ابتدر يقول ، وقد انطلقت اسارير وجهه واشرقت :

– لاقدم نفسي ، بلا كلفة . أُدعى شوبين ، وانا صديق هذا الشاب (واشار الى بيرسينيف) اظن انك السيد اينساروف ، اليس كذلك ؟

– نعم ، اينساروف .

– اذن ، هات يدك ، ولنتعارف . لا اعرف هل حدثك بيرسينيف عني ، ولكنه حدثني الشيء الكثير عنك . هل نزلت هنا ؟ ممتاز ! لا تغضب عليّ ، اذا كنت اتفرس فيك بهذا الشكل . انا ، بالحرفة ، نحات ، واتنبأ بانني ، عن قريب ، ساتقدم لك بطلب السماح لي بان انحت راسك .

قال اينساروف :

– راسي في خدمتك .

– ماذا سنفعل اليوم ؟ ها ؟ – قال شوبين وقد جلس قبا
على مقعد واطئ ، واسند كلتا يديه على ركبتيه المنفرجتين كثيراً
يا اندريه بيتروفيتش ، هل لسيادتك خطة ما لهذا اليوم ؟ الطقس
رائع . وفي الجو رائحة تبن وعُليق جاف حتى . . . كأنك تحتسي
شاياً بالنعناع . حبذا لو نقوم بشيء خارق . فنري سا
كونتسوفو الجديد كل مفاتنها العديدة . (ومضى بيرسينيف يفكر في
نفسه : «هو مغيظ») طيب ، ما لك صامت ، يا صديقي
هارتسيو ؟ افتح فمك النبوئي . هل نقوم بشيء خارق ، ام لا ؟

قال بيرسينيف :

– لا اعرف ما راي اينساروف . اظن انه يتهيأ ليعمل .

استدار شوبين على مقعده ، وسأل في خنة :

– اتريد ان تعمل ؟

قال هذا :

– لا . في امكاني ان اكرس اليوم لنزهة .

فقال :

– آه ! رائع حقاً . هيا ، يا صديقي اندريه بيتروفيتش
وغط راسك الحكيم بقبعة ، ولنذهب الى حيث تمتد ابصارنا
وابصارنا فتية ، وستمتد بعيداً . انا اعرف حانة صغيرة ، نفيسة
في رداءتها ، سيقدمون لنا فيها طعاماً فائقاً في سماجته ، ولكن
سنكون مبتهجين كثيراً . فلنذهب .

بعد نصف ساعة كان الثلاثة يسيرون على شاطئ نهر موسكو
كان اينساروف يرتدي قبعة غريبة الشكل مرتخية الحاشية من
الجانبين جعلت شوبين في بهجة غير طبيعية تماماً . كان اينساروف
يسير على مهل ، ويتطلع ، ويستنشق الهواء ، ويتكلم ويبتسم
بهدوء . فقد وهب يومه هذا للاستمتاع ، فكان يتلذذ به تماماً
اسر شوبين في اذن بيرسينيف : «بهذا الشكل يتنزه الاولاد
المهذبون في ايام الآحاد» . وكان شوبين نفسه يتصرف بخفة
يركض الى الامام ، يتوقف متخذاً اوضاع تماثيل معروفة ، يتقلب
على العشب . فان رصانة اينساروف لم تكن تغيظه ، بل كانت
تجعله يتصرف كالبهلول . وقد نبهه بيرسينيف مرة او مرتين
«ما هذه العفرتة ، يا فرنسي !» فكان شوبين يرد عليه : «اجل
انا فرنسي ، نصف فرنسي ! اما انت فابق في منتصف المسا

بين الهزل والجد ، كما كان يقول لي نادل حانة» . استدار الشبان
مبتعدين عن النهر . وساروا في اخدود ضيق عميق بين حائطين
تشكلهما سنابل الجودار الذهبي العالي ، وقد القى عليهم احد
هذين الحائطين ظلاً مزرقاً . وبدا وكأن الشمس المشرقة تنزلق على
اعالي السنابل ، والقُبَّرات تصدح ، وطيور السماني تهدل ،
والعشب مخضوضر في كل مكان . وكانت نسمة دافئة تنوس
وترفع اصاله ، وتهز تويجات الزهور . ووصل الشبان الى الحانة
«النفيسة في رداءتها» بعد جولات طويلة واستراحات واحاديث
قيل وقال (بل ان شوبين حاول حتى ان يلعب القفازية مع ريفي
عابر تساقطت اسنانه كان يضحك باستمرار من الاعيب السادة
معه) . كاد النادل يوقع كل واحد منهم ارضاً ، وقدم لهم بالفعل
طعاماً سمجاً جداً ونبيذاً رديئاً ، الا ان ذلك ، على العموم ، لم
يمنعهم من ان يمرحوا بكل قلوبهم ، كما تنبأ شوبين . وكان شوبين
نفسه اضجهم مرحاً ، واقلهم نصيباً منه في الوقت ذاته . شرب في
صحة فينيلين الغامض والعظيم ايضاً وفي صحة ملك بلغاري يدعى
كروم (١٦) او خروم يعود تاريخه الى عهد آدم تقريباً .

صحح له اينساروف :

– الى القرن التاسع .

فهتف شوبين :

– الى القرن التاسع ؟ آوه ، يا للسعادة !

لاحظ بيرسينيف ان شوبين مع كل الاعيبه ونزواته ونكاته ،
كان يبدو كمن يمتحن اينساروف ، ويتحسسه ، ويقلق في دخيلة
نفسه . بينما ظل اينساروف على هدوئه وصفائه .

واخيراً عادوا الى كونتسوفو ، وغيروا ملابسهم ، ولكي يحافظوا
على المزاج الذي شملهم منذ الصباح عزموا على زيارة آل ستاخوف
في المساء . وهرع شوبين في المقدمة ليعلن عن هذه الزيارة .

١٢

هتف بلهجة خطابية ، وهو يدخل حجرة الجلوس في بيت آل
ستاخوف ، حيث لم يكن فيها ، في تلك اللحظة ، غير يلينا
وزويا :

– البطل اينساروف سيشرف الآن هنا .
فسألت زويا بالالمانية :
– Wer ? * .
وكانت حين تؤخذ على غرة تعبر بلغتها القومية دائماً . رفو
يلينا جذعها . نظر شوبين اليها وعلى شفتيه ابتسامة لعوب
احست بالضيق . ولكنها لم تقل شيئاً .
وكرر قائلاً :
– سمعت ؟ السيد اينساروف قادم الى هنا .
قالت :
– سمعت . وسمعت كيف سميته . انا مندهشة منك حقاً
السيد اينساروف لم يطأ بعد بقدمه هذا البيت ، ومع ذلك تر
من الضروري ان تتهازل .
استرخى شوبين فجأة . وغمغم :
– انت على حق ، انت دائماً على حق ، يلينا نيقولايفنا
ولكنني لا اقصد شيئاً من كلامي . والله . لقد تنزهنا النهار كل
سوية ، واؤكد لك انه رجل ممتاز .
– لم اكن اسالك عن هذا .
قالت يلينا ذلك ، ونهضت .
فسألت زويا :
– هل السيد اينساروف شاب ؟
اجاب شوبين في ضيق :
– عمره مائة واربعة واربعون عاماً .
اعلن الصبي الخادم وصول الصديقين ، فدخلا . قد
بيرسينيف اينساروف . دعتهما يلينا الى الجلوس ، وجلست هي
وذهبت زويا الى الطابق العلوي ، لتبلغ آنا فاسيليفنا . وب
حديث عادي جداً ، مثل كل الاحاديث في اللقاء الاول . وكان شوبي
يراقب من ركن في صمت ، وان لم يكن ما يستدعي المراقبة . وكا
يلحظ في يلينا ضيقاً مكبوتاً منه ، ولا شيء آخر . وكان ينظ
الى بيرسينيف والى اينساروف ، ويقارن بين وجهيهما كنحات
وكان يفكر مع نفسه : «كلاهما غير جميل . للبلغاري وجه مح

* من ؟ (بالالمانية في الاصل) .

الملامح ، يستجيب للنحت . والآن توضح بشكل جيد . وجه
الروسي يصلح للرسم اكثر . الخطوط غائبة ، والسمة موجودة .
واظن كليهما يمكن ان يعشق . وهي لا تحب الآن ، ولكنها ستحب
بيرسينيف» . انتهى الى ذلك مع نفسه . ودخلت آنا فاسيليفنا
حجرة الجلوس ، واتخذ الحديث طابع الحديث الذي يجري بين
مستأجري البيوت الريفية بالذات ، لا حديث الريف . اي انه كان
حديثاً متنوعاً جداً في وفرة المواضيع المتناولة ، الا ان وقفات
قصيرة متعبة جداً كانت تقطعه كل ثلاث دقائق . وفي احدى تلك
الوقفات التفتت آنا فاسيليفنا نحو زويا . وفهم شوبين ايماءتها
الصامتة ، فتلوّت اساريره في زعل . جلست زويا الى البيانو ،
واخذت تعزف ، وتغني كل ما كانت تعرفه من اغان . ولاح اوفار
ايفانوفيتش من وراء الباب ، الا انه حرّك اصابعه ، واختفى
ثانية . وخرج الجميع ليتنزهوا في الحديقة بعد ان شربوا الشاي .
وهبط الظلام وراء النافذة ، فانصرف الضيوف .
لقد ترك اينساروف في نفس يلينا ، بالفعل ، انطباعاً اقل مما
كانت تتوقع هي نفسها ، او بعبارة ادق ، لم يترك في نفسها
الانطباع الذي كانت تتوقعه . اعجبتها صراحته وعفويته ، كما
راق لها وجهه ، ولكن اينساروف بشخصيته الركينة بهدوء ،
والبسيطة بشكل غير ملفت للنظر لم تنسجم ، على نحو ما ، مع
الصورة التي خلقتها في ذهنها احاديث بيرسينيف . كانت يلينا
تنتظر شيئاً اكثر «غرابة» دون ان تفكر في ذلك . وكانت تقول
لنفسها : «ولكنه اليوم لم يتكلم الا قليلاً . وانا الملومة ، اذ لم
الحّ عليه بالاسئلة ، فلننتظر حتى المرة القادمة . . . غير ان
عينيه معبرتان ، نقيتان» . لم تشعر بالرغبة في احناء قامتها امامه
باعجاب ، بل في تقديم يدها اليه بود . وكانت في حيرة من امرها ،
فقد كانت تتصور الناس «الابطال» من امثال اينساروف في صورة
غير الصورة التي ظهر فيها . وذكرتها كلمة «بطل»
بشوبين ، فاحمرت ، وهي ترقد في سريرها ، واستبد بها
الغضب .
في طريق العودة سأل بيرسينيف اينساروف :
– ما رايك في المعارف الجدد ؟
اجاب اينساروف :

– اعجبوني كثيراً ، ولا سيما الابنة . لا بد انها فتاة طيبة
كانت بادية القلق ، ولكن قلقها جميل .

فقال بيرسيينيف :

– يجب ان نكثر من زيارتهم .

– نعم ، يجب .

قال اينساروف ، ولم يقل شيئاً آخر حتى وصوله الى البيت وعندما وصل اسرع الى الاعتكاف في غرفته حالاً غالقاً الباب عليه الا ان الشمعة ظلت مشتعلة فيها الى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل .

اما بيرسيينيف فما كاد يقرا صفحة واحدة من راومر ، حتى اصابت حفنة من الرمل الدقيق زجاج نافذته . جفل مباغتاً . وفتح النافذة ، ورأى شوبين شاحب الوجه بلون الكتان المبيض .

بادره بيرسيينيف قائلاً :

– يا لك من همام ، يا فراشة الليل !

قاطعه شوبين :

– هسس ! جئتك خفية ، مثلما جاء ماكس الى اغاثا (١٧) . عندي كلمتان اريد ان احدثك بهما من دون بد ، على انفراد .

– ولكن ادخل الغرفة .

– لا ، لا حاجة – اعترض شوبين ، واتكأ بمرفقيه على افريز النافذة – هنا امرح ، واكثر شبهاً بما يجري في اسبانيا . اولاً اهنئك . اسهمك رجحت . ورجلك الخارق المحمود الخصال سقط . واستطيع ان اضمن ذلك . ولكي اثبت لك عدم تحيزي هاك اسمع مواصفات السيد اينساروف . لا مواهب . ولا شاعرية ، وقدرات على العمل هائلة ، وذاكرة كبيرة ، وعقل غير متعدد الجوانب ، وغير عميق ، ولكنه سليم ونشيط . جفاف وقوة ، بل وحتى موهبة في الكلمات ، حين يدور الحديث حول بلغاريا الكئيبة ، بيني وبينك . اذن ؟ هل ستقول انني غير منصف ؟ وهناك ملاحظة اخرى . لا اعتقد انك ستخاطبه بضمير المفرد ولا احد فعل ذلك من قبل . وانا كفنان ، ممقوت له ، وانا فخور بذلك . جاف ، جاف ، ولكنه يستطيع ان يطحننا جميعاً . انه مرتبط بأرضه . وليس مثل قربنا الفارغة التي تتودد للشعب قائلة : يا ماء الحياة ، انصب فينا ! (١٨) ومهمته ، الى جانب ذلك ، سهلة ، وايسر على الفهم

التخلص من الترك ، ولا اكثر ! ولكن هذه الخصال كلها ، والحمد لله ، لا تروق للنساء . انه بلا جاذبية ، بلا شارم * ، اي بدون ما لدينا انت وانا .

غمغم بيرسيينيف :

– وما شأني انا في هذا ؟ ثم انك في البقية ايضا غير محق . فهو لا يمقتك البتة . وهو يخاطب ابناء وطنه بضمير المفرد . . . انا اعرف ذلك .

– هذا شيء آخر ! انه ، بالنسبة لهم ، بطل . واعترف لك ان لي فكرة مغايرة عن الابطال . البطل يجب ان لا يجيد الكلام ، البطل يجأر ، كالثور ، الا انه اذا ضرب بقرنه انهارت الجدران . ولا ينبغي له ان يعرف لماذا يستخدم قرنيه ، ولكنه يستخدمهما . ثم وربما زماننا يحتاج الى ابطال من عيار آخر .

سأل بيرسيينيف :

– لماذا يشغل اينساروف بالك الى هذه الدرجة ؟ هل معقول انك جئت راكضاً اليّ لغرض واحد ، هو ان تصف لي خصاله ؟

قال شوبين :

– جئت اليك ، لانني احسست بكآبة شديدة في بيتي .

– هكذا اذن ! لعلك تريد ان تبكي مرة اخرى ؟

– لك ان تضحك مني ! لقد جئت الى هنا لانني مستعد ان انتف شعري ، لان اليأس والضيق والغيرة تعذبني .

– الغيرة ؟ الغيرة ممن ؟

– منك ، ومنه ، ومن الجميع . يعذبني حين افكر مع نفسي ، آه لو كنت فهمتها من قبل ، لو استطعت ان ادبر الأمر بحذق . . ولكن لا جدوى من الكلام ! في النهاية سأظل اضحك ، واتحامق ، واتهازل كما تقول هي ، وبعد ذلك سأشنق نفسي .

قال بيرسيينيف :

– كل شيء تفعل الا الشنق .

– لا بالطبع ، في مثل هذه الليلـة . ولكن تمهل حتى حلول الخريف . الناس ايضاً في مثل هذه الليلة لا يموتون الا من السعادة . آه ، السعادة ! كل ظل من شجرة ملقى عبر الطريق يبدو وكأنه

* كلمة فرنسية charme تعني فِتْنَة" . المترجم .

يهمس الآن : «انا اعرف اين السعادة . . . هل تريد ان ادلك
وددت لو ادعوك الى النزهة ، ولكنك الآن تحت تأثير النثر . نم ،
عسى ان تحلم بالمعادلات الحسابية ! اما انا فروحي تفيض . انتم ،
ايها السادة ، حين ترون احداً يضحك تتصورون ان الحياة سهلة
عليه . وتستطيعون ان تثبتوا له انه يناقض نفسه ، يعني انه لا
يعاني . عفا الله عنكم !

ابتعد شوبين عن النافذة بسرعة . اراد بيرسينيف ان يصيح في
اثره : «آنوشكا !» ولكنه امسك نفسه . لقد كان شوبين شاحب
الوجه حقاً . حتى ان بيرسينيف بعد دقيقتين ، تصور انه يسمع
نشجات . فنهض ، وفتح النافذة ، ولم يسمع شيئاً . وفي البعيد
فقط ، كان ريفي ، عابر سبيل ربما ، يغني ، «يا سهب
موزدوك» * .

١٣

لم يزر اينساروف آل ستاخوف اكثر من اربع او خمس مرات
خلال الاسبوعين الاولين من اقامته بجوار كونتسوفو . وكان
بيرسينيف يزورهم بين يوم ويوم . وكانت يلينا تُسر به دائماً ،
وينعقد بينهما حديث طريف حيوي على الدوام . ومع ذلك فقد كان
في الغالب يعود الى البيت مكتئب الوجه . وانقطع شوبين عن الزيارة
كلياً تقريباً . فقد انغمر في فنه كالمحموم ، فكان تارة يغلق عليه
حجرته ، ويخرج من هناك فجاة في بلوزة ، وقد تلطخ كله بالطين ،
وتارة يقضي اياماً في الاستوديو الذي اتخذه في موسكو ، حيث
كان يستقبل الموديلات والمقولبين الايطاليين ، واصدقاءه
واساتذته . ولم تتح ليلينا مرة واحدة فرصة للتحدث الى
اينساروف كما تهوى . كانت في غيابه تتهيا لسؤاله عن اشياء
كثيرة ، ولكنها كانت تخجل من استعداداتها ، حين كان يأتي .
وكانت رصانة اينساروف بالذات تربكها ، فيخيل اليها انها غير
محقة في حمله على ان يفصح عن مكنون صدره ، فقررت ان تتريث

* اغنية شعبية روسية . الناشر .

ومع كل هذا كانت تشعر بانه كان يجذبها اليه اكثر فاكثر ، مع كل
زيارة يقوم به ، ومهما كانت الكلمات المتبادلة قليلة الاهمية ،
ولكن لم تسنح لها فرصة الخلو به ، بينما الدنو من شخص يقتضي
التحدث اليه على انفراد ، مرة واحدة على الأقل . وكانت تتحدث عنه
الى بيرسينيف كثيراً . وكان بيرسينيف يدرك ان اينساروف اثار
خيال يلينا ، فكان يبتهج بان صديقه لم يسقط ، كما كان شوبين
يؤكد ، فكان يحدثها بحرارة وبادق التفاصيل عن كل ما كان يعرفه
عنه (نحن في الغالب ، حين نريد ان نثير اعجاب شخص نطري في
احاديثنا معه اصدقاءنا وفي الوقت ذاته لا يكاد يخطر على بالنا
اننا بذلك نطري انفسنا ايضاً) . واحياناً فقط ، كانت تعتمل في
قلبه تلك الكآبة غير اللطيفة المعروفة له ، حين كانت وجنتا يلينا
الشاحبتان تكتسيان حمرة خفيفة ، وعيناها تتألقان وتتسعان .

ذات مرة جاء بيرسينيف الى آل ستاخوف في غير الوقت
المعتاد ، في نحو الحادية عشرة صباحاً . وخرجت يلينا اليه في
القاعة .

انشأ يقول بابتسامة متكلفة :

– تصوري ان صاحبنا اينساروف اختفى .

قالت يلينا :

– كيف اختفى ؟

– اختفى . خرج في مساء امس الاول ، ولم يعد حتى الآن .

– الم يقل الى اين ذهب ؟

– لا .

حطت يلينا على مقعد .

– اغلب الظن انه ذهب الى موسكو .

قالت ذلك ، وهي تحاول ان تبدو غير مكترثة ، ويدهشها في
الوقت ذاته انها تحاول ان تبدو غير مكترثة . اعترض بيرسينيف
قائلاً :

– لا اظن . لم يخرج وحده .

– مع مَنْ ؟

– يوم امس الاول جاء اليه ، قبيل الغداء ، شخصان لا بد
انهما من ابناء وطنه .

– بلغاريان ؟ لماذا تتصور ذلك ؟

– لانهم ، اذا لم يخني سمعي ، كانوا يتكلمون لغة لا افهمها ولكنها سلافية . . . وانت ، يا يلينا نيقولايفنا ، لا تجدين في شخصية اينساروف غير القليل من الغموض . فاي شيء اكثر غموضاً من هذه الزيارة ؟ فتصوري . جاءآ اليه وراحا يصيحان ويتجادلان وبكثير من الوحشية والحنق . . . وكان هو ايضاً يصرخ .

– هو ايضاً ؟

– نعم ، كان يصرخ بهما . يبدو ان احدهما يشكو من الا... له . ليتك نظرت الى هذين الزائرين ! الوجهان اسمران عريضا الوجنات ، بانفين كانوف الصقور ، وقد تخطى كل واحد منهما الاربعين من العمر . وثيابهما رديئة مغبّرة مبللة بالعرق ، وهما من حيث المظهر ليسا حرفيين ولا من السادة . . . الله يعلم اي رجلين هما .

– وخرج معهما ؟

– نعم . اطعمهما ، وخرج معهما . وقد اخبرتني ربة البيت بان الاثنين اكلا سلطانية ضخمة مملوءة بالعصيدة . حسب قولها كانا يتسابقان بالتهام الطعام كذئبين .

ابتسمت يلينا ابتسامة مقتضبة خفيفة . وقالت :

– سترى ان كل ذلك سيتكشف عن شيء اعتيادي جداً .

– عسى ان يكون ! ولكن ما كان عليك ان تستخدمي هذه الكلمـــة . ليس في اينساروف شيء اعتيادي ، رغم ان شوبين يؤكد . . .

– شوبين ! – قاطعته يلينا ، وهزت كتفيها – ولكن يجب ان تقر بان ذينك السيدين الملتهمين العصيدة . . .

فلاحظ بيرسينيف مبتسماً :

– تيميستوكليس اكل ايضاً في عشية معركة سالومي (١٩) .

– صحيح . ولكن في اليوم التالي حدثت معركة . وعلى اية حال اعلمني حين يعود .

اضافت يلينا ، وحاولت تغيير الحديث ، ولكن الحديث انفرط . جاءت زويا ، واخذت تسير في الحجرة على اطراف اصابعها ملمّحة بذلك ان آنا فاسيليفنا لم تستيقظ بعد .

انصرف بيرسينيف .

وفي مساء ذلك اليوم ارسل تذكرة الى يلينا يقول فيها : «...

ملوّحاً مغبراً حتى حاجبيه . ولكنني لا اعرف سبب رحيله والمكان الذي رحل اليه . فهل ستعرفين انت ؟»

همست يلينا :

– هل ستعرفين انت ؟ وهل هو يتحدث اليّ ؟

١٤

في نحو الساعة الثانية من اليوم التالي كانت يلينا واقفة في الحديقة امام وجار صغير يضم جروين . (وجدهما البستاني مرميين عند السياج ، فحملهما اليها ، بعد ان اسرت له الغسالات ان السيدة الشابة تشفق على كل انواع الحيوانات . ولم يخطئ في تقديره . فقد اعطته يلينا خمسة وعشرين كوبيكا .) نظرت في الوجار ، وتيقنت من ان الجروين سالمان معافيان ، وان قشاً طرياً قد فرش لهما ، واستدارت ، وكادت تند منها صيحة ، حين رأت اينساروف مقبلاً عليها وحده عبر الدرب المعرّش .

– مرحباً – قال وهو يقترب منها ، رافعاً قبعته عن رأسه . وقد لاحظت ايضاً ان بشرته قد تلوّحت كثيراً بالفعل في الايام الثلاثة الاخيرة – اردت ان اجيء مع اندريه بيتروفيتش ، ولكنه تأخر في تحضير نفسه ، فجئت بدونه . لا احداً عندكم في البيت اما نائمون ، او يتنزهون ، فجئت الى هنا .

ردّت يلينا :

– كان في كلامك نبرة اعتذار . لا حاجة الى هذا اطلاقاً . نحن جميعاً نسر كثيراً في رؤيتك . تفضل اجلس هنا ، على المسطبة ، في الظل .

وجلست هي ، وجلس اينساروف الى جانبها .

قالت :

– اظن انك لم تكن في البيت في المدة الاخيرة ؟

اجاب :

– نعم ، سافرت . . . هل اخبرك اندريه بيتروفيتش بذلك ؟

ونظر اينساروف اليها ، وابتسم ، واخذ يلعب بقبعته . وكان ،

وهو يبتسم ، يرمش بسرعة ، ويمط شفتيه ، مما اضفى علي
مظهراً سمحاً جداً .

وقال ، وهو ما يزال يبتسم :

– اغلب الظن ان اندريه بيتروفيتش اخبرك انني سافر
مع شخصين زريين .

ارتبكت يلينا قليلاً ، ولكنها شعرت فوراً بضرورة قول الصد
مع اينساروف دائماً .

قالت بحزم :

– نعم .

فاذا به يسالها فجاة :

– وماذا فكرت فيّ ؟

رفعت يلينا بصرها اليه ، وقالت :

– فكرت ، فكرت انك دائماً تعرف ما تفعل ، وانك غير قا
على ان تفعل شيئاً غير محمود .

– طيب ، وشكراً لك على ذلك . المسالـــة ، يا يلينـ
نيقولايفنا – بدأ قوله مقترباً منها في وثوق – لدينا هنا جما
صغيرة من رجالنا . وبيننا اناس قليلو التعليم ، ولكن الجميع
اوفياء للقضية العامة وفاء قوياً . ومن سوء الحظ ان الامر لا يمض
دون مشاحنات . ولكن الجميع يعرفونني ، ويثقون بي ، ولها
دعوني الى البت في احدى المشاحنات . فسافرت .

– الى مكان بعيد ؟

– الى ترويتسكي باساد ، على بعد ستين فرسخاً . فإن لنا رجا
في الدير ايضاً . ولم تذهب جهودي عبثاً ، على اقل تقدير . فق
سويت الامر .

– وواجهت صعوبة ؟

– نعم . ظل احدهم متصلباً طوال الوقت . لا يريد ان يع
النقود .

– كيف ؟ كان الشجار بسبب النقود ؟

– نعم ، كما انها ليست كثيرة . وانت ، ماذا كنت تظنين ؟

– وتقطع ستين فرسخاً من اجل هذه التوافه ؟ تضيّع ثلاثة ايام

– ليست هذه توافه ، يا يلينا نيقولايفنا ، اذا كان ا
وطني متورطين . فالرفض هنا غير معذور . ها انا اراك لا تحج

عزلك حق عن الجزاء . ولك مني الثناء على ذلك . لا ضير في ان
اضيّع الوقت . وبعد ذلك اعوّضه . وقتنا ليس مُلكاً لنا .

– مُلك مَنْ ، اذن ؟

– ملك كل مَنْ بحاجة الينا . وانا اعرب لك عن كل هذا ،
فجاة ، لانني اعتز برايـــك . واتخيل كيف ادهشك اندريـــه
بيتروفيتش .

قالت يلينا بصوت خافض :

– ولماذا تعتز برايي ؟

ابتسم اينساروف مرة اخرى .

– لانك فتاة طيبة ، ولست ارستقراطية . وهذا كل ما في
الامر .

وساد صمت قصير .

قالت يلينا :

– هل تدري ، يا دميتري نيكانوروفيتش ، انك لاول مرة بمثل
هذه الصراحة معي ؟

– وكيف ذاك ؟ اتصور انني دائماً كنت احدثك بكل ما افكر فيه .

– لا ، هذه هي المرة الاولى . وانا مسرورة جداً بذلك . وانا
ايضاً احب ان اكون صريحة معك . فهل هذا ممكن ؟

ضحك اينساروف وقال :

– ممكن .

– احذرك من انني فضولية جداً .

– لا باس ، تفضلي .

– حدثني اندريه بيتروفيتش بالكثير من القصص عن حياتك ،
وعن شبابك . وانا اعرف حقيقة واحدة ، حقيقة مريعة . . . اعرف
انك سافرت الى بلادك فيما بعد . . . ارجوك ، لا ترد عليّ ، اذا كان
سؤالي يبدو لك غير لائق ، ولكن فكرة معينة تعذبني . . . خبرني ،
هل التقيت بذلك الرجل . . .

وتقطعت انفاس يلينا . فقد اخذها الخجل والارتعاب مـــن
جسارتها . وكان اينساروف يتفرس فيها ، مقلصاً عينيه قليلاً ،
جاساً ذقنه باصابعه .

واخيراً شرع يقول بصوت اوطا من صوته الاعتيادي ، فكاد
ذلك يفزع يلينا :

– يلينا نيقولايفنا . انا اعرف الى مَنْ تشيرين بالرجل الذي ذكرته الآن . لا ، لم التق به ، والحمد لله ! لم ابحث عنه ابحث عنه ، لا لانني لم اعتبر نفسي محقاً في قتله – كان من السهل ان اقتله بهدوء اعصاب – ولكن لان الثار الشخصي لا يعني شيئاً ، حين يتعلق الامر بانتقام شعبي جماعي . . او ، لا ، هو الكلمة لا تفي بالغرض . . . حين يتعلق الامر بتحرير الشعب عندئذ سيكون الاول منافياً للآخر . وحتى ذاك سيأتي وقته سيأتي وقته .

كرر الجملة الاخيرة ، هازاً راسه .

نظرت يلينا اليه من جنب ، وقالت بتهيب :

– اتحب وطنك كثيراً ؟

اجاب :

– هذا غير معروف الآن . ولكن حين يموت احدنا في سبيله عندئذ يمكن القول انه كان يحب وطنه .

فتابعت يلينا قولها :

– اذن ، لو مُنِعتَ من العودة الى بلغاريا لضقت من العيش في روسيا ؟

اطرق اينساروف براسه . ثم قال :

– يبدو لي ان ذلك لن اتحمله .

وعادت يلينا تقول :

– قل لي : هل من الصعب تعلم اللغة البلغارية ؟

– لا ، قطعاً . من العيب على الروسي ان لا يعرف البلغارية الروسي يجب ان يعرف كل اللغات السلافية . هل تريدين ان اجلب لك كتباً بلغارية ؟ وسترين كم ذلك سهلاً . واية اغانٍ لنا ! ليست اسوأ من الاغاني الصربية . دعيني اترجم لك واحدة منها . انها تتحدث عن . . . ولكن هل تعرفين شيئاً من تاريخنا ؟

اجابت يلينا :

– لا ، لا اعرف شيئاً .

– انتظري ، وساجلب لك كتاباً . على الاقل ستعرفين منه حقائق رئيسية . اذن ، اسمعي الاغنية . . . على العموم من الافضل ان اجلب لك ترجمة مكتوبة . انا واثق من انك ستحبيننا . فانت تحبين جميع المضطهدين . آه ، لو تعرفين كم هو موفور اقليمنا !

ومع ذلك يُداس ، ويعذب – اضاف بحركة لاارادية من يده واكتسى وجهه دُكنة – سلبونا كل شيء . سلبوا كنائسنا وحقوقنا ، واراضينا . والاتراك الملاعين يسوقوننا سوق القطيع ويذبحوننا . . .

وهتفت يلينا :

– دميتري نيكانوروفيتش !

توقف .

– اعذريني . انا لا استطيع ان اتكلم عن ذلك ببرودة اعصاب . ولكنك قبل لحظات كنت تسالينني : هل احب وطني ؟ واي شيء غيره يمكن ان يحب الانسان في الدنيا ؟ ما هو الوحيد الثابت ، الاعلى من كل الشكوك ، والذي ياتي الايمان به بعد الايمان بالله ؟ وحين يكون هذا الوطن بحاجة اليك . . . لاحظي ان اشد الفلاحين فقراً ، اكثر البائسين مسغبة في بلغاريا وانا تجمعنا الرغبة في شيء واحد ، للجميع هدف واحد . فتصوري روح الثقة والصلابة التي يقدمها هذا !

صمت اينساروف لحظة ، ثم عاد يتحدث عن بلغاريا . واصغت يلينا له باتنباه متلهف عميق وحزين ايضاً . وعندما انتهى عن كلامه سالته ثانية :

– اذن ، لن تبقى في روسيا ، مهما يكن من شيء ؟

وحينما انصرف ظلت تحدق في اثره وقتاً طويلاً . في ذلك اليوم صار ، بالنسبة لها ، انساناً آخر . ودعته انساناً آخر ، غير الذي استقبلته قبل ساعتين .

ومنذ ذلـــك اليـوم صار اينساروف يتردد اكثر فاكثر ، وبيرسينيف اقل فاقل . ونشا بين الصديقين شيء غريب كان كلاهما يحسه جيداً ، ولكنه لا يستطيع تسميته ، ويخشى مـــن توضيحه . وانقضى شهر على هذا المنوال .

١٥

كانت آنا فاسيليفنا تحب البقاء في البيت ، كما يعرف القارئ ، الا ان رغبة قاهرة كانت تستولي عليها احياناً ، بشكل مفاجـــئ

تماماً ، في شيء غير اعتيادي ، في * partie de plaisir مذهلة ، وكـ
كانت هذه الـ partie de plaisir اصعب على التحقيق ، تتطلب اعدا
وتحضيرات اكثر وقلقاً اشد لآنا فاسيليفنا نفسها كانت تطيـ
لها اكثر . فاذا اعترتها هذه النزوة شتاء امرت بأن تحجز مقصورتـ
او ثلاث مقصورات متجاورة ، وجمعت كل معارفها وذهبت الى المسر
وحتى الى حفلة تنكرية . اما اذا جاءتها صيفاً طلعـــت الى خار
المدينة ، الى ابعد ما تستطيع . وفي اليوم التالي كانت تشكـ
صداعاً ، وتتاوه ، وتلازم الفراش ، وبعد شهرين او نحوهـ
تتاجج في نفسها نفس الرغبة في «شيء غير اعتيادي» مرة اخرى
وهذا ما حصل الآن ايضاً . فقد ذكر احد في حضورها محاسـ
تساريتسينو ، فاعلنت بغتة انها تنوي السفر الى تساريتسينو بـ
غد . وحدث جيشان في البيت . وهرع رسول الى موسكو يطلـ
نيقولاي ارتيميفيتش الزوج ، وذهب كبير الخدم معه لشراء النبـ
ومعجون الطيور ومختلف الماكولات . وعُهد الى شوبين باستئجـ
عربة ركوب (لان مركبة البيت وحدها لا تكفي) والحصول على خيو
اضافية . وذهب صبي خادم مرتين الى بيرسينيف واينساروف
حاملاً معه مذكرتي دعوة كتبتا اولاً بالروسية ، وبعد ذلك كتبتـ
زويا بالفرنسية . واهتمت آنا فاسيليفنا نفسها باعداد لواز
السفر للآنستين . وفي غضـــون ذلـــك كادت partie de plaisir الـ
تفسد ، فقد عاد نيقولاي ارتيميفيتش من موسكو كدر المزاج وعـ
متذمراً (كان لا يزال يغضب على افغوستينا خريستيانوفنا) ولـ
عرف جلية الامر اعلن بحزم انه لن يسافر ، وان من الحمق الانتقا
من كونتسوفو الى موسكو ، ومن موسكو الى تساريتسينو ، ومـ
تساريتسينو مرة اخرى الى موسكو ، ومن موسكو مرة اخرى الـ
كونتسوفو . واضاف اخيراً : ليثبتوا لي اولاً ان هذه النقطة مـ
الكرة الارضية اكثر بهجة من تلك فسأسافر . بالطبع ، ما كان لـ
وسع احدهم ان يثبت له ذلك . فقد كانت آنا فاسيليفنا مستعـ
لالغاء partie de plaisir بسبب افتقارها الى مرافق معتبر ، ولكنهـ
تذكرت اوفار ايفانوفيتش ، ومن شدة الضيق ارسلت مَنْ يطلبـ
في غرفته ، قائلـــة : «الغريق يتشبث بالقشة» . واوقظ اوفـ

---

* نزهة مبهجة (بالفرنسية في الاصل) .

ايفانوفيتش من نومه ، فنزل الى الاسفل ، واستمع الى عرض آنـا
فاسيليفنا صامتاً ، وحرك اصابعه قليلاً ، ووافق ، وسط دهشة
الجميع . قبلته آنا فاسيليفنا من خده ، وقالت له انه لطيـف
جداً . ابتســم نيقولاي ارتيميفيتش بازدراء ، وقـــال :
«Quelle bourde» * . (وكان عند سنوح الفرصة يحب ان يستعمل
الكلمات الفرنسية «الانيقة») . وفي الساعة السابعة من صباح اليوم
التالي خرجت من فناء منزل آل ستاخوف المركبة والعربة المستأجرة
محملتين الى فــوق . وفي المركبـــة جلست السيدات وخادمـــة
وبيرسينيف ، وجلس اينساروف الى جانب الحوذي ، بينما جلس
في العربة المستاجرة اوفار ايفانوفيتش وشوبين . وكان اوفـــار
ايفانوفيتش نفسه قد دعا شوبين باشارة من اصبعه ، وكان يعرف
ان شوبين سيناكده اثناء الطريق ، الا ان «قوة الارض السوداء»
والفنان الشاب كانا مشدودين برابطة غريبة وصراحة مناكفة . وعلى
اية حال ، لم يتحرش شوبين بصديقه البدين هذه المرة ، وتركـه
بسلام . فقد كان ميالاً الى الصمت شارد الفكر ، ناعماً .
كانت الشمس قد ارتفعت عالياً في السماء اللازوردية الصافية ،
حين كانت العربتان تدنوان من اطلال قلعة تساريتسينو ، الكئيبة
الجهماء حتى في الظهيرة . نزل جمع المسافرين بكليته الى العشب ،
وسار ، في الحال ، الى الحديقة . كانت يلينا وزويا واينساروف
في المقدمة ، وسارت آنا فاسيليفنا وراءهم وعلى وجهها سيمـــاء
السعادة التامة ، متابطة ذراع اوفار ايفانوفيتش . وكان هذا يلهث
ويسير متثاقلاً وقبعة القش الجديدة تنغرز في جبينه ، وقدماه
تتلظيان في الحذاء الطويل الرقبة ، ولكنه كان يحس بمتعة ايضاً .
وكان شوبين وبيرسينيـــف آخر الموكـــب . همس شوبين
لبيرسينيف : «سنكون ، يا اخ ، في الاحتياط كقدامى المحاربين» ثم
اضاف ، وهو يشير بحاجبيه الى يلينا : «هناك بلغاريا الآن» .
كان الطقس رائعاً ، وكل شيء حولهم يزهر ويطنّ ويشدو ،
ومن بعيد كانت مياه الغدران تتلألأ ، والنفس يغمرها احساس
رضاء بالحبور . وكانت آنا فاسيليفنا لا تفتأ تردد «آه ، ما الطف
ذلك ، ما الطفه !» ، وكان اوفار ايفانوفيتش يهز راسه بتاييد ،

---

* اية سخافة (بالفرنسية في الاصل) .

وهو يرد على تعجبها المتهلل ، بل ونبس ذات مرة : «حسن في كلام!» . وكانت يلينا تتبادل مع اينساروف الكلمات من حين لآخر . وكانت زويا تمسك حافة قبعتها العريضة باصبعين ، وتحرك بغنج ، من تحت ثوبها الوردي الشفاف ، قدميها الصغيرتين في حذاء رمادي فاتح مدوّر البوز ، وتنظر تارة الى الجنب ، وتارة الى الخلف . هتف شوبين فجاة بصوت خفيض : «اها ! زويا نيكيتيشنا تلتفت كما يبدو . فلاذهب انا اليها . يلينا نيقولايفنا تزدريني الآن ، وتحترمك انت ، يا اندريه بيتروفيتش ، والامر سيان . لاذهب . كفاي فتوراً . اما انت يا صديقي ، فأنصحك بان تدرس النباتات ، فذلك في وضعك احسن ما تستطيع ان تفكر فيه . انه نافع من الناحية العلمية ايضاً . مع السلامة !» واسرع شوبين نحو زويا ، وقدّم لها ذراعاً معكوفة قائلاً : «Ihre Hand, Madame» * وامسكها ، وانطلق معها الى الامام . توقفت يلينا ، ونادت بيرسينيف ، وتأبطت ذراعه ايضاً ، ولكنها استمرت في حديثها مع اينساروف . كانت تسأله ما ذا تسمى في لغته زنبقة الوادي ، والقيقب ، والبلوط ، والزيزفون . . . (وكان اندريه بيتروفيتش المسكين يقول في سره : «بلغاريا !») .

وفجاة صدرت صيحة من الامام . رفع الجميع رؤوسهم . طارت علبة سيكائر شوبين ووقعت في أجمة ، بعد ان قذفتها يد زويا . صاح : «انتظري ، وساحاسبك على هذا !» . وانسل الى الأجمة وعثر فيها على علبة السيكائر ، وعاد الى زويا . ولكن ما كاد يقترب منها حتى طارت علبة السيكائر مرة اخرى عبر الطريق . وتكررت هذه المزحة حوالى خمس مرات ، فكان يضحك في كل مرة ، ويهدد ، اما زويا فكانت تبتسم في سرها ، وتتكور كالقطة . واخيراً قبض على اصابعها ، وعصرها عصراً جعلها توصوص ، وتنفخ على يدها وقتاً طويلاً ، بعد ذلك ، وتتظاهر بالزعل ، بينما كان يسر هو في اذنها شيئاً .

قالت آنا فاسيليفنا الى اوفار ايفانوفيتش بمرح :

– مشاكسون ، الشباب .

فلاعب هذا اصابعه .

---

* اعطيني يدك ، يا سيدة (بالالمانية في الاصل) .

وقال بيرسينيف ليلينا :

– هل ترين ما تفعل زويا نيكيتيشنا ؟

فردت عليه :

– وشوبين ؟

وخلال ذلك وصل الجمع كله الى تعريشة الحسناء ميلوفيدوفا ، وتوقف ليستمتع بمنظر بُرك تساريتسينو . وكانت تمتد عدة فرستات واحدة بعد الأخرى ، ومن ورائها كانت الغابات الكثيفة تبدو سوداء . وكان العشب البارض الذي يكسو منحدر التل كله حتى البركة الرئيسية يضفي على الماء لوناً زمردياً يانعاً على نحو فذ . وما من موجة تسري حتى عند الشاطئ ، وما من زبد ، بل ولا رقرقة تدب في سطح الماء الصقيل . وبدا وكأن كتلة زجاج متجمدة قد استقرت في جرن ضخم ثقيلة وضاءة ، وغطست السماء فيها الى القعر ، وراحت الاشجار الفرعاء تحدق ساكنة في اعماقها الشفافة . ظل الجميع يمتعون ابصارهم في المنظر بصمت ولوقت طويل ، وحتى شوبين هدأ ، وزويا غرقت في سهوم . واخيراً رغب الجميع بالاجماع في ركوب متن الماء . ركض شوبين واينساروف وبيرسينيف متسابقين على العشب الى الاسفل . وعثروا على قارب كبير مصبوغ ، ووجدوا مجذّفين ، ودعوا السيدات . نزلت السيدات اليهم . وهبط اوفار ايفانوفيتش خلفهن بحذر . وبينما كان ينزل الى القارب ، ويتخذ مكانه فيه ارتفع ضحك كثير . قال احد المجذفين ، وهو شاب افطس في قميص قطني احمر مخطط : «حذار ، يا سيد ، ان تغرقنا» فرد اوفار ايفانوفيتش : «هس ، هس ، يا عزيزي !» . وتحرك القارب . وتناول الشباب المجاذيف ، ولكن اينساروف وحده كان يحسن التجذيف . اقترح شوبين ان يغنوا جميعاً اغنية روسية ، وشرع هو يغني : «بانحدار الفولغا الام . . .» ، وانضم اليه بيرسينيف وزويا ، وحتى آنا فاسيليفنا (كان اينساروف لا يحسن الغناء) ولكن الاصوات تنافرت ، وتشربك المغنون في البيت الثالث من الاغنية ، وبيرسينيف وحده حاول ان يمضي بالاغنية بصوته الواطئ : «لا شيء يرى في الامواج» ولكنه سرعان ما ارتبك هو الآخر . وتغامز المجذفان ، وكشرا عن اسنانهما بصمت . قال لهم شوبين : «ها ؟ الظاهر ان السادة لا يعرفون كيف يغنون ؟» اكتفى الشاب ذو القميص الاحمر المخطط

بهزراسه . قال شوبين : «على مهلك ، اذن ، يا افطس . ستريك يا زويا نيكيتشنا ، غني لنا : «Le lac» لنيدرمير (٢٠) . الى التجذيف !» ارتفعت المجاذيف المبللة في الهواء ، كالاجنحة ، وجمدت في مكانها ، تقطر قطرات ترن في سقوطها في الماء . انساب القارب قليلاً ، ثم وقف ، ودار قليلاً في الماء ، كالبجعة . تمنّعت زويا فقالت آنا فاسيليفنا بلطف : «Allons !» * . خلعت زويا قبعتها وغنت : «O lac! l'année à peine a fini sa carrière...» **

وانطلق صوتها الصافي ، وان كان ضعيفاً ، منداحاً على مرآة البركة . وكانت كل كلمة ترجع صدى بعيداً في الغابات . وبدا كأن ثمة مَنْ يغني بصوت صداح وغامض ، ولكنه لاانساني لا يمت بصلة الى المكان . وحين فرغت زويا من الغناء ترددت «برافو» عالية من احدى التعريشات على الشاطئ ، وطلع منها بعض الالمان الحمر الوجوه الذين جاءوا الى تساريتسينو للهو والسمر . وكان بعضهم قد خلعوا سترهم واربطة العنق ، وحتى الصدارات ، وظلوا يصيحون «bis !» بالحاف ، حتى ان آنا فاسيليفنا امرت بالتجذيف الى طرف البركة الآخر باسرع وقت . ولكن قبل ان يرسو القارب الى الشاطئ لحق اوفار ايفانوفيتش ان يدهش اصحابه مرة اخرى فقد لاحظ ان الصدى في مكان معين من الغابة كان يرجع كل كلمة بوضوح مميز ، فراح فجاة يصيـــح بصوت السمّان . في بادئ الامر جفل الجميع ، ولكنهم شعروا عـلى الفور بارتياح حقيقي لاسيما وان اوفار ايفانوفيتش كان يصيح بمهارة شديدة وشبه كبير بالسمان . وقد شجعه هذا الامر ، فحاول ان يموء كما تموء القطة ولكن مواءه لم يكن موفقاً كثيراً . فاطلق صياح السمان ، ونظر الى الجميع وصمت . اندفع شوبين يقبله فدفعه عنه . وفي تلك اللحظة رسا القارب ، وهبط الجميع الى الشاطئ .

وخلال ذلك كان الحوذي والخادم والخادمة قد جلبوا السلال من المركبة ، واعدوا الغداء على العشب ، تحت اشجار الزيزفون المعمرة . وجلس الجميع متحلقين حول الخوان المفروش على العشب وشرعوا ياكلون معجون الطيور والاطايب الاخرى . وكانت شهيتهم

* هيا ! (بالفرنسية في الاصل) .

** ايه ، ايتها البحيرة ! ما كاد العام يقطع شوطه (بالفرنسية في الاصل) .

الجميع ممتازة ، وكانت آنا فاسيليفنا من حين لآخر ترجو ضيوفها ان يتذوقوا الاطعمة ، وتحثهم على ان ياكلوا اكثر ، مؤكدة ان الاكل في الهواء الطلق صحة وعافية . وكانت تتوجه بمثل هذه الجمل الى اوفار ايفانوفيتش ، فكان هذا يتمتم من فم مملوء : «كونـــي مطمئنة» . وكانت هي تؤكد باستمرار : «حمداً للرب على هذا اليوم الرائع !» وقد تغيرت كثيراً ، فكانها ارتدت الى الشباب عشرين عاماً . ذكر بيرسينيف ذلك لها فقالت : «نعم ، نعم . كنت في زماني مبرّزة ، اذا عدت عشر من النساء ، كنت واحدة منهن» . وانضم شوبين الى زويا ، وراح يصب لها النبيذ دون انقطاع ، فكانـــت ترفض ، فيلح في استضافتها ، حتى انتهى به الامر الى ان يشرب هو القدح كله ، ثم عاد يستضيفها من جديد . كما كان يؤكد لها انه يود ان يسند راسه الى ركبتيها ، ولم ترد هي ان تبيح لـــه «مثل هذه الفلتة الكبيرة» . وكانت يلينا اكثر الجميع جدية ، ولكن قلبها كان تغمره سكينة عجيبة لم تذقها منذ زمان . وكانت تشعـــر بانها طيبة الى ما لا حد له ، فتود ان يرافقها بيرسينيف ايضاً ، لا اينساروف وحده . . . وكان اندريه بيتروفيتش يدرك على نحو مبهم ما معنى ذلك ، ويرسل الزفرات خلسة .

انقضت الساعات سراعاً ، واقترب المساء . وفجاة لاح القلق على آنا فاسيليفنا ، فقالت : «آه ، يا ربي ، الوقت متاخر . أكلتم وشربتم ، يا سادة . والآن حان وقت الانصراف» . واستعجلت ، واستعجل الجميع معها ، ونهضوا ، وساروا باتجاه القلعة ، حيث تقف العربتان . ولما مروا بالبرك وقفوا جميعاً ليمتعوا انظارهم في تساريتسينو للمرة الاخيرة . كانت الوان ما قبيل المساء تتوهج ساطعة في كل مكان . تـوردت السماء ، والتمعت اوراق الشجـــر متماوجة الالوان ، مستثارة بهبوب النسيم . وكانت المياه البعيدة تشع كالذهب المذاب . وكانت الابراج الضاربة الى الحمـــرة والتعريشات المتناثرة في الحديقة تبرز حادة المعالم من بين خضرة الاشجار القاتمة . قالت آنا فاسيليفنا : «وداعاً ، يا تساريتسينو ، لن ننسى ابداً رحلة اليوم !» وفي تلك اللحظة وقع حادث غريب ليس من السهل نسيانه بالفعل ، وكان في حدوثه تاكيداً على قولها .

وهذا ما حدث : ما كادت آنا فاسيليفنا ترسل تحية الوداع الى تساريتسينو حتى ترددت فجاة ، من وراء اجمة ليلق عالية ، على

بعد عدة خطوات منها ، هتافات وضحكات ، وصيحات متنافر
وطلعت الى الدرب عصبة من الرجال الشعث ، هم نفس هواة ال
الذين صفقوا لزويا بحماس . وكان السادة الهواة هؤلاء في سك
شديد . توقفوا عند مرأى السيدات ، الا ان احدهم ، وهو مدي
القامة ذو رقبة كرقبة الثور ، وعينين حمراوين كعيني الثور ايضا
انفصل عن رفاقه ، وتقدم من آنا فاسيليفنا التي سمّرها
الفزع ، منحنياً بحركة خرقاء ، متمايلاً في مشيته . وقال بصوت اجش

– بونجور ، مدام . كيف صحتك ؟

تراجعت آنا فاسيليفنا قليلاً ؛ فمضى العملاق يقول بلغ
روسية ركيكة :

– لماذا لم تريدي ان تعيدي الغناء ، عندما كانت جماعتي
تصيح « bis! » وبرافو وفورو ؟

فترددت اصوات من جماعته :

– نعم ، نعم ، لماذا ؟

تقدم اينساروف الى الامام ، الا ان شوبين اوقفه ، وحجب
بنفسه آنا فاسيليفنا قائلاً :

– اسمح لي ، ايها الغريب المحترم ، ان اعرب لك ع
الدهشة الصادقة التي تثيرها تصرفاتك فينا جميعاً . انت ، بقدر
يسعفني حكمي ، من الفرع الساكسوني لقبيلة القفقاس ، وبالت
نفترض فيك الاطلاع على آداب السلوك الراقية ، بينما انت تتك
مع سيدة ليست لك معها سابق معرفة . تأكد انني في ظرف
هذا الظرف ساكون بشكل خاص مسروراً جداً للتعرف عليك ، لان
الحظ فيك تطوراً جباراً في عضلات biceps, triceps, deltoïdeus ،
ساعتبره شرفاً حقيقياً لي ، كنحات ، ان اتخذك موديلاً . ولكن
هذه المرة اتركنا وشأننا .

اصغى «الغريب المحترم» الى خطبة شوبين كلها مميلاً رأسه
جانباً بازدراء ، متخوصراً بيديه . واخيراً قال :

– انا يعرف لا شيء مما يقول انت . ربما انت يحسب
اسكافاً او اوسطه ساعات ؟ اي ! انا ضابط ، انا موظف نعم .

قال شوبين :

– انا لا اشك في ذلك .

– الذي اقوله – مضى الغريب يقول مزيحاً اياه بيده الج

كما يزاح غصن من الطريق – اقول لماذا لم تغن bis ، لما صحنا
bis ؟ والآن سانصرف في هذه اللحظـــة لو ان هذه الفراولاين ،
وليست تلك المدام ، لا حاجة لي بها ، لو ان هذه او تلك (واشار
الى يلينا والى زويا) اعطتني einen Kuss ، كما تقول بالالمانية ،
بوسة . نعم . ها ؟ هذا لا شيء .

وترددت اصوات في صفوف الجمع مرة اخرى :

– لا شيء ، einen Kuss ، هذا لا شيء .

قال الماني مغرور للغاية مختنقاً بضحكته :

– Ach! Der Sakramenter! *

امسكت زويا بيد اينساروف ، الا انه انفلت منها ، وصار
امام العملاق الوقح وجهاً لوجه . وقال له بصوت حاد وان لم يكن
عالياً :

– تفضل ، انصرف .

قهقه الالماني بثقل .

– كيف انصرف ؟ انا احب هذه ايضاً ! يعني لا استطيع انا
ايضاً ان اتنزه ؟ كيف انصرف ؟ ولماذا انصرف ؟

– لانك تجاسرت على ازعاج سيدة – قال اينساروف ، وشحب
لونه فجأة – لانك سكران .

– كيف ؟ انـــا سكـران ؟ سامعـــون ؟ ,Hören Sie das
Herr Provisor? ** انا ضابط ، وهو يجسر . . . الآن اطالب
Satisfaction! Einen Kuss will ich! ***

قال اينساروف :

– لو خطوت خطوة اخرى . . .

– طيب ؟ ماذا سيكون ؟

– سأقذفك في الماء .

– في الماء ؟ Herr Je!! **** وفقط ؟ طيب ، لنر ، هذا طريف
جداً ، كيف هذا في الماء . . .

ورفع السيد الضابط ذراعيه ، وتقدم الى الامام . ولكن شيئاً

---

* آه ، الملعون (بالالمانية في الاصل) .
** هل تسمع هذا ، ايها السيد الصيدلي ؟ (بالالمانية في الاصل) .
*** تعويضاً ! اريد قبلة (بالالمانية في الاصل) .
**** ايها السيد المسيح (بالالمانية في الاصل) .



غير اعتيادي حصل فجأة . تأوه ، وترنح جسده الضخم كله وارتفع عن الارض ، ورفست رجلاه في الهواء ، وقبل ان تلحق السيدات على الصياح ، وقبل ان يعي احد كيف حصل ذلك القذ السيد الضابط في البركة بكل جرمه مثيراً رشاشاً ثقيلاً ، واختفى في الحال ، تحت الماء الجياش .

زعقت السيدات في صوت واحد :

– آي !

وتردد من الجانب الآخر :

– Mein Gott! *

وانقضت دقيقة . . . وظهر من تحت الماء رأس مدوّر وشعر المبلل ملتصق به ، والفقاعات خارجـة منه . وتخبطت ذراعا بارتعاص قرب الشفتين تماماً . . .

صاحت آنا فاسيليفنا بإينساروف :

– انه يغرق ، انقذه ، انقذه !

وكان إينساروف يقف على الشاطئ منفرج الساقين ، تقيل الانفاس . فقال بلامبالاة قاسية ومزدرية :

– سيخرج سباحة – ثم اضاف ، وهو يمسـك بيد آنا فاسيليفنا – لنذهب ، لنذهب ، يا اوفار ايفانوفيتش ، يلينا نيقولايفنا .

وفي تلك اللحظة صدرت صيحة :

– ا . . آ . . . أو . . أو . . .

رددها ذلك الالماني التعيس ، وقد استطاع ان يتشبث بغص قرب الشاطئ .

وسار الجميع في اثر إينساروف ، وكان على الجميع ان يمر بـ«الجماعة» ذاتها ، وقد خسرت رئيسها ، فهدأت ولم تنبس بكلمة سوى ان احد افرادها ، وهو اكثر جرأة ، تمتم ، وهو يهز رأسه «أوه ، هذا . . على اية حال . . . الله يعلم ماذا . . . بعد هذا بل ان آخر رفع قبعته . لقد بدا إينساروف لهم رهيباً جداً ، وم صدق فقد ارتسم على وجهه شيء منذر ، شيء خطير . هرع الالمان ليخرجوا رفيقهم ، وما كاد هذا يقف على ارض صلبة حتى اخذ يشتم

---

* يا الهي (بالالمانية في الاصل) .

بمئزرة ، ويصرخ في اثر هؤلاء «المحتالين الروس» بانه سيرفع شكوى ، وسيذهب الى سيادة الكونت فون-كيزيرتس نفسه . . . الا ان «المحتالين الروس» لم يعيروا لصياحاته التفاتاً ، وساروا نحو القلعة باسرع ما يستطيعون . التزم الجميع الصمت ، حين كانوا يسيرون في الحديقة ، الا ان آنا فاسيليفنا كانت تتاوه بخفوت . ولكنهم ما كادوا يقتربون من العربتين ، وتوقفوا ، حتى ارتفع منهم ضحك متواصل لا يكبح ، مثل ضحك الآلهة لدى هوميروس (٢١) . في البداية انفجر شوبين في ضحك موصوص ، كالمجنون ، وتبعه بيرسينيف ، في ضحك مكركر ، ثم لحقته زويا في ضحك ناعم ، وانفجرت آنا فاسيليفنا هي الاخرى فجاة ، وحتى يلينا لم تستطع ان تكبح بسمتها وتلاشت مقاومة اينساروف اخيراً ، فضحك . ولكن اوفار ايفانوفيتش كان اعلاهم ضحكاً واطولهم فيه ، واكثرهم حماساً ، ضحك حتى وخزته خاصرته ، وسعَل ، واختنقت انفاسه . وكان يهدأ قليلاً ، ليقول والدموع في عينيه : «فكرت . . . ما هذا يلبط ؟ . . فهذا . . . هو . . . مبطوح . . .» وكانت الكلمة الاخيرة المرعوصة تكتمها نوبةٌ ضحك اخرى تهز كيانه كله . وكانت زويا تحضه اكثر قائلة : «رايته . . . رجلاه في الهواء . . .» فيقول اوفار ايفانوفيتش : «نعم ، نعم ، رجلان ، رجلان . . . ريب ! فهذا هو . . . مبطوح ! . .» — فتسال زويا : «وكيف تحايل عليه . . . والالماني اكبر منه بثلاث مرات ؟» فيقول اوفار ايفانوفيتش ، وهو يمسح الدموع من عينيه : «ساقول لك . رايت مبنى . طوّقه بيد ، ووضع قدماً امامـــه فتشقلب ! سمعت الصوت . ما هذا ؟ . . فاذا هو مبطوح . . .»

ولم يهدأ اوفار ايفانوفيتش حتى بعد ان تحركت العربتان ، واختفت قلعة تساريتسينو عن الانظار . وكان شوبين يجلس معه في طريق العودة ايضاً ، فاخذ يعيب عليه ليسكت .

وكان اينساروف يشعر بالخجل . كان يجلس في المركبة قبالة يلينا لائذاً بالصمت (كان بيرسينيف يجلس الى جانب الحوذي) وكانت يلينا صامتة ايضاً . كان اينساروف يفكر في انها تدينه ، ولم تكن هي تدينه . كانت قد فزعت فزعاً شديداً في الوهلة الاولى ، ثم اذهلها التعبير الذي كان مرتسماً على وجهه ، وبعد ذلك ظلت تفكر . ولم يكن واضحاً لها تماماً ما كانت تفكر فيه . لقد اختفى



الشعور الذي كانت تحس به خلال النهار ، وكانت تعي ذلك ، ا
ان شعوراً آخر لم تكن تفهمه بعد قد حل محله . لقد استمر
partie de plaisir وقتاً اطول من اللازم ، وتحول المساء الى لي
دون ان يلحظ . وكانت المركبة تنطلق مسرعة خلال حقول محاصي
ناضجة ، حيث الهواء كثيف وآرج ، وفواح برائحة الخبز ، ثم خلال
مروج واسعة تمر نداوتها المفاجئة على الوجوه مثل مُويجة خفيفة
وكانت السماء تبدو داخنة في حوافيها . واخيراً انساب القمر احم
شاحباً . كانت آنا فاسيليفنا تهوم ناعسة ، وزويا تطل براس
من النافذة ، تتطلع الى الطريق . خطر في بال يلينا اخيراً انها ل
تتحدث مع اينساروف منذ اكثر من ساعة . فتوجهت اليه بسؤال
بسيط ، فاجابها على الفور بفرح . وسرت في الهواء اصوات مبهمة
حتى لكأن آلاف الاصوات تتكلم في مكان بعيد : صارت موسكو تقترب
مندفعة نحوهم . وتوامضت اضواء الى الامام ، ظلت تكثر وتكثر
واخيراً صارت احجار الطرق المرصوفة ترن تحت العجلات . استيقظت
آنا فاسيليفنا ، واخذ جميع مَنْ في المركبة يتكلمون ، رغم ان ا
واحد منهم لم يستطع ان يلتقط كلمات الحديث ، بسبب القرقعة
الشديدة التي كانت ترسلها العربتان واثنان وثلاثون حافراً ع
الطريق المبلط . وبدا الطريق من موسكو الى كونتسوفو طويلاً
ومضجراً . نام الجميع او لاذوا بالصمت ، متكئين برؤوسهم الى زوايا
مختلفة .. ويلينا وحدها لم تغمض عينيها . فقد كانت تصوبهما ا
شبح اينساروف المعتم . وجثمت الكآبة على شوبين . كانت الريح
تهب في عينيه ، وتضايقه ، لفّ راسه في ياقة معطفه ، وكاد ا
ينفجر باكياً . وكان اوفار ايفانوفيتش يشخر في هناءة مترنحاً يمينا
وشمالاً . واخيراً توقفت العربتان . اخرج خادمان آنا فاسيليفنا م
المركبة . فقد خارت قواها كلياً ، واعلنت ، وهي تودّع المسافرين
معها ، انها تكاد تموت اعياء ، صاروا يشكرونها ، بينما ظلت هي
تردد «اكاد اموت» . صافحت يلينا (للمرة الاولى) يد اينساروف
وبقيت جالسة الى النافذة وقتاً طويلاً دون ان تخلع ملابسها
وسنحت لشوبين الفرصة ليهمس لبيرسينيف اثناء خروجه :

– بطل ، بالطبع . يقذف الالمان السكارى في الماء .

– اما انت فلم تقدم حتى على هذا .

ردّ بيرسينيف عليه ، واتجه الى البيت بصحبة اينساروف

وعندما عاد الصديقان الى بيتهما كان الفجر يتراءى في السماء . والشمس لم تنهض بعد ، وفي الجو شيء من برودة الليل ، والندى الفضي يغطي العشب ، والقُبَّرات الاول تصدح عالياً في الغور الهوائي الفاسق ، حيث نجمة الليل الكبيرة الاخيرة تطل من هناك مثل عين وحيدة .

١٦

كانت يلينا ، بعد وقت قصير ، من تعرفها على اينساروف قد شرعت تكتب يوميات (للمرة الخامسة او السادسة) . وهذه مقتطفات من هذه اليوميات :

. . . **حزيران** . يجلب اندريه بيتروفيتش لي كتباً ، ولكنني لا استطيع قراءتها . وانا اخجل من الاعتراف له بذلك ، ولا ارغب في رد الكتب اليه قائلة اليه كاذبة : لقد قراتها .. اظنّ ذلك سيكدره . انه يلحظ كل شيء يخصني . يبدو انه متعلق بي جداً . اندريه بيتروفيتش رجل لطيف جداً .

. . . ماذا اريد ؟ ولماذا قلبي مثقل ومنقبض بهذا الشكل ؟ ولماذا انظر الى الطيور العابرة بحسد ؟ يبدو انني اتمنى ان اطير معها ، اطير ، ولا ادري الى اين ، فقط ان اطير بعيداً ، بعيداً ، عن هنا . اوليست هذه رغبة آثمة ؟ ان لي ، هنا ، اماً واباً وعائلة . اولست احبهم ؟ لا ، لست احبهم الحب الذي اهوى . ويرعبني ان اقول ذلك . ولكنه حق . فلعلي آثمة كبيرة ، ولربما لهذا السبب احس بهذه الكآبة ، وافتقر الى سكينة النفس . ان يداً تهبط عليّ ، وتسحقني . وكأنني في سجن ، وجدرانه ستنهار عليّ بين لحظة واخرى . لماذا لا يشعر الآخرون شعوري هذا ؟ ومَنْ سأحب ، اذا كنت باردة الاحساس مع اهلي ؟ يبدو ان ابي على حق ، حين يؤنبني بانني لا احب غير الكلاب والقطط . يجب ان افكر في ذلك . انا قليلة الصلاة ، يجب ان اصلي . . . يبدو انني قادرة على ان احب ، على اية حال !

. . . انا ما ازال اتهيب من السيد اينساروف ، ولا اعرف السبب . لا اظنني صغيرة جداً . انه رجل بسيط وطيب ، ووجهه ،

في بعض الاحيان ، رزين جداً . ولعل في ذهنه ما يشغله عنا . وان
اشعر بذلك ، واخجل ، على ما يبدو ، من ان انتزع منه وقته
واندريه بيتروفيتش شيء مختلف . وانا مستعدة لأن ازثر معه
النهار بطوله ، اذا اردت . ولكنه هو الآخر يحدثني دائماً عن
اينساروف . وباية تفاصيل مرعبة ! الليلة حلمت به ، والخنجر في
يده ، وهو يقول لي : «ساقتلك ، واقتل نفسي» . اية سخافات !

. . . . آه ، لو ان احداً قال لي : هذا ما ينبغي ان تفعليه
قليل انْ يكون الانسان خيِّراً . المهم ان يفعل الخير . اجل ، ذلك
هو الاساسي في الحياة . ولكن كيف يفعل الخير ؟ آه ، لو كنت
استطيع ان امسك بزمام نفسي ! انا لا ادري لماذا افكر في السيد
اينساروف ، وبهذه الكثرة . حين يأتي الينا ، ويجلس ، ويصغي
باتنباه ، دون ان يبدو عليه تكلف او اجهاد ، احدق فيه ، واحس
بارتياح ، ولكن لا شيء آخر . غير انه حين ينصرف اظل اتذكر
كلماته ، واضيق من نفسي ، بل وانفعل . . . ولا اعرف لماذا
(انه يتكلم الفرنسية بطريقة سيئة ، ولكنه لا يخجل من ذلك ، وهذا
ما يعجبني منه .) وعلى العموم انا دائمـــاً افكر كثيراً في الوجوه
الجديدة . عندما كنت اتحدث معه تذكرت فجاة ساقينا فاسيلي
الذي اخرج عجوزاً مبتور القدمين من كوخ يحترق ، وكاد يودي
بحياته . وقد نعته ابي بالشاطر ، واعطته امي خمسة روبلات ،
بينما اردت انا ان انحني امامه . ان له ايضاً وجهاً بسيطاً ، بل
وبليداً ، ثم صار ، بعد ذلك ، سكيراً .

. . . اليوم اعطيت قرشاً لشحاذة . ولكنها قالت لي : لماذا
انت حزينة بهذا الشكل ؟ انا لا احدس ان لي مظهراً حزيناً . اظن
ان ذلك راجع الى انني وحيدة ، طوال الوقت وحيدة ، مع كل طيبتي
ومع كل شري . لا احد امد له يدي . لا اريد مَنْ يتقرب اليّ . . .
بل اريد مَنْ يتخاطاني .

. . . لا ادري ماذا بي اليوم . رأسي غائم . انا مستعدة الى
ان اركع على ركبتي ، واطلب واستجدي الرافة . يخيل اليّ انني
أُقتل ، لا اعرف كيف ، ولا مَنْ يقتلني ، واصرخ في سري واختنق
ابكي ، ولا استطيع ان اصمت . . . يا الهي ! يا الهي ! اكبح في
هذه السورات ! فانت وحدك قادر على ذلك . ولا شيء غيرك . لا
شيء يستطيع ان يسعفني ، لا حسناتي الصغيرة ، ولا اشغالي

لا شيء . ليتني اخرج لاخدم في احد البيوت ، حقاً ، فان ذلك سيخفف
عما اقاسي . ما جدوى الشباب ، ما جدوى ان اعيش ، ولِمَ لي روح ،
لِمَ كل هذا ؟

. . . اينساروف ، السيد اينساروف — لا اعرف كيف اسميه —
ماهر في الاستحواذ على انتباهي . اود لو اعرف ماذا يجري في قلبه .
وهو يبدو لي صريحاً جداً ، وميسراً على الفهم ، ومع ذلك لا انفذ الى
شيء . احياناً ينظر اليّ بعينين سابرتين . . . ام ذلك ما اتصوره لا
غير ؟ بول لا يزال يناكدني وانا غاضبة عليه . ماذا يريد ؟ انه
يعشقني ، ولكنني لست بحاجة الى هذا العشق . وهو يعشق زويا
ايضا . انا لست منصفة معه . قال لي يوم امس انني لا استطيع
ان اكون غير منصفة الى النصف . . . هذا صحيح . هذا سيئ جداً .
آه ، انا احس بأن الانسان يحتاج الى بلية او شقاء او الى
مرض . والا فانه يشمخ .

. . . لماذا حدثني اندريه بيتروفيتش اليوم عن هذين البلغاريين !
يبدو انه تقصّد ذلك . وما شاني بالسيد اينساروف ؟ انا غاضبة
على اندريه بيتروفيتش .

. . . امسك الريشة ، ولا اعرف كيف ابدأ . يا لها من مفاجأة حديثه
اليوم معي في الحديقة ! كم كان ودوداً وواثقاً ! وكيف حصل هذا
بهذه السرعة ! وكأننا صديقان قديمان ، قديمان ، والآن فقط عرف
احدهما الآخر . كيف لم استطع ان افهمه حتى الآن ! وما اقربه اليّ
الآن . والشيء المذهل انني الآن صرت اهدأ بكثير . يضحكني انني
غضبت يوم امس على اندريه بيتروفيتش ، وعليه ، بل ناديته
السيد اينساروف . اما اليوم . . . عثرت اخيراً على انسان صادق
يمكن الاعتماد عليه . انه لا يكذب ، انه اول انسان التقيه ، لا
يكذب . الآخرون جميعاً يكذبون ، كل شيء كذب . يا عزيزي
اندريه بيتروفيتش ، الطيب لماذا تراني اجور عليك ؟ لا ! وربما
اندريه بيتروفيتش اكثر منه علماً ، بل ولربما اكثر ذكاء .
ولكن يبدو امامه صغيراً جداً ، ولست ادري لماذا . وحين يتكلم
ذاك عن وطنه ينمو وينمو ويكتسي وجهه رونقاً ، وصوته كالفولاذ ،
فيبدو لي ، آنذاك ، ان ما من انسان في العالم يمكن ان ينكس بصره
امامه . وهو لا يتكلم فقط ، بل هو يعمل وسيعمل . ساكتر من

سؤاله . . . واذا به يستدير اليّ ، ويبتسم لي ! . . . الاخر
فقط يبتسمون بهذا الشكل . آه ، كم انا راضية ! عندما جاءنا في
المرة الاولى لم اكن اتصور قط ان احدنا سيقترب من الآخر بمثل
هذه السرعة . بل يعجبني الآن انني بقيت في المرة الاولى غير
مبالية . . . غير مبالية ! وهل معقول انني مبالية الآن ؟

. . . منذ زمان لم اشعر بمثل هذه السكينة . هادئة نفسي
هادئة جداً . وليس لي ما ادوّنه . غالباً ما اراه ، وهذا كل ما في
الامر . فماذا ادوّن اكثر ؟

. . . صار بول يعتكف مع نفسه ، وقلّت زيارات اندريه
بيتروفيتش . . . مسكين ! يبدو لي انه . . . على العموم هذا
غير ممكن . انا احب التحدث الى اندريه بيتروفيتش . لم يتحدث
بكلمة عن نفسه قط ، دائماً عن شيء جدي ونافع . وليس مثل
شوبين المتأنق كالفراشة ، ويعجب بقيافته . وهو شيء لا تفعله
الفراشات . وشوبين واندريه بيتروفيتش كلاهما ، على اية حال ، . . .
انا اعرف ماذا اريد ان اقول .

. . . **انه** يرتاح لزيارتنا ، ويمكنني ان ارى ذلك . ولكن
لماذا ؟ وما وجد فيّ ؟ حقاً ان ذوقينا متشابهان ، وكلانا ، — هو
وانا — لا يحب الشعر ، فكلانا ليس عليماً في الفن . ولكنه افضل
مني بكثير ! انه هادئ ، وانا في اضطراب دائم . ان له طريقاً
هدفاً ، وانا الى اين اذهب ؟ اين عشي ؟ انه هادئ ، ولكن كل
افكاره تحلق في البعيد . سيأتي وقت ، وسيتركنا الى الابد ، يرجع
الى وطنه ، وراء البحر ، هناك . وما في ذلك ؟ مع عون الله ! على
اية حال ساكون مسرورة لانني عرفته ، حين كان هنا .

ولماذا هو غير روسي ؟ لا ، ما كان من الممكن ان يكون
روسياً .

امي تحبه ، وتقول انه رجل متواضع . امي طيبة ! انها لا
تفهمه . وبول صامت ، حدس ان تلميحاته لا تعجبني . ولكنه
يغار منه . صبي خبيث ! وهل له حق في ذلك ؟ هل كنت يوماً
ما . . .

كل هذه توافه ! ولِمَ يدور كل هذا في ذهني ؟

. . . ولكن من الغريب ، على اية حال ، انني حتى الآن ، وانا
في العشرين من العمر لم احب احداً ! يبدو لي ان صفاء قلب

واحاسيسه د ، فان اسمه «دميتري» يعجبني) ان صفاء قلبه
بهذا الشكل عائد الى انه وهب نفسه كلها لقضيته ، لامنيته . وما
الداعي الى ان يقلق ؟ ان كل منْ وهب نفسه كلها . . .
كلها لا يضطرب ، ولا يابه لشيء . لست **انا** التي تريد
بل **ذلك** يريد . بالمناسبة ، انا وهو نحب نفس الزهور .
اليوم انتطفت وردة . سقط تويج فرفعه . . . قدمت له
وردتي .

حلمت منذ بعض الوقت احلاماً غريبة . فما معنى هذا ؟

. . . د يتردد علينا كثيراً . يوم امس قضى المساء كله
عندنا . انه يريد ان يعلمني اللغة البلغارية ، وانا احس بارتياح
معه ، وكاننا بين اهلي ، بل احسن .

. . . الايام تمر سراعاً . . . وانا احس بارتياح ، وخوف
لسبب ما ، واريد ان احمد الله ، والعبرات توشك ان تطفر من
عيني . آيه ، ايتها الايام الدافئة الوضيئة !

. . . . ما زلت احس بانشراح ، كالسابق ، ولكن شيئاً من
الحزن ينتابني من حين لآخر . انا سعيدة . هل انا سعيدة ؟

. . . . ساظل طويلاً اتذكر رحلة يوم امس . اية انطباعات
غريبة ، جديدة ، مخيفة ! عندما رفع ذلك العملاق فجأة ، والقاه
في الماء ، كما تلقى كرة ، لم ارتعب . . . ولكن هو الذي ارعبني .
رايت وجهه بعد ذلك منذراً بالشؤم ، يكاد ان يكون فظاً ! كيف
عبّر عند ذاك : سيخرج سباحة ! اثر فيّ هذا جداً . يعني انا لم
افهمه . وفيما بعد ، اخذ الجميع يضحكون ، وضحكت انا ايضا ،
تالمت له ! شعر بالخجل . هذا ما احسسته . خجل مني . وقد
قال لي ذلك ، فيما بعد ، حينما كنا في المركبة ، في الظلام ، حين
كنت اتفرس فيه ، واخشاه . اجل ، لا مجال للمزاح معه ، وهو
يجيد الدفاع . ولكن لِمَ هذا الغيظ ، هاتان الشفتان المرتعشتان ،
هذا السم في العينين ؟ ام لعل هذا لا بد منه ؟ ولا يجوز ان تكون
رجلاً ، مناضلاً ، وتظل وديعاً ناعماً في الوقت ذاته ؟ قبل حين قال
لي الحياة فظة . وقد كررت هذه الكلمة على اندريه بيتروفيتش ،
فلم يتفق مع د . فايهما على حق ؟ ثم ما اروع ما ابتدانا به النهار !
وما احناني وانا اسير الى جانبه ، ولو نصمت . . . ولكنني مسرورة
بما حدث . الظاهر ان هذا ما كان ينبغي .

. . . القلق مرة اخرى . . . لست في حالة صحية جيدة .

. . . خلال هذه الايام كلها لم اكتب شيئاً في هذا الدفتر لانني لم اجد في نفسي الرغبة في الكتابة . شعرت بأنني مهما كتبت لن اعبر عما في قلبي . . . ولكن ماذا في قلبي ؟ جرى بينه وبين حديث طويل كشف لي الكثير . حدثني عن مشاريعه (بالمناسبة انا اعرف الآن سبب الجرح على رقبته . . . يا ربي ! حين افكر بانه قد حكم بالاعدام ، وما كاد ينجو ، وانه قد جرح . . .) وهو يستشعر بوقوع الحرب ، ويفرح بها ، ومع كل هذا لم ... قط حزيناً بهذا الشكل . . . ما الذي يمكن ان يحزنه هو ؟ ... بابا من المدينة ، ووجدنا جالسين سوية ، فنظر الينا نظرة غريبة ... زارنا اندريه بيتروفيتش ، فلاحظت انه قد نحف كثيراً وشحب لونه . وعاتبني زاعماً انني اعامل شوبين ببرود شديد وباهمال ولكنني نسيت بول هذا تماماً . اذا رأيته سأحاول ان اصلح ذات البين . لي ما يشغلني عنه الآن ، وعن اي شخص آخر في الدنيا ... كان اندريه بيتروفيتش يتكلم معي بشيء من الاسف . فما ... كل هذا ؟ لِمَ اشعر بالظلام حولي ، وفي داخل نفسي ؟ يبدو لي ... ما يحدث حولي وفي داخلي مُلغز ، وانا احتاج الى العثور على الكلمة المعبرة عنه . . .

. . . لم انم الليل . راسي يؤلمني . ولِمَ اكتب ؟ اليوم انصرف بسرعة ، وكنت في شوق الى ان اتحدث اليه . . . يبدو وكأنه يتحاشاني . نعم ، انه يتحاشاني .

. . . وجدت الكلمة . غمرني ضوء ! ياالهي ، ارحمني . . . عاشقة !

١٧

في نفس اليوم الذي كانت يلينا فيه تسجل تلك الكلمة القدرية في يومياتها ، كان اينساروف جالساً في حجرة بيرسينيف ، وكان بيرسينيف يقف امامه والحيرة مرتسمة على وجهه . وكان اينساروف قد ابلغه لتوه عن نيته في الانتقال في اليوم التالي الى موسكو . هتف بيرسينيف :

— رحماك ! الآن سيبدأ اجمل وقت هنا . فما الذي تفعله في موسكو ؟ اي قرار فجائي هذا ! ام لعلك تلقيت خبراً معيناً ؟

قال اينساروف :

— لم اتلق اي خبر . ولكن لا يجوز ان ابقى هنا ، حسب ما ارى .

— ولكن كيف يمكن هذا . . .

قال اينساروف :

— اندريه بيتروفيتش ، اعمل معروفاً ، ولا تلح . ارجوك . انا نفسي يعز عليّ ان افارقك . ولكن لا بد مما ليس منه بد .

تفرس بيرسينيف فيه . ثم قال اخيراً :

— انا اعرف انه لا يمكن اقناعك . يعني قرارك نهائي ؟

— نهائي تماماً .

ردّ اينساروف ، ونهض وانصرف .

ذرع بيرسينيف حجرته ذهاباً ومجيئة ، ثم تناول قبعتـــــه ، وذهب الى آل ستاخوف .

قالت له يلينا حين بقيا وحيدين :

— لديك ما تخبرني به .

— نعم ، وكيف حدست ؟

— هذا لا يهم . قل لي ماذا وراءك ؟

واخبرها بيرسينيف بعزم اينساروف .

شحُبت يلينا . ونطقت بعسر :

— ماذا يعني هذا ؟

قال بيرسينيف :

— انت تعرفين ان دميتري نيكانوروفيتش لا يحب الكشف عما وراء تصرفاته . ولكنني اعتقد . . . لنجلس ، يلينا نيقولايفنا ، يبدو عليك التوعك . . اظن انني استطيع ان احدس السبب الحقيقي لسفره المفاجىء .

— ما هو السبب الحقيقي ؟

كررت يلينا ، وهي تعصر بقوة يد بيرسينيف في يدها الباردة ، دون ان تلحظ ذلك .

شرع بيرسينيف يقول بابتسامة حزينة :

— وكيف اشرح لك ذلك ؟ يتعينّ عليّ ان اعود الى الربيع

الماضي ، الى الوقت الذي تعرفت بإينساروف عن كثب . التقيته آنذاك ، في بيت احد اقاربي . وكانت لقريبي هذا ابنة ، مليحة جدا وكان يخيّل اليّ ان اينساروف شغوف بها ، وقلت له ذلك ضحك واجاب بانني مخطئ ، وان قلبه سليم ، وان ذلك لو حصل له فسيرحل على الفور ، لانه لا يرغب في ان يخون قضيته وواجبه من اجل اشباع عاطفة شخصية . وكانت هذه كلماته بالذات وقال «انا بلغاري ، ولا حاجة بي الى حب روسي . . .»

– طيب . . . وماذا . . . الآن انت . . .

همست يلينا مشيحة راسها لاارادياً ، كمن يتوقع صفعة ولكنها بقيت تمسك بيد بيرسينيف .

قال بيرسينيف :

– اظن – ثم خفض صوته وكرر – اظن ان ما كنت اخمنه قبل بدون موجب ، قد تحقق الآن .

ندت من يلينا فجأة :

– يعني . . . انت تظن . . . لا تعذبني . . .

اسرع بيرسينيف ليقول :

– اظن ان اينساروف الآن قد احب فتاة روسية ، فعزم ع... الفرار ، وفاء بعهده .

زادت يلينا من ضغطها على يد بيرسينيف ، وطأطأت راس... اكثر ، وكأنها تريد ان تخفي عن بصر الغريب حمرة الخجل ال... ضرّجت فجأة وجهها وعنقها . قالت :

– انت ، يا اندريه بيتروفيتش ، طاهر كملاك . ولكن الا يأتي ليودعنا ؟

– نعم ، هذا ما اظن . سيأتي بالتأكيد ، لأنه غير راغب ... الرحيل . . .

– قل له ، قل . . .

ولكن هذه الفتاة المسكينة لم تسيطر على مشاعرها في هذه اللحظة ، فقد ترقرقت الدموع في عينيها ، فركضت خارجة من الحجرة .

صار بيرسينيف يفكر ، وهو يعود الى بيته ببطء الخطى «اذن ، فهي تحبه بهذه الصورة . لم اكن اتوقع ذلك ، لم اكن اتوقع ان ذلك قوي الى هذه الدرجة –ومضى في افكاره – تقول

انني طاهر النفس . فمن يدري اية مشاعر وبواعث دفعتني الى ان اتهم يلينا بكل ذلك ؟ كل شيء ، الا طهارة النفس . بل مجرد الرغبة اللعينة في ان اقتنع بان النصل قد نفذ الى الجرح بالفعل ؟ يجب ان اكون راضياً . احدهما يحب الآخر ، وقد ساعدتهما على ذلك . شوبين يدعوني بـ«الوسيط المقبل بين العلم والجمهور الروسي» . والظاهر ان القدر كتب عليّ منذ الولادة ان اكون وسيطاً . ولكن ماذا لو كنت على خطأ ؟ لا ، لست على خطأ . . .»

وكان اندريه بيتروفيتش يحس بالمرارة . ولم يفكر في قراءة راومر» .

في نحو الساعة الثانية من اليوم التالي وصل اينساروف الى بيت آل ستاخوف . ومن نكد الطالع ان آنا فاسيليفنا كانت تستضيف في حجرة الجلوس ، في ذلك الوقت ، جارة ، زوجة قس ، وهي امرأة طيبة ومحترمة ، ولكن مشكلة صغيرة كانت قد حصلت لها مع الشرطة ، حين خطر في ذهنها ان تسبح في اوج الحر ، في بركة قرب طريق كان كثيراً ما تسلكه عائلة جنرال ذي شأن . في بادئ الامر كانت يلينا مرتاحة بوجود الضيفة الغريبة ، وقد غاض الدم من وجهها حالما سمعت وقع اقدام اينساروف ، ولكن قلبها تقلّص ، حين فكرت في انه قد ينصرف مودعاً ، دون ان يتكلم معها على انفراد . اما اينساروف فقد بدا مرتبكاً ، وقد تحاشى نظراتها . كانت يلينا تفكر : «معقول انه سيودع الآن ؟» وبالفعل توجه اينساروف نحو آنا فاسيليفنا . اسرعت يلينا بالنهوض ، وانتحت به جانباً ، قرب النافذة . دُهشت زوجة القس ، وحاولت ان تلتفت ، ولكنها كانت مضغوطة جداً ، حتى ان مِشد الوسط كان يصر عند كل حركة . فبقيت جامدة في موضعها . اسرعت يلينا تقول :

– اسمع . انا اعرف لماذا جئت . فقد ابلغني اندريـــه بيتروفيتش بنيتك ، ولكنني ارجوك ، اتوسل اليك ان لا تودعنا اليوم ، بل تعال غداً في وقت مبكر ، في نحو الحادية عشرة . فانا اريد ان اقول لك كلمتين .

احنى اينساروف راسه صامتاً .

– لن اؤخرك . . . فهل تعدني ؟

انحنى اينساروف ثانية ، ولكنه لم يقل شيئاً .

قالت آنا فاسيليفنا :

– لينوتشكا ، تعالي هنا . وانظري اية محفظة يدوية را
هذه .

قالت زوجة القس :

– طرزتها بيدي .

ابتعدت يلينا عن النافذة .

قضى ايتساروف لدى آل ستاخوف ما لا يزيد عن ربع ساعة . كانت يلينا تراقبه خلسة . كان يراوح في مكانه ، ولا يعرف ، عهده السابق ، الى اين يصوب بصره ، وانصرف على نحو غريب وخطفاً ، وكأنه تلاشى .

انقضى ذلك اليوم ببطء ، بالنسبة ليلينا ، والليل الطويل تراخى اكثر بطئاً . كانت احياناً تجلس على السرير محتضنة ركبتيها بيديها واضعة راسها عليهما ، واحياناً تقترب من النافذة ، ملقية جبينها الحار على زجاجها البارد ، وتظل تفكر وتفكر بنفس الافكار الى حد الاعياء . وكان قلبها يصير كالحجارة تارة او يختفي من صدرها فلا تحس به ، ولكن العروق في رأسها كانت تدق متوترة ، وشعرها يلسعها ، وشفتاها تتيبسان . كانت تقول لنفسها : «سيأتي . . . اذ لم يودع امي . . . وهو لن يخدع . . . هل معقول ان الدري بيتروفيتش كان صادقاً في قوله ؟ غير ممكن . . . لم يعد يلسا انه سيأتي . معقول انني فارقته الى الابد ؟» ولم تغب هذه الافكار عن ذهنها ، لم تغب بالضبط ، لم تات ولم تعد – ظلت تطوف فيها كالضباب دون انقطاع . وفجاة توهج «انه يحبني !» في كيانها كله فحدّقت متفرّسة في الظلمة ، وافترت شفتاها عن ابتسامة سرية لا يراها احد . . . ولكنها هزّت رأسها على الفور ، ورفعت الى علبائها اصابع يديها المعقودة ، ومن جديـــد طافت الافكار السابقة في راسها كالضباب . . وقبيل الصباح خلعت ملابسها واستلقت على الفراش ، ولكنها لم تستطـــع ان تغفو . وقعت شعاعات الشمس النارية الاولى في حجرتها ، فهتفت فجاة : «آه ، لو كان يحبني» ، وبسطت ذراعيها دون ان تخجل من الضوء الذي اضاءها . . .

نهضت ، وارتدت ملابسها ، ونزلت الى الاسفل . لم يكن احد في البيت قد استيقظ بعد ، فخرجت الى الحديقة ، ولكنها احست بالرهبة مما حولها من سكون وخضرة وندوة ، ومن الطيور تصدح

بثقة ، ومن الزهور تتفتح ببهجة . وفكرت : «آه ! لو كان ذلك صحيحاً ، لكنت اسعد من كل عشب ، ولكن هل هذا صحيح ؟» وعادت الى حجرتها ، واخذت تغيّر ثوبها تزجية للوقت . ولكن كل شيء كان يفلت وينزلق من بين يديها ، وكانت ما تزال جالسة امام مرآة الزينة دون ان تكمل ملابسها ، حين نادوها لتنزل وتشرب الشاي . نزلت . فلاحظت امها شحوبها ، ولكنها لم تقل سوى : «انت اليوم جذابة جداً» ، والقت نظرة اليها من رأسها حتى اخمص قدميها ، واضافت : «هذا الثوب لائق لك كثيراً فالبسيه دائماً ، كلما اردت ان تثيري اعجاب احد» . لم ترد يلينا بشيء ، وجلست في ركن . وخلال ذلك دقت الساعة معلنة التاسعة ، ما تزال هناك ساعتان حتى تحل الحادية عشرة . اخذت يلينا كتاباً ، ثم انتقلت الى الخياطة ، وبعد ذلك عادت الى الكتاب ، ثم آلت على نفسها بأن تقطع درباً معرشاً واحداً مائة مرة ، وقطعته ، ثم راقبت لوقت طويل كيف تفرش آنا فاسيليفنا الورق في لعبة الصبر* . . . ثم نظرت في الساعة . لم تصل الى العاشرة بعد . . . دخل شوبين الى حجرة الجلوس . حاولت ان تتحدث معه ، واعتذرت له عن شيء هي نفسها لا تعرف ما هو . . . وكانت كل كلمة تنطقها لا تكلفها جهداً ، بل تثير في نفسها حيرة . مال شوبين نحوها ، فتوقعت سخرية . رفعت بصرها فرات امامها وجهاً حزيناً ودوداً . . . ابتسمت لهذا الوجه . ابتسم شوبين لها ايضاً في صمت ، وخرج بهدوء . ارادت ان توقفه ، ولكنها تريثت ولم تتذكر على الفور لتناديه . واخيراً دقت الحادية عشرة . راحت تنتظر ، وتنتظر ، وتنتظر ، وترهف سمعها . وتعذّر عليها ان تفعل اي شيء ، بل وكفت عن التفكير . وسرت الحيوية في قلبها فصار يدق اقوى فاقوى . والغريب ان الوقت بدا وكأنه يمر اسرع من ذي قبل . مر ربع ساعة ، مر نصف ساعة ، مرت بضع دقائق اخر ، حسب تصورها ، وفجاة ارتعدت يلينا . دقت الساعة لا الثانية عشرة ، بل الواحدة : «لن ياتي ، سيرحل دون ان يودّع . . .» واندفعت هذه الفكرة مع الدم الى رأسها . واحست بان انفاسها تتقطع ، وانها على وشك ان تبكي . . . ركضت الى حجرتها ، وارتمت على الفراش ، ووجهها على ذراعيها المطويتين .

---

* نوع من لعب الورق . **الناشر** .

استلقت نصف ساعة بلا حراك ، وقد انهمرت الدموع من خلال اصابعها على المخدة . وفجأة ، رفعت جسمها ، وجلست ، فان شيئاً غريباً قد حدث في داخلها . تغير وجهها ، وجفت عيناها الدامعتان تلقائياً ، فاخذتا تلمعان ، وانعقد حاجباها ، وانطبقت شفتاها . مر نصف ساعة آخر . وارهفت يلينا سمعها للمرة الاخيرة ، لعلها تلتقط صوته الأليف .ثم نهضت ، ولبست قبعتها وقفازيها والقت العباءة على كتفيها ، وانسلت من البيت دون ان تلحظ وسارت بخطى سريعة في الطريق المؤدي الى مسكن بيرسيتيف .

١٨

سارت يلينا مطرقة الراس ، مصوبة بصرها الى الامام . لم تكن تخاف شيئاً ، ولم تكن تعي شيئاً ، كانت تريد ان ترى اينساروف مرة اخرى . سارت دون ان تفطن الى ان الشمس قد غابت منذ وقت طويل محجوبة بسحب سوداء ثقيلة ، وان عصفات الريح تهز في الاشجار ، وتنفخ ثوبها ، وان الغبار قد ارتفع فجأة وتطاير في الطريق . . . اخذ المطر ينزل بقطرات كبيرة ، وحتى هذا لم تلحظه . ولكن المطر ظل يهطل متزايداً قوياً ، وومض البرق وهدر الرعد . توقفت يلينا تنظر فيما حولها . . . ومن حسن حظها انها رات ، صومعة متداعية مهجورة فوق خرائب بئر غير بعيد عن المكان الذي داهمها الرعد فيه . ركضت اليها ، ودخلت في كنها الواطئ . انهمر المطر جداول ، وتلبدت السماء كلها . نظرت يلينا بقنوط اخرس الى الشبكة الكثيفة التي تصنعها قطرات المطر المنهمرة بسرعة . واختفى آخر امل في الالتقاء باينساروف . ودخلت الصومعة عجوز ، ونفضت قطرات المطر عن ثيابها ، وقالت بانحناءة «احتمي من المطر ، يا عزيزتي» وجلست على نتوء قرب البئر ، وهي تتاوه وتتوجع . دست يلينا يدها في جيبها ، ولحظت العجوز هذه الحركة ، وسرت الحياة في وجهها المتغضن الاصفر الذي كان جميلاً في يوم ما . وقالت : «شكراً لك ايتها المحسنة العزيزة» . لم تجد يلينا محفظة النقود في جيبها ، بينما كانت العجوز قد مدت يدها . قالت يلينا :

– ليس عندي نقود ، يا جدة . خذي هذا لعله ينفعك في شيء .
واعطتها منديلها . فقالت المتسولة :
– اوي ، يا حسناني . وما نفع منديلك لي ؟ الا اذا اهديته لحفيدتي عندما تتزوج . جازاك الله على طيبتك !
انفجر هزيم رعد . وتمتمت المتسولة :
– ايها السيد ، عيسى المسيح – ورسمت علامة الصليب ثلاثاً . واضافت بعد هنيهة – يبدو لي انني رايتك . وربما اعطيتني صدقة ذات مرة ؟
تمعنت يلينا في العجوز ، وعرفتها . اجابت :
– نعم ، يا جدة . قد سالتني : لماذا انا حزينة بهذا الشكل ؟
– نعم ، يا عزيزتي ، نعم . ولذلك عرفتك في الحال . الآن ايضاً يبدو عليك الغم . والمنديل مبلل ، يعني من الدموع . آه ، يا بنات ، كلكن في هم وغم مقيم !
– اي هم ، يا جدة ؟
– اي هم ؟ اوه ، يا ابنتي الطيبة ، لا تتحايلي عليّ ، انا العجوز . انا اعرف لماذا تغتمين . ليس غمك غم اليتيم . عندما كنت شابة ، يا عزيزتي ، ذقت هذه العذابات ايضـــاً . اجل . وساقول لك جزاء على احسانك : اذا صادفك رجل طيب ، لا يعبث ، فتمسكي به وتشبثي تشبث الموت . فان حصل هذا حصل ، وان لم يحصل ، فتلك مشيئة الله . اجل . ولكن لماذا تنظرين اليّ مندهشة ؟ انا قارئة فال . هل تريدين ان آخذ مع منديلك كل بلواك ؟ آخذها ، وينتهي الأمر . ها انت ترين ان المطر قد خفّ . انتظري قليلاً هنا ، اما انا فذاهبـــة . تعودت على بلل المطر . تذكري ، يا عزيزتي : كان حزن ، وولّى ، وانقضى الآن . يا الهي ، وحمتك !
ورفعت المتسولة جسمها من النتوء ، وخرجت من الصومعة ، وسارت مجرجرة قدميها . نظرت يلينا في اثرها مذهولة ، ووجدت نفسها تهمس لاارادياً : «ما يعني هذا ؟»
صار المطر اخف فاخف ، ولاحت الشمس للحظة . وتهيأت يلينا لتخرج من ملجئها . . . وفجأة رات اينساروف ، على بعد عشر خطوات من الصومعة . كان يسير ملفعاً بمعطفه في نفس الطريق الذي كانت يلينا تسلكه . كان يبدو في عجالة للوصول الى بيته .

اسندت يدها على الدرابزين المتداعي عند مدخل الصومعة وارادت ان تناديه ، ولكن صوتها خانها . . . مرّ اينساروف بها دون ان يرفع بصره . . .

واخيراً نطقت :

– دميتري نيكانوروفيتش !

توقف اينساروف فجاة ، والتفت . . . في الوهلة الاولى لم يتعرف على يلينا ، الا انه تقدم منها على الفور . وهتف :

– انت ! انت هنا !

تراجعت الى الصومعة صامتة . وتبعها اينساروف . وعاد يقول :

– انت هنا ؟

مضت في صمتها ، سوى انها حدقت فيه تحديقة طويلة ناعمة . غضّ اينساروف بصره . سألته :

– هل انت قادم من بيتنا ؟

– لا ، ليس من بيتكم .

– لا ؟ – كررت يلينا وحاولت ان تبتسم – بهذا الشكل تفي بوعودك ؟ انتظرتك منذ الصباح .

– تذكري ، يلينا نيقولايفنا ، انا لم اعد بشيء يوم امس .

ابتسمت يلينا مرة اخرى ابتسامة باهتة ، ومررت يدها على وجهها . وكان الوجه واليد بنفس الشحوب .

– اذن ، كنت تريد ان ترحل ، دون ان تودعنا ؟

قال اينساروف بصوت صارم فاقد الرنين :

– نعم .

– وكيف ؟ بعد تعارفنا ، بعد تلك الاحاديث ، بعد كل شيء . . . يعني . . . لو لم التق بك هنا مصادفة (اكتسى صوت يلينا رنة ، فتوقفت لحظة) . . . لرحلت ، ولم تصافحني مودعاً آخر وداع وما كنت ستأسف ؟

اشاح اينساروف بوجهه .

– ارجوك ، يلينا نيقولايفنا ، لا تتحدثي بهذا الشكل . فانا مغموم حتى بدون ذلك . وتأكدي ان قراري كلفني جهوداً كثيرة . لو كنت تعرفين . . .

قاطعته يلينا بذعر :

– لا اريد ان اعرف السبب في رحيلك . . . الظاهر انه

ضروري . الظاهر ان علينا ان نفترق . وانت ما كنت لتريد ان تكدر اصدقائك بلا موجب . ولكن اهكذا يفترق الاصدقاء ؟ ونحن صديقان . اليس كذلك ؟

قال اينساروف :

– كلا .

– كيف ؟

وضرّجت حمرة خفيفة وجنتي يلينا .

– لهذا السبب بالذات رحلت ، كوننا غير صديقين . ولا تجبريني على ان اقول ما لا اريد ان اقوله ، ولن اقوله .

قالت يلينا بعتاب خفيف :

– من قبل كنت صريحاً معي . هل تذكر ؟

– آنذاك كان في وسعي ان اكون صريحاً ، آنذاك لم يكن هناك ما اخفيه ، والآن . . .

فسالت يلينا :

– والآن ؟

– والآن . . . والآن يجب ان انصرف ، وداعاً .

ولو ان اينساروف ، في تلك اللحظة ، رفع بصره الى يلينا لرأى وجهها يتألق اكثر فاكثر كلما ازداد وجهه جهامة واسوداداً . ولكنه كان يثبت بصره في الارض باصرار . قالت يلينا :

– حسناً ، وداعاً ، يا دميتري نيكانوروفيتش . ولكن ما دمنا قد التقينا فعلى الأقل هات يدك لاصافحها .

هم اينساروف بان يمد يده .

– لا ، لا استطيع ذلك ايضاً .

قال واشاح وجهه ثانية .

– لا تستطيع ؟

– لا استطيع ، وداعاً .

واتجه نحو باب الصومعة . قالت يلينا :

– انتظر قليلاً . يبدو انك تخشاني . ولكنني اشجع منك – اضافت واعترتها رعشة مفاجئة سرت في كل جسدها – استطيع ان اقول لك . . . هل تريد ؟ لماذا وجدتني هنا ؟ اتدري الى اين كنتُ ذاهبة ؟

نظر اينساروف الى يلينا بذهول .

– كنت متجهة اليك .

– اليّ ؟

غطت يلينا وجهها .

– تريد ان تجبرني على ان اقول : انا احبك – همست يلينا بذلك – طيب . . . ها قد قلت .

هتف اينساروف :

– يلينا !

اسبلت يديها ، ونظرت اليه ، وارتمت على صدره .

عانقها بقوة ، ولم يقل شيئاً . لم يكن بحاجة الى ان يقول لها انه يحبها . فقد كان في وسع يلينا ان تفهم انه يبادلها حباً بحب من مجرد ندائه ، من ذلك التحول المفاجئ في كيانه كله ، من لهاث صدره الذي التصقت به مؤتمنة ، ومن لمسات اطراف اصابعه في شعرها . لم يقل شيئاً ، ولم تكن هي بحاجة الى كلمات . «انه الى جانبي ، انه يحبني . . . فماذا اريد اكثر ؟» وشملتها سكينة النعيم ، سكينة المرفأ الآمن ، والغاية المحققة ، تلك السكينة السماوية التي تعطي للموت نفسه معنى وجمالاً ، غمرتها بفيضها الإلهي . ولم تكن في نفسها اية رغبة ، لأنها امتلكت كل شيء . همست شفتاها : «يا اخي ، يا صديقي ، يا حبيبي ! . . » ولم تكن تعرف اي قلب كان يدق ويذوب في صدرها بعذوبة ، قلبه ام قلبها .

وقف بلا حراك ، كان يحيط بذراعيه القويين هذه الحياة الشابة التي اعطته قيادها ، وكان يحس على صدره هذا العبء الجديد العزيز الى ما لا حد له . وقد غشت صلابة روحه عاطفة حنان ، عاطفة امتنان تعز على التعبير ، وقد ترقرقت عيناه بدموع لم يكن له عهد بها من قبل .

اما هي فلم تبكِ ، بل كانت تكرر فقط : «يا صديقي ، يا اخي !»

وبعد ربع ساعة ، وهو ما يزال يطوقها ويسندها بذراعيه كان يقول :

– وكيف ستجوبين * معي كل مكان ؟

* في هذه الجملة تحول اينساروف الى مخاطبتها لاول مرة بضمير الفرد رفعا للكلفة كما في طريقة المخاطبة الروسية . المترجم .

– اقصى الدنيا . ساكون حيث تكون انت .

– ربما تخادعين نفسك في ذلك ، فانت تعرفين ان والديك لن يوافقا على زواجنا ؟

– انا لا اخادع نفسي . انا اعرف ذلك .

– وهل تعرفين انني فقير ، مدقع تقريباً .

– اعرف .

– وانني لست روسياً ، ولا مقسوماً لي ان اعيش في روسيا ، وسيتعيَّن عليك ان تقطعي علاقاتك مع وطنك ، ومع اقاربك ؟

– اعرف ، اعرف .

– وهل تعرفين ايضاً انني نذرت نفسي لقضية صعبة لا تمنن على احد ، وانني . . . انا ستتعرض لا الى المخاطر فقط ، بل والى حرمانات ، ولربما الى اذلال ؟

– اعرف ، اعرف كل شيء . . . . احبك .

– وان عليك ان تتخلي عن كل عاداتك . وانك لربما ستضطرين هناك ، ان تعملي وحيدة ، وسط غرباء . . .

وضعت يدها على فمه .

– احبك ، حبيبي .

اخذ يقبل يدها الضيقة الوردية بحرارة . ولم تبعدها عن شفتيه ، وراحت تنظر اليه بفرح طفولي ، وبفضول ضاحك ، وهو يغطي بالقبلات يدها تارة ، واصابعها تارة اخرى . . .

واحمرت فجاة ، وخبات وجهها في صدره .

رفع راسها برقة ، وحدّق في عينيها ، وقال لها :

– اهلاً بك اذن ، زوجة لي امام الناس وامام الرب .

١٩

بعد ساعة كانت يلينا تدخل حجرة الجلوس في البيت الريفي بهدوء ، وقبعتها في يد ، وعباءتها في اليد الاخرى . وقد انحلّ شعرها قليلاً ، وعلت وجنتيها طرة صغيرة من التورد ، والبسمة على شفتيها لا تريم ، وعيناها المنطبقتان نصف انطباقة تبتسمان



ايضاً . كانت تجرجر قدميها تعباً ، وكانت تتلذذ بهذا التعب .
كانت تتلذذ بكل شيء . كل شيء كان يبدو لها قريباً الى القلب
وحنوناً . كان اوفار ايفانوفيتش جالساً عند النافذة ، دنت منه ،
ووضعت يدها على كتفه ، وتمطت قليلاً ، وضحكت ضحكة
لاارادية .

سالها مندهشاً :

– مم ؟

لم تعرف ماذا تقول . احبت ان تقبل اوفار ايفانوفيتش .
وقالت اخيراً :

– مبطوح . . .

ولكن اوفار ايفانوفيتش لم يحرك ساكناً ، وظل ينظر الى يلينا
باندهاش . فرمت عليه العباءة والقبعة ، وقالت :

– يا عزيزي اوفار ايفانوفيتش ، اريد ان انام ، انا متعبة .
وضحكت مرة اخرى ، وانهدت على كرسي وثير بالقرب منه .

– حم – تمتم اوفار ايفانوفيتش ، ولاعب اصابعه – هذا . . .
يجب ، نعم . .

وتلفتت يلينا فيما حولها ، وكانت تفكر : «يجب ان افارق
كل هذا عن قريب . . . والغريب انني لا اشعر بفزع ولا ريبة ،
ولا اسف . . . ولكن لا ، اتاسف على امي !» ثم تراءت لها الصومعة
مرة اخرى ، وتردد صوته في اذنيها مرة اخرى . وكانت تحس
بذراعيه تطوقانها . وتململ قلبها في صدرها بفرح وبوهن ايضاً ،
كانت السعادة تسترخي عليه . وتذكرت المتسولة العجوز .
وفكرت : «اخذت معها بلواي حقاً ، آه ، كم انا سعيدة سعادة لا
استحقها ابداً ! وتهل بهذه السرعة !» وما كان سيكلفها غير شيء
من الحرية لعاطفتها الحبيسة حتى تنهمر من عينيها دموع حلوة لا
تجف . كانت تضغط عليها باسترسالها في الضحك الخفيف ، ولا
شيء آخر . وكان اي وضع تتخذه يبدو لها افضل واروح من اي وضع
آخر . وكانما كانت تهدهد لتنام . صارت كل حركاتها بطيئة
وناعمة ، فاين تخلى عنها استعجالها وتثاقلها ؟ دخلت زويا ، فتصورت
يلينا بانها لم تر محيًا افتن من محياها . ودخلت آنا فاسيليفنا ،
فاحست بوخزة ، ولكنها عانقت امها الطيبة برقة بالغة ، وقبلت
جبينها عند منبت الشعر ، الشائب قليلاً ! ثم ذهبت الى حجرتها ،

قرات كل شيء فيها يبتسم لها ! وجلست على سريرها بشعور عميق من الانتصار الخجل والوداعة ، جلست على نفس السرير الذي كانت قبل ثلاث ساعات قد قضت فيه لحظات شديدة المرارة ! وفكرت : «حتى في تلك الساعة كنت اعرف انه يحبني . . كنت اعرف من قبل ايضاً . . . آه ، لا ! لا ! هذه خطيئة» . وهمست وركعت على ركبتيها مغطية وجهها بيديها : «انت زوجتي . . .»

ومع حلول المساء ، صارت اكثر سهوماً واستغراقاً . غشيها الحزن حين اخذت تفكر في انها لن ترى اينساروف عن قريب . لم يكن في امكانه ان يبقى مقيماً مع بيرسينيف دون ان يثير الشكوك . ولهذا اتفق معها على ان يعود الى موسكو ، ويزور آل ستاخوف مرة او مرتين حتى فصل الخريف . ووعدته ، من جانبها ، بأن تراسله ، وان تعين له موعداً للقاء بجوار كونتسوفو ، اذا سنحت الفرصة . نزلت الى حجرة الجلوس في الساعة المحددة لشرب الشاي ، فرات جميع اهل البيت هناك ، وشوبين الذي صوّب عليها نظراً حاداً ، ما ان اطلت . فارادت ان تتحدث معه بود ، كما كانت في الماضي ، ولكنها خشيت حدة ذكائه ، خشيت نفسها . بدا لها مقصوداً تغاضيه عنها اكثر من اسبوعين . وبعد قليل وصل بيرسينيف ، ونقل تحيات اينساروف لآنا فاسيليفنا ، مع اعتذاره لعودته الى موسكو ، دون ان يزورها ويودعها . كان اسم اينساروف يذكر لاول مرة هذا اليوم في حضور يلينا ، فاحست بالحمرة تصعد الى وجهها ، كما ادركت في الوقت ذاته ان عليها ان تعرب عن الاسف لهذا الرحيل المفاجئ لرجل طيب من معارفها ، ولكنها لم تستطع ان تحمل نفسها على التصنع ، وبقيت جالسة في صمت وبلا حراك ، بينما راحت آنا فاسيليفنا تتحسر ، وتبدي حزنها . جاهدت يلينا ان تبقى قرب بيرسينيف ، فهي لم تكن تخشاه ، رغم انه كان يعرف جزءاً من سرها ، كانت تلوذ بحماه من شوبين الذي ما يزال يلاحقها بنظرات نفاذة ، وان لم تكن ساخرة . كما ان الحيرة استولت على بيرسينيف ايضاً ، خلال الامسية ، فقد كان يتوقع ان يرى يلينا اكثر حزناً . ومن حسن حظها ان جدالاً نشأ بينه وبين شوبين عن الفن . تنحت جانباً ، وراحت تسمع صوتيهما ، وكأنها في حلم . وشيئاً فشيئاً صار الحلم يتخطاهما الى الحجرة كلها ، حيث بدت كل الاشياء ، وكأنها في حلم : السماور على المائدة ، وصدار اوفار ايفانوفيتش القصير ،

وساقا زويا الملساوان ، والصورة المرسومة بالزيت للامير الكبير قسطنطين بافلوفيتش والمعلقة على الحائط . تغوّر كل شيء وتغطى بغشاء دخاني ، ولم يعد له وجود . سوى أنها كانت تشفق عليهم جميعاً ، وتقول لنفسها : «من اجل اي شيء يعيشون ؟»

سالتها امها :

– هل انت نعسى ، يا لينوتشكا ؟

ولم تسمع سؤال امها .

– هل تقصد تلميحاً نصف عادل ؟ – نفذت هذه الكلمات التي نطقها شوبين بحدة الى وعي يلينا فجأة فانتبهت . ومضى شوبين يقول – في هذا بالذات تكمن النكهة . التلميح العادل يثير الجزع، وهو مناف للروح المسيحية . والانسان لا يعبأ بالتلميح غير العادل . فهذه حماقة . ولكنه يشعر نحو التلميـــح نصف العادل بالانزعاج ونفاذ الصبر . فمثلاً لو قلت : ان يلينا نيقولايفنا تعشق احدنا ، فاي نوع من التلميح سيكون هذا ؟ ها ؟

قالت يلينا :

– آه ، مسيو بول . وددت لو اظهر لك انزعاجي ، ولكنني متعبة جداً ، فلا اقدر حقاً .

– ولماذا لا ترقدين ؟ – قالت آنا فاسيليفنا التي كانت تنعس دائماً في المساء ، ولهذا تحب ان تبعث الآخرين الى مضاجعهم – قبليني قبلة المساء ، واذهبي والله معك . اندريه بيتروفيتش سيعذرك .

قبلت يلينا امها ، وانحنت للجميع ، وانصرفت . صاحبها شوبين الى الباب . وهمس لها عند العتبة :

– يلينا نيقولايفنا ، انت تدوسين مسيو بول وتمشين عليه بلا شفقة . بينما مسيو بول يعبدك ، ويعبد قدميك والحذاء التي تلبسين ، ونعل الحذاء .

هزت يلينا كتفيها ، ومدت له يدها على مضض – ليست تلك التي قبلها اينساروف – وعادت الى حجرتها فطفقت تخلع ثيابها على الفور ، واستلقت ، وغفت . نامت نوماً عميقاً هادئاً . . . لا ينامه حتى الاطفال ، لا ينامه غير الطفل الناقه ، حين تجلس امه عند مهده ، تنظر اليه ، وتنصت الى انفاسه .

٢٠

قال شوبين لبيرسينيف حالما توادع الاخير مع آنا فاسيليفنا :

– تعال الى حجرتي لدقيقة . عندي ما اريد ان اريك اياه .

سار بيرسينيف معه الى ملحق البيت . بهره العديد الكبير من التخطيطات ، والتماثيل الصغيرة ، والنصفية التي كانت مغطاة بخرق مبللة ، وموضوعة في كل اركان الحجرة .

قال له بيرسينيف :

– ارى انك تعمل بهمة .

فاجاب هذا :

– يجب ان اعمل شيئاً . اذا فشل الانسان في شيء وجب ان يجرب حظه في شيء آخر . وعلى العموم انا كالكورسيكي ، اهتم بثأر الدم اكثر من الفن الخالص* !Trema Bisanzia (٢٢) .

قال بيرسينيف :

– انا لا افهمك .

– طيب ، انتظر . تفضل انظر ، يا صديقي الكريم والفاضل . هذا ثاري رقم واحد .

وازاح شوبين الغطاء عن احد التماثيل فراى بيرسينيف تمثالاً نصفياً لاينساروف ممتازاً ومشابهاً له بشكل رائع . وكان شوبين قد التقط ملامح وجهه بصدق ، وبادق التفاصيل ، واعطى لها مسحة رائعة باستقامتها ونبلها وجراتها .

وتهلل بيرسينيف بِشْراً ، وهتف :

– هذه هي الروعة بعينها ! تهانيّ . تستحق ان تعرض ! ولماذا تسمي هذه التحفة ثاراً ؟

– لانني ، يا صاحب السيادة ، انوي ان اقدم هذه التحفة ، كما سميتها ، الى يلينا نيقولايفنا في عيد ميلادها . هل تفهم هذه الرموز ؟ لسنا عمياناً ، ونحن نرى ما يجري حولنا ، ولكننا اصحاب شهامة ، يا حضرة المحترم ، ونثار بشهامة .

ومضى شوبين يقول ، وهو يزيح الغطاء عن تمثال صغير آخر :

– اما هذا ، فما دام الفنان ، حسب احدث الجماليات ، يستخدم

---

* ارتجفي ، يا بيزنطية (بالايطالية في الاصل) .

حقه الذي يحسد عليه في ان يجسد في نفسه كل الحقارات (٣٣)
مرتفعاً بها لتكون جوهرة من الابداع ، فاننا في تكويننـــــا لهذ
الجوهرة ، رقم اثنين ، كنا قد انتقمنا ليس كشهماء على الاطلاق ، ل
• en canaille .

ورفع الغطاء بحذق ، ورأى بيرسينيف تمثالاً صغيراً لاينساروو
ايضاً منحوتاً على طريقة دانتان تمثل فيه الشغن وحدة البديهة باكثر
ما يمكن . فقد صوّر البلغاري الشاب خروفاً واقفاً على قائمتيـ
الخلفيتين ، مميلاً قرنيه للنطاح . وقد ارتسمت على وجه الزوج
الشاء الناعمة الصوف» هذا العظمة البلهاء ، والتوفز ، والعناد
والرعونة ، والضحالة ، كما كان الشبه مذهلاً لا ريب فيه ، حتى
ان بيرسينيف ما كان في وسعه الا ان يضحك .

قال شوبين :

– ماذا ؟ مضحك ؟ عرفت البطل ؟ هل تنصحني بان اعرضه في
المعرض ايضاً ؟ وهذا ، يا اخي ، سأهديه لنفسي ، في عيد
ميلادي . . . فاسمح لي ، يا صاحب السيادة ، ان ارقص طرباً !

وقفز شوبين مرتين او ثلاثـــاً ، ضاربـــاً اياه بالنعل
رفع بيرسينيف قطعة الخيش من الارض ، وغطى بها التمثال .

قال شوبين :

– اوه ، ايها الشهم . فانني من كان في التاريخ معروفاً بشهامته
على نحو خاص ؟ طيب ، لا يهم ! اما الآن – تابع وكشف بحركة
استعراضية حزينة عن القطعة الثالثـــة ، وهي كبيرة جداً من
الصلصال – امامك شيء يثبت لك تواضع صديقك الحكيم وحدة
ذهنه . وستقتنع بانه ، كفنان اصيل على اية حال ، يشعر بحاجة
وفائدة اذلال النفس . انظر !

وارتفعت الستارة ، وابصر بيرسينيف راسين متقاربين وكأنهما
خارجان من رقبة واحدة . . . ولم يدرك حقيقة الأمر راساً ، ولكنه
حين امعن النظر ، عرف في احد الراسين راس آنوشكا ، وفي الآخر
راس شوبين نفسه . وعلى العموم كان ذلك رسماً كاريكاتورياً اكثر
منه صورة شخصية . صوّرت آنوشكا بهيئة فتاة جميلة ممتلئة

• كانافل (بالفرنسية في الاصل) .

ذات جبين ضيق ، وعينين منتفختين ، وانف مرفوع بتحد . وكانت
شفتاها الغليظتان تنفرجان عن ابتسامة ساخرة وقحة . وكان وجهها
كله يعبر عن الحساسية وخلو البال والاندفاع ، ولا يخلو من طيبة .
وصوّر شوبين نفسه متهتكاً منحولاً منهوكاً ، غائر الوجنتين ،
تتدلى خصلات شعره الخفيف متدلية باسترخاء وانفه مدبب كانف الميت ،
وعيناه المنطفئتان تنطقان بالبلاهة .

اشاح بيرسينيف وجهه باشمئزاز . فقال شوبين :

– ما رايك في هذا الزوج ، يا اخ ؟ الا تتكرم بوضع تسمية
معتبرة لهما ؟ للموضوعين الاولين اهتديت الى تسمية . ساضع
تحت التمثال النصفي عبارة : «البطل الناوي انقاذ وطنه» وتحت
التمثال الصغير : «احترسوا ، يا صانعي النقانق !» اريد ان اكتب
تحت هذه القطعة «مستقبل الفنان بافل ياكوفليف شوبين . . .» ما
رايك ؟ اليس لطيفاً ؟

فرد بيرسينيف قائلاً :

– كفّ عن هذا . ايعقل أنك ضيّعت وقتك على هذه . . .

ولم يعثر فوراً على الكلمة المناسبة .

– القذارة ؟ تريد ان تقول . لا ، يا اخ ، وارجو المعذرة ،
اذا كان هناك شيء يستحق ان يعرض فهي هذه المجموعة .

كرر بيرسينيف :

– قذارة بالضبط . ثم ما هذه السخافة ؟ انت لا تملك اطلاقاً
ما يمتلكه فنانونا حتى يومنا هذا ، وبوفرة ، لسوء الحظ ، من
مقومات لمثل هذا النوع من التطور . مجرد أنك كنت تفتري على
نفسك .

قال شوبين بعبوس :

– هذا ما تراه ، اذن ؟ اذا كنت لا امتلكها ، واذا لقّحت بها ،
فالذنب في ذلك سيعود الى انسانة ما . هل تدري – وقطّب حاجبيه
بشكل ماساوي – انني جربت ان اشرب ؟

– الا تكذب ؟ !

– جربت ، وحق الرب – قال وافتر عن تكشيرة فجاة ، وتنوّر
وجهه – ولكنه غير لذيذ ، يا اخ ، ولا يدخل الى البلعوم ، والراس
بعده يصير كالطبل . ولوتشيخين العظيـــم نفسه ، خارلامبي
لوتشيخين ، الشرّيب الاول في موسكو ، وفي كل روسيا حسب آراء

اخرى ، قال لي : لن تبرز في هذا الميدان . فالزجاجة ، حسب قول لا توحي اليّ بشيء .

رفع بيرسينيف ذراعه على قطعة ذات الراسين ، الا ان شوبين اوقفه :

– كفى ، يا اخ ، لا تكسرها ، فستنفع كدرس ، كفزاعة .

ضحك بيرسينيف . وقال :

– في هذه الحال سأشفق على فزاعتك ، على ما اظن . وليعش الفن الخالد الصافي .

فثنى شوبين :

– ليعش ! الشيء الحسن معه احسن ، والسيء لا يضر .

وتصافح الصديقان بقوة ، وافترقا .

٢١

كان الفزع الفرح اول احساس شعرت به يلينــــا ، حين استيقظت . سألت نفسها : «معقول ؟» وجمد قلبها من السعادة وتدفقت الذكريات عليها . . . فغرقت فيها . ثم اهلّت عليها ثانية تلك السكينة الهانئة المستبشرة . ولكن القلق اخذ ينتابها شيئاً فشيئاً خلال الصباح . وفي الايام التالية بدا عليها الفتور والضجر . لقد كانت تعرف الآن ، في الحقيقة ، ما كانت تريد . ولكن ذلك لم يخفف عنها . فان ذلك اللقاء الذي لا ينسى قد اخرجها الى الأبد من منوالها القديم ، ولم تعد فيه ، بل كانت بعيدة عنه . بينما كان كل شيء حولها يسير سيره المألوف ، كل شيء على منواله ، وكان شيئاً لم يتغير . فالحياة السابقة تجري كالسابق ، وتعوّل كالسابق ، على مشاركة يلينا ومساهمتها . حاولت ان تبدأ رسالة الى اينساروف ، ولكنها لم توفق حتى في هذا ، فكانت الكلمات تخرج على الورقة اما ميتة ، واما كاذبة . وقد فرغت من يومياتها ، وخطّت بعد السطر الاخير فيها خطاً كبيراً . كان ذلك في الماضي ، وقد تحولت الآن الى المستقبل بكل افكارها ، بكل كيانها . وكانت تشعر بضيق . فقد بدا لها جرماً أن تجالس امها التي لا ترتاب في شيء ، وتستمع اليها وتجيبها ، وتتحدث معها . كانت تحس بالكذب يخالط

نفسها . فكانت تحنق ، رغم انها لم تفعل شيئاً تخجل منه . وانبعثت في نفسها ، اكثر من مرة ، رغبة قاهرة او تكاد في ان تبوح كل شيء دون ان تخفي خافية ، وليكن بعد ذلك ما يكون . وكانت تفكر : «لماذا لم يأخذني دميتري حينذاك ، من تلك الصومعة ، الى حيث يريد رأساً ؟ ألم يقل لي انني زوجته امام الله . فلماذا انا هنا ؟» وفجأة صارت تتحاشى الجميع ، حتى اوفار ايفانوفيتش ، الذي كان اكثر حيرة واكثر لعباً باصابعه من اي وقت مضى . وبدا كل ما يحيط بها فاقداً رقته وعذوبته ، وحتى مشابهته للحلم . فكان كالكابوس يهبط على صدرها كثقل ميت لا يتزحزح ، فكأنما كان يقرعها ، ويسخط عليها ، ولا يريد ان يعرف من أمرها شيئاً . . . كأنه كان يقول انت من بيئتنا ، على اية حال . وحتى صغارها المساكين ، طيورها وحيواناتها المشرّدة كانت تنظر اليها – او هكذا مـــا تصورته ، على اقل تقدير بشيء من الريبة والعداء . وصارت تخجل من مشاعرها . كانت تقول لنفسها : «هذا بيتي ، على اية حال ، عائلتي ، ووطني . . .» فيرد عليها صوت آخر مؤكداً : «لا ، لم يعد وطنك ، ولم تعد عائلتك» . وكان الرعب يستولي عليها ، فكانت تضيق بكل خورها . فقدت صبرها ما ان اصابها العسر . . . أهذا ما وعدت به ؟

ولم تتمالك يلينا نفسها بسرعة . ولكن اسبوعاً مضى وتبعه آخر . . . وهدأت يلينا بعض الشيء ، وتعودت وضعها الجديد . كتبت رسالتين صغيرتين لاينساروف ، اخذتهما بنفسها الى البريد . لم ترد على الاطلاق ان تأتمن الخادمة خجلاً وكبرياء . واخذت تنتظر مجيئه هو . . . ولكن عوضاً عنه جاء نيقولاي ارتيميفيتش ذات صباح .

٢٢

كان ضابط الحرس المتقاعد ستاخوف ملولاً ، وفي الوقت ذاته ، واثقاً بنفسه ومتعاظماً على نحو لم يره احد من اهل بيته على مثله قبل هذا اليوم . دخل الى حجرة الجلوس في معطفه وقبعته . دخل ببطء ، وبخطوات عريضة ، ضارباً الارض بكعبيه ، واقترب

من المرآة ، ونظر الى نفسه فيها وقتاً طويلاً ، هازاً راسه ، عاضاً على شفتيه بصرامة هادئة . استقبلته آنا فاسيليفنا بمظهر قلق وفرح خفي (لم تستقبله قط بغير ذلك) وقدم يده في قفازها السمراء في صمت الى يلينا لتقبلها ، حتى دون أن يخلع قبعته ، ودون ان يقرأ زوجته التحية . اخذت آنا فاسيليفنا تساله عن دورة العلاج ، فلم يجبها بشيء . جاء اوفار ايفانوفيتش ، ونظر اليـه وقال «ها !» . وكان ستاخوف ، بشكل عام ، يعامل اوفار ايفانوفيتش ببرود وباستعلاء ، رغم انه كان يعترف فيه بـ«علائم الدم الستاخوفي الاصيل» . والمعروف ان العوائل النبيلة الروسية جميعها تقريباً تعتقد بأن لها ميزات استثنائية من ناحية النسب ، مختصة بها وحدها . فكم سمعنا احاديث «بين الاهل» عن الانوف «البودسالاسكية» والقفا «البيربريفية» * . دخلت زويا ، وانحنت لنيقولاي ارتيميفيتش احتراماً . تنحنح ، وانهد على كرسي وثير ، وطلب قهوة ، وعند ذاك فقط خلع قبعته . قدمت له القهوة ، فاحتسى الفنجان ، ونظر الى الجميع بالتوالي ، وقال من خلال اسنانه : «Sortez, s'il vous plait» ** واضاف مخاطباً زوجته : «Et vous, madame, restez, je vous prie» ***

خرج الجميع ما عدا آنا فاسيليفنا . كان راسها يرتعش من الانفعال . ادهشتها نبرة الظفر في سلوكه . فكانت تتوقع شيئاً غير اعتيادي .

ما ان غلق الباب حتى هتفت :

– ما هذا !

القى نيقولاي ارتيميفيتش عليها نظرة غير مكترثة .

– لا شيء على وجه الخصوص . اية طريقة لك في ان تظهري نفسك حالاً بمظهر الضحية ؟ – شرع يقول مرخياً طرفي شفتيه لدى كل كلمة دون اية حاجة – مجرد انني اردت ان اعلمك ان ضيفاً جديداً سيتناول الغداء عندنا اليوم .

– مَنْ هو ؟

---

* اسماء عوائل . – **المترجم** .

** اخرجوا ، ارجوكم (بالفرنسية في الاصل) .

*** اما انت ، يا مدام ، فابقي ، ارجوك (بالفرنسية في الاصل) .

– يفود الدريبيفيتش كورناتوفسكي . انت لا تعرفينه ، يشغل منصب السكرتير الاول في مجلس الشيوخ .

– وسيتناول الغداء عندنا اليوم ؟

– نعم .

– ولاجل ان تقول لي ذلك امرت الجميع بان يخرجوا ؟

ومرة اخرى القى نيقولاي ارتيميفيتش على آنا فاسيليفنا نظرة ، كانت تهكمية هذه المرة .

– ايدهشك هذا ؟ انتظري وستندهشين اكثر .

وصمت ، وصمتت آنا فاسيليفنا قليلاً ، ثم قالت :

– حبذا . . .

وفجاة قال نيقولاي ارتيميفيتش :

– انا اعرف انك دائماً كنت تعتبرينني انساناً . . «بلا اخلاق» .

تمتمت آنا فاسيليفنا بذهول :

– انا ؟ !

– وقد تكونين على حق . ولا اريد ان أنكر انني بالفعل كنت اعطيك احياناً حجة عادلة لعدم الرضى (وطاف في ذهن آنا فاسيليفنا «انها الخيول الرمادية») رغم انك لا بد أن تقري بأن عضويتك في حالتها المعروفة لك . . .

– ولكنني لا اتهمك ابداً ، يا نيقولاي ارتيميفيتش .

– C'est possible * . وفي كل الاحوال لا انوي تبرير نفسي . الزمن سيبررني . ولكنني ارى من واجبي ان اؤكد لك انني اعرف التزاماتي ، واستطيع ان اهتم بـ . . . . مصالح . . . العائلة الموكل بها .

فكرت آنا فاسيليفنا مع نفسها : «ماذا يعني كل هذا ؟» (ما كان في امكانها ان تعرف ان جدالاً نشأ في عشية اليوم ، في ركن من حجرة الارائك في النادي الانجليزي ، عن عدم قدرة الروس على تدبيج الحديث . وهتف احد المتجادلين : «مَنْ يجيد الحديث عندنا ؟ هل تسمون لي احداً ؟» ، فرد آخر : «لناخذ ستاخوف مثلاً» واشار الى نيقولاي ارتيميفيتش الذي كان بين المتحدثين . وكادت تند منه صيحة فرح) .

---

* هذا محتمل (بالفرنسية في الاصل) .

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

– لناخذ ابنتي يلينا . الا تجدين ان الوقت قد حان اخيرا لان تقوم بخطوة ثابتة في طريق الحياة . . . اريد أن اقول ان تتزوج لا ضير في كل تلك التفلسفات واعمال البر والاحسان ، ولكن بقدر معين ، والى عمر معين . وقد آن لها ان تترك ضبابياتها وان تخرج من مجتمع اوزاع الفنانين والطلبـــــة والجبليين السود* وتصير كالآخرين .

سألت آنا فاسيليفنا :

– كيف عليّ ان افهم كلامك ؟

رد نيقولاي ارتيميفيتش بنفس تهدل الشفتين :

– دعيني اكمل . ساقول لك بصراحة ودون لف ودوران . لقد تعرفت وتصاحبت مع هذا الشاب ، السيد كورناتوفسكي ، على امل ان يكون صهري . واجرؤ على الظن بأنك ، حين ترينه ، لن تتهميني بالمحاباة او بالتسرع في الراي . (كان نيقولاي ارتيميفيتش يتكلم ، ويعجب بذلاقة لسانه .) تعليمه ممتاز ، فهو قانوني ، وتربيته جيدة ، وهو في الثالثة والثلاثين ، وسكرتير اول ، ومستشار متخرج ، وحامل وسام ستانسلاف . وآمل في انك ستنصفينني ، ولا تضعينني في عداد اولئك** pères de comédie الذين تسحرهم المناصب وحدها . وانت نفسك كنت تقولين لي ان يلينا نيقولايفنا يعجبها الاكفاء الايجابيون . ويغور اندرييفيتش الاول في حقله من حيث الكفاءة . وابنتي ، من الناحية الأخرى ، ميالة الى افعال الشهامة ، فاعلمي ، اذن ، ان يغور اندرييفيتش ، حالما اتيحت له امكانية ، وارجو ان تفهميني ، امكانية العيش على راتبه دون عوز ، تخلى على الفور لاخوانه عن المبلغ السنوي الذي عينه له ابوه .

فسألت آنا فاسيليفنا :

– ومَنْ ابوه ؟

– ابوه ؟ ابوه ايضاً انسان مشهور في مضماره ، ذو اخلاقيات

---

* الجبل الاسود (وموطنه تيغروه) – مقاطعة في البلقان هي الآن داخلة في حدود يوغوسلافيا .

** الاباء في التمثيليات الفكاهية (بالفرنسية في الاصل) .

عالية جدا * un vrai stoïcien ، رائد متقاعد ، على ما اظن ، يدير كل ضياع الكونتات من آل ب . . .

قالت آنا فاسيليفنا :

– آها !

فاسرع نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

– آها ! ماذا آها ؟ هل معقول انك ايضاً مصابة بداء التحاملات ؟

فشرعت آنا فاسيليفنا تقول :

– ولكنني لم اقل شيئاً . . .

– لا ، قلت آها ! . . ومهما يكن من شيء رأيت من اللازم ان انبهك الى ما يدور في ذهني ، واجرؤ على الاعتقاد . . . اجرؤ على ان آمل في ان السيد كورناتوفسكي سيستقبل** à bras ouverts لانه ليس من الجبليين السود او ما شاكل .

– بالطبع . ولكن يجب ان نبلغ الطباخ فانكا ليضيف اصنافاً جديدة .

– انت تعرفين انني لا اتدخـــل في ذلـــك – قال نيقولاي ارتيميفيتش ونهض ، ولبس قبعته ، وذهب ليتنزه في الحديقة ، وهو يصفر (وكان قد سمع ان الصفير لا يجوز الا في بيت ريفي تطله او في حلبة الخيول) . نظر شوبين اليه من نافذة مسكنه الملحق ، واخرج له لسانه صامتاً .

في الساعة الرابعة الا عشر دقائق وصلت الى واجهـــة بيت ستاخوف الريفي عربة مستأجرة ، ونزل منها رجل لم يتخط بعد سن الشباب ، مهذب المظهر انيق اللباس ، بسيطه ، وامر بان يُعلن عن وصوله . ذلك هو يغور اندرييفيتش كورناتوفسكي .

وبالمناسبة ، هذا ما كتبته يلينا لاينساروف في اليوم التالي :

«هنئني ، يا عزيزي دميتري ، فقد صار لي خطيب . ويوم امس تناول طعام الغداء عندنا ، وكان ابي قد تعرف عليه في النادي الانجليزي ، على ما يبدو ، ودعاه لزيارتنا . وطبيعي انه لم يأت يوم امس كخطيب ، الا ان امي الطيبة التي ابلغها ابي بأمنياته ، همست في اذنـــي من هو ضيفنــــا ، يدعى يغور اندرييفيتش

---

* رواقي حقيقي (بالفرنسية في الاصل) .

** باذرع مفتوحة (بالفرنسية في الاصل) .

كورناتوفسكي ، ويعمل سكرتيراً اول في مجلس الشيوخ . ولاصف لك مظهره الخارجي اولاً . انه ربع القامة ، اقصر منك ، حسن البنيان ، متناسق القسمات ، قصير الشعر ، طويل القذال ، عيناه صغيرتان (كعينيك) بنيّتان ، سريعتان ، وشفتاه مسطحتان عريضتان ، وفي عينيه وعلى شفتيه بسمة دائمة ، رسمية على نحو ما ، وكانما لاداء الواجب . طريقة سلوكه بسيطة جداً ، وكلامه واضح ، وكل شيء لديه واضح ، فهو يسير ، ويضحك ، ويأكل وكانه يؤدي عملاً . ولربما انت تفكر في هذه اللحظة «درست بدقة !» اجل ، لكي اصفه لك . ثم كيف لا ادرس خطيبي ! ان في شيئاً حديدياً . . . وبليداً وفارغاً في الوقت ذاته ، ونزيهاً . يقال انه نزيه جداً ، حقاً . وانت ايضاً حديدي ، ولكن لست كمثله جلس الى المائدة جنبي ، وجلس شوبين قبالتنا . في البداية دار الحديث عن مؤسسات تجارية يقال انه يفهم فيهـــا ، وكاد يترك وظيفته ليشرف على معمل كبير . ولكنه فوّت عليه الفرصة ! ثم اخذ شوبين يتحدث عن المسرح ، وهنا ذكر السيد كورناتوفسكي وبدون اي تواضع كاذب – ويجب ان اقر بذلك – انه لا يفقه شيئاً في الفن . وقد ذكرني ذلك بك . . . ولكنني قلت لنفسي : لا ، انا ودميتري لا نفهم الفن بطريقة مغايرة ، على اية حال . بينما هذا كا لو انه كان يريد ان يقول : انا لا افهمه ، كما انه ليس ضرورياً ، ولكنه مسموح به في دولة حسنة التنظيم . ان هذا الرجل ، على العموم ، يستهين كثيرا ببطرسبورغ ، وبـ comme il faut بل وقد سمّى نفسه بروليتارياً مرة واحدة . ويقول : نحن عمال بسطاء ! وقد فكرت مع نفسي : لو ان دميتري قال ذلك لما اعجبني ذلك منه ، ولكن ليقل هذا عن نفسه ما يشاء ، وليتبجح ! كان جد مهذب معي ، ومع ذلك فقد كان يبدو لي دائماً ان المتحدث الي رئيس يتلطف مع محدثه كثيراً . وحين يريد ان يمتدح انساناً يقول انه **صاحب اصول** . وذلك تعبيره المفضل . فلا بد انه واثق بنفسه محب للعمل ، ومقتدر على التضحية (ها انت ترى انني منصفة) اقصد التضحية بمنافعه ، ولكنه مستبد كثيراً . ومن المصيبة الوقوع في يده ! جرى الحديث على المائدة عن الرشاوى . . .

قال :

– انا ادرك ان الذي ياخذ الرشوة غير مذنب في كثير من

الاحوال ، فهو لا يستطيع ان يفعل خلاف ذلك . ومع هذا يجب سحقه ، اذا اكتشف امره .

هتفت :

– سحق بريئاً !

– نعم . في سبيل المبدأ .

فسأل شوبين :

– اي مبدأ ؟

فبدا على كورناتوفسكي الارتباك او الدهشة وقال :

– لا يحتاج ذلك الى شرح .

فتدخل ابي الذي كان يبجّله ، كما يبدو ، وقال : لا يحتاج ، بالطبع ، وانتهـــى هذا الحديث ، مع الاسف . وفي المساء جاء بيرسينيف ، ودخل معه في جدال مريع . حتى ذلك الحين لم ار قط صديقنا الطيب بيتروفيتش الطيب على مثل تلك الدرجة مـــن الانفعال . لم ينكر السيد كورناتوفسكي ، على الاطلاق ، فائدة العلم والجامعات وغيرها . . . ومع ذلك فقد كنت اتفهم استياء اندريه بيتروفيتش . كان الآخر ينظر الى كل ذلك وكانه نوع من التمارين الرياضية . جاءني شوبين ، بعد الفراغ من المائدة ، وقال : «ان هذا وشخصاً آخر (انه لا يستطيع ان يلفظ اسمـــك) عمليان كلاهما ، ولكن انظري اي فارق بينهما . الآخر مثال حقيقي حي طرحته الحياة نفسها ، اما هذا فحتى الشعور بالواجب غير متوفر فيه ، بل مجرد نزاهة وظيفية ، وكفاءة فارغة من اي محتوى» . ان شوبين ذكي ، وانا اتذكر ما قاله خصيصاً لك . ولكن اي جامع يمكن ان يكون بينكما برايي ؟ انت **تؤمن** ، وهو لا ، اذ **لا يجوز الايمان** بالنفس فقط .

غادر السيد كورناتوفسكي في ساعة متاخرة ، ولكن ماما لحقت ان تخبرني بانني رقت له ، وان ابي في غاية الغبطة . . . لعل السيد كورناتوفسكي قال ايضاً عني انني صاحبة اصول ؟ وكدت ارد على امي بانني آسفة جداً ، ولكن لي زوجاً بالفعل . لماذا لا يحبك ابي الى هذه الدرجة ؟ مع امي يمكن ان تدبر الامر بطريقة او باخرى . . .

آه ، يا عزيزي . لقد اسهبت لك في وصف هذا السيد لاتغلب على وحشتي . لا حياة لي بدونـــك . وانا ، على الدوام ، اراك

واسمعك . . . انا انتظرك ، ولكن ليس في بيتنا ، كما كنت تريد . تصوّر ما سنحسه من ضيق وحراجة – بل في المكان الذي كتبت لك عنه – في ذلك الحرش . . . آه ، يا عزيزي ، كم احبك !»

٢٣

بعد ثلاثة اسابيع من زيارة كورناتوفسكي الاولى انتقلت آنا فاسيليفنا الى موسكو ، مثيرة بذلك فرحاً عظيماً في نفس يلينا ونزلت في بيتها الخشبي الكبير قرب شارع بريتشستينكا ، وهو بيت ذو اعمدة تكلل كل نافذة من نوافذه قيثارات واكاليل بيض ، وللبيت طابق علوي ، ومرافق للخدمات ، وحديقة خضروات ، وفناء اخضر واسع ، فيه بئر يجاورها وجار للكلاب . من قبل لم تكن آنا فاسيليفنا تغادر البيت الريفي الى المدينة في مثل هذا الوقت المبكر من الخريف ، ولكن موجات البرد الخريفية الاولى في هذا العام اثارت خراجات اللثة عندها . كما ان نيقولاي ارتيميفيتش ، من ناحيته ، قد انهى دورة علاجه ، واشتاق الى زوجته ، لاسيما وان افغوستينا خريستيانوفنا قد سافرت لزيارة ابنة عمها في ريفيل . ووصلت الى موسكو اسرة اجنبية كانت تعرض اوضاعا بلاستيكية des poses plastiques اثار وصفها في صحيفـــة «موسكوفسكيه فيدوموستي» فضول آنا فاسيليفنا الشديـــد . وباختصار كان استمرار الاقامة في البيت الريفي غير ملائم ، بل ولا يتفق ، كما قال نيقولاي ارتيميفيتش ، مع تنفيذ «مخططاتـــه» . وبدا الاسبوعان الاخيران طويلين جدا ليلينا . وكان كورناتوفسكي يزورهم مرتين يوم الاحد ، وكان في بقية الايام مشغولاً . وكان يأتي خصيصاً ليلينا ، ولكنه كان يتحدث اكثر مع زويا التي اُعجبت به كثيراً . وكانت تقول لنفسها ، وهي تنظر الى وجهه الاسمر الرجولي وتسمع كلامه الواثق المتسامح : «Das ist ein Mann!» * . فان احداً ، حسب رايها ، لم يمتلك صوتاً مدهشاً مثل صوته ، ولا احد يضارعه في نطقه بشكل رائع : «لي الشرف» او «انا مرتاح جداً» . ولم يزر

* هذا رجل حقيقي (بالالمانية في الاصل) .

اينساروف آل ستاخوف ، ولكن يلينا التقته ذات مرة خلسة في حرش صغير على نهر موسكو ، كانت قد حددت له موعداً فيه . وما كاد الوقت يتسنى لهمـــا ليتبادلا بعض الكلمـــات ، وعاد شوبين الى موسكو مـــع آنا فاسيليفنا ، وبعد بضعة ايام تبعـــه برسينيف .

كان اينساروف جالساً في حجرته يقرأ للمرة الثالثة رسائل وصلته من بلغاريا مع رسول سانح ، فقـــد كانوا يخافون ان يرسلوها في البريد . وقد اقلقته الرسائل كثيراً . الاحداث تتطور بسرعة في الشرق . وكان احتلال القوات الروسية للامارتين (٢٤) يشغل بال الجميع . واشتدت العاصفة ، وفاحت رائحة حرب قريبة لا مرد لها . وبدا الحريق ، ولم يكن في مستطاع احد ان يتنبأ الى اين يتجه ، واين يتوقف . تحركت المظالم القديمة والأماني التي طال امدها ، وكان قلب اينساروف يخفق بشدة ، فاخذت آماله تتحقق . وكان يفكر عاصراً يديه : «ولكن اليس ذلك مبكراً ؟ بدون جدوى ؟ فنحن غير مستعدين الآن . ولكن ما العمل ! يجـــب ان اسافر» .

حدثت حركة خفيفة وراء الباب ، وانفتح بسرعة ، ودخلت يلينا الحجرة .

ارتعش كيان اينساروف كله ، واندفع نحوها ، وركع امامها ، وطوق قامتها ، وضغط راسه عليها بقوة .

– لم تكن تتوقعني ؟ – قالت ، وهي لا تكاد تلتقط انفاسها (وكانت قد ارتقت السلم بسرعة) – عزيزي ! عزيزي ! – ووضعت كلتا يديها على راسه ، وتلفتت – هنا تعيش ، اذن ؟ عثرت عليك بسرعة . دلتني ابنة صاحب البيت . انتقلنا الى موسكو يوم امس الاول . واردت ان اكتب لك ، ولكنني فكرت في ان مجيئ اليك افضل . ساظل معك ربع ساعة . انهض ، واغلق الباب .

نهض ، وخف لغلق الباب ، وعاد اليها ، واخذ يديها . لم يستطع ان يتكلم ، فقد عقدت الفرحة لسانه . وكانت تحدق في عينيه مبتسمة . . . كان في عينيه الكثير من السعادة . . . وخجلت يلينا .

– على مهلك – قالت له ، واسترجعت يديها منه بلطف – دعني اخلع القبعة .

وفكت شريطي القبعة ، ورمتها والقت العباءة عن كتفيها ، وعدلت شعرها . وجلست على اريكة صغيرة قديمة . جمد اينساروف يحد فيها كالمسحور .

– اجلس .

قالت دون ان ترفع اليه عينيها ، مشيرة له الى مكان جنبها

جلس اينساروف ، ولكن على الارض ، عند قدميها ، لا الاريكة .

قالت بصوت مضطرب ، اذ شعرت برهبة :

– خذ ، اخلع القفازين من يديّ .

اخذ يفك الازرار في البداية ، ثم يسحب احد القفازين ، وسحب الى النصف ، ولثم في نهم الكف الناعمة الرقيقة التي لاحت بيضا من تحت القفاز .

ارتعشت يلينا ، وارادت ان تدفعه بيدها الاخرى ، ولكن راح يقبل هذه اليد ايضاً . سحبتها يلينا نحوها ، فدفع راسه الى الوراء ، فنظرت في وجهه ، وانحنت ، والتقت الشفاه . . .

مرت لحظة . . . انتزعت يلينا نفسها ، ونهضت ، وهمست «لا ، لا» واقتربت بسرعة من منضدة الكتابة .

– انا ربة بيت هنا ، ولا يجوز ان تخفي عني خافية – قالت محاولة ان تبدو خلية البال ، مديرة له ظهرها – ما اكثر الاوراق ما هذه الرسائل ؟

قطّب اينساروف حاجبيه . وقال ، وهو ينهض من الارض :

– هذه الرسائل ؟ تستطيعين ان تقرئيها .

قلّبتها يلينا في يدها .

– انها كثيرة جداً ، ومكتوبة بخط دقيق ، بينما يجب ان انصرف الآن . . . ساتركها ! اليست من غريمة لي ؟ ولكنها ليست بالروسية .

اضافت ذلك ، وهي تتصفح الاوراق الخفيفة .

دنا اينساروف منها ، ومسّ قدّها . فاستدارت نحوه فجأة وابتسمت له ابتسامة مشرقة ، واستندت على كتفه .

– ان هذه الرسائل من بلغاريا ، يا يلينا . اصدقائي يكتبون لي ، ويدعونني الى السفر .

– الآن ؟ الى هناك ؟

– نعم . . . الآن ، ما دام الوقت لم يفت ، وما دام السفر ممكناً .

وفجاة طوقت رقبته بكلتا يديها .

– ولكن ستاخذني معك ؟

ضمها الى صدره .

– آه ، يا فتاتي العزيزة ، يا بطلتي ، ما الطف نطقك لهذه الكلمات ! ولكن اليس خطيئة ، اليس جنوناً مني ان اجرك معي – انا الذي لا بيت له ولا اهل . . . والى اين !

وضعت يدها لتسد فمه قائلة :

– هسس . . . والا فسازعل ، ولن اعود لزيارتك ابداً . ولكن الم يُحسَم كل شيء بيننا ، ويُبت ؟ اولست زوجتك ؟ وهل الزوجة تفارق زوجها ؟

قال بابتسامة شبه حزينة :

– الزوجات لا يخرجن للحرب .

– اجل ، اذا يقدرن على البقاء . وهل في امكاني ان ابقى هنا ؟

– يلينا ، انت ملاك ! . . ولكن فكري ، ربما اضطر الى ترك موسكو . . . بعد اسبوعين . ولا مجال لان افكر في محاضرات الجامعة ، ولا في اكمال اعمالي .

قاطعته يلينا :

– ما هذا الذي تقوله ؟ هل يجب ان تسافر قريباً ؟ اذا اردتَ ، فسابقى معك الآن ، هذه اللحظة ، واظل معك الى الابد ، ولن اعود الى البيت ، هل تريد ؟ لنسافر الآن ، هل تريد ؟

ضمها اينساروف بين ذراعيه بقوة مضاعفة ، وهتف :

– ليعاقبني الرب ، ان قمت بعمل سوء ! منذ اليوم نحن مرتبطان الى الابد !

فسالت :

– يعني ، سابقى ؟

– لا ، يا فتاتي الطاهرة ، لا ، يا كنزي . ستعودين اليوم الى البيت ، ولكن كوني على اهبة . فان هذا الامر لا يجوز ان يؤتى دفعة واحدة . يجب التروي في كل شيء . ونحن نحتاج الى نقود ، وجواز سفر . . .

قاطعته يلينا :

- عندي نقود ، ثمانون روبلاً .
فقال اينساروف :
- هذا ليس مبلغاً كبيراً ، ولكنه ينفع على اية حال .
- واستطيع ان احصل على اكثر ، استدين ، اطلب من
امي . . . لا ، لا اريد ان اطلب منها . . . ولكن يمكن ان ابيع
ساعتي . . . وعندي اقراط ، وسواران . . . مخرمات .
- ليست المسألة مسألة فلوس ، يا يلينا . جواز السفر
جواز سفرك ، كيف ندبره ؟
- نعم ، كيف ندبره ؟ لا بد من جواز سفر ؟
- لا بد .
وضحكت ضحكة مقتضبة ساخرة .
- هذا ما خطر في بالي ! اتذكر ، وانا صغيرة . . . هربت
منا خادمة ، فامسكوا بها ، وصفحوا عنها ، وظلت تعيش معنا زمناً
طويلاً . . . ومع ذلك كان الجميع يلقبونها بتاتيانا الهاربة . لم
اكن اتصور في حينها ، انني ربما ساكون ايضاً هاربة ، مثلها .
- عيب عليك ، يا يلينا !
- وماذا في الامر ؟ الافضل ، بالطبع ، ان اسافر بجواز سفر
ولكن اذا تعذر ذلك . . .
قال اينساروف :
- سنسوي كل ذلك ، فيما بعد ، فيما بعد ، انتظري . اعطني
فرصة لأن اتفحص اموري ، اتركيني افكر . سنتباحث في كل شيء
سوية ، وكما ينبغي . اما النقود فعندي منها ايضاً .
ازاحت يلينا بيدها الشعر الذي تساقط على جبينه .
- آه ، دميتري ! ما امتع ان نسافر سوية !
قال اينساروف :
- نعم ، وهناك الى اين نذهب . . .
قاطعته يلينا :
- وماذا في ذلك ؟ أليس الموت سوية ممتعاً ايضاً ؟ ولكن
لماذا نموت ؟ سنعيش ، فنحن شابان . كم عمرك ؟ ستة وعشرون ؟
- ستة وعشرون .
- وانا في العشرين . امامنا العمر بطوله . ها ! وكنت تريد
ان تهرب مني ؟ لم تكن بحاجة الى حب روسي ، ايها البلغاري !

الآن كيف ستتخلص مني ! ولكن ماذا كان سيحصل لنا ، لو لم
اتيه اليك آنذاك !
- انت تعرفين ، يا يلينا ، ما الذي كان يحملني على الابتعاد
عنك .
- اعرف . احببت ، وارتعبت . ولكن هل من المعقول انك لم
تحدس انني كنت ابادلك الحب ؟
- لا ، يلينا قسماً بالشرف .
قبلته بغتة وبسرعة .
- ولهذا بالذات احبك . والآن ، وداعاً .
فسأل اينساروف :
- الا تستطيعين ان تبقي اكثر ؟
- لا ، يا عزيزي . هل تتصور انه كان سهلاً عليَّ ان انسل
واخرج وحيدة ؟ ربع الساعة انقضى منذ زمان - ولبست عباءتها
وقبعتها - تعال عندنا غداً في المساء ، لا ، بعد غد . سيكون الجو
مصطنعاً مضجراً ، ولكن لا حيلة لنا عليه . سيرى احدنا الآخر على
الاقل تقدير . وداعاً . دعني اذهب - وعانقها للمرة الاخيرة - آه !
انظر ، قطعت سلسلتي . آه ، يا فتاي الاخرق ! طيب ، لا يهم .
هذا احسن . ساذهب الى شارع «كوزنتسكي موست» ، واعطيها
للتصليح . فاذا سألوني اقول كنت في كوزنتسكي موست -
وامسكت مقبض الباب - بالمناسبة ، نسيت ان اقول لك : من
المحتمل ان مسيو كورناتوفسكي سيطلب يدي خلال ايام . ولكنني
ساصنع له . . . هذا - ووضعت ابهام يدها اليسرى على ارنبة
انفها ، وحركت اصابعها الأُخَر في الهواء - وداعاً ، والى اللقاء .
اعرف الطريق الآن . اما انت فلا تضيّع الوقت . . .
فتحت يلينا الباب قليلاً ، وتسمّعت ، واستدارت نحو
اينساروف ، واومأت برأسها ، وانسلت من الحجرة .
وقف اينساروف امام الباب دقيقة ، وتسمع ايضاً . انصفق
الباب المؤدي الى الفناء ، في الاسفل . اقترب اينساروف من الاريكة ،
وجلس ، وغطى عينيه بيده . ان مثل هذا الشيء لم يحدث
له من قبل . وفكر : «لاي شيء اجازى بهذا الحب ؟ العله
حلم ؟»
الا ان رائحة البَليخاء الخفيفة التي ابقتها في حجرته البائسة

المظلمة كانت تذكر بزيارتها . كما بقيت عالقة في الهواء ... يبدو ، ورنات صوتها الفتي ، وخفيف خطواتها الفتية الخفيفة ، و... وغضارة جسدها العذري الفتي .

٢٤

قرر اينساروف ان ينتظر اخباراً اكثر ايجابية ، وبدأ يتهيأ للسفر . وكان الامر صعباً جداً . وفي الحق لم تكن هناك اية عقبات امامه ، اذ لم يكن عليه الا ان يطالب بجواز سفر . ولكن كيف سيكون الامر مع يلينا ؟ كان من المستحيل الحصول لها على جواز سفر بطريق مشروع . ام يعقدان قرانهما خلسة ، ثم يتوجهان الى والديها . . . وكان يفكر : «عندئذ سيسمحان لنا بالسفر . وان لم يسمحا ؟ سنسافر ، في كل الاحوال . وان اشتكيا علينا . . . ان . . . لا ، من الافضل السعي للحصول على جواز سفر بطريقة ما» .

وعزم على التشاور (دون ان يسمي اسماً ، بالطبع) مع مدع عام يعرفه ، متقاعد او مقال ، وعجوز ضليع محنك في شتى القضايا السرية . وكان هذا الرجل المحترم يعيش بعيداً من مسكنه . وقضى اينساروف ساعة كاملة للوصول الى بيته في عربة مستاجرة بالنسبة... والانكى من ذلك انه لم يجده في بيته ، وفي طريق العودة بلله حتى العظام وابل هطل على حين غرة . وفي الصباح التالي ذهب اينساروف للمرة الثانية الى بيت المدعي العام المتقاعد ، رغم الصداع الشديد . اصغى اليه المدعي العام المتقاعد بانتباه ، وهو يستنشق التبغ من علبة تبغ مزينة بصورة حورية مكتنزة النهدين ، وينظر الى ضيفه بحول من عينين صغيرتين ماكرتين بلون التبغ ايضاً . كان يصمت ويطالب «بدقة اكثر في طرح المعطيات الفعلية» ، ولما رأى كراهية اينساروف للدخول في التفاصيل (وكان قد جاء اليه على مضض) اكتفى بتوجيه النصح له بأن يتزود بـ«القروش» قبل كل شيء وطلب اليه ان يزوره للمرة الثانية . واضاف ، وهو يستنشق التبغ منكباً على علبته المفتوحة «عندما تزداد لديك الثقة ، وتقل عدم الثقة» . ومضى يقول كمن يخاطب نفسه : «اما جواز السفر فتحت

متناول يد الانسان . فانت لو سافرت مثلاً ، فمن سيعرف من انت : ماريا بريديخينا ، ام كارولينا فوغيلمبير ؟» واحس اينساروف بشعور القرف يتململ في نفسه ، الا انه شكر المدعي العام ، ووعد بالعودة اليه خلال ايام .

في ذلك المساء ذهب لزيارة آل ستاخوف . استقبلته آنا فاسيليفنا برقة ، وعاتبته على نسيانه لهم كلياً ، ولما رأته شاحب الوجه استفسرت عن صحته . ولم يقل نيقولاي ارتيميفيتش له اية كلمة ، ولكنه نظر اليه بفضول ساهم ذاهل ، ولا شيء آخر . وعامله شوبين ببرود ، ولكن يلينا ادهشته . فقد كانت تنتظره ، ومن اجله لبست نفس الثوب الذي كانت ترتديه يوم لقائهما الاول في الصومعة ، ولكنها رحبت به بهدوء شديد ، وكانت لطيفة جداً ، ومرحة في خلو بال ، فما كان في وسع احد ينظر اليها في تلك الساعة ان يظن ان مصير هذه الفتاة قد حُسم ، وان الاحساس الخفي بالحب السعيد وحده كان يضفي الحيوية على ملامحها ، والخفة والفتنة على كل حركاتها . كانت تصب الشاي ، بدلاً من زويا ، وتمزح ، وتكثر من الكلام ، فقد كانت تعرف ان شوبين سيراقبها وان اينساروف لا يحسن التمويه ، ولا يجيد التظاهر بعدم الاكتراث ، فسلّحت نفسها مسبقاً . ولم تخطئ في ذلك . فقد كان شوبين لا يصرف عينيه عنها . وكان اينساروف صموتاً جداً وعبوساً خلال الامسية كلها . وكانت يلينا تشعر بالسعادة تغمر نفسها ، حتى انها رغبت في مناكدته .

سألته فجاة :

– ماذا ، اذن ؟ هل مشروعك في تقدم ؟

ارتبك اينساروف ، وقال :

– اي مشروع ؟

– هل نسيت ؟ – ردت عليه ضاحكة في وجهه . وكان وحده يستطيع ان يدرك مغزى هذا الضحك السعيد – كتاب المطالعة البلغاري للروس الذي كنت تنوي تأليفه ؟

تمتم نيقولاي ارتيميفيتش من خلال اسنانه :

– Quelle bourde! *

---

* يا للسخافة ! (بالفرنسية في الاصل) .

جلست زويا الى البيانو . هزت يلينا كتفيها بشكل لا يكاد يلحظ ، واشارت لاينساروف بعينيها الى الباب ، وكأنما تأذن له بالانصراف . ثـم مسّت المائدة باصبعها مستين ، ونظرت اليه . ففهم انها قد حددت له موعداً بعد يومين ، وابتسمت ابتسامة سريعة حين رأت انه قد فهم اشارتها . نهض اينساروف يستأذن بالانصراف ، لانه يشعر بتوعك . جاء كورناتوفسكي ، واخذ نيقولاي ارتيميفيتش واقفاً ، ورفع يده اليمنى الى اعلى من راسه ، فهبط وانزلها بنعومة على كف السكرتير الأول هذا . بقي اينساروف بضع دقائق أُخر ، ليتفحص غريمه . هزّت يلينا راسها خلسة وبمكر ، فان رب البيت لم ير من الضروري ان يعرف احدهما بالآخر ، وخرج اينساروف متبادلاً النظرات مع يلينا للمرة الاخيرة . فكر شوبين وفكر ، ثم دخل في نقاش ضار مع كورناتوفسكي عن مسالة قانونية لم يكن يفقه فيها شيئاً .

أرق اينساروف الليلة بطولها ، وفي الصباح كان يشعر بسوء في صحته . ومع ذلك اخذ يرتب اوراقه ، ويكتب الرسائل ، الا ان راسه كان ثقيلاً ، ومضطرباً . وعند الغداء ارتفعت حرارته ، فلم يستطع ان ياكل شيئاً . واشتدت الحرارة بسرعة عند المساء ، واصابه انحلال في كل اعضائه ، وصداع مؤلم في راسه . استلقى اينساروف على نفس الاريكة الصغيرة التي كانت يلينا تجلس عليها قبل وقت قصير . وفكر مع نفسه : «هذا عقاب عادل على ذهابي الى ذلك المحتال العجوز» وحاول ان يغفو . . . ولكن المرض كان قد تمكن منه آنذاك . وراحت عروقه تنبض بقوة رهيبة ، والدم يغلي بحرارة في داخلـه ، والافكار تدور في ذهنه كالطيور . وغرق في غيبوبة . انطرح على ظهره كالمسحوق ، وفجاة تراءى لـه شخص يضحك فوقه بخفوت ويهمس . فتح عينيه بجهد . فنفذ اليهما ضوء الشمعة المحترقة كالسكين . ما هذا ؟ كان المدعي العام العجوز امامه في روب بيتي حريري محزم بنطاق من الحرير الخفيف ، كما رآه قبل يوم . وتمتم الفم الادرد «كارولينا فوغيلميير» . ويحدق اينساروف ، والعجوز يكبر ، وينتفخ ، وينمو ، حتى لم يعد رجلاً ، بل شجرة . . . وكان على اينساروف ان يتسلق اغصانهـا العاليـة . فيتشربك ويسقط بصدره على صخرة حادة ، وكارولينا فوغيلميير تجلس القرفصاء ، في زي بائعة ، وتغمغم : «فطائر ، فطائر ، فطائر» . ثم

تتدفق دم ، والسيوف تلمع لمعاناً لا يطاق . . . يلينا ! . . واختفى كل شيء في هيولى حمراء . . .

٢٥

– جاءك شخص ، والله يعلم مَن هو . . . وربما هو سمكري . ويريد ان يراك .

قال ذلك لبيرسينيف في المساء التالي ، خادمه الذي كان يتميز بالصرامة في التعامل مع سيده ، وبنزعة التشكك في تفكيره .

قال بيرسينيف :

– دعه يدخل .

ودخل «السمكري» . فعرف بيرسينيف فيه الخياط صاحب المسكن الذي يقيم فيه اينساروف .

سأله :

– ماذا تريد ؟

– اريد ان اكلم حضرتك – قال الخياط منقلاً قدميه ببطء ، ورافعاً من حين لآخر يده اليمنى ، وقد امسك باصابعه الثلاث الاخيرة طرف كمه – نزيلنا مريض جداً والله يعلم .

– اينساروف ؟

– بالضبط ، نزيلنا . والله يعلم . حتى صباح امس كان ما يزال على قدميه ، وفي المساء ، لم يطلب غير شيء يشربه ، فجلبت له ام بيتنا ماء ، وفي الليل راح يهذر ، وكنـا نسمعـه من خلال الحاجز . واليوم صباحاً فقد لسانه ، وهو مطروح كالخشبـة ، متوهج بحمى ، نعوذ بالله منها ! وفكرت : الله يعلم ، قد يموت بين لحظة واخرى ، ويجب اخبار الشرطة . لانه وحيد ، ولكن ام البيت قالت لي : «اذهب الى الساكن الذي كان نزيلنا يستأجر حجرة في بيته الريفي . فلعله يشير لك بشيء ، أو ياتي بنفسـه» . ولهذا جئت الى حضرتك ، لانه لا يجوز لنا ، اقصد . . .

اختطف بيرسينيف قبعته ، ودس في يد الخياط قطعة معدنية من فئة الروبل ، واسرع معه في عربة مستأجرة الى مسكن اينساروف على الفور .

وجده راقداً على الاريكة فاقد الوعي ، في ثيابه الكاملة . وقـد

تغيّر وجهه تغيراً رهيباً . اسرع بيرسينيف فأمر صاحب البيت وربته بأن يخلعا عنه ثيابه ، وينقلاه الى السرير ، وانطلق الى الطبيب ، وجاء به . وصف له الطبيب دفعة واحدة علقاً واصفار وملح الزئبق كما امر بفصد الدم .

ساله بيرسينيف :

– هل هو في حالة خطرة ؟

اجاب الطبيب :

– نعم ، جداً . التهاب شديد للغاية في الرئتين ، والتهاب الغشاء البلوري في اوجه . ولربما الدماغ مصاب ايضاً ، بيد ان الشخص ما يزال شاباً . قواه الآن انقلبت ضده . تأخرت في استدعائي ولكننا ، على العموم ، سنقوم بكل ما يتطلبه العلم .

كان الطبيب نفسه ما يزال شاباً ، ويصدق بالعلم .

وبقي بيرسينيف لقضاء الليلة . وكان رب البيت وربته طيبين بل ومقتدرين ، حالما توفر الشخص الذي اخذ يقول لهما ماذا يجب ان يفعلا . وجاء المطبب وبدأت التعذيبات الطبية .

وعند مطلع الصباح افاق اينساروف على نفسه بضع دقائق وعرف بيرسينيف ، وساله : «يبدو أني معتل الصحة ؟» ، ونظر فيما حوله بالحيرة المتبلدة الفاترة التي يتسم بها المريض الدقيق ثم غاب عن الوعي ثانية . ذهب بيرسينيف الى بيته ليستبدل ملابسه ، واخذ معه بعض الكتب ، وعاد الى مسكن اينساروف وقد عزم ان يسكن معه في فترة المرض الاولى على الاقل . سـ... سريره ببرافان ، وهيا لنفسه موضعاً قرب الاريكة . ومر اليوم حزيناً متباطئاً ، ولم يغب بيرسينيف الا ليتناول لقمة . وحل المساء ، واشعل بيرسينيف شمعة ذات ظليلة ، واخذ يقرأ . كان الصمت يشمل كل شيء . ومن خلف الحاجز كان يُسمع لاهل البيت همس مكبوت تارة ، وتثاؤب تارة اخرى ، وزفرة تارة ثالثة . . . وعطس احدهم ، فقُرّع همساً ، وكانت تصدر من وراء البرافان انفاس ثقيلة متقطعة يتخللها ، احياناً ، انين قصير ، وتقلب راس ... على الوسادة . . . وتواردت افكار غريبة على ذهن بيرسينيف . كان في حجرة رجل كانت حياته معلقة بخيط رفيع ، رجل – وهو يعرف ذلك – كانت يلينا تحبه . . . وتذكر تلك الليلة التي لحقه فيها شوبين ، وابلغه انها تحبه هــو ، بيرسينيف ! والآن . . .

سأل نفسه : «ماذا عليّ ان افعل الآن ؟ اخبر يلينا بمرضه ؟ ام انتظر قليلاً ؟ هذا الخبر اشد حزناً من ذلك الذي نقلته لها يومها . غريب ان القدر يضعني دائماً شخصاً ثالثاً بينهما !» . وقرر ان ينتظر قليلاً ، فذلك افضل . وقع بصره على المنضدة المغطاة بتلال من الاوراق . . . فكر بيرسينيف : «أترى ، هل سيحقق مخططاته ؟ معقول ان يختفي كل شيء ؟» واشفق على الحياة الفتية المحتضرة ، وقطع على نفسه عهداً بأن ينقذها . . .

كانـت الليلة سيئـة . ظل المريض يهذي كثيراً . نهض بيرسينيف غير مرة من مرقده على الاريكة ، ودنا من السرير على اطراف اصابعه ، واصغى في حزن الى هذيانه غير المترابط . مرة واحدة فقط نطق اينساروف بوضوح مباغت : «لا اريد ، لا اريد ، ينبغي ان لا تفعلي . . .» جفل بيرسينيف ، ونظر الى اينساروف . . كان وجهه المعذب ، والميت في نفس الوقـت ، جامـداً ، ويداه ترتخيان بلا حول . . . وكرر المريض بصوت لا يكاد يسمع : «لا اريد» .

جاء الطبيب في الصباح ، وهزّ راسه ، ووصف ادوية جديدة . وقال وهو يلبس قبعته :

– ما زال هناك شوط بعيد الى ان تحل الازمة .

فساله بيرسينيف :

– وبعد الازمة ؟

– بعد الازمة ؟ امام امرين (٢٥) • aut Caesar, aut nihil.

غادر الطبيب . سار بيرسينيف في الشارع عدة مرات رواحاً ومجيئاً . كان يحتاج الى هواء طليق . وعاد ، وتناول كتاباً . وكان قد فرغ من راومر منذ زمان ، وهو الآن يدرس غروت (٢٦) .

وفجأة صر الباب بخفوت ، واطل راس ابنة صاحب البيت على الحجرة بحذر ، معصوباً بمنديل سميك ، كالعادة . وقالت صاحبته بصوت خافت :

– جاءت آنسة الاكابر التي نفحتني يومها بعشرة كوبيكات . . .

واختفى راس ابنة صاحب البيت فجأة ، وظهرت يلينا مكانه . قفز بيرسينيف كالملدوغ . ولكن يلينا لم تبد حركة ولا ندت

• اما القيصر ، واما لا شيء (باللاتينية في الاصل) .

منها صيحة . . . بدا وكأنها فهمت كل شيء في لحظة واحدة . نظر وجهها شحوب رهيب ، وتقدمت من البراقان ، ونظرت الى ورائه ورفعت ذراعيها ، وجمدت . وكانت سترتمي على اينساروف بعد لحظة اخرى ، لو لم يوقفها بيرسينيف . قال لها بهمس مرتعش :

– ما هذا الذي تفعلينه ؟ يمكنك ان تسببي موته !

وترنحت . قادها الى الاريكة ، واجلسها .

نظرت في وجهه ، ثم طوفت عليه ببصرها ، وبعدها ثبتت عينيها في الارض .

– انه يحتضر ؟

سألت ببرود شديد وهدوء ارعبا بيرسينيف . قال :

– يلينا نيقولايفنا ، ما هذا منك ، بحق الرب ؟ انه مريض حقاً ، وبخطر شديد . ولكننا سننقذه ، اتعهد لك بذلك .

سألت بنفس لهجتها السابقة :

– فاقد الوعي ؟

– نعم ، انه الآن في غيبوبة . . . هذا ما يحصل دائماً في بداية هذه الامراض ، ولكن هذا لا يعني شيئاً ، لا شيء ، صدقيني . اشربي قليلاً من الماء .

رفعت بصرها اليه وادرك بيرسينيف انها لم تسمع رده .

– إنْ يَمُتْ – قالت بنفس الصوت لم تغيّره – امت انا ايضاً .

في تلك اللحظة صدرت من اينساروف انّة خفيفة . فأخذت يلينا ترتجف ، امسكت رأسها ، ثم اخذت تفك شريطي قبعتها . سأل بيرسينيف :

– ما هذا الذي تفعلينه ؟

لم تجب ، فكرر بيرسينيف :

– ماذا تفعلين ؟

– سأبقى هنا . . .

– كيف . . . لمدة طويلة ؟

– لا اعرف ، ربما النهار كله ، والليل ، او الى الابد . . . لا اعرف .

– بحق الرب افيقي على نفسك ، يا يلينا نيقولايفنا . بالطبع لم اكن اتوقع قط ان اراك هنا . ولكنني اعتقد ، على اية حال ، انك

جئت الى هنا لوقت قصير . تذكري ان اهلك يمكن ان يفتقدوك .

– وماذا في ذاك ؟

– وسيبحثون عنك . . . ويجدونك . . .

– وماذا في ذاك ؟

– يلينا نيقولايفنا ! ها انت ترين . . . انه الآن عاجز عن ان يحميك .

اطرقت برأسها ، وكأنها تفكر ، ورفعت المنديل الى شفتيها . وانفجرت من صدرها فجأة ، وبقوة مروعة ، نوبات متشنجة من النحيب . . . انكبت على الاريكة ووجهها الى الاسفل ، وحاولت ان تخنقها ، ولكن جسدها كله ظل يخفق ويرتعد كطائر اصطيد لتوه .

كرر بيرسينيف مطلاً عليها :

– يلينا نيقولايفنا . . . بحق الرب . . .

وفجأة تردد صوت اينساروف :

– ها ؟ ما هذا ؟

رفعت يلينا جسدها ، بينما جمد بيرسينيف في مكانه . . . وبعد وقت قصير دنا من السرير . . . كان رأس اينساروف ، مرتخياً على الوسادة بعجز ، كالسابق . وكانت عيناه مغمضتين .

همست يلينا :

– يهذي ؟

اجاب بيرسينيف :

– يبدو . ولكن هذا لا شيء . وهو ايضاً يحدث دائماً ، لاسيما اذا . . .

قاطعته يلينا :

– متى مرض ؟

– منذ امس الاول . وانا هنا منذ امس . اعتمدي عليّ ، يلينا نيقولايفنا . لن ابتعد عنه ، وسنستخدم كل الوسائل . واذا اقتضى الامر استدعينا بعض الاطباء للتشاور .

صاحت وهي تلوي يديها :

– سيموت في غيابي .

– اعطيك عهداً بأن ابلغك كل يوم عن سير مرضه ، واذا نشأ خطر فعلي . . .

– احلف لي بانك سترسل عليّ في الحال ، في اي وقت كان ،

نهاراً او ليلاً ، اكتب مذكرة لي رأساً . . . كل شيء، سواء لدي الآن . هل تسمعني ؟ هل تعِد بأن تفعل ذلك ؟

– اعدك ، امام الله .

– احلفْ .

– احلفُ .

وفجأة امسكت يده ، وقبل ان يلحق ليسحبها ، وقعت عليها بشفتيها .

تمتم :

– يلينا نيقولايفنا . . . ما هذا منك .

نطق اينساروف بصوت غير واضح :

– لا . . . لا . . . لا حاجة . . .

وزفر زفرة ثقيلة .

اقتربت يلينا من البرافان ، وعضت المنديل باسنانها ، وحدقت في المريض فترة طويلة . وسالت دموع صامتة على خديها .

قال لها بيرسينيف :

– يلينا نيقولايفنا ، قد يعود الى وعيه ، ويعرفك ، والله يعلم ماذا سيسفر عن ذلك . وبالاضافة انا اتوقع مجيء الطبيب من ساعة الى اخرى .

تناولت يلينا القبعة من الاريكة ، ولبستها ، وتوقفت . وطوفت عيناها في ارجاء الحجرة بأسى . والظاهر انها تذكرت شيئاً . . . واخيراً همست :

– لا استطيع ان اخرج .

ضغط بيرسينيف على يدها ، وقال :

– استجمعي قواك ، واهدئي . انت تتركينه في رعايتي . واليوم مساء سأجيءُ اليك .

نظرت يلينا اليه وقالت : «اوه ، يا صديقي الطيب !» واجهشت باكية ، وانصرفت مسرعة .

اتكأ بيرسينيف على الباب . وعصر قلبه شعور كئيب ومر لا يخلو من فرحة غريبة . وفكر : «صديقي الطيب» ، وهز كتفيه

تردد صوت اينساروف :

– مَنْ هنا ؟

اقترب بيرسينيف منه :

– انا هنا ، يا دميتري نيكانوروفيتش . ماذا تحتاج ؟ كيف حالك ؟

سأل المريض :

– لوحدك ؟

– لوحدي .

– وهي ؟

قال بيرسينيف كالمذعور :

– مَنْ هي ؟

صمت اينساروف .

– البليجا العطرية .

همس ، وانغلقت عيناه من جديد .

٢٦

كان اينساروف ثمانية ايام بلياليها بين الموت والحياة . وكان الطبيب يتردد دائماً مهتماً كشاب بحالة متعسرة . وسمع شوبين عن حالة اينساروف الخطرة ، وزاره ، كما زاره ابناء وطنه ، البلغار ، وعرف بيرسينيف من بينهم الشخصين الغريبين اللذين اثـارا استغرابه بزيارتهما المفاجئة لاينساروف في البيت الريفي ، وكان الجميع يظهرون عطفهم الصادق ، واقترح بعضهم على بيرسينيف ان يحل محله في ملازمة سرير المريض ، ولكنه لم يوافق متذكراً وعده ليلينا . وكان يراها كل يوم ، وينقل لها خلسة – شفاهاً احياناً ، وفي مذكرة صغيرة احياناً اخرى – كل دقائق سير المرض . كانت تنتظره واجمة القلب ، وتصغي اليه ، وتمطره بالاسئلة بلهفة ! وكانت طوال الوقت تريد ان تزور اينساروف ، ولكـن بيرسينيف يتوسل اليها ان لا تفعل ذلك لأن اينساروف نادراً ما يكون وحده . وفي اليوم الاول ، الذي عرفت فيه بمرضه ، كادت هي الاخرى ان تقع عليلة . حالما عادت اغلقت عليها باب حجرتها . ولكنها دعيت لتناول الغداء ، فجاءت الى غرفة الطعام بوجه ارعب آنا فاسيليفنا ، فارادت هذه ان تجبرها على ملازمة السرير . الا ان يلينا استطاعت ان تغلب نفسها . وكانت تقول لنفسها : «ان يمتْ

فسامت انا ايضاً» . وهدأتها هذه الفكرة ، ومدّتها بالقوة لان تبدو غير مكترثة . وعلى العموم لم يزعجها احد كثيراً . كانت آنا فاسيليفنا مشغولة بخراجاتها . وكان شوبين منكباً على عمله بحماس ، وابدت زويا سوداوية ، وتهيأت لتقرأ «آلام فرتر» (٢٧). وكان نيقولاي ارتيميفيتشّ منزعجاً جداً من زيارات «الطالب» المتكررة ، لاسيما وان «مخططاته» بشأن كورناتوفسكي لم تتقدم كثيراً . فقد كان السكرتير الاول العملي هذا في حيرة من امره يترقب . ولم تشكر يلينا بيرسينيف ، فان هناك خدمات يعز المرء ويرتعب من شكر صاحبها . وفي زيارة بيرسينيف الرابعة فقط (وكان اينساروف قد قضى ليلة سيئة جداً ، ولمّح الطبيب الى وجوب استدعاء بعض الاطباء للتشاور) ذكرته بالقسم الذي اقسمه . عندئذ قال لها «حسناً ، لتذهب ، في هذه الحال» ونهضت وذهبت لترتدي ملابس الخروج ، الا انه قال : «لا ، لننتظر حتى الغد» . وفي المساء خفت وطأة المرض على اينساروف .

استمر هذا التعذيب ثمانية ايام . وبدت يلينا هادئة ، ولكنها لم تستطع ان تأكل شيئاً ، ولم تنم في الليالي ، طغى على اطرافها كلها الم ممض ، وبدا وكان دخاناً ساخناً يملأ راسها . وكانت خادمتها تقول عنها : «سيدتنا الشابة تذوب كالشمعة» .

واخيراً حدث التحول في اليوم التاسع . كانت يلينا تجلس في حجرة الجلوس قرب آنا فاسيليفنا ، تطالع جريدة «موسكوفسكيه فيدوموستي» دون ان تعي شيئاً . ودخل بيرسينيف . ونظرت يلينا اليه (وكم كانت سريعة ومتخوفة ونافذة وقلقة تلك النظرة الاولى التي تحدجه بها في كل مرة !) ولكنها حدست في الحال انه جاء بخبر سار . كان يبتسم ، ويهز راسه لها قليلاً . فنهضت للقاء . همس لها :

– افاق على نفسه . وزال الخطر عنه . وبعد اسبوع سيكون متعافياً تماماً .

مدّت يلينا ذراعيها ، وكأنها تصد ضربة ، ولم تقل شيئاً سوى ان شفتيها ارتعشتا ، وشاعت الحمرة في كل وجهها . اخذ بيرسينيف يتحدث الى آنا فاسيليفنا ، بينما ذهبت يلينا الى حجرتها وركعت ، وراحت تصلي ، تحمد الله على عقباه . . . وسالت من عينيها دموع خفيفة وضاءة . وفجأة احست بوصب تام ، فارخت

راسها على الوسادة ، وهمست «يا اندريه بيتروفيتش المسكين !» وغفت على الفور ، مبللة رموشها وخديها . ولم تكن قد نامت ولم تبك منذ زمن طويل .

٢٧

لم تتحقق كلمات بيرسينيف الا جزئياً . زال الخطر ، ولكن اينساروف كان يستعيد قواه ببطء ، وكان الطبيب يتحدث عن الهزة العميقة الشاملة التي اصابت كيانه كله . ومع كل هذا فقد غادر المريض فراشه ، وصار يسير في الحجرة . وكان بيرسينيف قد انتقل الى مسكنه ، ولكنه كان يزور كل يوم صديقه الذي ما يزال واهناً ، ويبلغ يلينا عن حالته الصحية كل يوم ، كما كان يعمل في السابق . وكان اينساروف لا يجسر على الكتابة اليها ، سوى انه كان يلمح اليها بشكل عابر في احاديثه مع بيرسينيف ، وكان هذا يحدثه ، بلامبالاة مصطنعة ، عن زياراته لآل ستاخوف ، محاولاً في الوقت ذاته ، ان يدعه يعلم بان يلينا كانت في غم شديد ، وانها الآن قد اطمأنت . كما ان يلينا لم تكتب لاينساروف ، فقد كان يشغل ذهنها شيء آخر .

ذات مرة وكان بيرسينيف قد ابلغها لتوه والمرح باد على وجهه بان الطبيب سمح لاينساروف بان يأكل كفتة ، ومن المحتمل انه سيخرج عما قريب ، استغرقت يلينـــا في التفكير ، واطرقت براسها . . . وقالت :

– احدس ماذا اريد ان اقول لك .

ارتبك بيرسينيف . لقد فهمها . نظر في ناحية واجاب :

– لعلك تريدين ان تقولي لي انك ترغبين في رؤيته .

احمرّت يلينا ، وقالت بصوت لا يكاد يُسمع :

– نعم .

– وليكن . اعتقد ان ذلك سهل عليك جداً .

وقال في سره : «اوف ! اي شعور مقزز يجثم على قلبي !»

قالت يلينا :

– تريد ان تقول انني من قبل ايضاً . . . ولكنني اخاف . فانت تقول انه الآن نادراً ما يكون لوحده .

قال بيرسينيف ، وهو ما يزال يتحاشى النظر اليها :

– ليس من الصعب مساعدتك في ذلك . بالطبع ، لا استطيع ان اعلمه مسبقاً ، ولكن اعطيني مذكرة . فمن يستطيع ان يمنعني من الكتابة اليه ، كواحد من معارفك القريبين ، تهتمين بمصيره ؟ لا شيء يلام عليه في هذه الكتابة . حددي له . . . اقصد اكتبي له متى ستزورينه . . .

همست يلينا :

– انا خجلة .

– اعطيني المذكرة ، وساحملها اليه .

– لا حاجة الى ذلك . ولكن اردت ان اطلب اليك . . . لا تغضب عليّ ، اندريه بيتروفيتش . . . لا تذهب اليه غداً .

عض بيرسينيف على شفته .

– آها ! نعم ، فهمت ، حسن جداً ، حسن جداً .

وبعد ان اضاف كلمتين او ثلاثاً ، خرج بسرعة .

وراح يفكر ، وهو يسرع الى بيته : «هذا افضل ، افضل . لم اعرف شيئاً جديداً ، ومع ذلك افضل . فما حاجتي الى ان التشبث بطرف عش لا يخصني ؟ لقد فعلت ما املاه ضميري ، دون ان اندم على شيء . والآن كفى . هما وشأنهما ! كان ابي على حق ، حين كان يقول لي : «انا وانت ، يا اخ ، لسنا مترفين ولا ارستقراطيين ، ولا ممّن حباهم القدر والطبيعة ، ولا حتى شهيدين ، بل نحن كادحان ، ولا اكثر من كادحين . فالبس مئزرك الجلدي ، ايها الكادح ، والزم مكانك وراء الدكة ، في مشغلك المظلم ! واترك الشمس تضيء للآخرين ! فان لحياتنا الكالحة فخرها ايضاً ، وسعادتها !»

في صباح اليوم التالي تلقى اينساروف عن طريق بريد المدينة مذكرة قصيرة كتبت يلينا فيها له : «انتظرني ، واطلب ان لا يدخل عليك احد . اما أ . ب . فلن يأتي» .

٣٨

قرأ اينساروف مذكرة يلينا ، واخذ على الفور يرتب حجرته ، وطلب من ربة البيت ان تخرج قارورات الدواء ، وخلع روبه

البيتي ، ولبس سترته . كان رأسه يدور وقلبه يخفق ضعفاً وفرحاً . وتراخت رجلاه ، فجلس على الاريكة ، واخذ ينظر في الساعة . قال لنفسه : «الساعة الآن الثانية عشرة الا ربعاً . ولا يمكنها ابداً ان تأتي قبل الثانية عشرة ، فلأفكر في شيء آخر خلال ربع الساعة هذا ، والا فلن احتمل . لا يمكنها ابداً ان تأتي قبل الثانية عشرة . . .»

وانفتح الباب ، ودخلت يلينا مع الحفيف الخفيف من ثوبها الحريري ، شاحبة تماماً ، نضرة كلياً ، فتية ، سعيدة ، وارتمت على صدره بصيحة فرح ضعيفة . وقالت ، وهي تعانقه ، وتداعب رأسه :

– انت حي ، انت لي .

وجمد كلية ، واحتبست انفاسه من قربها منه ، ومن ملامساتها له ، ومن هذه السعادة .

جلست بالقرب منه ، وانكمشت عليه ، وراحت تحدق فيه بتلك النظرة الضاحكة الناعمة الحنون ، التي لا تتألق الا في عيون العاشقات .

وعلا وجهها حزن مفاجئ ، وقالت وهي تمرر يدها على خده :

– كم نحلت ، يا مسكيني دميتري ! واية لحية لك !

اجابها وهو يمس اصابعها بشفتيه :

– وانت ايضاً ، نحفت ، يا مسكينتي يلينا .

هزت خصلاتها بمرح .

– لا بأس . سترى كيف سنمتلئ صحة ! هبت عاصفة ، كما في ذلك اليوم الذي التقينا فيه في الصومعة . هبت وانقشعت . والآن سنعيش !

لم يجبها الا بابتسامة .

– آه ، يا دميتري ، اية ايام ، اية ايام قاسية ! كيف يستطيع الناس ان يعيشوا اطول من الذين يحبونهم ؟ والحق انني كنت اعرف مسبقاً ما سيقوله اندريه بيتروفيتش كل مرة . فلقد كانت حياتي تهبط وترتفع مع حياتك . حُيِّيت ، يا عزيزي دميتري !

ولم يعرف ماذا يقول لها . كان يود لو يركع على قدميها . استطردت ، وهي تدفع شعره الى الوراء :

– ولاحظت ايضاً (خرجت بالكثير من الملاحظات ، طوال هذه
المدة ، اثناء فراغي) عندما يكون الانسان تعيساً جداً ، جداً ، ينتبه
بعمق الى كل ما يجري حوله ! احياناً ، اذا اردت الحقيقة ، كنت
اتمعن في ذبابة ، بينما تسري في روحي برودة ورعب ! ولكن كل
ذلك ولى وانقضى . أليس كذلك ؟ وكل شيء نير مستقبلاً ، أليس
كذلك ؟

اجاب اينساروف :

– انت لي مستقبلاً ، فكل شيء نيّر في وجهي .

– وانت لي ايضاً ! اتذكر عندما كنت عندك ، ليس في المرة الاخيرة ، لا ، ليس في المرة الاخيرة – كررت في ارتعاشة لاارادية – عندما كنا نتحدث سوية ، لا ادري لماذا خطر الموت على بالي ، ولم اكن اتوجس بانه كان يترصد خطانا . ولكنك الآن معافى ، اليس كذلك ؟

– احس بتحسن شديد ، معافى تقريباً .

– انت معافى ، ولم تمت . آه ، ما اسعدني !

وساد صمت قصير . ناداها اينساروف متسائلاً :

– يلينا ؟

– ماذا ، يا عزيزي ؟

– قولي لي ، الم يخطر في ذهنك ان هذا المرض جاء عقاباً لنا ؟

نظرت يلينا اليه نظرة جادة :

– خطرت لي هذه الفكرة ، يا دميتري . غير انني فكرت على اي شيء أُعاقب ؟ وباي واجب فرّطت ، وبحق اي شيء اجرمت ؟ ربما لم يكن ضميري كضمائر الآخرين ، ولكنه لم يحاسبني ، او ربما كنت مذنبة ازاءك ؟ فانا ساعيقك ، اوقفك . . .

– انت لن توقفيني ، يلينا ، سنسير سوية .

– نعم ، دميتري ، سنسير سوية ، ساسير وراءك . . . ذلك واجبي . انا احبك ، ولا اعرف واجباً آخر .

قال اينساروف :

– آه ، يلينا ! باية سلاسل لا تقهر تطوقني كل كلمة تقولينها !

فانبرت تقول :

– ولِمَ تقول سلاسل ؟ نحن احرار ، انت وانا . اجل – مضت تقول ، ناظرة ، في سهوم الى الارض ، وهي تسوي شعره بيد واحدة ، كالسابق – ذقت في المدة الاخيرة ، الكثير مما لم تكن لي اية فكرة عنه من قبل . لو ان احداً تكهن لي في الماضي بانني ، انا المهذبة الحسنة التربية من عائلة الاسياد ساخرج لوحدي من البيت بذرائع مختلفة مختلقة ، والى اين ؟ الى شاب في مسكنه ، لاحسست بحنق شديد ! وكل هذا قد تحقق ، ولم اشعر باي حنق ، وحق الرب !

قالت هذا والتفتت الى اينساروف .

كان ينظر اليها بهناءة عظيمة ، حتى انها ارخت يدها بهدوء وازالتها من شعره الى عينيه . وانشأت تقول :

– دميتري ، انت لا تعرف انني رايتك مطروحاً على ذلك السرير المريع ، – رايتك بين براثن الموت ، فاقد الوعي . . .

– رايتني ؟

– نعم .

صمت لحظة .

– وبيرسينيف كان هنا ؟

هزّت راسها . انحنى اينساروف نحوها ، وهمس :

– آه ، يلينا ! انا لا اجسر على النظر اليك .

– ولماذا ؟ اندريه بيتروفيتش طيب جداً ، ولم اخجل منه . ولماذا اخجل ؟ انا مستعدة لأن اعلن للدنيا كلها بأنني لك . . . وانا اثق باندريه بيتروفيتش ، كاخ .

هتف اينساروف :

– هو الذي انقذني . انه انبل الناس خلقاً ، واكثرهم طيبة !

– نعم . . . وهل تعرف انني مدينة اليه بكل شيء ؟ هل تعرف انه هو اول من قال لي بانك تحبني ؟ ليتني استطيع ان اكشف كل شيء . . . نعم ، انه انبل الناس خلقاً .

حدق اينساروف في يلينا بتفرس .

– انه مغرم بك ، اليس كذلك ؟

قالت منكسة الراس ، خافتة الصوت :

– نعم ، كان يحبني .

ضغط اينساروف على يدها بقوة وقال :

– اوه ، ايها الروس ، ان لكم قلوباً من ذهب ! وكان يرعاني
ولم ينم الليالي . . . وانت ، وانت ، يا ملاكي . . . لا تأبي
ولا تردد ، وكل ذلك لي ، لي . . .
– نعم ، نعم ، كل شيء لك ، لانني احبك . آه ، دميتري ! ما
اغرب ذلك ! يبدو لي انني حدثتك بذلك من قبل ، ومع هذا يطيب
لي ان اكرره ، وسيطيب لك ايضاً سماعه . عندما رأيتك لأول
مرة . . .

قاطعها اينساروف قائلاً :

– ولماذا الدموع في عينيك ؟

– الدموع ؟ في عيني ؟ – ومسحت عينيها بالمنديل – اوه ، ما
احمقك ! انت لا تعرف حتى الآن ان الناس تبكي من فرط السعادة .
كنت اريد ان اقول لك : عندما رأيتك لأول مرة ، لم اجد فيك
شيئاً يلفت النظر ،. حقاً . اتذكر ان شوبين ، في البداية ، كان يروق
لي اكثر منك بكثير ، ولكنني لم احبه قط ، اما اندريه
بيتروفيتش ، اوه ! مرّت برهة فكرت فيها : ربما هو سيكون من
نصيبي ؟ اما عنك فلم افكر في شيء . ولكن ، فيما بعد ، فيما
بعد . . . اخذتَ قلبي بكلتا يديك .

قال اينساروف :

– اشفقي عليّ . . .

واراد ان ينهض ، ولكنه انهدّ على الاريكة في اللحظة التالية .
سألته مهتمة :

– ماذا بك ؟

– لا شيء . . . ما زلت ضعيفاً . . . وهذه السعادة ليست في
حدود طاقتي الآن .

– اذن ، اجلس بهدوء . لا تتحرك ، ولا تنفعل – اضافت
متوعدة اياه باصبعها : – ولماذا خلعت روبك البيتي ؟ ما زال الوقت
مبكراً لتتغندر ! اجلس ، وساروي لك الحكايات . فاسمع ، ولا تقل
شيئاً . الكلام الكثير مضر لك بعد المرض . . .

واخذت تحدثه عن شوبين ، وعن كورناتافسكي ، وعما فعله
في الاسبوعين الاخيرين ، وعن حتمية الحرب ، حسب اقوال الصحف ،
وبالتالي سيتعين ، حالما يسترد صحته تماماً ، ايجاد السبل

للسفر ، دون تضييع الوقت . . . وكانت تقول كل ذلك ، وهي
جالسة الى جانبه ، مستندة الى كتفه .

كان يسمعها ووجهه يشحب تارة ويحمر اخرى . . . وحاول
ان يوقفها اكثر من مرة ، ثم رفع جذعه فجأة . قال لها بصوت
غريب حاد :

– اتركيني ، يلينا ، واذهبي .

فردت باندهاش :

– كيف ؟ – ثم اضافت بسرعة – هل تحس بتوعك ؟

– لا . . . انا في حالة جيدة . . . ولكن اتركيني ، ارجوك .

– انا لا افهمك . . . هل تطردني ؟ . . ما هذا الذي تفعله ؟ –
قالت فجأة ، وقد رأته ينزلق من الاريكة الى الأرض تقريباً ، ويمس
قدميها بشفتيه : – لا تفعل ذلك ، دميتري . . . دميتري . . .

رفع جسمه عن الارض .

– اتركيني ، اذن ! عندما وقعت مريضاً ، لم افقد الوعي
راساً ، وكنت احس بانني على شفا الموت ، حتى وانا في وهج
الحمى ، في حالة الهذيان ، كنت ادرك ، اشعر بشكل مبهم بأن
الموت مقبل عليّ ، فاخذت اودع الحياة ، اودعك ، اودع كل شيء ،
وتخليت عن الامل . . . وفجأة يأتيني هذا البعث ، هذا النور بعد
الظلمة ، انت . . . انت بالقرب مني في حجرتي . . . صوتك ،
انفاسك . . . هذا اكثر مما تتحمله قواي ! اشعر بانني احبك
بدلك ، واسمعك تقولين انك لي ، انا لا اتحمل هذا . . . اخرجي !

– دميتري . . .

همست يلينا ، وخبأت راسها في كتفه . الآن فقط فهمته .
ومضى اينساروف يقول :

– يلينا ، احبك ، وانت تعرفين ذلك ، وانا مستعد الى التخلي
عن حياتي فداء لك . . . لِمَ جئت اليّ اليوم ، وانا واهن القوى ،
ولا استطيع السيطرة على نفسي ، ودمي كله يحترق . . . تقولين
انت لي . . . انت تحبينني . . .

– دميتري .

عادت تناديه ، واحمرت كلية ، وانكمشت عليه اكثر .

– يجب ان تشفقي عليّ ، وتخرجي ، يلينا .. انا اشعر
بأن من الممكن ان اموت . . . لا اتحمل هذه السورات . . . روحي

كلها تصبو اليك . . . فكري في ان الموت كاد يفرق بيننا . .
والآن ، انت هنا ، في احضاني . . . يلينا . . .

واخذت تهتز بكل جسدها . وهمست بصوت لا تكاد يسمع :

– خذني ، اذن . . .

٢٩

كان نيقولاي ارتيميفيتش مقطب الحاجبين يتمشى في مكتبه جي
وذهوباً . وكان شوبين يجلس عند النافذة ، ويدخن سيغاراً بهدو
واضعاً رجلاً على رجل . وقال وهو ينفض رماد السيغار :

– ارجوك ، كفّ عن الرواح والمجيء . طول الوقت اتوقع ان
تتكلم ، واراقب حركاتك ، حتى ان رقبتي اخذت تؤلمني ، فضلا
عن ان في مشيتك شيئاً متوتراً ميلودرامياً .

اجابه نيقولاي ارتيميفيتش :

– لا شيء لك غير المزاح . انت لا تريد ان تفهم وضعي ،
تريد ان تفهم انني تعودت على تلك المرأة ، وارتبطت بها وا
غيابها اخيراً يعذبني لا محالة . ها هو تشرين الاول والشتاء ع
الابواب . . . فماذا يمكن ان تفعل في بقائها هذه المدة في ريفيل

– ربما تحوك جورباً لها ، لنفسها ، لا لك .

– اهزل ، اهزل ، ولكنني اقول لك انني لا اعرف امراة مثله
قط في النقاء والنزاهة . . . .

فسأله شوبين :

– هل اعطت سنداً يكفل دفع ما يترتب على ذلك ؟

كرر نيقولاي ارتيميفيتش رافعاً صوته :

– هذه النزاهة شيء مذهل . يقولون لي ان في العالم مليو
امراة اخرى ، فاقول لهم : دلوني اين هذا المليون ، ودلوني اي
هذا المليون ، ودلوني اين هذا المليون اقول – ces femmes
qu'on me les montre ! والذي يقتل انها لا تكتب !

قال شوبين :

---

* دعهم يدلونني على هؤلاء النساء ! (بالفرنسية في الاصل) .

– انت بليغ اللسان ، مثل فيثاغورس (٢٨) . ولكن هـــل
تدري بماذا اضحك ؟

– بماذا ؟

– حين تعود افغوستينا خريستيانوفنا . . . اتفهمني ؟

– اي نعم ، وبعد ؟

– حين تراها . . . هل تلاحظ تطور افكاري ؟

– اي ، نعم ، نعم .

– حاول ان تضربها ، لتعرف ماذا يحصل من ذلك ؟

استدار نيقولاي ارتيميفيتش بسخط .

– ظننت ان سيقدم لي ، بالفعل ، نصيحة مجدية . ولكن ماذا
تتوقع منه ! فنان ، انسان بلا اصول . . .

– بلا اصول ! ويقال ان محبوبك السيد كورناتوفسكي انسان
صاحب اصول ، ربح منك يوم امس مائة روبل فضي . وهذا عمل
غير لائق ، ارجو ان توافقني على ذلك .

– وماذا في ذلك ؟ كنا نلعب للربح . بالطبع ، كان من الممكن
ان اتوقع . . . ولكنه لا يُقدَّر في هذا البيت كثيراً . . .

سارع شوبين ليقول :

– حيث راح يفكر : «مَنْ يدري ! هل سيكون نسيبي ام لا ،
فذلك رهن بالاقدار ، ولكن المائة روبل تنفع لرجل لا ياخذ رشوة» .

– نسيب ! اي نسيب انـــا ؟ * Vous rêvez, mon cher
بالطبع ، مثل هذا الخطيب كان من الممكن ان يكون مسرة لكل فتاة
اخرى . حكّمْ نفسك : انه انسان نشيط ، ذكي ، عصامي ارتقى
بنفسه . كان يعمل في وظيفة في ولايتين . . .

قال شوبين :

– في ولاية . . . كان يضلل الحاكم .

– من المحتمل جداً . وهذا ، في الظاهر ، ما كان ينبغي ان
يفعل . انه واقعي ، رجل عمل . . .

فعاد شوبين يقول :

– ويجيد لعب الورق .

– اي نعم ، ويجيد لعب الورق . ولكن يلينا نيقولايفنا . . .
هل يمكن فهمها حقاً ؟ اود ان اعرف اين ذلك الرجل الذي يستطيع

---

* انت تهذي ، يا عزيزي (بالفرنسية في الاصل) .

ان يفهم ما تريد ؟ مرحة تارة ، وضجرة اخرى ، تنحف فجأة بحيث لا تقوى على النظر اليها ، ثم واذا بها تصح ، وكل ذلك بدون اي سبب ظاهر . . .

دخل خادم دميم يحمل على صينية فنجان قهوة وطاسة من الحليب وبقسماطاً .

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول ملوحاً ببقسماطة :

– الاب معجب بالخطيب ، والابنة لا تعير التفاتاً لذلك ! كان الأمر مضبوطاً في الازمنة البطريقية السالفة ، اما الآن فقد غيرنا كل شيء * Nous avons changé tout ça . الآنسة الآن تتحدث الى كل مَنْ يطيب لها ، وتقرأ كل ما يطيب لها ، تطوف وحدها في موسكو بدون خادم ، ولا وصيفة ، كما في باريس . وكل ذلك مقبول . قبل ايام سألت : اين يلينا نيقولايفنا ؟ فقيل لي : انها خرجت . الى اين ؟ لا احد يعرف . هل هذا هو النظام ؟

قال شوبين :

– خذ الفنجان ، واتــرك الخادم يذهب – ثم اضاف بصوت خافض – انت نفسك تقول لا يجوز ** devant les domestiques .

نظر الخادم الى شوبين من طرف عينـــــه ، وتناول نيقولاي ارتيميفيتش الفنجان ، واضاف شيئاً من الحليب ، وغرف زهاء عشر بقسماطات . وحالما خرج الخادم اخذ يقول :

– اردت ان اقول ان لا اهمية لي في هذا البيت . وهذا كل ما في الامر . لان الناس في عهدنا لا يحكمون الا بالمظاهر . فاذا رأوا شخصاً يشمخ بنفسه احترموه ، وان كان فارغاً احمق . اما صاحب المواهب ، الذي ربما يجلب النفع العميم ، فانهم لتواضعه . . .

ساله شوبين بصوت نحيل :

– هل انت رجل دولة ، يا صغيري نيقولاي ؟

هتف نيقولاي ارتيميفيتش مهتاجاً :

– كفاك مسخرة ! انت تتجاوز حدك ! هذا شاهد آخر على انني لا اعني شيئاً في هذا البيت ، لا شيء على الاطلاق !

قال شوبين متمطياً جذعه :

– آنا فاسيليفنا تضيق عليك ! . . يا للمسكين ! آه ، يا

---

* فقد غيرنا كل شيء . (بالفرنسية في الاصل) .

** امام الخدم (بالفرنسية في الاصل) .

نيقولاي ارتيميفيتش ، عيب علينا انا وانت ! كان من الافضل ان نهدي هدية ما لآنا فاسيليفنا . فسيحل عيد ميلادها بعد ايام ، وانت تعرف انها تعتز باي اهتمام صغير يبدى من جانبك .

احمرّ نيقولاي ارتيميفيتش ليقول :

– نعم . نعم . شكراً جزيلاً على تذكيرك لي . بالطبع ، بالطبع ، من كل بد . عندي شيء لا باس به ، قلادة اشتريتها من محل رودزينشتراوخ قبل ايام ، ولكن لست ادري ، هل ستناسبها ؟

– لكنك اشتريتها لتلك التي تعيش في ريفيل ؟

– اقصد . . انا . . . نعم . . . كنت اتصور . . .

– في هذه الحال ستصلح بالتأكيد .

نهض شوبين من مقعده ، فساله نيقولاي ارتيميفيتش محدقاً في عينيه بلطف :

– اين ستقضي المساء ، يا بافل ياكوفليفيتش ؟ ها ؟

– ولكنك ستذهب الى النادي .

– بعد النادي . . . بعد النادي .

تمطى شوبين مرة اخرى .

– لا ، يا نيقولاي ارتيميفيتش ، عليّ ان اعمل في الغد . في مرة اخرى . وخرج .

تعبّس نيقولاي ارتيميفيتش ، وذرع الحجرة مرة او مرتين ، واخرج من مكتبه علبة مخملية فيها «القلادة» ، وتمعّن فيها طويلاً ، ومسحها بمنديل حريري . ثم جلس الى المرآة ، وراح يمشط شعره الاسود الكثيف بعناية ، مميلا راسه بعظمة تارة الى اليمين ، وتارة الى الشمال ، ممطياً خده بطرف لسانه ، دون ان يصرف بصره عن مفرق الشعر . سعل احد وراء ظهره . التفت فرأى الخادم الذي جاءه بالقهوة . ساله :

– لِمَ انت هنا ؟

قال الخادم بنبرة فيها شيء من المهابة :

– نيقولاي ارتيميفيتش ! انت سيدنا !

– اعرف ، وماذا بعد ؟

– نيقولاي ارتيميفيتش ، ارجو الا تغضب عليّ . انا الذي اخدم سيادتك ، منذ الصغر ، اقصد من واجبي كعبد لك ان اخبر سيادتك . . .



– ولكن ماذا في الأمر ؟
راوح الخادم في مكانه ، وقال :
– سمعت سيادتك تقول انك لا تعرف الى اين تذهب يلي[illegible]
نيقولايفنا . ولكنني صرت اعرف الى اين .
– العلك تكذب ، ايها الاحمق ؟ !
– انا رهن ارادتك ، ولكنني منذ اربعة ايام وانا اراها تذ[illegible]
في بيت غريب .
– اين ؟ كيف ؟ في اي بيت ؟
– في زقاق . . . قرب شارع بوفارسكيا . غير بعيد عن هنا
وقد سالت البواب عن الذين يسكنون البيت .
ضرب نيقولاي ارتيميفيتش الارض بقدميه :
– اسكت ، ايها الارعن ! كيف تجسر على ذلك ؟ يلينا نيقولايفنا
تزور المساكين لأن قلبها طيب . وها انت . . . اخرج ، ايها
الاحمق !
اندفع الخادم نحو الباب مرعوباً . وهتف نيقولاي ارتيميفيتش :
– توقف ! ماذا قال لك البواب ؟
– لا . . . لم يقـل شيئاً . . . يقول انه . . . طا . .
لب . . .
– اسكت ، ايها الارعن ! اسمع ، يا وغد ، حذار ان تقو[illegible]
شيئاً عن ذلك ، حتى في منامك . . .
– ارجو المعذرة . . .
– اسكت ! حتى لو انك المحت . . . لو ان احداً . . . [illegible]
اعرف . . . لن تختفي عني ولو تحت الارض ! هل انت سامع ؟ اغرب
عن وجهي !
واختفى الخادم .
وفكر نيقولاي ارتيميفيتش حين بقي وحيداً :
«يارب ، يا إلهي ! ما يعني هذا ؟ ماذا قال لي هذا الاحمق
ها ؟ على كل حال ، يجب ان اعرف اين هذا البيت ، ومن يعيش فيه
اذهب بنفسي . الى هذه الحال وصل الأمر ، اخيراً .
« Un laquais ! Quelle humiliation. . . ! »*

* خادم ! اى احتقار ! (بالفرنسية في الاصل) .

وكرر «Un laquais!» بصوت عال ، واغلق المكتب على المفتاح ، وذهب الى آنا فاسيليفنا . فوجدها في السرير ، معصوبة الخد ، ولكن مظهرها المعذب لم يزده الا حنقاً ، وبعد وقت قصير بدأ جعلها تبكي .

٣٠

وفي غضون ذلك انفجرت الزوبعة التي كانت تتجمع في الشرق ، واعلنت تركيا الحرب على روسيا . وانتهى الموعد الذي حدد للجلاء من الامارتين ، ولم يكن يوم الهزيمة في سينوب (٢٩) بعيداً . وكانت الرسائل الاخيرة التي تسلمها اينساروف تدعوه الى المجيء الى الوطن بالحاح . وصحته ما تزال معتلة . كان يسعل ، ويشعر بوهن ، وبنوبات خفيفة من الحمى . ولكن لم يكن يستقر في بيته تقريباً . كانت نفسه تلتهب ، فلم يعد يفكر في المرض . وكان يتنقل في موسكو باستمرار ، ويجتمع خلسة باشخاص مختلفين ، ويكتب في ليال بطولها ، ويغيب نهارات كاملة ، وابلغ صاحب البيت بانه سيترك البيت قريباً ، واهدى له مسبقاً اثاثه البسيط . كما كانت يلينا تتهيأ للسفر من جانبها . وفي احدى الامسيات الممطرة كانت جالسة في حجرتها ، تخيط الحواشي لمناديلها ، وتستمع الى عويل الريح بجزع لاارادي . دخلت خادمتها ، وابلغتها بان اباها يدعوها الى مخدع امها . وهمست لها ، وهي تغادر حجرتها : «ماما تبكي ، وبابا حانق . . .»

هزت يلينا كتفيها هزا خفيفاً ، ودخلت الى مخدع آنا فاسيليفنا . كانت عقيلة نيقولاي ارتيميفيتش الطيبة هذه تستلقي نصف استلقاءة على مقعد مسرّح ، وتتشمم منديلاً فيه رائحة كولونيا ، بينما كان ابوها يقف عند موقد الحائط مزرراً سترته بكاملها في باقة منشاة جيداً ، وبرباط صلب عالٍ ، في هيئة تذكر بعض الشيء بخطيب برلماني . اشار لابنته بحركة خطابية من يده الى مقعد ، وحينما نظرت ابنته اليه نظرة متسائلة ، وهي لم تفهم اشارته ، قال بمهابة ، ولكن دون ان يدير رأسه : «تفضلن ، اجلسن» (ونيقولاي ارتيميفيتش يخاطب زوجته دائما **بضمير**

الجماعة ، وابنته بهذا الضمير في الحالات الاستثنائية) .

جلست يلينا .

تمخطت آنا فاسيليفنا بعبرة في الصوت . ووضع نيقولاي ارتيميفيتش يده اليمنى وراء طية سترته الفراك . وبعد صمت مطوّل قال :

– استدعيتك * ، يلينا نيقولايفنا لكي استفسر منك ، او بالاحرى ، لكي اطالبك باستيضاح . انا غير راض عنك ، او ، لا ، هذا خفيف جداً ، ان سلوكك يغمني كثيراً ، يسيئ اليّ والى امك ايضاً . . . امك التي ترينها هنا .

واطلق نيقولاي ارتيميفيتش نبرات صوته الجهيرة وحدها . نظرت يلينا اليه صامتة ، ثم الى آنا فاسيليفنا ، وشحبت .

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

– كان هناك حين من الدهر لم تكن فيه البنات ينظرن الى والديهن باستعلاء ، وكانت سلطة الوالدين تجعـــل العاصيات يرتجفن . وقد ولى ذلك العهد ، مع الاسف ، او هذا ، على الاقل تقدير ، ما يظنه الكثيرون ، ولكن ما تزال هناك قوانين ، وارجو ان تصدقيني ، لا تبيح . . . لا تبيح . . . باختصار ما تزال توجد قوانين . وارجو ان تنتبهي الى ذلك ، توجد قوانين .

قالت يلينا :

– ولكن ، يا بابا . . .

– ارجو الا تقاطعيني . لنعد باذهاننا الى الماضي . . . لقد قمنا ، انا وآنا فاسيليفنا ، بواجبنا . لم نبخل ، انا وآنا فاسيليفنا بشيء لتعليمك ، لا من ناحية المصروفات ولا من ناحية الاهتمام . مسالة اخرى ماذا حصلت من كل هذه المصروفات وهذه الاهتمامات . ولكن كان لي الحق ان اتصور . . . كان لي ولآنا فاسيليفنا الحق في ان نتصور انك ستحافظين بقدسية على تلك القواعد الاخلاقية que nous vous avous inculqués ** كابنة وحيدة لنا . . . كان لنا الحق في التصوّر بان ايـــة «افكار» جديدة لن تمسّ هذا الحرم المقدّس . فماذا حصل ؟ لم اعد اتحدث عن الطيش المتميز بها

---

* الضمائر في النص للجماعة ، ولكنها حذفت لتخفيف النطق . المترجم .

** التي دخلناها في ذهنك (بالفرنسية في الاصل) .

جبينك ، وعمرك . . . ولكن منْ كان يتوقع انك تفقدين صوابك الى هذا الحد . . .

قالت يلينا :

– بابا ، انا اعرف ماذا تريد ان تقول . . .

– كلا ، انت لا تعرفين ماذا اريد ان اقول ! – هتف نيقولاي ارتيميفيتش بصوت رفيع ، وتحول فجاة عن عظمة القيافة البرلمانية ، ومهابة الكلام المسترسل ، والنبرات الجهيرة الرنين – انت لا تعرفين ، ايتها الفتاة الجسور !

تمتمت آنا فاسيليفنا :

– Nicolas بحق الرب ، * Vous me faites mourir, .

– لا تقولي لــي que je vous fais mourir ** آنا فاسيليفنـــا . انت لن تتصوري ماذا ستسمعين الآن . هيئي نفسك لان تسمعي اسوا من ذلك ، دعيني احذرك !

تهافتت آنا فاسيليفنا مسترخية . وخاطب نيقولاي ارتيميفيتش ابنته :

– لا ، انت لا تعرفين ماذا اريد ان اقول .

قالت :

– انا مقصّرة ازاءكما . . .

– اخيراً ، اذن !

مضت يلينا تقول :

– انا مقصّرة ازاءكما . لانني لم اعترف منذ زمان . . .

قاطعها نيقولاي ارتيميفيتش :

– ولكن هل تعرفين انني استطيع ان اقضي عليك بكلمـــة واحدة ؟

رفعت يلينا بصرها اليه .

– نعم ، يا سيدتي ، بكلمة واحدة ! فلا توجهي اليّ هذه النظرة ! (وصالب يديه على صدره) اسمحي لي بان اسالك هل تعرفين البيت في زقاق . . . قرب شارع بوفارسكيا ؟ وهل كنت تترددين على هذا البيت ؟ (ضرب الارض بقدمه) اجيبي ، ايتهـــا

---

* انت تقتلني (بالفرنسية في الاصل) .

** انني اقتلك (بالفرنسية في الاصل) .

السائبـــة ، ولا تحاولي التملص ! الخدم ، الخدم يا سيدتي des vils laquais • وراوك تدخلين هناك الى صاحبك . . .

احمرّت يلينا ، والتمعت عيناها . قالت :

– لا شيء احاول التملص منه . نعم ، كنت اتردد على هذا البيت .

– رائع ، هل تسمعين يا آنا فاسيليفنا ؟ ومن المحتمل انك تعرفين من يسكن هذا البيت ؟

– نعم ، اعرف ، انه زوجي . . .

بحلق نيقولاي ارتيميفيتش عينيه .

– زوجك . . .

كررت يلينا :

– زوجي . لقد تزوجت دميتري نيكانوروفيتش اينساروف .

قالت آنا فاسيليفنا بجهد وبصوت لا يكاد يسمع :

– انت ؟ تزوجت ؟

– نعم ، ماما . . .اعذريني . . . تزوجنا قبل اسبوعين ، سراً .

استلقت آنا فاسيليفنا على ظهر الكرسي ، وتراجع نيقولاي ارتيميفيتش خطوتين .

– تزوجتِ ! تزوجت ذلك الجبلي الاسود الفقير ! ابنة النبيل العريق نيقولاي ستاخوف تزوجت صعلوكاً ، لا اصل له ولا فصل ! دون مباركة الابوين ! وتظنين انني ساتركك وحالك ؟ ولا ارفع شكوى ؟ واسمح لك . . . وانك . . . ان . . . سادخلك الى الدير ، وارسله هو الى الاعمال الشاقة ، الى فرق السجناء ! آنا فاسيليفنا ، قولي لها الآن من فضلك انك ستحرمينها من الميراث .

قالت آنا فاسيليفنا والانين في نبرة صوتها :

– نيقولاي ارتيميفيتش ، بحق الرب .

– متى وباية صورة تمّ ذلك ؟ مَنْ عقد قرانــك ؟ اين ؟ كيف ؟ يا إلهي ! ماذا سيقول الآن معارفي كلهم ، الدنيا كلها ! وانت ، ايتها المتصنعة العديمة الحياء استطعت ان تعيشي في كنف والديك بعد هذه الفعلة ! ولم تخافي غضب السماء ؟

• الخدم الحقراء (بالفرنسية في الاصل) .

– بابا – قالت يلينا (وكانت ترتعش من راسها الى قدميها ، ولكن صوتها كان متماسكاً) افعل بي ما تشاء ، ولكن لا مبرر لك في اتهامي بعدم الحياء والتصنع . لم ارد ان اكدركما قبل الاوان ، ولكنني كنت ساضطر الى ابلاغكما عن كل شيء خلال ايام ، لاننا عزمنا على الرحيل انا وزوجي في الاسبوع القادم .

– ترحلون ؟ الى اين ؟

– الى وطنه ، الى بلغاريا .

– الى الاتراك !

هتفت آنا فاسيليفنا ، وفقدت الوعي .

اندفعت يلينا الى امها .

– ابتعدي ! – صرخ نيقولاي ارتيميفيتش ، وامسك ابنته من يدها – ابتعدي ، ايتها العاقة !

ولكن باب المخدع فتح في تلك اللحظة ، واطل راس شاحب الوجه ذو عينين لامعتين . كان ذلك راس شوبين . صرخ باعلى صوته :

– نيقولاي ارتيميفيتش ! افغوستينا خريستيانوفنا وصلت وهي تدعوك اليها !

التفت نيقولاي ارتيميفيتش بجنون ، وتوعد شوبين بقبضته ، وتوقف لحظة ، وخرج من الحجرة بسرعة .

سقطت يلينا على قدمي امها ، وطوقت ركبتيها .

كان اوفار ايفانوفيتش مستلقياً في سريره وقد طوّق رقبته الممتلئة قميص بلا ياقة له زر علوي كبير ، واسترخى على صدره الشبيه بصدور النسوة بطيات عريضة سارحة ، كاشفاً عن صليب كبير من خشب السرو ، وحجاب . وكان لحاف خفيف يغطي اطرافه الرحبة . والشمعة تشتعل باهتة على المنضدة الليلية الصغيرة ، قرب قدح كبير من الكفاس . وكان شوبين يجلس على السرير عند قدمي اوفار ايفانوفيتش مكسور الخاطر . كان يقول في تفكير :

– اجل ، تزوجت ، وتنوي السفر . وابن اخيك هدر ، وملأ البيت كله بالصياح ، واغلق عليه مخدعه ، للسرّية ، ولكن صوته كان يصل لا الى الخدم والوصيفات فقط ، بل والى السواقين

جميعاً ! وهو حتى الآن يزأر ويصهل ، وكاد يتعارك معي . يهدر بلعنة الابوة كما يهدر دب بقطعة خشب . ولكن ليست لديه القوة . وآنا فاسيليفنا منهارة ، ولكن سفر ابنتها يفتك بها اكثر بكثير من الزواج .

لاعب اوفار ايفانوفيتش اصابعه . وقال :

– ام . . . هذا . . . معلوم .

قال شوبين :

– ابن اخيك يهدد برفع القضية الى المطران ، الى المحافظ ، والى الوزير ، ولكنها ستسافر على اية حال . لا احد يطاوعه قلب ليقتل ابنته ! سيزعق ويصيح ، ثم يسبل ذيله .

– ليس لهم . . . الحق .

قال اوفار ايفانوفيتش ، وشرب شيئاً من القدح .

– نعم ، نعم . ثم اية موجة من الادانات والاقاويل والشائعات ستسري في موسكو كلها . انها لا تخشاها . . . انها ارفع منها ، على العموم . ستسافر ، ولكن الى اين ؟ حتى التفكير في ذلك يرعب القلب . الى بقعة نائية ، مغمورة ! وماذا ينتظرها هناك ؟ اراها بعينيّ خيالي طالعة من خان ، في الليل ، والعاصفة الثلجية ، ودرجة البرودة ثلاثون تحت الصفر . تفارق وطنها ، وعائلتها ، ولكنني افهمها . فمن ستترك هنا ؟ مَنْ كانت ترى من الناس ؟ كورناتوفسكي وامثاله ، وبيرسينيف وامثاله ، وانا وامثالي ايضاً ، وهؤلاء ، على اية حال ، خيرة الناس . فعلى اي شيء تأسف هنا ؟ شيء واحد سيئ . يقال ان زوجها – اوه ، اللعنة . اللسان غير متعود على النطق بهذه الكلمة – يقال ان اينساروف يسعل ويبصق دماً . وهذا سيئ . رأيته قبل ايام ، ووجهه يصلح لان يصاغ منه بروتوس (٣٠) في الحال . . . هل تعرف من هو بروتوس ، اوفار ايفانوفيتش ؟

– وماذا لا يُعرف هنا ؟ انسان .

– بالضبط «كان انساناً» (٣١) . اجل . الوجه رائع ، سوى انه عليل ، وعليل جداً .

قال اوفار ايفانوفيتش :

– لا يهم . . . سيقاتل . . .

– بالضبط ، لا يهم ، سيقاتل . انت اليوم منصف تماماً

ولكن سيهم اذا كان الامر متعلقا بحياته . بينما هي تريد ان تعيش معه .

رد اوفار ايفانوفيتش :

– انهما شابان .

– نعم . انهما شابان وقضيتهما رائعة جريئة . الموت ، الحياة ، النضال ، السقوط ، الانتصار ، الحب ، الحرية ، الوطن ، كل ذلك جيد ، جيد ، وليهب الله ذلك لكل واحد منا ! وليس مثل البروك في مستنقع الى الاذقان ، والتظاهر بان الامر لا يهمك ، وهو في الواقع لا يهمك ، من حيث الجوهر . بينما هناك الاوتار مشدودة ، فاما ان ترن للعالم كله ، او تنقطع !

والقى شوبين راسه على صدره . وبعد صمت طويل مضى يقول :

– اجل ، اينساروف يستحقها . ولكن اي سخف هذا ! لا احد يستحقها . اينساروف . . . لِمَ هذا الخنوع الكاذب ؟ طيب ، لنفرض انه شاطر ، يستطيع ان ينافح عن نفسه ، رغم انه حتى الآن فعل ما فعلناه نحن ، الاثنين ، ولكن المسالة هل نحن تفاحة ميتوس منها ؟ طيب ، هل انا تفاحة ، يا اوفار ايفانوفيتش ؟ هل الرب جردني من كل شيء ؟ لم يعطني اية قابليات ، اية مواهب ؟ ومن يدري ، ربما سيكون اسم بافل شوبين ، مع مرور الزمن ، علماً من الاعلام ؟ ومن يدري ، ربما تلك القطعة النحاسية الزهيدة الموضوعة على منضدتك الآن قد تعطى ، في يوم ما ، بعد مائة عام لنصب تمثال لبافل شوبين يقيمه ابناء ذريته تكريماً له ؟

اتكأ اوفار ايفانوفيتش على كوعـــه ، وتفرس في الفنان الناجح . واخيراً قال وهو يلاعب اصابعه كعادته :

– ظَنٌ بعيد . كنا نحكي عن الآخرين . . . واذا بك تنتقل الى الحديث عن نفسك .

هتف شوبين :

– ايها الفيلسوف العظيم للارض الروسية . كل كلمة من كلماتك ابريز خالص . والتمثال لا يجدر ان يقام ، لي ، بل لك ، وانا اتعهد لك بذلك . ها انت مستلق في وضع لا احد يعرف باي شيء مشبع اكثر : بالكسل ، بالقوة ؟ سالتُ لك تمثالاً بهذا الوضع . كنت محقاً جداً في تقريعك لانانيتي وغروري ! نعم !

نعم ! لا يجوز ان اتحدث عن نفسي ، لا ينبغي ان اتباهى . ما زلنا
نفتقر الى الرجال ، مهما اطلت النظر ودققت . الجميع اما تافهون
من القوارض ، وهاملتون صغار ، ومتوحشون ، وامـــا جهلة في
الحضيض الاسفل ، واما نافخو ابواق ، مهتمون بالصغائر
وعصوات طبول ! كما ان هناك اناساً درسوا انفسهم بدقة مغرية
يسبرون نبض كل احساس لهم دون انقطاع ، ويعلنون لانفسهم
هذا ما احسه ، هذا ما افكر فيه . . . يا له من شغل نافع عملي
لا ، لو كان بيننا اناس حقيقيون لما انصرفت عنا تلك الفتاة
تلك النفس المرهفة ، ولما انزلقت كما تنزلق سمكة في الماء
ماذا يعني هذا كله ، يا اوفار ايفانوفيتش ؟ متى سيأتي زماننا
متى سيولد عندنا اناس حقيقيون ؟

اجاب اوفار ايفانوفيتش :

– تمهّل وسيكونون .

– سيكونون ؟ يا تربة ! يا قوة الارض السوداء ! قلت
سيكونون ؟ احذر ، فساسجل كلمتك هذه . ولكن لماذا تطفئ
الشمعة ؟

– انا نعسان ، مع السلامة !

٣١

كان شوبين صادقاً في قوله . كاد نبأ زواج يلينا المفاجئ
يودي بحياة آنا فاسيليفنا . صارت طريحة الفراش . طالبهـا
نيقولاي ارتيمفيتش بأن لا تسمح لابنتها بان تراها . وكان يبدو
كالمبتهج بسنوح الفرصة لان يظهر نفسه رباً لبيته بالمعنى
الكامل ، راس عائلة متمتعاً بكامل السلطة . كان يهدر ويصيح
بالخدم دون انقطاع ، ويقول من حين لآخر : «سأريكم مَنْ انا ،
ساجعلكم تعرفون ، فانتظروا !» وطوال ما هو موجود في البيت لم
تكن آنا فاسيليفنا ترى يلينا ، وتكتفي بوجود زويا التي كانت
تخدمها بعناية شديدة ، بينما هي تقول لنفسها : «Diesen Insaroff
vorziehen — und wem!»* ولكن حالما كان نيقولاي ارتيميفيتش

---

* تفضيل اينساروف هذا – وعلى مَنْ ! (بالالمانية في الاصل) .

بترك البيت (وكان هذا كثيراً ما يحدث فقد عادت افغوستينـــا
خريستيانوفنا . بالفعل) حتى تذهب يلينا الى امها ، فتظل هذه تحدق
فيها طويلاً وبصمت ، وعيناها مغرورقتان بالدموع . وكان هذا
التأنيب الصامت ينفذ الى قلب يلينا اعمق من غيره . عندئذ لم
تكن يلينا تشعر بالندم ، بل بشفقة عميقة لا حدود لها شبيهة
بالندم .

وكانت تقول مقبّلة يديها :

– يا عزيزتي ، يا ماما . ماذا كان عليّ ان افعل ؟ انا لست
مذنبة ، لقد احببته . وما كان في امكاني ان اتصرف بغير هذا
الشكل . اتهمي القدر ، فهو الذي ساقني الى رجل لا يروق لبابا ،
رجل سيأخذني منك .

فكانت آنا فاسيليفنا تقاطعها قائلة :

– آه ! لا تذكريني بذلك . ما ان اتذكر الى اين ستسافرين
حتى يغوص قلبي في صدري!

فتجيب يلينا :

– يا عزيزتي ماما ، لتلهمك السلوان هذه الحقيقة على الاقل ،
وهي ربما كان من الممكن ان يكون الامر اسوأ ، كأنْ اموت . .

– ولكنني بهذا الشكل ايضاً لا آمل في ان اراك بعد الآن ،
لانــك ستنهين حياتك هناك ، في خص في مكان ما (كانت آنـــا
فاسيليفنا تتصور بلغاريا كالتوندرا السيبيرية) او سيقتلني
فراقك . . .

– لا تقولي هذا ، يا امي الطيبة ، سنلتقي ، بمشيئة الله .
ثم ان في بلغاريا مدناً مثلما عندنا هنا .

– اي مدن عندهم ! الحرب قائمة الآن هناك ، واتصور ان
المدافع تطلق في كل مكان ، اينما ذهبت . . . هل تنوين السفر
قريباً ؟

– قريباً . . . ولكن ابي . . . انه يريد ان يرفع شكوى ،
ويهدد بطلاقنا .

رفعت آنا فاسيليفنا بصرها الى السماء .

– لا ، يا عزيزتي يلينا ، لن يرفع شكوى . وما كنت انا
سأوافق على هذا الزواج ابداً ، وافضل الموت عليه ، ولكن لا
مردّ لما حصل ، ولن اتركه يشين ابنتي .

وبهذا الشكل انقضت عدة ايام . وفي آخر الامر تشجعت واختلت بزوجها في احدى الاماسي في مخدعها . وكان كل شيء في البيت قد هدأ واستقر . في البداية لم يُسمع شيء من هناك . ثم اخذ صوت نيقولاي ارتيميفيتش يطن ، وبعد ذلك نشأ جدال . وارتفعت صيحات ، بل وتوهمت تأوهات . . . وتهيأ شوبين مع الوصيفات وزويا ان يهب مرة اخرى للنجدة . ولكن الضجة في المخدع اخذت تضعف شيئاً فشيئاً ، وتتحول الى كلام ، وسكتت من حين لآخر فقط كانت تتردد نشجات واهنة . وحتى هذه تلاشت ورنت مفاتيح ، وصدر صريف مكتب يفتح . . . وانفتح الباب وظهر نيقولاي ارتيميفيتش . نظر بصرامة الى جميع الذين التقاهم وتوجه الى النادي . واستدعت آنا فاسيليفنا ابنتها اليها ، وعانقتها بقوة ، وقالت ذارفة دموعاً مرة :

– كل شيء سُوّي . ولن يثير ضجة . ولا شيء الآن يعيقك عن السفر . . . وتركتنا .

وسألت يلينا حالما هدأت الام قليلاً :

–هل تسمحين بأن يأتي دميتري لتقديم الشكر لك ؟

– انتظري قليلاً ، يا روحي ، لا استطيع الآن ان ارى هذا المفرق بيننا . . . سيتسنى لنا الوقت قبل السفر .

كررت يلينا باكتئاب :

– قبل السفر .

وافق نيقولاي ارتيميفيتش على ان لا «يثير ضجة» ، ولكن آنا فاسيليفنا لم تقل لابنتها باي ثمن اعطى موافقته . لم تقل لها انها وعدته ان تدفع كل ديونه ، كما سلمته الف روبل فضي نقداً . وفوق ذلك ابلغ آنا فاسيليفنا بشكل حاسم انه لا يريد ان يقابل اينساروف الذي مضى في نعته بالجبلي الاسود وحين وصل الى النادي ، صار ، بدون اية ضرورة ، يتحدث عن زواج ابنته ، مع ملاعبه ، وهو مهندس متقاعد برتبة جنرال . قال بلا مبالاة متكلفة : «هل سمعت بأن ابنتي قد تزوجت طالباً بسبب ولوعها الشديد بالعلم» . نظر الجنرال اليه من خلال نظارته وهمهم «حم !» وسأله اي لعبة يلعب ؟

كان يوم الرحيل يقترب . وتشرين الثاني في ايامه الاخيرة والمواعيد الاخيرة تمضي . وكان اينساروف قد فرغ من استعداداته منذ زمان ، وهو يتحرق شوقاً الى مغادرة موسكو باسرع وقت . وكان الطبيب يستعجله ايضاً ، ويقول له : «انت بحاجة الى طقس داف، ، لن تسترد صحتك هنا» . وكانت اللهفة الى السفر تضني يلينا ايضاً ، فقد كان يفزعها شحوب اينساروف ، ونحوله . كانت غالباً ما تنظر الى ملامح وجهه المتغير بفزع لاارادي . ان وضعها في بيت والديها صار لا يطاق . كانت امها تنوح عليها ، وكأنما تنوح على ميتة ، وابوها يعاملها ببرود وازدراء . فقد كان هو الآخر يتعذب سراً من دنو الفراق . ولكن كان يرى من واجبه ، واجب اب مهان ، ان يخفي مشاعره ، ضعفه . واخيراً رغبت آنا فاسيليفنا في ان ترى اينساروف . اتوا به اليها خلسة ، ومن باب خلفي . وعندما دخل عليها غرفتها ، استعصى عليها الكلام معه وقتاً طويلاً ، بل ولم تستطع حتى ان تستجمع قواها وتنظر اليه . جلس بالقرب من كرسيها ، وانتظر باحترام هادئ حتى بدأت تتحدث معه . وكانت يلينا تجلس هناك واضعة يد امها في يدها . واخيراً ، رفعت آنا فاسيليفنا بصرها ، وقالت : «الله يحاكمك ، يا دميتري نيكانوروفيتش . . .» وتوقفت ، وجمدت كلمات التأنيب على شفتيها .

وهتفت :

– ولكنك مريض . يلينا ، صاحبك مريض !

اجاب اينساروف :

– كنت مريضاً ، يا آنا فاسيليفنا . ولم استرد كل صحتي بعد . ولكن آمل ان هواء وطني سيشفيني تماماً .

غمغمت آنا فاسيليفنا :

– نعم . . . بلغاريا !

وفكرت مع نفسها : «الهي ، انه بلغاري ، يحتضر ، وصوته فاقد الرنين ، وعيناه خاويتان ، وجسده هيكل عظمي ، وسترته مترهلة على كتفيه ، وكأنها ليست سترته ، ولونه اصفر

كالكركم . . . بينما هي زوجته ، تحبه . . . هذا مجرد حلم . . .
الا انها تداركت الامر حالاً ، وقالت :

– دميتري نيكاتورروفيتش . . . هل حتم ، حتم عليك ان تسافر ؟

– حتم ، آنا فاسيليفنا .

نظرت آنا فاسيليفنا اليه .

– آه ، دميتري نيكاتورروفيتش ، ارجو من الله الا يجعلك تعاني ما اعانيه الآن . . . ولكنك تعدني بأن تصونها ، تحبها ولن تشكوا عوزاً ما دمت انا في الحياة !

وخنقت العبرات صوتها ، وبسطت ذراعيها ، وارتمت يلينا وإينساروف عليها .

واخيراً جاء اليوم المحتوم ، وجرى الاتفاق على ان تودع يلينا والديها في البيت ، وتبدأ سفرها من مسكن اينساروف . وعين الساعة الثانية عشرة موعداً للانطلاق . وجاء بيرسينيف قبل الموعد بربع ساعة . فقد كان يظن انه سيجد ابناء وطن اينساروف الذين يرغبون في توديعه ، ولكنهم انصرفوا جميعاً قبل الموعد ، وانصرف كذلك الشخصان الغامضان اللذان يعرفهما القارئ (كانا شاهدي الزواج لاينساروف) . استقبل الخياط «السيد الطيب» باتحناء احترام ، وكان سكران كثيراً ربما حزناً ، او ربما فرحاً لحصوله على الاثاث ، الا ان زوجته سرعان ما ابعدته . كان كل شيء في الحجرة قد رتب . وعلى الارض حقيبة مربوطة بحبل . وغرق بيرسينيف في افكاره . فلقد مرت في خاطره ذكريات عديدة .

دقت الساعة الثانية عشرة منذ وقت طويل ، والحوذي جاء بزلاجة السفر ، و«العروسان» لم يأتيا بعد . واخيراً ترددت خطوات عجول على الدرج ، ودخلت يلينا بصحبة اينساروف وشوبين . كانت عينا يلينا حمراوين ، فقد تركت امها فاقدة الوعي . فقد كان الوداع شاقاً جداً . ولم تكن يلينا قد رأت بيرسينيف اكثر من اسبوع ، فقد صارت زيارته الى بيت ستاخوف نادرة في المدة الاخيرة . ولم تكن تتوقع ان تجده فهتفت : «انت هنا ! شكراً !» وارتمت عليه . وعانقه اينساروف ايضاً . وهبط

صمت مرهق . فماذا كان من الممكن ان يقول هؤلاء الثلاثة ، ماذا كانت تشعر هذه القلوب الثلاثة ؟ وادرك شوبين ضرورة الصوت الحي ، الكلمة التي تقطع هذا الارهاق . وانشأ يقول :

– واجتمع ثلاثتنا من جديد ، للمرة الاخيرة ! فلنخضع لمشيئة الاقدار ، لنذكر الماضي بالخير ، وليبارك الرب الحياة الجديدة وانشد – «وعلى بركة الله في الطريق الطويل» (٣٢) .

وتوقف . احس فجأة بالخجل والحرج . فمن الاثم الغناء حيث يرقد المحتضر . وفي هذه الحجرة ، وفي هذه اللحظة ، كان يحتضر الماضي الذي ذكره ، ماضي الناس المجتمعين فيها . كان يحتضر لبعث حياة جديدة ، ولنقل ذلك . . . ولكنه كان يحتضر على اية حال .

قال اينساروف مخاطباً زوجته :

– حسناً ، يلينا . هذا كل شيء ، كما يبدو ؟ دُفع كل شيء ، وحزمت جميع الامتعة . بقي ازال هذه الحقيبة فقط . يا صاحب البيت !

دخل صاحب البيت الى الحجرة مع زوجته وابنته . واستمع الى ايعاز اينساروف متمايلاً قليلاً ، وطرح الحقيبة على كتفه ، وهبط الدرج الى الاسفل بسرعة ، طارقاً الارض بحذائه .

قال اينساروف :

– والآن لنجلس لحظة ، حسب العادة الروسية .

جلس الجميع . وقعد بيرسينيف على الاريكة القديمة ، وجلست يلينا بالقرب منه ، وانكمشت ربة البيت وابنتها على العتبة . والجميع صامتون ، والجميع يبتسمون بجهد ، ولا احد كان يعرف لم يبتسم . كان كل واحد يود ان يقول شيئاً في الوداع ، وكان كل واحد (باستثناء صاحبة البيت وابنتها ، بالطبع ، حيث كانتا تحملقان لا غير) يشعر بأن في مثل هذه اللحظات ، لا يباح الا المبتذل من القول ، فان كل كلمة مهمة ، او ذكية ، او نابعة من القلب ، لا غير ، ستبدو في غير مكانها ، وكاذبة تقريباً . كان اينساروف اول من نهض ، وراح يرسم علامة الصليب ، وهتف : «وداعاً ، يا حجرتنا !»

وترددت قبلات رنانة ، ولكنها باردة ، قبلات فراق ، وتمنيات في سفر ميمون ، لم تُقل كاملة ، وفي الوعد بالمراسلة ، وكلمات وداع اخيرة نصف مكتومة . . .

جلست يلينا في الزلاجة ، والدموع تغمر وجهها ، وغطى
اينساروف قدميها بالسجادة بعناية . وكان الجميع واقفين عند
مدخل البيت : شوبين ، وبيرسينيف ، وصاحب البيت ، وصاحبة
وابنتهما في المنديل الذي لا يفارق رأسها ، والبواب ، وحرفي
عابر يرتدي روب عمل مخططاً . واذا بزلاجة مترفة تدخل الفناء
فجأة يجرها حصان جيد سريع العدو ، ويقفز منها نيقولاي
ارتيميفيتش مزيحاً الثلج من ياقة معطفه . ويهتف وهو يدنو من
زلاجة السفر راكضاً :

– حمداً لله على انني وجدتك لم ترحلي بعد . يلينا ، هذا
لك ، بركتنا الابوية الاخيرة .

وادخل رأسه تحت سقف الزلاجة واخرج من جيب سترته
ايقونة صغيرة ، مخاطة بحافظة مخملية صغيرة ، ووضعها في
رقبتها . انفجرت يلينا باكية ، وراحت تقبل يديه ، وخلال ذلك
اخرج الحوذي من مقدمة الزلاجة زجاجة من الشمبانيا ، وثلاثة
اقداح .

– طيب ! – قال نيقولاي ارتيميفيتش ، والدموع تقطر غزيرة
على ياقة معطفه من فراء القندس – يجب توديعكما . . . والتعبير
عن التمنيات – واخذ يصب الشمبانيا ، ويداه ترتعشان ، وطفح
الحَبب على الحوافي ، وسقط على الثلج . تناول قدحاً واعطى القدحين
الاخرين ليلينا ولاينساروف الذي كان قد لحق ليجلس جنبها .
وشرع نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

– يعطيكما الله . . . – ولم يستطع ان يكمل . فشرب
قدحه ، وشرب الآخران ايضاً – والآن ينبغي عليكما ، ايها
السيدان – اضاف مخاطباً بيرسينيف وشوبين ، ولكن الحوذي ساق
الحصان في تلك اللحظة . ركض نيقولاي ارتيميفيتش قرب العربة
وراح يقول بصوت متقطع – لا تنسي ، اكتبي لنا . – اخرجت
يلينا رأسها ، وقالت : «وداعاً ، بابا ، اندريه بيتروفيتش
بافل ياكوفليفيتش ، وداعاً ، الجميع ، وداعاً ، يا روسيا
وارتدت الى الخلف . لوّح الحوذي بسوطه ، وصفر ، وصرّت
زلاجة السفر بمزلجتيها ، واستدارت من بوابة الفناء الى اليمين ،
واختفت .

٣٣

كان يوماً مشرقاً من ايام نيسان . وكان جندول حاد المقدمة
يتمايل باتزان كلما دفع الجندولي مجذافه الطويل ، لينزلق في
المنبسط المائي العريض الذي يفصل فينيسيا عن ليدو ، وهو
الاسم الذي يطلق على شريط ضيق من رمل البحر المجروف .
كانت يلينا واينساروف جالسين تحت سقفه الواطئ على تنضد
جلدية ناعمة .

لم تتغير قسمات وجه يلينا كثيراً منذ مغادرتها موسكو ، الا
انها اكتسبت مسحة اخرى ، فكانت اكثر استغراقاً وصرامة ،
وكانت عيناها اجسر . تفتح كل جسدها ، وبدا شعرها اكثر نعومة
واكثر مؤطراً جبينها الابيض وخديها النضرين . وشفتاها وحدهما ،
حين لا تبتسمان ، تكشفان عن انشغال مستديم خفي يلوح كغضن
لا يكاد يبين . اما اينساروف ، فبالعكس ، ظل تعبير وجهه كما
كان ، الا ان ملامحه تغيرت بشدة . نحف ولاح عليه الكبر ،
وشحب ، وتقوس ظهره بعض الشيء . وكان يسعل ، باستمرار
تقريباً ، سعالاً قصيراً جافاً ، وكانت عيناه الغائرتان تلمعان
لمعاناً غريباً . وكان في طريق سفره من روسيا ، قد اقعده المرض
في الفراش ما يقارب الشهرين قضاهما في فينا ، وفي نهاية آذار
فقط وصل الى فينيسيا مع زوجته . وكان يأمل ان يسافر منها
عبر زارا ، الى الصرب ، وبلغاريا . فكانت جميع الطرق الاخرى
مغلقة عليه . وكانت الحرب ما تزال تهدر في الدانوب ، وقد
اعلنت فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا ، وجميع الامصار
السلافية مضطربة تتهيأ للانتفاضة (٣٣) .

رسا الجندول على الحافة الداخلية لليدو . وتوجهت يلينا
واينساروف منها الى البحر ، خلال درب رملي ضيق ، غرست
فيه اشجار عجفاء (تغرس كل عام ، وتموت كل عام) .

سارا بمحاذاة الساحل . وكان بحر الادرياتيك يسوق امامهما
امواجه الزرقاء الكدرة مزبدة مرغية ، صاعدة هابطة مخلفة على
الرمل ، في تراجعها ، اصدافاً صغيرة ، ومزقاً من الاعشاب
البحرية .

قالت يلينا :

– يا له من مكان مقبض ! اخشى ان يكون البرد هنا اكثر مما تتحمله . ولكنني حزرت لِمَ اردت ان تاتي الى هنا .

قال اينساروف بتكشيرة سريعة مريرة :

– برد ! ولكنْ اي جندي ساكون اذا اخاف من البرد . سأقول لك ، لماذا جئت الى هنا . انظر الى البحر ، واشعر وانا في هذه البقعة ، بأنني اقرب الى بلادي – واضاف مادّاً ذراعه الى الشرق – فهي هناك . وهذه الريح قادمة من هناك .

قالت يلينا :

– الا تسوق هذه الريح تلك السفينة التي تنتظرها ؟ هناك شراع ابيض في الافق ، العله شراعها ؟

نظر اينساروف في المدى البحري ، الى حيث اشارت يلينا وقال :

– وعد ريندينتش ان يرتب كل شيء لنا ، خلال اسبوع يبدو ان الاعتماد عليه ممكن . هل سمعت ، يلينا – اضاف بحيوية مفاجئة – يقال ان الصيادين الفقراء في دالماسيا كانوا يتخلون عن تلك القطع الرصاصية الصغيرة التي تثقل الشباك وتنزلها الى القاع – ليصنعوا منها طلقات (٣٤) ! لم تكن لديهم نقود . كانوا يعيشون على صيد الاسماك وحده ، ولكنهم اعطوا آخر ما يملكون بفرح ، وهم يتضوّرون جوعاً الآن . اي اناس هؤلاء !

– Aufgepasst ! *

صدر هذا الصوت بعجرفة من الخلف . وترددت كركبة حوافر حصان خافتة الرنين ، ومرّ على فرسه ضابط نمساوي في سترة رمادية قصيرة ، وقبعة خضراء ذات ظليلة . . . وما كادا يلحقان ليتنحيا عن طريقه .

شيّعه اينساروف بنظره جهماً ، قالت يلينا :

– ليس ملوماً ، ليس لهم مكان آخر للتدريب على ركوب الخيل ، كما تعرف .

قال اينساروف :

– ليس ملوماً ، ولكنه اثار دمي بصيحته ، وشاربيه وقبعته العسكرية ، وبكل مظهره (٣٥) . لنعد .

* احترس ! «بالالمانية في الاصل» .

– لنعد ، دميتري . هناك تيار من الريح ، بالفعل . لم تحرص انت على نفسك ، بعد مرضك في موسكو ، فدفعت ثمن ذلك في فينا . يجب ان تكون اكثر حذراً ، الآن .

صمت اينساروف ، الا ان التكشيرة المريرة السابقة ، رفّت على شفتيه . وتابعت يلينا تقول :

– هل تريد ان نركب جندولاً في القناة الكبيرة ؟ نحن حتى الآن لم نر فينيسيا ، بشكل طيب . وفي المساء نذهب الى المسرح . بيدي تذكرتان في المقصورة . يقال ان اوبرا جديدة تعرض هناك . اتريد ان نوّقف هذا اليوم على انفسنا ، وننسى السياسة والحرب ، وكل شيء ، ولا نعرف الا شيئاً واحداً وهو اننا نعيش ، ونستنشق الهواء سوية ، ونفكر سوية ، واننا قد ارتبطنا الى الابد . . . هل تريد ؟

اجاب اينساروف :

– انت تريدين ذلك ، يا يلينا ، ومعنى ذلك انني اريده ايضاً .

قالت يلينا مبتسمة :

– كنت اعرف ذلك . لنذهب ، لنذهب .

وعادا الى الجندول ، وجلسا فيه ، وامرا الجندولي ان يسير بهما في القناة الكبيرة على مهل .

ومَنْ لم ير فينيسيا في نيسان لا يكاد يعرف فتنة هذه المدينة السحرية ، الفتنة التي تعز على الوصف . وداعة الربيع ونعومته تناسبان فينيسيا مثلما تناسب شمس الصيف الساطعة مدينة جنوى الرائعة ويناسب الخريف الذهبي القرمزي مدينة روما العظيمة ، العريقة . وجمال فينيسيا ، كالربيع ، يمس رغائب النفس ويوقظها ، ويداعب القلب الغرير ويناكده ، وكأنه وعد بسعادة دانية القطوف ليست لغزاً ، وان كانت مبهمة . كل ما في المدينة وضيء ، قريب الى الفهم ، كل ما فيها مغشّى بنقاب ناعس من السكون العاشق . كل ما فيها صامت ، حَفيّ ، انثوي ابتداء من اسمها . فليس محض مصادفة ان يطلق عليها وحدها لقب «الحسناء» . عمائر قصورها وكنائسها تنتصب بخفة وروعة ، مثل حلم رهيف لآلهة شابة . هناك شيء سحري ، شيء غريب فتان في الالق الرمادي المخضوضر ، في الالتماعات الناعمة لموج قنواتها

الاخرس ، في سرحان جندولاتها الصموت ، في خلوها من اصوات المدن الخشنة ، ومن الطرّق الفظ ، والقرقعة ، والدندنة . ويقول لك اهل فينيسيا : «فينيسيا تحتضر ، فينيسيا تتقفر» . ولكنها ربما كانت تفتقر الى هذه الفتنة الاخيرة ، فتنة ذبول جمال في ذروة تفتحه وانتصاره . والذي لم يرها لا يعرفها . فلا كاناليتو ، ولا غواردي (٣٦) (ودع عنك الرسامين المحدثين) استطاع ان ينقل رقة الهواء الفضية هذه ، ولا ذلك المرمى المتنائي والقريب ، ولا ذلك التناسق العجيب لأرشق الملامح والالوان الذائبة . ومن ولّى زمانه ، وحطمتـه الحياة لا داعي له ان يزور فينيسيا ، فستكون مريرة المذاق في ذهنه ، كذكرى احلام لم تتحقق في مطلع حياته . ولكنها ستكون حلوة المذاق لمن ما يزال العنفوان في اعطافه ، ولمن يشعر بالسعادة في ذات نفسه . فليأت بسعادته الى كنف سمائها الساحرة ، وليغمرها ألقها الذهبي الأبد ، مهما يكن لسعادته من لألاء .

مرّ جندول اينساروف ويلينا رخياً بـ Riva dei Schiavoni * ، وبقصر الدوجي ** ، وبيادزيتا ، وخرج الى القناة الكبيرة . كان القصور الرخامية تمتد على الجانبين ، فكانت تبدو وكأنها تمر عائمة بهدوء ، لا تكاد تتيح للمرء ان يشملها ببصره ويفهم كل محاسنها . كانت يلينا تشعر بسعادة غامرة . لم تكن في سماء قلبها اللازوردية غير سحابة داكنة واحدة ، وحتى هذه راحت تبتعد . لان اينساروف في هذا اليوم كان يشعر بتحسن اكثر . مضى بهما الجندول حتى طاق ريالتو العالي ، وعاد بهما . كانت يلينا تخشى برودة الكنائس على اينساروف ، ولكنها تذكرت اكاديمية delle Belle Arti *** (٣٧) ، وطلبت من الجندولي ان يأخذهما اليها . طافا في قاعات هذا المتحف الصغير بسرعة . ولم يتوقفا امام كل لوحة ، ولم يزعجا نفسيهما ، وهما ليسا خبيرين في ذلك ، ولا متفيهقين . وغمرهما فرح تفجّر مفاجئ . فقد بدا لهما فجأة ان كل شيء مسلٍ جداً (الاطفال يعرفون هذا الشعور جيداً) . اثارت يلينا الغيظ الشديد

* كورنيش شيافوني (بالايطالية في الاصل) .
** رئيس جمهورية فينيسيا التجارية المنتخب مدى الحياة .
*** الفنون الجميلة (بالايطالية في الاصل) .

لثلاثة من الزوار الانجليز ، حين ضحكت ، حتى سالت دموعها ، من تعذيب ماركو لتينتوريتو (٣٨) ، وقد قفز من السماء ، كما تقفز الضفدعة الى الماء ، لينقذ عبداً من التعذيب . كما تهلل اينساروف بشراً ، من ناحيته ، حين راى ظهر وربلتي الرجل النشيط في ازار الخضر ، وهو يقف في صدر لوحة تيتسيان «الرفع» ، ماداً يديه في إثر العذراء . بينما العذراء نفسها ، وهي امرأة جميلة قوية ، مندفعة بسكينة وعظمة الى احضان الاله الأب ابهرت اينساروف ويلينا كليهما . كما اعجبتهما ايضاً لوحـة الشيخ تشيما دا كونيليانو (٣٩) الصارمة القدسية . وعندما خرجا من الاكاديمية نظرا مرة اخرى الى الانجليز الثلاثة الذين خرجوا وراءهما باسنانهم الطويلة كاسنان الارانب ، وقذالاتهم المرتخية ، وضحكا . ورأيا صاحب الجندول الذي جاء بهما بسترته القصيرة وبنطلونه القصير ايضاً ، وضحكا . ورأيا بائعة قد لفّت شعرها الاشيب على شكل صرة صغيرة فوق يافوخها تماماً ، فضحكا اصدح من ذي قبل ، واخيراً نظر احدهما في وجه الآخر ، وانفجرا ضاحكين . وحالما استقرا في الجندول ضم احدهما يد الآخر بقوة . ذهبا الى الفندق وهرعا الى حجرتهما ، وطلبا ان يجلب لهما الغداء فيها . ولـم يزايلهما المرح ، وهما على مائدة الطعام . اطعم احدهما الآخر ، وشربا في صحة اصدقائهما في موسكو وصفقا للحاجب ثناء على طبق السمك اللذيذ ، وراحا يلحان عليه لتقديم frutti di mare * حية ، هز الحاجب كتفيه ، وشحط بقدميه ، وهزّ رأسه لدى خروجه ، بل وهمس مرة في زفرة poveretti ! (مساكين !) . وبعد الغداء توجها الى المسرح .

في المسرح عرضت اوبرا لفيردي مبتذلة جداً ، اذا اردنـا الصدق ، ولكنها استطاعت ان تطوف في مسارح اوربا كلها ، اوبرا مشهورة جداً عندنا ، نحن الروس ، وهي «ترافياتا» (٤٠) . كان الموسم قد انتهى في فينيسيا ، وجميع المغنين لم يرتفعوا عن المستوى الوسط ، وكان كل مغن يصرخ باعلى ما تستطيـع حنجرته . وقد مثلت دور فيوليتا ممثلة مغمورة ، لا يحبهـا الجمهور كثيراً ، اذا حكمنا بالبرود الذي جوبهت به ، ولكنها لم

* ثمار البحر ، اي المحار الماكول . (بالايطالية في الاصل) .

تكن تخلو من موهبة . وكانت هذه فتاة شابة سوداء العينين وليست على حظ كبير من الجمال لها صوت غير متسق تماماً وتالف . وكانت في ملابس مزركشة الى حد السذاجة ، وبلا ذوق كان شعرها مغطى بشبكة حمراء ، وفستانها من الاطلس الازرق الناصل يضغط على نهديها ، وقفازاها السويديان السميكان يصلان الى كوعيها المدببين ، ثم من اين لها ان تعرف ، وهي ابنة راع من رعاة برغامو ، كيف تلبس غادات الكاميليا الباريسيات ؟ انها لم تحسن الوقوف والحركة على المسرح . ولكن تمثيلها كان يحفل بالكثير من الصدق ، ومن البساطة الخالية من التحايل وكانت تغني بتلك العاطفية في التعبير والايقاع ، تلك التي يشعر بها الايطاليون وحدهم . كانت يلينا واينساروف جالسين لوحدهما في مقصورة مظلمة عند خشبة المسرح تماماً ، وهما ما يزالان تحت سيطرة ذلـك المرح اللعوب الذي غمرهمـا في اكاديميـة delle Belle Arti . وحين ظهر على المسرح والد الشاب التعيس الذي وقع في شراك الغاوية ، مرتدياً سترة فراك بلون الحمص ، وباروكة بيضاء منفوشة الشعر ، وفتح فمه باعوجاج ، واطلق «ترميلو»* خفيضة النبرة كئيبة ، مرتبكاً هو نفسه ، قبل الاوان ، كادت ان تند منهما ضحكة . . . ولكن تمثيل فيوليتا اثر فيهما . قالت يلينا :

– لا يكاد احد يصفق لهذه الفتاة المسكينة بينما انا افضلها الف مرة على اية شهيرة من الدرجة الثانية معتدة بنفسها كانت ستتلوى ، وتتثنى ، وتسعى طوال الوقت الى اثارة الاعجاب . اما هذه فتبدو وكأنها تشعر بحالها جدية . انظر اليها ، انها لا تلتفت الى الجمهور .

مال اينساروف الى حافة المقصورة ، وتفرس في فيوليتا وقال :

– نعم ، انها لا تمزح . تتوجس الموت .

سكتت يلينا .

وبدا الفصل الثالث . وارتفعت الستارة . . . وجفلت يلينا من مراى السرير ، والستائر المسدلة ، وقارورات الدواء ، والمصباح

* ارتعاشة في الاوتار الصوتية . **المترجم** .

المحبوب . . . تذكرت الماضي غير البعيد . . . وطاف في ذهنها : «والمستقبل ؟ والحاضر ؟» . ومن نكد الطالع ان الممثلة سعلت سعالاً تمثيلياً فردّ عليه من المقصورة سعال جاف حقيقي من جانب اينساروف . . . اختلست يلينا النظر اليه ، ولكنها ابصرت قد طبعت الرصانة والهدوء على قسمات وجهها . فهمها اينساروف ، واخذ يبتسم ، مترنماً بلحن الاغنيـة للبلا .

ولكنه سرعان ما سكت . وصار تمثيل فيوليتا احسن فاحسن واكثر طلاقة . تخلت عن كل ما هو دخيل ، عن كل ما هو زائد ، **ووجدت نفسها** ، وتلك سعادة نادرة عالية جداً للفنان ! تجاوزت فجاة الحد الذي يستحيل تحديده ، ولكن الجمال يكمن وراءه . سرت حركة بين الجمهور ، واخذته الدهشة . لقد بدات الفتاة القبيحة ذات الصوت التالف تاخذ بزمامه ، وتسيطر عليه . ولم يعد صوتها تالفاً ، فقد اشاع الدفء فيه واشتد . وظهر «الفريدو» وكانت صيحة فيوليتا الفرحة تثير تلك العاصفة التي تسمـى «fanatismo»* والتي لا تهزم امامها كل صياحاتنـا الشماليـة الكئيبة . . . وما هي الا لحظة ، واذا بالجمهور قد جمد مرة اخرى . وبدا اللحن النهائي ، اروع قطعة في الاوبرا ، والذي استطاع فيه الموسيقار ان يعرب عن كل الاسف على تبذير الشباب بطيش ، والصراع الاخير لحب يائس عاجز . واستسلمت المغنية للموجـة التي ارتفعت بها ماخوذة ومغمورة بدفق التجاوب الشامل ، وفي عينيها دموع الفرح الفني والعذاب الحقيقي ، وتغير وجهها ، وامام شبح الموت الرهيب المقترب فجاة اندفعت من شفتيها كلمات الرجاء التي تصـل الى عنان السماء «Lascia mi vivere... morir si giovane !» (دعني اعيش . . . اموت وانا شابة !) واذا بالمسرح كله يهتز بالتصفيق العارم ، وهتافات الحماس والاعجاب .

واحست يلينا بالبرودة تجتاح جسدها كله . اخذت تبحث بيدها ، خلسة ، عن يد اينساروف ، ووجدتها وضغطت عليها بقوة . استجاب هو لحركة يدها ، ولكنه لم ينظر اليها ، ولم

* تحمس (بالايطالية في الاصل) .

تنظر هي اليـــه . ان ضم اليدين هذا لم يكن يشبه ذلك ال... حدث بينهما في الجندول قبـــل بضع ساعات ، واحدهما يحتـ... بالآخر .

في طريق العودة الى الفندق سار بهما الجندول في القناة الكبـ... ثانية . كان الليل قد هبط وضيئاً ناعمـــاً . واستقبلتهما الـ... القصور على امتداد القناة ، الا انها بدت مختلفة . كان القمر يغـ... بعضها فيبدو ابيض مذهباً ، وكانما قد ابتلع ببياضه تفاصيـ... الزخارف ومعالم النوافذ والشرفات ، بينما برزت هذه بوضو... اكثر في المباني المسربلة بنقاب خفيف من الظل السبط . وبين... الجندولات باضوائها الحمراء الصغيرة اخفت صوتاً واسرع حركة... وكانت قيادها الفولاذية تلمع غامضة غموض مجاذفها التي كا... تعلو وتهبط فوق الالتماعات الفضية للماء المستتار . وهنا وهنا... كان الجندوليون يتبادلون نداءات قصيرة خافتة (انهم الآن لا يغنو... ابداً) ؛ وما من اصوات اخرى تقريباً . كان الفندق الذي نزل فيه اينساروف ويلينا في Riva dei Schiavoni ، وقد نزلا من الجندو... قبل الوصول اليه ، وطافا عدة مرات حول ساحة القديس مارك تحت الاطواق التي كان عدد كبير من المتبطلين يزدحمون امام مقاهيها الصغيرة . لطيف جداً ان يسير الانسان مع محبوبه في مدينة غريبة ، وسط اناس غرباء . فقد كان كل شيء يبدو جميلاً مهماً ، فتتمنى للجميع الخير والسلام والسعادة التي تملأ جوانحـ... ولكن يلينا لم تعد الآن قادرة على الاستسلام للشعور بسعادة بخلو بال . وما كان في وسع قلبها ان يهدأ ، وقد روّعته الايحاءات قبل وقت قصير . اما اينساروف فقد اشار بصمت ، حـ... مرّ بقصر الدوجي ، الى مواسير المدافع النمساوية المطلة من تحت عقود السقوف الواطئة ، ودفع قبعته الى حاجبيه . وكا... يشعر بالتعب فضلا عن ذلك . نظرا للمرة الاخيرة الى كاتدرائية القديس ماركو ، والى قبابها ، وقد اشعلت اشعة القمر نقاطاً من الضوء الفوسفوري على قصديرها المزرورق ، وعادا الى الفندق على مهل .

كانت حجرتهما تطل بنوافذها على المنبسط البحري العريض الممتد من Riva dei Schiavoni الى جيوديكا . ومقابل فندقهما تقريباً كان يرتفع برج القديس جيورجي المدبب الطرف ، و...

اليمين تلتمع كرة دوغانا الذهبية المرتفعة في الهواء، وتنتصـــب كنيسة Redentore ، لبالاديو (٤١) ، وهي واحدة من اجمـــل الكنائس ، مزدانة كعروس ، والى اليسار تلوح صواري السفن وحبالها ، ومداخن البواخر سوداء اللون . وهنا وهناك كان احد الاشرعة المنشورة الى النصف يتدلى كجناح كسير ، واعلام السفينة المثلثة لا تكاد ترفرف. جلس اينساروف امام نافذة ، ولكن يلينا لم تتركه يستمتع بالمنظر طويلاً . اذ احس بحمى مفاجئة ، وتملكه ضعف موهن . فارقدته في الفراش ، وانتظرت حتى غفا ، وعادت الى النافذة بهدوء . آه ، كم كان الليل ساجياً حنوناً ، والهواء اللازوردي مشبعاً بوداعة الحمام ، وكل عذاب ، كل بلية لا يمكن لها الا ان تهجع وتغفو تحت هذه السماء الصافية ، وتحت تلك الاشعة القدسية الطاهرة ! وفكرت يلينا مع نفسها : «يا الهي ! لمَ الموت ، لمَ الفراق ، والمرض والدموع ؟ او لمَ هذا الجمال ، هذا الشعور اللذيذ بالامـــل ، ولمَ الاحساس المهدئ بالملجأ الأمن ، بالحماية الوثقى ، والرعاية الخالدة ؟ ما تعني هذه السماء الباسمة المباركة ، هذه الارض السعيدة المستريحة ؟ أيمكن ان يكون هذا كله فينا فقط ، وفي خارجنا البرودة الأبدية والسكون ؟ أيمكن ان نكون نحن هنا . . وحدنا . . وكل شيء هناك ، في كل مكان من هذه الاعماق السحيقة التي لا تُسبر ، غريباً علينا ؟ اذن ، فما نفع هذا الظمأ وفرحة الصلاة ؟ (تردد في داخل نفسها «Morir si giovane») الا يجوز للمرء ان يتضرع ويتحاشى وينجو . . . اوه ، يا الهي ، الا يجوز الايمان بمعجزة حقاً ؟» – ووضعت رأسها على ذراعيها المطويتين ، وهمست – «اهذا كل شيء ؟ معقول انه كل شيء ؟ كنت سعيدة ، لا لدقائق ولا لساعات ، ولا لايام بطولها ، بل لاسابيع متتالية . ولكن باي حق ؟» واحست بالرهبة من سعادتها ذاتها . وفكرت : «ماذا لو ان ذلك غير مباح ؟ ماذا لو كان لا يُعطى بلا مقابل ؟ انه السماء . . بينما نحن بشر ، مساكين ، خاطئون . . . Morir si giovane آه ، ايها الشبح الاسود المشؤوم ، انصرف ! حياته ضرورية ليست لي وحدي !»

وفكرت ثانية : «ولكن ماذا لو كان هذا عقاباً ، ماذا لو كان علينا الآن ان ندفع الثمن كاملاً على ذنبنا ؟ كان ضميري هادئاً ،

وهو الآن هادئ . ولكن أهذا برهان على البراءة ؟ ام . يا الهي ،
ايعقل اننا مجرمون بهذا الشكل ؟ ايعقل انك ، خالق هذا الليل
وهذه السماء ، تريد ان تعاقبنا لان احدنا احب الآخر ؟» واضافت
بصورة لاارادية : «واذا كان كذلك ، اذا هو مذنب ، وانا مذنبة ،
فاجعله يموت ، يا الهي ، اجعل كلينا يموت على الاقل ميتة
شريفة ماجدة ، في رحاب وطنه ، هناك ، وليس هنا ، ليس في
هذه الحجرة المعزولة» .

«وفاجعة المسكينة ، الام الوحيدة ؟» - سألت نفسها
واضطربت من سؤالها هذا ، ولم تجد اعتراضاً عليه . ولم تكن
تعرف ان سعادة انسان قائمة على تعاسة انسان آخر ، بل وان
نفعه وراحته ، كالتمثال ، تتطلبان قاعدة من خسارة الآخرين
ومضايقتهم .

غمغم اينساروف اثناء نومه : «ريندتش !»

سارت يلينا اليه على اطراف اصابعها ، وانحنت
عليه ، ومسحت العرق من وجهه . تقلب على المخدة قليلاً
وسكن .

عادت الى النافذة ، وعادت افكارها تتوارد . اخذت تقنع نفسها
وتؤكد لها انْ ليس هناك سبب للخوف . بل وخجلت من ضعفها
وهمست : «وهل هناك خطر حقاً ؟ او ليست صحته قد تحسنت ؟
ولو لم تكن اليوم في المسرح ، لما طافت في ذهني هذه الخواطر»
وفي تلك اللحظة رات نورساً ابيض يحلق عالياً فوق الماء ، ربما
روّعه صياد ، فطار بصمت ، صاعداً هابطاً ، وكانما يبحث عن
مكان يحط فيه . وفكرت يلينا : «ان طار الى هنا ، كان فألاً
حسناً . . .» حام النورس دائراً في مكان واحد ، واطبق جناحيه
وسقط بعيداً وراء سفينة مسودة ، مطلقاً صيحة شاكية ، وكأنما
اصيب بطلقة . جفلت يلينا ، ثم خجلت من جفولها هذا ، فاستلقت
على السرير ، دون ان تخلع ثيابها ، جنب اينساروف الذي كانت
انفاسه تتلاحق ثقيلة سريعة .

٣٤

استيقظ اينساروف في ساعة متأخرة يطوق راسه صداع
اصم ، ويغمره احساس بضعف لئيم ، على حد تعبيره ، يسري في
جسده كله . ولكنه نهض وكان سؤاله الاول :

- الم يات ريندتش ؟
- لم يات بعد .

ردت يلينا عليه ، وقدمت له العدد الاخير من
« Osservatore Triestino » * (٤٢) . وكان فيه حديث كثير عن
الحرب ، وعن البلدان السلافية ، وعن الامارات . شرع اينساروف
يقرأ ، وانشغلت هي بتحضير القهوة له . . . واذا بطرق على
الباب .

وفكر كلاهما مع نفسه : «ريندتش» ، ولكن الطارق تكلم
بالروسية : «هل ممكن ان ادخل ؟» تبادلت يلينا واينساروف
النظرات في استغراب ، وقبل ان يردا دخل الحجرة رجل انيق
الملبس ذو وجه صغير مدبب ، وعينين حركتين . كان يتألق
بكليته ، وكانما قد ربح لتوه مبلغاً ضخماً من المال ، او سمع
نبأ ساراً .

رفع اينساروف جسمه عن الكرسي .

قال الغريب متقدماً نحوه بمشية متخلخلة ، منحنياً ليلينا
بادب :

- لا تعرفني . انا لوبوياروف ، هل تذكرني ؟ التقينا في
موسكو عند آل ي . . .

قال اينساروف :

- نعم ، عند آل ي . . .
- بالتأكيد ، بالتأكيد ! ارجو ان تقدمني لعقيلتك . كنت
دائماً . يا سيدتي ، احترم دميتري فاسيليفتش (وصحح نفسه)
نيكانور فاسيليفيتش احتراماً عميقاً . . . وانا سعيد جداً في ان
يكون لي الشرف ، آخر الامر ، ان اتعرف عليك - ومضى يقول
مخاطباً اينساروف - تصور انني مساء امس فقط ، عرفت انكما

* «مراقب تريست» (بالايطالية في الاصل) .

هنا . انا ايضاً اقيم في هذا الفندق . اية مدينة ، فينيسيا هذ
انها الشعر بعينه ! شيء واحد فظيع هو ان النمساويين الملعو
في كل خطوة ! ضقت من هؤلاء النمساويين ! بالمناسبة ، هل
سمعت بان معركة حاسمة جرت في الدانوب قتل فيها ثلاثمائة ضابط
تركي . واحتلت سيليستريا ، واعلنت بلاد الصرب استقلا
(٤٣) . الا يبهجك هذا وانت المناضل ؟ انا ، السلافي ، يجعل الد
يفور في عروقي ! ومع ذلك انصحك بأن تكون اكثر حذراً ، وا
واثق من انك مراقب . الجاسوسية هنا مريعة ! بالامس دنا مني
شخص مريب ، وسألني «هل انت روسي ؟» قلت له انني
دنماركي . . . لا بد انك عليل ، يا نيكانور فاسيليفيتش الفاضل
وعليك ان تعالج نفسك . سيدتي ، عليك ان تعالجي زوجك
بالامس كنت اطوف كالمجنون في القصور والكنائس . لا بد انك
كنتما في قصر الدوجي ؟ يا له من ثراء في كل مكان ! لاسيما تلك
القاعة الكبيرة وموضع مارينو فالياري (٤٤) ، كتب فيه decapitati
pro criminibus * . وقد زرت السجون الشهيرة ، حيث انفعلت
شديد الانفعال . لا بد انك تذكر . كنت دائماً احب الاهتمام
بالمسائل الاجتماعية ، ووددت لو ارسل المدافعين عن الارستقراطية
الى هذه السجون . كان بايرون محقاً في قوله stood in Venice
on the bridge of sighs» ** (٤٥) وكان ، بالمناسبة ، ارستقراطياً
كنت دائماً في صف التقدم . الجيل الفتي كله في صف التقدم
والانجليز والفرنسيون ؟ سنرى هل سيفعل بوسترابا وبالمرستون
(٤٦) الشيء الكثير . انت تعرف ان بالمرستون اصبح الوزير
الاول . على كل حال ، القبضة الروسية ليست مزحة . ان بوسترابا
هذا محتال فظيع . هل تريد ان اعطيك Les Châtiments»
(٤٧) *** de Victor Hugo شيء مدهش ! avenir le gendarme
(٤٨) **** de Dieu» وهو قول جريء بعض الشيء ، ولكنه القو
القوة . وما قاله الامير فيازيمسكي جيداً ايضاً : «اوربا لا تفتأ ترد

---

* «قطع رأسه لجرائمه» (باللاتينية في الاصل) .
** «وقفت في فينيسيا على جسر التنهدات» (بالانجليزية في الاصل) .
*** «العقوبات» لفيكتور هوغو . (بالفرنسية في الاصل) .
**** «المستقبل منفذ حكم الرب» (بالفرنسية في الاصل) .

باش – كاديك – لار ، وابصارها مثبتة في سينوب» (٤٩) . انا اعشق الشعر . وعندي ايضاً آخر كتاب برودون (٥٠) . عندي كل شيء . لا اعرف كيف انت ، ولكن الحرب تسرني ، فقط ان لا تلجئني الى السفر الى الوطن ، بينما انا انوي السفر من هنا الى فلورنسا ، والى روما ، واظن ان السفر الى فرنسا متعذر ، فسأسافر الى اسبانيا ، يقال ان النساء هناك مذهلات ، سوى كثرة الفقر والحشرات ، وكنت سأسافر الى كاليفورنيا ، نحن الروس مباح لنا كل شيء ، ولكنني عاهدت احد المحررين على دراسة مسألة التجارة في البحر الابيض المتوسط بكل تفاصيلها . قد تقول ان هذا الموضوع غير ممتع ويهم المتخصصين ، ولكننا بحاجة الى المتخصصين . كفانا تفلسفاً ، الممارسة ضرورية الآن ، الممارسة . . . اظنك مريضاً جداً ، يا نيكانور فاسيليفيتش ، ربما اتعبك ، ولكنني سأبقى جالساً بعض الوقت ، على اية حال ، اجلس قليلاً . . .

وظل لوبويادوف يثرثر بهذا الشكل وقتاً طويلاً ، ووعد ، لدى خروجه ، بزيارة ثانية .

استلقى اينساروف على الاريكة وقد اتعبته هذه الزيارة غير المنتظرة .

نظر الى يلينا وقال بمرارة :

– هذا هو جيل الشباب في روسيا : بعضه يتعاظم ويتباهى ، ولكنه في قرارته فارغ كهذا السيد .

ولم ترد يلينا على زوجها ، فقد كان ضعف اينساروف في تلك اللحظة يقلقها اكثر بكثير من وضع كل الجيل الفتي في روسيا . . . جلست الى جانبه ، وتناولت التطريز . اغمض اينساروف عينيه ، وتمدد بلا حراك ، وبدا شديد الشحوب نحيلاً . نظرت يلينا الى صفحة وجهه الحادة الخطوط ، والى ذراعيه المسبلتين ، واعتصر قلبها بخوف مفاجئ . قالت :

– دميتري . . .

جفل اينساروف .

– ماذا ؟ جاء ريندتش ؟

– لا ، لم يأت بعد . . . ولكن ما رأيك ، هل

نستدعي طبيباً ؟ صحتك ليست على ما يرام ، وحرارتك مرتفعة
حقاً .

– اخافك ذلك الثرثار . لا حاجة . ساستريح قليلاً
ويزول كل شيء . وسنخرج مرة اخرى بعد الغداء ... الى
مكان ما .

انقضت ساعتان ، واينساروف ما يزال متمدداً على الاريكة
ولكنه لم ينم ، رغم ان عينيه مغمضتان . ولم تبتعد يلينا عنه
جعلت التطريز على ركبتها ،ولم تتحرك . واخيراً سالته :

– ولماذا لا تنام ؟

– على مهلك – وتناول يدها ، وتوسدها – هكذا
لطيف ... ايقظيني ، حالما ياتي ريندينتش ... واذا قال
المركب جاهز سافرنا في الحال ... يجب ان نضع كل
امتعتنا .

اجابت يلينا :

– لا يحتاج ذلك الى وقت طويل .

وبعد قليل قال اينساروف :

– ما قاله ذلك الرجل عن المعركة وعن بلاد الصرب لابد انه
قد اختلقه كله . ولكن يجب ان نسافر . ولا يجوز تضييع
الوقت ... كوني متهيئة .

وغفا . وهدأ كل شيء في الحجرة .

القت يلينا راسها على ظهر الكرسي ، واستغرقت تنظر من
النافذة وقتاً طويلاً . ساء الطقس ، هبت ريح ، وراحت تجوب الفا
السماء بسرعة غيوم بيضاء كبيرة . تمايلت صارية نحيلة في الافق
البعيد ، وراح العلم المثلث الطويل بصليبه الاحمر يرفرف بلا
انقطاع ، يسترخي ويرتفع من جديد . وكان رقاص الساعة القديمة
يدق ثقيلاً ، وبهسيس حزين . اغمضت يلينا عينيها . وكانت
قد نامت نوماً سيئاً في الليل . فغفت ، هي الاخرى ، شيئاً
فشيئاً .

حلمت حلماً غريباً . تراءى لها في النوم انها في قارب على بركة
تساريتسينو بصحبة اناس غرباء يجلسون صامتين بلا حراك ، ولا
احد يجذف ، والقارب يسير من تلقاء نفسه . ولم تكن يلينا
مرتعبة ، ولكنها ضجرة ، فقد كانت تريد ان تعرف من هؤلاء

الناس ، ولم هي معهم . وتحدق ، فاذا بالبركة تتسع ، والضفاف
تختفي . ولم تعد البركة بركة ، بل صارت بحراً مضطرباً .
والامواج اللازوردية الصامتة الهائلة تؤرجح القارب ببطء ، ويطلع
من القاع شيء هادر مرعب واذا بالغرباء يقفزون على ارجلهم ،
ويصيحون ويلوّحون باذرعهم ... وتتعرف يلينا على وجوههم ،
وابوها بينهم ولكن الاعصار الابيض يدوّم في الامواج وراح كل
شيء يدور ، ويختلط ...

وتنظر يلينا فيما حولها . كل شيء ابيض كالسابق ، ولكن
الثلج يتساقط الى ما لانهاية ، ولم تعد جالسة في القارب ، بل في
الزلاجة التي نقلتها من موسكو ، وليست وحيدة ، بل مع مخلوق
صغير ملتف بمعطف نسائي قديم . وتتمعن يلينا فتتعرف فيه
كاتيا ، صاحبتها المتسولة المسكينة . وترتعب . ويجول في
ذهنها : «الم تمت بعد ؟»

– كاتيا ، الى اين نحن ذاهبتان ؟

ولا تجيب كاتيا ، وتلتف بمعطفها . كانت ترتعد برداً . وتحس
يلينا بالبرودة ايضاً . وترسل بصرها عبر الطريق ، فترى مدينة
تلوح في البعيد ، خلال رذاذ الثلج . ابراج بيضاء عالية برؤوس
فضية ... كاتيا ، كاتيا ، اهذه موسكو ؟ تفكر يلينا مع نفسها :
لا ، هذا دير سولوفيتسكي ، وفيه الكثير ، الكثير من الصوامع
الصغيرة الضيقة ، والجو هناك خانق ، ودميتري محتجز هناك ،
ويجب ان اطلق سراحه ... وفجاة تنشق امامها هاوية بيضاء
فاغرة . وتسقط الزلاجة ، وتضحك كاتيا . ويتردد صوت من
الهاوية : يلينا ، يلينا !

ويصدر صوت واضح في اذنيها – «يلينا !» رفعت راسها
بسرعة ، والتفتت ، وجمدت على حالها ، فقد رأت اينساروف مبيضاً
كالثلج ، كالثلج الذي رأته في حلمها ، يرفع جسمه على الاريكة
الى النصف ،ويحدق فيها بعينين واسعتين وضاءتين مرعبتين .
وشعره متناثر على جبينه وشفتاه منفرجتان بشكل غريب
وترتسم على وجهه المتغير فجاة رعب ممزوج بحنان وكآبة
وقال :

– يلينا ! انا احتضر .

ركعت على ركبتيها صارخة ، وانضغطت على صدره . كر...
اينساروف :

– كل شيء انتهى . انا احتضر . وداعاً . وداعاً ، يا زوجتي المسكينة
وداعاً ، يا وطني ! . .

وانطرح بظهره على الاريكة .

خرجت يلينا من الحجرة راكضة ، وراحت تنادي طالبة النجدة ، وانطلق خادم لاستدعاء طبيـب . وارتمت يلينا على اينساروف .

وفي تلك اللحظة ظهر على عتبة الباب رجل عريض المنكبين ملوّح البشرة في معطف سميك من الفانيله ، وقبعة واطئة من المشمع . وتوقف في حيرة . هتفت يلينا :

– ريندتيش ! انت هذا ! انظر ، بحق الرب ، انه في غيبوبة ماذا به ؟ يا الهي ، يا الهي ! بالامس خرج ، وقبل لحظات كان يتكلم معي . . .

لم يقل ريندتيش شيئاً ، سوى انه تنحى . وتجاوزه خلفه شخص صغير يضع عـلى رأسـه شعراً مستعاراً ، ويلبس نظارة . انه طبيب كان يقيـم في نفس الفندق . وتقدم من اينساروف .

وبعد لحظات قال :

– سينيورا . السيـد الاجنبي مات — Il signore forestierre e morto

– من تمدد الاوعية الدموية مع اختلال الرئتين .

٣٥

في اليوم التالي كان ريندتيش واقفاً عند النافذة ، في نفس الحجرة وقد جلست يلينا امامه ملتفة بشال . وكان اينساروف ممدداً في تابوت في الحجرة المجاورة . كان وجه يلينا مذعوراً ولا حياة ، وقد ظهر غضنان على جبينها بين الحاجبين كانا يشقيان على عينيها الجامدتين مسحة الاجهاد . وعلى النافذة رسالة من آنا فاسيليفنا مبسوطة تستدعي فيها آنا فاسيليفنا ابنتها الى موسكو ولو لشهر ، وتشكو من وحدتها ، ومن نيقولاي ارتيميفيتش

وتسلم على اينساروف ، وتستفسر عن صحته ، وترجوه ان يسمح لزوجته بالسفر .

كان ريندتيش بحار من دالماسيا تعرف اينساروف عليه اثناء سفره الى وطنه ، ووجده في فينيسيا . وكان رجلاً صارماً خشناً جسوراً مخلصاً للقضية السلافية . وكان يحتقر الاتراك ، ويبغض النمساويين .

سالت يلينا بالايطالية :

– كم ينبغي ان تمكث في فينيسيا ؟

وكان صوتها بلا حياة كوجهها .

– يوماً لشحن الحمولة ، ولعدم اثارة الريبة ثم نتجه الى زارا راساً . لن افرح ابناء وطني . كانوا ينتظرونه منذ زمان ، ويعولون عليه .

ردت يلينا بآلية :

– يعولون عليه .

سال ريندتيش :

– متى ستدفنينه ؟

تلكات يلينا في الجواب .

– غداً .

– غداً ؟ سابقى . اريـد ان القي حفنة تراب عـلى قبره . ويجب ان اساعدك ايضاً . كان الافضـل ان يرقد في تربـة سلافية .

نظرت يلينا الى ريندتيش ، وقالت :

– يا قبطان ، خذني واياه ، وانقلنا الى ذلك الجانب من البحر بعيداً عن هنا . اهذا ممكن ؟

غرق ريندتيش يفكر .

– ممكن ، ولكنه شاق . لا بد من تدبير الامور مع الرؤوساء الملاعين هنا . لنفرض اننا تجاوزنا كل ذلك ، ودفناه هناك ، ولكن كيف ساعود بك ؟

– لا حاجة عند ذاك ان تعود بي .

– كيف ؟ واين ستبقين ؟

– ساجد لنفسي مكاناً الجأ اليه ، فقط ان تاخذنـا ، تاخذني . . .

حك ريندتيش علباه .

– كما تشائين ولكن كل ذلك يقتضي جهداً كبيراً . انا ذاهب وساحاول . انتظريني هنا بعد حوالي ساعتين .

وانصرف . ذهبت يلينا الى الحجرة المجاورة ، واتكأت على الحائط ، وبقيت واقفة لفترة طويلة كالمتحجرة . ثم ركعت على ركبتيها ، ولكنها لم تستطع ان تصلي . لم تحس في روحها بتأنيب ولوم ، ولم تتجاسر على ان تسأل الله لمَ لمْ يرحمهما ، ولمْ يشفق عليهما ، ولم يصنهما ، ولمَ عاقبهما اكثر من ذنبهما ، ولو كانا مذنبين ؟ ان كل واحد منا مذنب اصلاً لكونه يعيش ، وما من مفكر عظيم ، ولا اي محسن للانسانية ، يمكن ان يأمل ، بحكم ما فعل من خير ونفع ، بان يكون له الحق في ان يعيش . . . ولكن يلينا لم تستطع ان تصلي ، فكانت متحجرة .

في تلك الليلة غادر قارب عريض مرسى الفندق الذي كان اينساروف وزوجته يقيمان فيه . وفي القارب يلينا وريندتيش وصندوق طويل مغطى بقماشة سوداء . وساروا زهاء ساعة ، حتى وصلوا ، اخيراً الى سفينة صغيرة ذات صاريتين كانت تلقي مرساتها عند المخرج من المرفأ تماماً . وصعدت يلينا وريندتيش الى السفينة ، وحمل البحارة الصندوق . وعند منتصف الليل هبت زوبعة ، ولكن السفينة كانت ، في باكر الصباح ، تمر بالليدو . وخلال النهار كانت الزوبعة تعربد بقوة رهيبة ، وكان البحارة المحنكون في مكاتب شركة «لويد» يهزون رؤوسهم ، ولا يتوقعون اي خير . والبحر الادرياتيكي بين فينيسيا وتريست والساحل الدالماسي خطر للغاية .

وبعد ثلاثة اسابيع من خروج يلينا من فينيسيا تلقت آنا فاسيليفنا في موسكو الرسالة التالية :

«والديّ العزيزين . اودعكما الى الأبد . لن تريانني بعد الآن . يوم امس قضى ديمتري نحبه ، وانتهى كل شيء بالنسبة لي . اليوم ساسافر مع جثمانه الى زارا . سادفنه هناك ، ولا اعرف ماذا سيكون معي ! ولكن لم يعد لي وطن ، غير وطن د . يجري الاعداد لانتفاضة هناك ، والناس يتجهزون للحرب ، وساكون ممرضة فيها ، واعتني بالمرضى والجرحى . انا لا اعرف ماذا سيحدث

لي ، ولكنني ساظل ، بعد وفاته ، مخلصة لذكراه ولقضيـة حياته . اعرف الآن اللغتين البلغارية والصربية . ولعلني لا اتحمل كل ذلك ، وهذا افضل . لقد وصلت الى حافة الهاوية ، ويجب ان اسقط . ان القدر لم يجمع بيننا جزافاً . من يدري فقد اكون انا التي قتلته ، والآن جاء دوره ليجرني وراءه . كنت ابحث عن السعادة ، ولكنني ربما ساجد الموت . والظاهر ان هذا ما كان يجب ان يكون . الظاهر ان خطيئة قد ارتكبت . . . ولكن الموت يمحو كل شيء ، ويسوي كل شيء . اليس كذلك ؟ سامحاني عن كل الاحزان التي سببتها لكما . ان ذلك لم يكن بارادتي . ثم لمَ اعود الى روسيا ؟ ماذا افعل في روسيا ؟

تقبلا قبلاتي الاخيرة وتبريكاتي ، ولا تدينانني .

ي .»

انقضى على ذلك زهاء خمسة اعوام ، ولم يأت اي خبر آخر عن يلينا . ولم تجد نفعاً كل الرسائل والاستفسارات كما لم يأت بشيء سفر نيقولاي ارتيميفيتش نفسه الى فينيسيا وزارا ، بعد انعقاد الصلح . في فنيسيا لم يعرف الا ما يعرفه القارئ حتى الآن ، وفي زارا لم يستطع احد ان يمده بمعلومات ايجابية عن ريندتيش ، ولا عن السفينة التي استأجرها . وسرت شائعات غامضة تزعم ان تابوتاً قد قذف الى الساحل ، بعد زوبعـة شديدة ، منذ عدة سنوات ، وقد وجدت في هذا التابوت جثـة رجل . . . وتقول معلومات اكثر وثوقاً ان هذا التابوت لم يقذفه البحر اطلاقاً ، بل جاءت به سيدة اجنبية قادمة من فينيسيا ودفنته قرب الساحل ، واضاف آخرون ان هذه السيدة قد شوهدت بعـد ذلـك في الهرسك مع قوات كانت تؤلف آنذاك ، بل ووُصفت ملابسها السوداء من الرأس حتى القدمين . ومهما يكن من شيء فان اثـر يلينا قد اختفى ، والى الابد ، ولا احد يعرف هل ما تزال حيـة مختفية في مكان ما أم ان لعبة الحياة الصغيرة قد انتهت ، وانتهى فورانها الخفيف ، وحلّ الاجل . يحدث ان يستيقظ انسان فـي نومه ، ويسأل نفسه بذعر مباغت : اصحيـح انني بلغـت الثلاثين . . . الاربعين . . . الخمسين ؟ وكيف مرت الحياة بهذه السرعة ؟ ودنا الموت هذا الدنو ؟ ان الموت كالصياد الذي اصطاد

سمكة ، وابقاها في شبكته في الماء لبعض الوقت ، والسمكة ما تزال تسبح ، ولكن الشبكة تطوقها ، والصياد يخرجها متى شاء .

ماذا جرى لاشخاص قصتنا الآخرين ؟

ما تزال آنا فاسيليفنا حية ترزق ، وقد ظهر عليها الكبر كثيراً بعد الضربة التي صعقتها ، وقلّت شكاواها ، ولكنها صارت اشد حزناً . كما ظهر الكبر على نيقولاي ارتيميفيتش ايضاً ، وغشاه الشيب ، وانقطعت علاقته بافغوستينا خريستيانوفنا . . . وهو الآن يشتم كل ما هو اجنبي . ومدبرة بيته ، وهي امرأة روسية جميلة في نحو الثلاثين من العمر ترفل بالحرير ، وتتحلى بخواتم واقراط ذهبية . وكورناتوفسكي ، ذو المزاج الحاد ، والولوع بالشقروات الوسيمات ، لكونه اسود الشعر حيوياً ، تزوج زويا التي طاعته كثيراً ، بل وكفت عن التفكير بالالمانية . وبيرسينيف في هايدلبورغ : ارسل الى الخارج على نفقة الحكومة ، وزار برلين وباريس ، وهو لا يضيع الوقت سدى . وسيطلع منه معلم صاحب كفاءة . وقد لفتت انظار الجمهور المتعلم مقالتان له هما «عن بعض خصائص القانون الالماني القديم في مسالة العقوبات القضائية» ، و«عن اهمية نشوء المدن في مسالة الحضارة» .

والمؤسف فقط ان كلتا المقالتين قد كتبتا بلغة ثقيلة قليلاً تتخللها الكلمات الاجنبية . وشوبين في روما ، وقد انقطع بكليته الى فنه ، ويعتبر واحداً من اروع النحاتين الشبان الواعدين كثيراً . ويرى الصفائيون المتشددون انه لم يدرس القدامى دراسة كافية ، وانه يفتقر الى «اسلوب» ويعدونه من المدرسة الفرنسية ، وله طلبيات كثيرة جداً من الانجليز والامريكيين . وفي الفترة الاخيرة اثارت نحته «الباخوسية» ضجة كبيرة . وكان الكونت الروسي بوبشكين ، وهو ثري شهير ، ينوي شراءها بالف سكودي ، ولكنه فضل ان يعطي ثلاثة الاف سكودي لنحات آخر فرنسي * pur sang ليقتني نحت «ريفية شابة تموت من الحب

* نقي الدم (بالفرنسية في الاصل) .

ال صدر ملاك الربيع» . وكان شوبين يراسل ، من حين لآخر ، اوفار ايفانوفيتش الذي هو وحده لم يتغير قط في اي شيء . وقد كتب شوبين له منذ حين : «هل تذكر ما قلته لي في الليلة التي عرفنا فيها بزواج يلينا المسكينة ، حين كنت جالساً على سريرك ، وتحدثت اليك ؟ هل تذكر حين سألتك : هل سيكون عندنا بشر ؟ واجبتني : «سيكونون» . آه ، يا قوة التربة السوداء ! والآن ايضاً اسألك مرة اخرى من هنا ، من «بعدي المريح» : «حسناً ، يا اوفار ايفانوفيتش ، هل سيكونون ؟»

لاعب اوفار ايفانوفيتش اصابعه ، وثبت نظرته اللغزية في البعيد .

من «مقدمة لمجموعة الروايات طبعة ١٨٨٠»

. . . كتبت «رودين» في القرية ، في ذروة حملة القرم ، ولقيت نجا
ادبيا محضا بين هيئة تحرير «سوفريمنيك» حيث نشرت ، بل وما لـ
خارجها كان اكثر .

وحظيت «عش النبلاء» باكبر نجاح تلته في اي وقت من الاوقات .
ومنذ الزمن الذي ظهرت فيه هذه الرواية صرت اعتبر من عداد الكتاب الذ
يستحقون اهتمام الجمهور .

ولقيت «في العشية» نجاحا اقل بكثير ، رغم ان اية رواية من روايا
لم تثر ما اثارته من المقالات في المجلات (وكانت مقالـــة دوبروليوبو
ابرزها ، بالطبع) . . .

وليسمح لي القراء بان اروي عن «في العشية» هذه بالذات ، حا
صغيرة من حياتي الادبية .

قضيت عام ٥٥ كله (شانه شان الاعوام الثلاثة التي سبقته) مقيـ
اقامة دائمية في قريتي ، في قضاء متسينسك ، من ولاية اوريول ، لا ابرحـ
وكان اقرب جيراني اليّ شخص يدعى فاسيلي كاراتييف ، وهو صاحـ
اراض شاب في نحو الخامســـــة والعشرين . كان كاراتييف رومانسيا
متحمسا ، وهاوي ادب وموسيقى كبيراً ، موهوبا في الوقت ذاته بدعا
فريدة ، سريع الوقوع في الحب ، سريع التاثر ، مستقيما . وقد درس في
جامعة موسكو ، وكان يقيم في القرية عند ابيه الذي كانت تنتابه ، كل
ثلاث سنوات ، سوداوية كالجنون . وكانت لكاراتييف اخت — وهي شخصـ
رائعة جداً — انتهت ايضا الى الجنون . وكل هؤلاء الاشخاص قد توفوا منـ
زمن بعيد ، ولهذا اتحدث عنهم بهذه الصراحة . اجبر كاراتييف نفسه على
ممارسة الزراعة التي لم يكن يعرف فيها اي شيء من قبل ، وكان يحب
المطالعة بشكل خاص ، والتحدث الى الذين ينسجم معهم ، ومثل هؤلاء النا
لم يكونوا بالكثيرين . وكان كاراتييف لا يروق للجيران بسبب حر
تفكيره ، ولسانه الساخر . بالاضافة الى انهم كانوا يخشون من ان يغر
بناتهم وزوجاتهم ، لان شهرة قد علقت به — وهو لا يستحقها كليا ،
اردنا الحق — شهرة زير نساء كبير . وكان غالبا ما يزورني وكانت زيار

التسلية والمتعة الوحيدة تقريبا ، في تلك الفترة غير البهيجة جداً ، بالنسبة لي .

وحين اندلعت حرب القرم ، وسرى التجنيد لما سمّى «بجحفـــل
المتطوعين» ، على الاشراف ، اتفق اشراف قضائنا فيما بينهم ، اذ انهم لم
يكونوا يحترمون كاراتييف ، على ان يزجوه ، كما يقال ، ويختاروه ضابطا
في «جحفل المتطوعين» هذا . ولما علم كاراتييف بتعيينه جاء اليّ . وقد
على الفور حياته المنهارة والهلعة . وكان اول ما قاله : «لن اعود
من هناك . لن اتحمل ذلك . ساموت هناك» . كانت صحته ليست موضع
فخر ، فقد كان صدره يمرض باستمرار ، وبنيته ضعيفة . ورغم خوفي
عليه ، انا ايضا ، من كل مشقات المسيرة ، الا انني حاولت ان أبدد توجساته
القاتمة ، واخذت اؤكد له اننا سنلتقي ثانية في اقليمنا النائي ، حتى قبل ان
ينتهي عام ، وسنتزاور ثانية ، ونتحدث ، ونتجادل ، كما من قبل . الا انه
ظل مصرا على رايه بعناد ، وبعد نزهة طويلة بما فيه الكفاية في حديقتي ،
توجه اليّ فجاة بهذه الكلمات : «ان لي رجاء لديك . انت تعرف انني قضيت
بضع سنوات في موسكو ، ولكنك لا تعرف ان قصة حصلت لي هناك اثارت
في نفسي الرغبة في ان ارويها لنفسي وللآخرين . وقد حاولت ان اقوم
بذلك . ولكن اقتنعت بانني لا املك اية موهبة ادبية . وتمخّض الامر كله
عن هذه الكراسة التي كتبتهـا ، وها انا اضعها بين يديك» . وبعد ان قال
ذلك اخرج من جيبه كراسة صغيرة فيها زهاء خمس عشرة صفحة . وتابع
حديثه قائلا : «ولما كنت مؤمنا بانني لن اعود من القرم ، رغم كل تسرياتك
الودية ، فاعمل معروفا ، وخذ هذه التخطيطات الأولية ، واصنع منها شيئا
ما ، حتى لا تذهب جزافا ، كما ساذهب انا !» . اخذت ارفض ، ولكنني ،
حين رايت رفضي يغمه ، اعطيته عهداً بان سانفذ وصيته . وفي ذات
المساء ، بعد خروج كاراتييف قرات الكراسة التي تركها ، قراءة عجلى .
كانت تحتوي ، بخطوط عريضة ، ما صار فيما بعد محتوى «في العشية» .
والقصة ، على العموم ، لم تكن قد اوصلت الى ختامها ، وبترت بترا . كان
كاراتييف ، اثناء اقامته في موسكو ، قد احب فتاة بادلته حبا بحب .
ولكنها بعد ان تعرفت على بلغاري يدعى كاترانوف (وهو شخص ، كما
عرفت بعد ذلك ، كان معروفا جداً في وطنه في وقت من الاوقات ، وهو ما
يزال غير منسي هناك) احبته الفتاة ، ورحلت معه الى بلغاريا ، حيث توفي
فيها بعد وقت قصير . وقد صوّرت قصة الحب هذا بصدق ، ولكن بلا
مهارة . وبالفعل لم يكن كاراتييف اديبا بالسليقة . وهناك مشهد واحد
فقط ، وهو السفر الى تساريتسينو ، قد صور بقدر كاف من الحيوية ، وقد
حافظت في الرواية على ملامحه الرئيسية . في الحقيقة كانت تدور في ذهني ،
آنذاك ، شخصيات اخرى . فقد تهيات لكتابة «رودين» ، ولكن المهمة التي
حاولت ، فيما بعد ، ان اقوم بها في رواية «في العشية» ، كانت تظهر امامي
بين الحين والحين . وشخصية البطلة الرئيسية ، يلينا ، التي كانت في ذلك

الحين نموذجاً جديداً في الحياة الروسية ، كانت تتكون في مخيلتي بشكل كاف من الوضوح . ولكن ما كان ينقصني البطل ، هو ذلك الشخص ، الذي كان من الممكن ليلينا ان تتفانى فيه ، وهي في نزوعها القوي ، والمبهم لا يزال ، نحو الحرية . وقد وجدت نفسي اهتف لاارادياً ، وانا اقرا كراسة كاراتييف : «ذلك هو البطل الذي كنت ابحث عنه !» ، ولم يكن له وجود بعد بين الروس في ذلك العهد . وحين رايت كاراتييف في اليوم التالي ، لم اكتف بتاكيد عزمي على تنفيذ رجائه ، بل وشكرته على انه قد اخرجني من وضع صعب ، والقى شعاعاً من النور على مداركي وافكاري التي كانت معتمة حتى ذلك الحين . وفرح كاراتييف بذلك ، وكرر قوله : «ولا تترك كل ذلك يفنى» وسافر للخدمة في القرم ، ولم يعد من هناك ، مع اسفي الشديد لقد تحققت مخاوفه . توفي بالتيفوس في معسكر قرب بحر سيفاش ، حيث كانت فرقة المتطوعين من ولايتنا اوريول ترابط هناك وفي الملاجئ الترابية دون ان ترى ، طوال حرب القرم ، ايا من الاعداء ، ومع ذلك فقدت نصف رجالها بسبب شتى الامراض . غير انني ارجات تنفيذ وعدي واشتغلت بعمل آخر . وحين فرغت من «رودين» بدات اعمل في «عش النبلاء» ، وفي الشتاء فقط ، لعام ٥٨ الى عام ٥٩ ، حيث وجدت نفسي في نفس القرية ، وفي نفس الوضع ، اللذين كنت قد تصادقت فيها مع كاراتييف ، احسست بان الانطباعات الغافية اخذت تتململ . وجدت كراسته ، واعدت قراءتها . والشخصيات التي تقهقرت الى المقام الثاني عادت لتحتل المقام الاول ، واشرعت ريشتي على الفور . وصار معلوماً لبعض معارفي انذاك كل ما رويته الآن . ولكنني اجد لزاماً عليّ الآن ، في الطبعة النهائية لرواياتي ، ان افضي بذلك الى الجمهور ، وبذلك ارد الدين ولو في وقت متاخر ، لذكرى صديقي الشاب المسكين .

وبهذه الطريقة صار البلغاري بطل روايتي . بينما السادة النقاد اجمعوا جماعيا على تصنع هذه الشخصية ومجافاتها للحياة ، وابدوا دهشتهم من غرابة مقصدي في اختيار شخص بلغاري بالذات ، متسائلين : «ولماذا ؟ وباي وجه حق ؟ والى اي مرمى ؟» وها ان النقاب قد ازيح ، ولكنني لم اجد من الضروري انذاك الدخول في مزيد من التفاصيل ...

إيفان تورغينيف

الآباء والبنون [٥١]

تكريما لذكرى
فيساريون بيلينسكي

١

– هل ترى شيئا يا بيوتر ؟ – سأل السيد خادمه الشاب ذا الوجنتين الممتلئتين والذقن المكسو بزغب يميـــل الى البياض والعينين الصغيرتين الذاويتين . كل شيء في هذا الخادم : حركاته اللبقة وشعره المدهون وقرط الفيروز المتدلي من احدى اذنيه ، ينم عن انتمائه الى الجيل العصري المتقدم . القى الخادم بنظرة متعالية على طول الطريق واجاب : «لا ارى شيئا ، يا سيدي ، لا شيء» .

كان ذلك في العشرين من مايو ١٨٥٩ . وكان السيد الذي تجاوز الاربعين قد خرج ، حاسر الراس بمعطـــف مغبر وسروال مخطط ذي مربعات ، من خان يقع على احد الطرق الكبيرة . توقف على دكة مدخل الخان الواطئة وكرر السؤال :

– لا شيء ؟

– لا شيء ، – اجابه الخادم ثانية .

تنهد السيد وجلس على المصطبة فلوى ساقيه تحتها واخذ ينظر حواليه وهو غارق في خضم افكاره . وما دام على حاله هذه فلنعرف القارئ عليه .

اسمه نيكولاي بتروفيتش كيرسانوف . ولديه ، على بعد ١٥ كيلومترا عن الخان ، ضيعة جيدة قيمتها مئتا نسمة كما يقال عادة ، او مساحتها الفا هكتار ، كما يقول هو منذ ان انفصل عن الفلاحين وانشأ «مزرعة» له . كان ابوه جنرالاً روسياً فظاً غليظاً ، ولكنه لا يحقد على احد . قاتل في حرب ١٨١٢ ، وادى خدمته الروتينية طوال حياته . قاد في بادئ الامر لواء ثم فرقة ، وقضى حياته في الاطراف حيث لعب دوراً كبيراً بحكـــم رتبته . ولد نيكولاي

بتروفيتش في جنوب روسيا ، شأن اخيه الاكبر بافل الذي سنتحدث عنه فيما بعد . وترعرع حتى الرابعة عشرة من العمر في داره وسط جمع من المربين الرخيصين والياورية الوقحين المتزلفين وغيرهم من العسكريين . وكانت امه ، وهي من آل كوليازين ، واسمها قبل الزواج (اغاثا) * وبعده اغافوكليا كوزمينيشنا كيرسانوفا ، تعتبر في عداد «امهات الجنود» ، وقد اعتادت على ارتداء قلنسوات فاخرة وفساتين حريرية ذات حفيف صاخب . كانت اول من يقترب من الصليب في الكنيسة . وهي كثيرة الكلام ذات صوت جهوري عال في كل صباح تسمح لاطفالها بان يقبلوا يدها ، وتباركهم عندما يرقدون في الليل . وباختصار فقد كانت تعيش كما يحلو لها . كان على نيكولاي بتروفيتش الذي لم يتميز بالشجاعة ابداً ، بل استحق نعت الجبان ، ان ينخرط في الخدمة العسكرية مثل اخيه بافل : لانه ابن جنرال . ولكن رجله انكسرت في اليوم الذي ورد فيه الاشعار باستدعائه للخدمة . لازم الفراش شهرين ثم ظل طوال حياته «اعرج». يئس منه ابوه فتركه وشأنه للحياة المدنية اصطحبه الى بطرسبورغ حالما بلغ الثامنة عشرة وادخله الجامعة . وفي تلك الاثناء تخرج اخوه وعين ضابطاً في فوج الحرس . عاش الشقيقان معاً في منزل واحد تحت رعاية غير ثقيلة من جانب ابن عم امهما ايليا كوليازين الذي كان يشغل منصباً هاماً . عاد ابوهما الى فرقته والى عقيلته . وصار من حين لآخر يبعث الى ولديه رسائل مكتوبة بحروف عريضة وبخط متقن على ورق رمادي اللون ومذيلة بالكلمات التالية المرسومة «بالتواءات» ورتوش زاهية : «البيير جنرال بيوتر كيرسانوف». في عام ١٨٣٥ تخرج نيكولاي بتروفيتش من الجامعة بدرجة ماجستير . وفي العام نفسه وصل الجنرال كيرسانوف مع زوجته بطرسبورغ ليقيما فيها بعد ان احيل على التقاعد بسبب اخفاق احد الاستعراضات . كان يستأجر دارا قرب منتزه تافريتشيسكي وينتسب الى نادي النبلاء الانجليزي ، ولكنه توفي فجأة بالسكتة الدماغية . وسرعان ما لحقت به اغافوكليا كوزمينيتشنا التي لم تستطع التعود على الحياة المبهمة في العاصمة

* في الاصل بالفرنسية Agathe ، آثرنا ان نترجم بين هلالين ما ورد في النص الروسي بلغات اخرى — **المترجم** .

حيث تهشتها كآبة عيشة التقاعد . وفي اثناء ذلك وقع نيكولاي بتروفيتش ، منذ ان كان والداه على قيد الحياة ، الامر الذي كدرهما كثيرا ، في هوى ابنة الموظف بريبولوفينسكي صاحب المنزل الذي سكنه سابقا . وهي فتاة مليحة ، ومتطورة كما يقال : فقد كانت تطالع مقالات جادة في ركن «العلوم» في المجلات . تزوج نيكولاي بتروفيتش منها حالما انقضت فترة الحداد . فترك وزارة المقاطعات ، حيث كان قد عين بتوصية من ابيه ، وصار يتمتع بالنعيم مع زوجته ماشا في دار ريفية قرب معهد الغابات اولا ، ثم في المدينة بشقة صغيرة جيدة ذات سلم نظيف وغرفة استقبال باردة بعض الشيء ، واخيراً في الضيعة حيث استقر نهائيا ورزق بعد حين بولده اركادي . عاش الزوجان حياة هانئة هادئة دون ان يفترقا ولا مرة تقريبا ، وكانا يطالعان معا ، ويعزفان على البيانو باربع ايد وينشدان الاغاني بصوتين . كانت هي تغرس الازهار وتتفقد حقل الدواجن . وكان هو يدير شؤون المزرعة ويتوجه الى الصيد في احيان نادرة ، بينما يترعرع اركادي وينمو هو الآخر بهناء وهدوء . مرت عشر سنوات كالحلم . وفي عام الف وثمانمائة وسبعة واربعين توفيت زوجة كيرسانوف . فكادت هذه الضربة تقصم ظهره . وخط الشيب شعره في بضعة اسابيع . فشد العزم على السفر الى الخارج بغية الترويح عن النفس ولو قليلا . . . ولكن عام ثمانية واربعين (٥٢) داهمه . فعاد الى القرية مكرها . وبعد ركود طويل نسبيا شرع بممارسة شؤون الضيعة . وفي عام خمسة وخمسين اصطحب ابنه اركادي الى الجامعة وقضى معه ثلاثة شتاءات في بطرسبورغ دون ان يغادر البيت تقريبا ، وكان يسعى الى معاشرة رفاق ابنه الشبان . وفي الشتاء الرابع لم يستطع ان يزور ابنه ، وها نحن نراه في شهر مايو عام ١٨٥٩ مترهلا ، اشيب الشعر تماما ، وعلى شيء من الاحديداب . انه ينتظر ابنه الحائز على درجة الماجستير ، شأنه شأن ابيه الذي حاز على هذه الدرجة في سالف الزمان .

انزوى الخادم وراء البوابة بدافع من اللياقة ، او ربما بسبب عدم رغبته في ان يظل عرضة لانظار سيده ، وراح يدخن غليونه . طاطا نيكولاي بتروفيتش راسه واخذ يتفحص درجات دكة المدخل البالية : كان فرخ دجاج كبير زاهي اللون يتمشى عليها برزانة

ويصفعها صفعات شديدة برجليه الصفراوين الكبيرتين ، والقطة ملوثة نظرة غير ودية عليه ، وهي تتناعس على الدرابزون . كانت حرارة الشمس لافحة . ورائحة خبز الجدار الساخن تفوح في ممر الخان الداخلي شبه المعتم . غرق بطلنا نيكولاي بتروفيتش في لجة الاحلام ، حيث كانت تدور في ذهنـــه بلا كلـــل كلمات «ولدي . . . اركاشا * . . . ماجستير . . . . » . حاول ان يفكر في شيء ما آخر ،ولكن تلك الكلمات كانت تعود اليه كل مرة . تذكر المرحومة زوجته . . . وهمس مغتمـــا : «لم يطل بها العمر !» . . . هبطت حمامة رمادية بدينة على الطريق واسرعت ترتشف الماء من بركة قرب البئر . صوب نيكولاي بتروفيتش نظراته اليها ، بينما التقطت اذناه طقطقة عجلات تقترب . اندفع الخادم من وراء البوابة وهتف :

— اعتقد انهم وصلوا .

نهض نيكولاي بتروفيتش بلمح البصر وسلط نظراته على طول الطريق . بانت عربة تجرها ثلاثة من جياد البريد ، ولاح من العربة شريط القبعة الطلابية وبدت ملامح الوجه الحبيب . . .

— اركاشا ! اركاشا ! — صاح كيرسانوف وهرع ملوحا بيديه . . . بعد لحظات لامست شفتاه خد ابنه الاسمر المغبر الذي لم ينبت الشعر عليه بعد .

٢

— دعني انفض الغبار يا ابتي ، كيلا الوثك ، — قال اركادي بصوت فتي جهوري مبحوح بعض الشيء بسبب السفر ، وهو يرد بمرح على ملاطفة ابيه .

— لا باس ، لا تهتم ، — اصر نيكولاي بتروفيتش في ابتسامة متيمة وطبطب مرتين على ياقة معطف ابنه وعلى معطفه هو . — ارني كيف انت ، — اضاف مبتعداً بعض الشيء ، ثم اتجه على الفور الى الخان بخطوات متسارعة ، وهو يتمتم : «الى هنا ، الى هنا ، عجلوا باخراج الجياد» .

كان نيكولاي بتروفيتش اكثر اضطراباً من ابنه . فقد بدا

* صيغة التحبيب من اسم اركادي — المترجم .

من الحيرة والتهيب . اوقفه اركادي قائلا :

— اسمح لي ، يا ابتي ، ان اقدم اليـــك صديقي الطيب بازاروف الذي كتبت لك عنه الكثير . لقد تفضل ووافق على ان يحل ضيفا علينا .

استدار نيكولاي بتروفيتش على عجل واقترب من الشاب الفارع القامة الذي هبط توا من العربة الكبيرة في رداء طويـــل ذي شراريب ، واطبق بشدة على يده الوردية العارية التي مدها له الشاب بتلكؤ ، فبادره نيكولاي بتروفيتش :

— انا مسرور من صميم القلب ، وممتن لرغبتك * في ضيافتنا ، آمل يا . . . اسمح لي بمعرفة اسمك الكريم .

— يفغيني فاسيليفيتش . — اجاب بازاروف بصوت رجولي متراخ ، وازاح ياقة ردائـــه فبان وجهه كلــه امام نيكولاي بتروفيتش . وجه نحيل مستطيل بجبهة عريضة وانف مسطح في اعلاه ومدبب في اسفله وعينين واسعتين خضراوين بعض الشيء وفودين متدليين بلون الرمل . وانطبعت ابتسامة هادئة لتزين هذا الوجه الذي ينم عن ذكاء وثقة بالنفس .

— آمل يا عزيزي يفغيني فاسيليفيتش ان لا ينتابك الضجر عندنا ، — واصل نيكولاي بتروفيتش كلامه .

كانت شفتا بازاروف الرقيقتان تنفرجان عن ابتسامة ، ولكنه لم يرد بشيء ، بل اكتفى برفع قبعته . ولم يكن شعره الكث الطويل الاشقر ليحجب النتوءات العريضة على جمجمته الضخمة .

— ما رايك يا اركادي ؟ — قال نيكولاي بتروفيتش من جديد ملتفتا الى ابنه . — هل نعد الجياد الآن ، ام انكما تريدان ان تأخذا قسطا من الراحة ؟

— سنستريح في المنزل ، يا ابتي . فليعدوا الجياد .

فقال الاب مزيدا :

— في الحال . هل انت سامع يا بيوتر ؟ رتب الامر ، وباسرع ما يمكن .

اختفى بيوتر وراء البوابة من جديد . وكان هذا الخادم العصري

* الروس يخاطبون الغرباء بصيغة الجمع احتراما لهم ، ولكننا آثرنا ان نترجم ذلك بصيغة المفرد ، عدا الحالات التي يخاطب فيها الخدم اسيادهم — المترجم .

قد اكتفى بانحناءة من بعيد لسيده الابن دون ان يقترب منه ليقبل يده .

– عندي عربة مكشوفة ، ولكن ثلاثة جياد جاهزة لعربتك ايضاً – قال نيكولاي بتروفيتش مشغول البال ، في حين راح اركادي يشرب الماء من ابريق معدني احضرتـــه صاحبة الخان ، وشرع بازاروف يدخن غليونه واقترب من الحوذي الذي فك اربطة الجياد . واضاف نيكولاي بتروفيتش : – غير ان عربتي بمقعدين فقط ، ولا ادري بخصوص صديقك . . .

– سيرتحل في عربتي – قاطعه اركادي بصوت خافت – لا داعي للرسميات معه . فهو شاب رائع ومتواضع للغاية ، وستري ذلك بنفسك .

اقتاد حوذي نيكولاي بتروفيتش جياده . فقـــال بازاروف لحوذيه :

– عجّل ، يا ذا اللحية الكثة !

– هل سمعت ، يا ميتيوخا ، كيف نعتك السيد ؟ – التفت الحوذي الآخر ويداه مدسوستان في الشقين الخلفيين لفروته . . لحية كثة بالضبط .

اكتفى ميتيوخا بهزة من راسه ، وسحب عنان فرس الطليعة التي تصببت عرقا .

– هيا ، هيا ، يا شباب ، ساعدونـــا وستحصلون على اكرامية ، – هتف نيكولاي بتروفيتش .

اعدت الجياد في بضع دقائق . فاستقل الاب والابن العربة المكشوفة . وقعد بيوتر بجانب الحوذي ، بينما قفز بازاروف الى العربة الكبيرة ومال براسه على الوسادة الجلديـــة ، وتحركت المركبتان .

٣

– حصلت على الماجستير وعدت الى الاهـــل اخيرا – قال نيكولاي بتروفيتش وهو يلامس كتف اركادي تارة وركبته تارة اخرى .

– كيف حال عمي ؟ هل هو بصحة جيدة ؟ – سال اركادي معجلا في تحويل الكلام من حالة الانفعال الى الامور العادية ، بالرغم

من الفرحة الصادقة ، والطفولية تقريبا ، التي تملأ فؤاده .

– بصحة جيدة . كان عازما على الخروج معي لاستقبالك ، ولكنه غير رايه لسبب ما .

– وهل انتظرتني طويلا ؟

– خمس ساعات تقريبا .

– ما اطيبك يا ابي !

استدار اركادي بسرعة نحو ابيه وطبع على خده قبلة رنانة . فضحك نيكولاي بتروفيتش بهدوء . ثم قال :

– جهزت لك حصانا رائعا . وستتأكد من ذلك بنفسك . ثم ان جدران غرفتك مزينة بالورق .

– وهل هناك غرفة لبازاروف ؟

– سنعد غرفة له هو الآخر .

– ارجوك يا ابي ، اعتن به . فانا عاجز عن التعبير عن مدى اعتزازي بصداقته .

– يبدو انك تعرفت عليه من مدة قريبة . اليس كذلك ؟

– بلى .

– ولذا لم اره في الشتاء الماضي . ماذا يدرس ؟

– شغله الشاغل هو العلوم الطبيعية . ولكنه ملم بكل شيء ويستعد لاجتياز امتحانات الطب .

– اها ، انه في الكلية الطبية – قال نيكولاي بتروفيتش ولزم الصمت برهة ، ثم سال من بيوتر مشيرا بيده : – هؤلاء الراكبون فلاحونا ، اليس كذلك ؟

التفت بيوتر نحو الجهة التي اشار اليها سيده . كانت عدة عربات تجرها خيول مفكوكة الالجمة تنهب الدرب الريفي الضيق . وفي كل عربة فلاح او فلاحان بفروات مفتوحة الازرار .

– بالضبط ، يا سيدي ، – اجاب بيوتر .

– الى اين يقصدون ؟

– الى المدينة في اغلب الظن . الى الحانة – اضاف بيوتر بازدراء ، ومال قليلا نحو الحوذي وكانما يامل ان يجد فيه مؤيدا لرايه . الا ان ذاك لم ينبس ببنت شفة . فهو شخص محافظ لا يؤمن بالآراء العصرية . فواصل نيكولاي بتروفيتش كلامه مخاطبا ابنه :

– ازدادت مشاغلي في العام الحالي بسبب الفلاحين . انهم لا يدفعون الجزية . فماذا افعل لهم ؟

– وهل انت مرتاح من عمالك الاجراء ؟

فاجاب نيكولاي بتروفيتش مكرها :

– اجل . ولكن المصيبة انهم يندفعون بالتحريض . ثم انه ليس لديهم حماس حقيقي في العمل . وهم يتلفون عدة الخيل . لكن انهم حرثوا على نحو لا بأس به . كل شيء سيكون على ما يرام . ولكن هل تشغل شؤون الضيعة بالك الآن ؟

– المصيبة ان الظل معدوم لديكم – لاحظ اركادي دون ان يجيب على السؤال الأخير . فقال نيكولاي بتروفيتش :

– علقت ستارة كبيرة على الشرفة من جهة الشمال ، واصبح بالامكان تناول الغداء في الهواء الطلق .

– سيكون ذلك اشبه بالفلات الصيفية . . . ولكن لا يهم ، تلك امور تافهة . فما اروع الهواء المنعش هنا ! وما أزكى الروائح ! يخيل الي ان الروائح الفواحة في هذه البقاع ليس لها مثيل في اي مكان في العالم . ثم ما اجمل السماء . . .

سكت اركادي فجاة . القى بنظرة منحرفة الى الوراء ، ثم لزم الصمت . فقال نيكولاي بتروفيتش :

– بالطبع . ولدت في هذه الانحاء ، ولا بد ان يبدو لك كل شيء هنا في صبغة خاصة . . .

– كلا ، يا ابي ، لا فارق في ذلك مهما كان المكان الذي يولد فيه المرء .

– ولكن . . .

– كلا ، لا فارق بتاتا .

القى نيكولاي بتروفيتش نظرة جانبية على ابنه . ولم يستأنف الحديث بينهما الا بعد ان قطعت العربة زهاء نصف كيلومتر ، حين بدأ نيكولاي بتروفيتش كلامه :

– لا اتذكر كتبت لك ام لا ؟ توفيت مربيتك القديمة يغوروفنا .

– حقا ؟ يا للعجوز المسكينة ! وهل بروكوفيتش على قيد الحياة ؟

– اجل ، ولم يتغير قيد انملة . فهو على عادته في

الدمدمة . وعلى العموم لن تجد تغيرات كبيرة في مارينو .

– وهل الوكيل باق هو نفسه ؟

– وكيل المزرعة هو الشخص الوحيد الذي استبدلته . قررت ان لا احتفظ بعد الآن بالاقنان السابقين المعتوقين او ، على الاقل ، ان لا اكلفهم باية مهمات ذات مسؤولية – وعند ذاك اشار اركادي بغمزة من عينه الى بيوتر ، فقال نيكولاي بتروفيتش بصوت يكاد يشبه الهمس : – (انه معتوق فعلا) * ولكنه وصيفي المقرب . ولدي الآن وكيل من المدينة . شخص فطين على ما يبدو . وقد خصصت له مائتين وخمسين روبلا في العام . – ثم اضاف نيكولاي بتروفيتش قائلا ، وهو يمسح جبهته وحاجبيه بيده ، الامر الذي يدل دوما على استحيائه الداخلي – اخبرتك الآن بانك لن تجد تغيرات في مارينو . . . والحال فليس الامر كذلك تماما . . . واري من واجبي تنبيهك مسبقا ، مع ان . . .

تلعثم في الحديث لحظة ثم واصل كلامه بالفرنسية :

– مع ان الاخلاقي الصارم قد يعتبر صراحتي هذه في غير محلها . ولكن لا يمكن اخفاء ذلك ، هذا اولا ، وثانيا انت عارف بان لدي على الدوام مبادئ خاصة بشأن موقف الاب من ابنه . وعلى كل حال لك الحق طبعا في ان تلومني . ففي مثل سني هذه . . . وباختصار ، اقصد . . . اقصد تلك الفتاة التي ربما سمعت عنها . . .

– فينيتشكا ؟ – سأل اركادي بلا تكلف .

احمر وجه نيكولاي بتروفيتش خجلا .

– ارجوك ، لا تذكر اسمها بصوت عال . . . اجل ، هي . . . انها تعيش الآن عندنا . افردت لها مكانا في الدار . . . كانت هناك غرفتان صغيرتان . وبالمناسبة فذلك امر يمكن تغييره .

– ما الداعي لتغييره ، يا ابتي ؟

– صديقك سيحل ضيفا علينا . . . ومن المخجل . . .

– لا تقلق ، رجاء ، بخصوص بازاروف ، فهو انسان لا يهتم بهذه الاعتبارات .

– انا قلق بخصوصك ، انت ، اذن ، – قال نيكولاي بتروفيتش ثم اضاف : – بناية الجناح رديئة ، يا للمصيبة .

* في الاصل بالفرنسية Il est libre, en effet

فعاجله اركادي قائلا :

– عفوا ، يبدو وكأنك تعتذر ، اتق الله يا ابتِ .

– بالطبع ، عليّ ان اتقي الله – اجاب نيكولاي بتروفيتش وهو يزداد احمرارا .

– كفاك ، يا ابتِ ، كفاك ، ارجوك ! – ابتسم له اركادي برقة وحنان . «عمَّ يعتـــذر ؟» – فكر في دخيلـــة نفسه وامتلأت جوانحه بشعور من الرقة المتسامحة ازاء والده الطيب ، بشعور يشوبه احساس خفي بالتفوق . – دعك من هذا ارجوك – كرر من جديد وهو يستمتع عفويا بادراكه اهمية تطوره وحريته .

تطلع اليه نيكولاي بتروفيتش من بين اصابع يده التي يمسح بها جبهته ، واحس بوخزة في القلب . . . ولكنه الى باللائمة على نفسه في الحال . ثم قال بعد صمت طويل :

– ها هي حقولنا .

فقال اركادي :

– يبدو لي ان تلك الغابة ، في الامام ، غابتنـــا ، اليس كذلك ؟

– بلى ، غابتنا . ولكنني بعتها . وسوف تقتلع اشجارها في العام الحالي .

– لماذا بعتها ؟

– كنت بحاجة الى نقود ، ثم ان هذه الاراضي ستحال الى الفلاحين .

– اولئك الذين لا يدفعون لك الجزية ؟

– هذا امر يعود لهم . اعتقد انهم سيدفعونها في وقت ما .

– اسفي على الغابة – قال اركادي واخذ يتطلع الى ما حواليه .

الاماكن التي اجتازوها لا تستحق نعت المناظر الخلابـــة . فالحقول تمتد بعيدا حتى الافق ، وهي ترتفع قليلا تارة وتنخفض تارة اخرى ، وفي بعض الجهات لاحت غابات غير كبيرة ، وكانت المنخفضات المطرزة بشجيرات واطئة متباعدة ، تتلوى فتعيد الى الاذهان صورها المرسومة على الخرائط القديمة المتبقية من عهد يكاتيرينا (٥٣) . وصادفتهم نهيرات ذات ضفاف متآكلة ، وبرك صغيرة عليها سدود متداعية ، وقرى فيها اكواخ واطئة لها

سقوف قائمة مهدمة حتى منتصفها في الغالب ، ومستودعات للدراس مالت اركانها بجدرانها المجدولة من العيدان والاغصان وبواباتها المخلوعة المتمائلة قرب الاجران الخاوية ، وكنائس قرميديـــة تساقط طلاء جدرانها في بعض الاماكن ، واخرى خشبية ذات صلبان مائلة ومقابر مدمرة . اخذ الالم يحز في فؤاد اركادي ، حتى لكأن ما رآه قد لاح امامه عمدا . فكل الفلاحين الذين صادفهم كانو مشعثين على خيول هزيلة . وكانت اشجار الصفصاف تنتصب على جانبي الطريق بلحائها الممزق واغصانها المكسرة ، كالمتسولين في الاسمال . وكانت بقرات معروقة متحشفة ، كأنها منهوشـــة حتى العظام ، تقضم العشب بنهم في المنخفضات . وبدت هذه البقرات العجاف وكأنها تخلصت توا من براثن رهيبة فتاكة . فاثار منظرها المزري في وضح النهار الربيعي شبحا ابيض ملفعا بالزوابـــع الجليدية والصقيع والثلوج ، شبح الشتاء اللانهائي الخالي من المسرات . وفكر اركادي : «كلا ، ليست غنية هذه البقاع . فهي لا تدهش المرء بثروتها ولا بالمواظبة على العمل . كلا ، لا يجوز ان تبقى على هذه الحال . ينبغي اجراء تحويلات . .. . ولكن كيف يمكن تحقيقها ؟ ومن اين نبدأ ؟ . .»

هكذا فكر اركادي . . . في حين كان الربيع في اوجه . كل شيء حواليه ، من اشجار وشجيرات واعشاب ، في خضرة ذهبية يانعة ، وكل شيء يتموج ويلمع فسيحاً رقيقاً في انفاس النسيم الدافئ الهادئة . وفي كل مكان تنساب اصوات القبرات الرنانة بلا انقطاع . والزقازيق تارة تنعق محومة فوق المروج المنخفضة وتارة تتراكض صامتة من كومة ترابية الى اخرى . وغربان القيظ تتمشى سوداء جميلة في خضرة سنابل الربيع الغضة الواطئة . كانت هذه الغربان تختفي في الجودار الذي ابيضت سنابله قليلا ، ثم تلوح رؤوسها في امواج السنابل الدخانية اللون بين الفينة والفينة . اطال اركادي التطلع حتى تراخت تأملاته بالتدريج واخذت تختفي . . . خلع معطفه والقى على ابيه نظرة مرحة من محيا فتي يافـع جعلت الاب يعانقه من جديد ، ويقول :

– لم يبق الا القليل . فما ان تتسلق هذه الهضبة حتى يلوح المنزل للانظار . وسنعيش معك ، يا اركاشا ، برغد وهناء . سوف تساعدني في امور الضيعة اذا كان ذلك لا يسبب لك ضجرا .

ينبغي لنا الآن ان نتقارب على نحو اوثق وان نتعرف على بعضنا البعض بصورة افضل ، أليس كذلك ؟

فاجاب اركادي :

– بالطبع . ولكن ما اروع النهار اليوم !

– خصيصا لمجيئك يا حبيبي . فالربيع يختال ضاحكا ولكنني اقول مع بوشكين في ملحمة "يفغيني اونيغين" :

ايها الربيع ، يا فصل الغرام !
ما اشد حزني لمجيئك .
فاي . . . (٥٤)

– اركادي ! – تعالى من العربة الثانية صوت بازاروف . ابعث لي ثقابا ، فليس لدي ما اشعل به الغليون .

لاذ نيكولاي بتروفيتش باذيال الصمت ، بينما كان اركادي قد استعد ليستمع اليه بشيء من الاعجاب وبشيء من المشاطرة ولكنه اخرج من جيبه على عجل علبة ثقاب فضية وبعثها مع بيوتر الى بازاروف فصاح هذا من جديد :

– هل تريد سيجارا ؟

– اجل – اجاب اركادي .

عاد بيوتر الى العربة وسلمه مع علبة الثقاب سيجارا قاتما غليظا دخنه اركادي في الحال وصار ينفث حواليه دخان التبغ العتيق ، ففاحت رائحة حادة لاذعة جعلت نيكولاي بتروفيتش الذي لم يجرب التدخين ولا مرة في حياته يشيح بوجهه عفويا ، ولكن بصورة غير ملحوظة كيلا يغيظ ابنه .

بعد ربع ساعة توقفت العربتان امام مدخل دار خشبية جديدة مطلية بدهان رمادي وذات سطح حديدي احمر اللون . كانت تلك هي ضيعة مارينو ، او دارة الاعزب ، كما يسميها الفلاحون .

٤

لم يهرع حشد كبير من الخدم الى المدخل لاستقبال الاسياد . فقد ظهرت بنت في الثانية عشرة من العمر تقريبا ، وخرج على اثرها من الدار فتى شبيه كل الشبه ببيوتر في سترة خدم رمادية ذات

ازرار معدنية كبيرة بيضاء . انه وصيف بافل بتروفيتش كيرسانوف . فتح باب العربة المكشوفة صامتا ، ثم حل ازرار ستارة العربة الاخرى . اجتاز نيكولاي بتروفيتش وابنه وبازاروف قاعة معتمة تكاد تكون خالية الا من وجه امرأة شابة لاح للحظة من خلال بابها ، ودخلوا غرفة الاستقبال المؤثثة على احدث طراز .

– ها نحن في الدار . – قال نيكولاي بتروفيتش وخلع قبعته وراح ينفض شعره – اهم شيء الآن هو تناول طعام العشاء ثم الاستجمام .

– حقا ، حبذا لو تناولنا الطعام – عقب بازاروف وهو يعدل من قامته ، ثم جلس على الاريكة .

– اجل ، اجل ، قدموا طعام العشاء ، وباسرع ما يمكن . – طقطق نيكولاي بتروفيتش بقدميه بدون اي سبب ظاهر – ها هو بروكوفيتش بالمناسبة .

دخل رجل نحيف اسمر في حوالي الستين ، اشيب الشعر في بزة وصيف بنية اللون ذات ازرار معدنية وعلى عنقه منديل وردي . ابتسم ابتسامة عريضة وقبل يد اركادي ثم انحنى للضيف وتراجع نحو الباب حيث اشبك يديه وراء ظهره .

فقال نيكولاي بتروفيتش :

– ها هو ولدي قد وصل اخيرا . . . فكيف يبدو في نظرك يا بروكوفيتش ؟

– في احسن حال يا سيدي – اجاب العجوز وكشر من جديد مبتسما ، لكنه قطب حاجبيه الكثيفين في الحال وقال بمهابة : – هل تامرون باعداد المائدة ؟

– اجل ، اجل من فضلك . ولكن هلا توجهت ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، الى غرفتك في بادىء الامر ؟

– كلا ، متشكر ، لا داعي لذلك . – قال بازاروف ثم اضاف وهو يخلع رداءه : يكفي ان تامر بنقل حقيبتي اليها مع هذا اللباس .

– طيب . يا بروكوفيتش خذ معطف السيد . (التقط بروكوفيتش معطف بازاروف بكلتا يديه ، في شيء من الاستغراب ، ورفعه فوق راسه عاليا وانصرف على اطراف اصابعه) . وانت ، يا اركادي ، هل ستذهب الى غرفتك للحظة ؟

– اجل ، ينبغي ان اتنظف – اجاب اركادي وكاد يتجه الى الباب لو لا ان دخل غرفة الاستقبال في تلك اللحظة رجل متوسط القامة في بدلة انجليزية قاتمة وربطة عنق قصيرة حسب الموضة وجزمة واطئة لماعة . انه بافل بتروفيتش كيرسانوف . مظهره يدل على انه في حوالي الخامسة والاربعين : شعره الاشيب القصير يبعث لمعا قاتما كالفضة الجديدة ، ووجهه المتجهم الخالي من الغضون والمعتدل التقاسيم والصافي كل الصفاء ، كما لو نحت بازميل خفيف دقيق ، يحتفظ بآثار وسامة رائعـــة . وعيناه السوداوان الوضاءتان المستطيلتان بعض الشيء جميلتان على الخصوص . كانت ملامح عم اركادي الرشيق الاصيل الارومة قد احتفظت باعتدال قوام الفتوة والتطلع الى الاعالي بعيداً عن الارض ، ذلك التطلع الذي يختفي باغلبه في سن الثلاثين .

اخرج بافل بتروفيتش من جيب سرواله يده الجميلة ذات الاظافر الوردية الطويلة ، وقد بدت اكثر جمالا بتأثير الردن الابيض الناصع كالثلج والمشدود بابزيم عليه فص كبير واحد من حجر عين الشمس ، فمدها الى ابن اخيه . وبعد ان (صافحه)* على الطريقة الاوروبية قبله ثلاث قبلات على الطريقة الروسية ، اي انه لامس خديه ثلاث مرات بشاربيه الفواحين ، وقال : «اهلاً وسهلاً» .

عرّف نيكولاي بتروفيتش بازاروف عليه ، فحنى بافل بتروفيتش قده اللدن قليلا وانفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة ولكنه لم يمد له يده ، بل دسها في جيبه مجددا .

– طال الانتظار حتى ظننت انكم لن تصلوا اليوم – قال بصوت وديع وهو يتمايل بلطف ويهز كتفيه قليلاً ويكشف عن اسنانه الرائعة البيضاء – فهل حدث شيء في الطريق ؟

– لم يحدث شيء – اجاب اركادي – سوى اننا تباطأنا قليلاً . ولذلك فنحن جياع كالذئاب . استعجل بروكوفيتش ، يا ابتي ، اما انا فسأعود في الحال .

– تمهل ، انا ذاهب معك – هتف بازاروف وقفز من الاريكة فجأة . وخرج مع اركادي . فسأل بافل بتروفيتش :

* في الاصل بالانجليزية «shake hands» .

– من هذا ؟

– صديق اركاشا ، وهو شخص ذكي جداً ، كما يقول .

– سيبقى في ضيافتنا ؟

– اجل .

– الطويل الشعر هذا ؟

– نعم ، اجل .

نقر بافل بتروفيتش باظافره على الطاولة ثم قال :

– يخيل الي ان اركادي (اصبح اقل تكلفاً)* – ثم اردف قائلاً : – انا مسرور لعودته .

لم يسهبوا في الكلام اثناء العشاء . وخصوصاً بازاروف الذي لم يقل شيئاً في الواقـــع ، ولكنه اكل كثيراً . تحدث نيكولاي بتروفيتش عن حوادث مختلفة من حياته المزرعية ، على حد تعبيره ، وتناول الاجراءات الحكومية المرتقبة ، وتكلم عن اللجان وعن النواب (ه) وعن ضرورة اقتناء المكائن وهلمجراً . وكان بافل بتروفيتش يجوب غرفة الطعام متوانيا جيئة وذهاباً (فهو لا يتناول طعام العشاء ابداً) ، ونادراً ما يرتشف جرعة من قدحه المملوء بنبيذ قاتم ، وكان يبدي ، على نحو اندر ، ملاحظة ما ، او على الاصح تند عنه اصوات التعجب من طراز «أها ! هيه !» . ذكر اركادي بعض انباء بطرسبورغ ، ولكنه احس بشيء من عدم الارتياح الذي ينتاب الشاب عادة حينما يكف عن ان يكون طفلا فيعود الى المكان الذي اعتاد الآخرون ان يروه فيه ويعتبروه طفلاً . كان يمطط كلامه دونما داع ويتحاشى ذكر كلمة «ابتي» حتى انه استبدلها مرة بكلمة «الوالد» ونطقها في الواقع بصوت خافت . وصب في قدحه ، بمزيد من عدم التكلف ، قدراً اكبر مما كان يريد ، ثم تجرع النبيذ حتى الثمالة . وما كانت لتحيد عنه عينا بروكوفيتش الذي لم يفعل غير ان راح يعلك شفتيه طوال الوقت . وبعد العشاء تفرقوا في الحال .

– عمك غريب الاطوار بعض الشيء – قال بازاروف لاركادي وهو جالس بردائه البيتي قرب سريره يمتص انفاساً من غليونه

* في الاصل بالفرنسية «s'est dégourdi» .

القصير . – منتهى التأنق في الريف ، يا للغرابة ! ثم ان اظافره ، اظافره تستحق ان ترسل الى المعرض !

فاجاب اركادي :

– انت لا تدري . كان في زمانه ليناً . سأقص عليك قصته في وقت آخر . كان في منتهى الجمال ، وكان محبوب النساء .

– هكذا اذن ! يعني انه لا يزال على عاداته القديمة . ولكن لا احد هنا يمكن اغواؤه مع الاسف . لاحظت ان ياقته منشاة على نحو مدهش ، كما لو كانت من حجر ، وذقنه حليق بكل عناية . اليس ذلك ، يا اركادي ، مثاراً للضحك ؟

– ربما . ولكنه رجل طيب حقاً .

– انه ظاهرة أكل الدهر عليها وشرب . اما ابوك فهو انسان رائع بالفعل . عبثاً يتلو الاشعار ، ومن المستبعد انه يفهم شيئاً في امور المزرعة ، ولكنه طيب القلب .

– والدي انسان من التبر الخالص .

– هل لاحظت انه خجل ؟

هز اركادي راسه بالايجاب وكانما لم يعتوره هو نفسه الخجل . فواصل بازاروف كلامه :

– عجيب امرهم هؤلاء الرومانسيين الكهول ! انهم يرهقون جهازهم العصبي الى حد الانفعال . . . . وعند ذاك يختل توازنهم ولكن الى اللقاء ! باب غرفتي دون قفل . وفيها غسال انجليزي هذا امر يستحق الثناء . فالغسالات الانجليزية تعني التقدم !

انصرف بازاروف . واجتاح اركادي شعور بالفرحة . فالنوم لذيذ في المنزل الحبيب ، في السرير المعتاد ، تحت غطاء خاطته يدان حبيبتان ، وربما هما يدا المربية ، يدان طيبتان حنونان لا تعرفان الكلل . تذكر اركادي مربيته يغوروفنا فتنهد وتمنى لها النعيم في الآخرة . . . ولكنه لم يبتهل من اجل نفسه .

سرعان ما اكتنفه الكرى هو وبازاروف . بيد ان الآخرين في الدار لم يراودهم النعاس امداً طويلاً . كانت عودة الابن قد هيجت مشاعر نيكولاي بتروفيتش فاضطجع على سريره دون ان يطفئ الشموع واطال التفكير مسندا راسه بيده . اما اخوه فقد تجاوز منتصف الليل بوقت طويل وهو جالس على مقعد وثير واسع في مكتبه امام المدفاة الحائطية التي كان الفحم الحجري يستعر فيها

بخفوت . لم يخلع بافل بتروفيتش ملابسه ، سوى انه استبدل جزمته الواطئة اللماعة بصندل صيني احمر مكشوف المؤخرة . امسك بآخر عدد من (غالينياني)* ، ولكنه لم يقراه كان يحدق في المدفاة حيث يرتعش اللهب الازرق مندلعاً تارة وخافتاً تارة اخرى . . .

الله يعلم اين تحوم افكاره المركزة ، ولكنها لم تكن تجوب الماضي وحده : فقد كانت تقاطيع وجهه عابسة مكفهرة ، الامر الذي لا يحدث عندما ينشغل بال المرء بالذكريات وحدها . اما في الغرفة الخلفية الصغيرة فقد جلست على صندوق كبير امراة شابة ، هي فينيتشكا ، في بلوزة زرقاء ومنديل ابيض يغطي شعرها الفاحم . كانت تارة تتسمع ، وتارة تغفو ، وتارة تنظر الى الباب المنفرج عن سرير صغير فيه طفل نائم تتهادى انفاسه خفيفة رتيبة .

٥

في صباح اليوم التالي استيقظ بازاروف قبل الآخرين وخرج من الدار . تطلع حواليه وفكر في نفسه : «اها ! هذه الاماكن يعوزها الجمال» . عندما فصل نيكولاي بتروفيتش ارضه من اراضي فلاحيه اضطر الى انشاء الضيعة الجديدة على بقعة مستوية عارية تماماً مساحتها زهاء اربعة هكتارات ، فبنى داراً ومنشآت للخدمة ومزرعة ، وغرس بستاناً وحفر بركة وبئرين ، الا ان الشجيرات الغضة لم تزدهر بالشكل اللازم ، وتجمعت في البركة مياه قليلة جداً ، وكان طعم ماء البئرين مالحاً بعض الشيء . ولم تنمُ كما يجب الا تعريشة الاستراحة المكونة من الليلاك والاقاصيا ، حيث كانوا يحتسون الشاي ويتناولون طعام الغداء احيانــــاً . جاب بازاروف في بضع دقائق جميع مماشي البستان ومر بزريبة الماشية والاسطبل وصادف اثنين من ابناء الخدم فتحدث معهما واخذهما على

---

* في الاصل Galignani . وهي جريدة يومية ليبرالية اسمها جوفاني غاليناني وصدرت بالانجليزيـــــة في باريس اعتبارا من عام ١٨١٤ – المترجم .



الفور الى المستنقع الصغير الواقع على بعد كيلومتر عن الضيعة بغية تصيد الضفادع .

فسأله احد الولدين :

– ما حاجتك الى الضفادع يا سيدي ؟

فاجاب بازاروف الذي يجيد على نحو خاص كسب ثقة الناس الادنى منه رغم استهانته بهم وعدم تسامحه معهم اطلاقاً :

– انني اشرّح الضفدعة واراقب ما يجري في داخلها ، وبما اننا ، انا وانت ، نفس الضفادع بفارق واحد هو اننا نسير على رجلين اثنتين فانني ساعرف ما يجري في داخلنا ايضاً .

– وما فائدة ذلك ؟

– كيلا اخطئ عندما تمرض انت واضطر انا لمعالجتك .

– انت دختور ؟

– نعم .

– هل انت سامع يا فاسكا ؟ السيد يقول اننا والضفادع شيء واحد ، يا للغرابة !

– انا اخاف منها ، من الضفادع – قال فاسكا ، وهو طفل في حوالي السابعة حافي القدمين بقميصه القوزاقي الرمادي ذي الياقة المنتصبة وشعره الابيض كالكتان .

– لماذا تخاف منها ؟ فهل تعض ؟

– هيا ، ادخلا الماء ايها الفيلسوفان !

في تلك الاثناء استيقظ نيكولاي بتروفيتش هو الآخر وتوجه الى اركادي فوجده مرتدياً ملابسه . خرج الاب وابنه الى الشرفة المحجوبة بالستارة . وعلى المائدة قرب الدرابزون كان السماور يغلي بين باقات كبيرة من الليلاك . حضرت نفس البنت التي كانت بالامس اول من استقبل القادمين في المدخل وقالت بصوت رفيع :

– فينيتشكا متوعكة ، ولا تستطيع الحضور . وطلبت ان استفسر هل يروق لكم ان تصبوا الشاي بانفسكم ام يجب ارسال دونياشا لتصبه ؟

– ساصبه بنفسي ، بنفسي – اجاب نيكولاي بتروفيتش على عجل . – اي شاي تحب ، يا اركادي ، بالقشدة ام بالليمون ؟

– بالقندة – اجاب اركادي ثم قال متسائلا بعد لحظـة صمت : – يا ابي . . .

القى نيكولاي بتروفيتش نظرة حائرة على ابنه وقال :

– ماذا ؟

غض اركادي بصره وطفق يتكلم :

– اعذرني ، يا ابي ، اذا بدا لك سؤالي في غير محله . ولكن صراحتك بالامس تحملني على ان اكون صريحا . . . افلا تزعل مني ؟ . . .

– تكلم .

– انت تجعلني اتجاسر على ان اسالك . . . اليس السبب في عدم حضور فينتيه . . . اليس السبب في عدم حضورها لتصب الشاي هو وجودي انا ؟

اشاح نيكولاي بتروفيتش بوجهه قليلا ، ثم قال اخيراً :

– ربما انها تتصور . . . انها تخجل . . .

واهم اركادي اباه بنظرة سريعة وقال :

– لا داعي للخجل . فانت تعرف ، اولاً ، طراز تفكيري (كان اركادي مسروراً كل السرور لتلفظ هذه الكلمات) . وثانياً – هل اريد انا ، يا ترى ، ان اضيق على حياتك وعلى عاداتك قيد شعرة ؟ ثم اني واثق من انك لا يمكن ان تختار السوء . فطالما سمحت لها بان تعيش معك تحت سقف واحد فذلك يعني انها تستحقه . وعلى كل حال فالابن ليس بحاكم على ابيه ، وخصوصاً اذا كان الابن مثلي واذا كان الاب مثلك انت الذي لم تضيق على حريتي قيد انملة .

كان صوت اركادي يرتجف في بادئ الامر . فقد احس بشعور من التسامح والنبل ، ولكنه ادرك في الوقت ذاته بانه يتلو على ابيه ما يشبه الموعظة . الا ان صوت المرء يؤثر عليه تاثيراً شديداً . ولذا تلفظ اركادي الكلمات الاخيرة بصلابة ، بل وعلى نحو مؤثر . فقال نيكولاي بتروفيتش بصوت خافت ، وراحت اصابعه من جديد تفرك حاجبيه وجبهته :

– شكراً لك ، يا اركاشا . تصوراتك صائبة حقا . فلو لم تكن هذه البنية جديرة ، طبعا . . . ذلك ليس نزوة عابرة . وليس من السهل عليّ ان اتكلم معك بهذا الخصوص ، ولكنك تفهم جيداً

ان من الصعب عليها ان تاتي بحضورك ، وخصوصا في اليوم الاول من وصولك .

– اذن فسأذهب اليها بنفسي – هتف اركادي بنفحة جديدة من المشاعر النبيلة وقفز من كرسيه – وسوف ابين لها ان لا داعي للخجل مني .

نهض نيكولاي بتروفيتش هو الآخر وطفق يقول :

– اركادي ، ارجوك . . . لا تفعل ذلك . . . فانا لم . . .

بيد ان اركادي لم يسمعه ، فقد ترك الشرفة راكضاً . لاحقه نيكولاي بتروفيتش بنظراته ثم هوى على الكرسي خجلا . خفق قلبه . . . ومن الصعب التاكيد بانه تصور في تلك اللحظة غرابة العلاقات المرتقبة حتماً بينه وبين ابنه ، او انه ادرك بان اركادي ربما قدم له المزيد من الاحترام لو انه لم يتناول هذه القضية بتاتاً ، او انه لام نفسه على ضعفها وخورها . كانت جميع هذه المشاعر تعتمل في دخيلته ، ولكن بشكل احاسيس تكاد تكون غامضة ، بينما الاحمرار لا يزايل وجهه ، ولا يزال قلبه يخفق .

تهادت خطوات مستعجلة . دخل اركادي الشرفة تعلو وجهه مسحة من الطيبة والحنان وهتف منتصراً :

– لقد تعارفنا ، يا والدي ! وهي متوعكة حقاً اليوم وسوف تاتي فيما بعد . ولكن لمَ لمْ تخبرني بان لدي اخاً ؟ لكنت قد قبّلته مساء امس كما قبلته الآن .

اراد نيكولاي بتروفيتش ان يقول شيئاً وان ينهض ويفتح يديه ليحتضن ابنه . . . ولكن اركادي اندفع اليه يعانقه .

– ما هذا ؟ هل تتعانقان من جديد ؟ – دوى وراءهما صوت بافل بتروفيتش .

فرح الاب والابن بقدر واحد لظهوره في هذه اللحظة . فهناك حالات مؤثرة يود المرء ان يتخلص منها مع ذلك باسرع ما يمكن . فقال نيكولاي بتروفيتش مرحاً :

– ما الذي يثير دهشتك ؟ لقد طال انتظاري لاركاشا . . . ولم اشبع من التطلع اليه نهار امس .

فقال بافل بتروفيتش :

– لست مندهشاً اطلاقاً . فانا نفسي لا امانع في معانقته .

اقترب اركادي من عمه واحس من جديد بلمسات شاربيه

العواجين على خديه . جلس بافل بتروفيتش الى المائدة . وكان يرتدي بدلة صباحية انيقة على النمط الانجليزي ، وطربوشاً صغيراً يزهو على راسه . كان هذا الطربوش وربطة العنق المعقودة بلا اعتناء ينمان عن طلاقة الحياة الريفية . بيد ان الياقة المنتصبة لقميصه الملون ، كما يتطلب زي الصباح ، قد انغرزت بلا رحمة ، كالمعتاد ، في ذقنه الحليق . وسال العم من ابن اخيه :

– اين صديقك الجديد ؟

– خرج . فهو يستيقظ مبكراً ويتجول عادة . المهم ان لا تلتفتوا اليه . فهو لا يحب الرسميات .

– اجل ، لاحظت ذلك . وهل سيبقى عندنا طويلاً ؟ – سال بافل بتروفيتش وبدا يضع شيئاً من الزبدة على قطعة خبز دون استعجال .

– حسب الظروف . فقد عرج علينا في طريقه الى ابيه .

– اين يقيم ابوه ؟

– في مقاطعتنا ، على بعد ثمانين كيلومتراً من هنا تقريباً . لديه هناك ضيعة غير كبيرة . وقد خدم في السابق طبيباً في احد الافواج .

– اها . . . ذلك ، اذن ، ما جعلني اسائل نفسي اين سمعت بهذا اللقب : بازاروف ؟ . . يا نيكولاي ، اتذكر ان طبيباً لقبه بازاروف كان يخدم في فرقة ابينا ، اليس كذلك ؟

– اجل ، اظن . . .

– بالضبط . يعني ان ذاك الطبيب هو ابوه ، احم ! – مسد بافل بتروفيتش شاربيه ثم سال ممططاً كلامه : – ولكن من هو السيد بازاروف نفسه يا ترى ؟

– تسال من هو بازاروف ؟ ! – قال اركادي وانفرجت شفتاه عن ابتسامة خبيثة – هل تريد ، يا عمي العزيز ، ان اخبرك من هو بازاروف ؟

– اعمل معروفاً يا ابن اخي .

– انه نهلستي .

– ماذا ؟ – سال نيكولاي بتروفيتش ، بينما رفع بافل بتروفيتش سكينه وعلى طرفها الزبدة وظل على هذه الحال دون حراك . فكرر اركادي قائلا :

– نهلستي .

فقال نيكولاي بتروفيتش :

– مصطلح نهلستي ، على ما اظن ، مشتق من الكلمة اللاتينية نيهيل «nihil» ، اي **لاشيء** ، **عدم** . وبالتالي فان هذه الكلمة تعني انساناً يرفض كل شيء ، اليس كذلك ؟

– الاصح : لا يحترم شيئاً – عقب بافل بتروفيتش وتابع وضع الزبدة على الخبز ، فقال اركادي :

– انه الانسان الذي يعالج كل شيء من وجهة نظر انتقادية .

– افليس ذلك سواء ؟ – سأل بافل بتروفيتش .

– كلا ، ليس سواء . فالنهلستي هو الانسان الذي لا يطاطئ راسه امام اية شخصية مرموقة ولا يتقبل اي مبدا دون تمحيص مهما كان الاحترام الذي يحظى به ذلك المبدأ .

– ثم ماذا ؟ فهل ذلك شيء حسن ؟

– هذا امر يتوقف على الاشخاص ، يا عمي ، فهو قد يعود على البعض بالخير وقد ينقلب على البعض الآخر شراً مستطيراً .

– هكذا اذن . هذا امر لا يعنينا ، على ما اعتقد . فنحن ابناء الجيل السابق نتصور ان من المستحيل القيام بخطوة واحدة او حتى مجرد التنفس بدون المبادئ ، المبادئ المقبولة ، كما تقول ، بدون تمحيص ، (ولكنكم غيرتم ذلك كله) * ، «الله يعطيكم العافية ورتبة جنرال» (٥٦) . اما نحن فسوف نتطلع اليكم معجبين بكم ايها السادة ال . . . لا ادري كيف تنطقون هذه الكلمة ؟

– . . . النهلستيون ، – قال اركادي بوضوح .

– اجل . في السابق كان هناك الهيجليون ، اما اليوم فقد ظهر النهلستيون . فلنر كيف ستعيشون في الفراغ الخالي من الهواء . اما الآن فدق الجرس رجاء ، يا اخي نيكولاي ، فقد حان موعد احتساء الكاكاو .

دق نيكولاي بتروفيتش الجرس وصاح : «دونياشا !» . ولكن فينيتشكا نفسها ظهرت في الشرفة بدلاً من دونياشا . كانت امرأة غضة في حوالي الثالثة والعشرين من العمر ، ناصعة البشرة بشعر فاحم وعينين سوداوين وشفتين حمراوين ممتلئتين كشفاه الاطفال

* في الاصل بالفرنسية Vous avez changé tout cela .

ويدين رقيقتين . كانت ترتدي بدلة قطنية انيقة . وكان منديل ازرق جديد قد استقر خفيفاً على كتفيها المكورتين . حملت قدحاً كبيراً من الكاكاو فوضعته امام بافل بتروفيتش واعتراها الحياء كليا : فتضح الدم الساخن كالموجة القانية على محياها المليح الرقيق . غضت بصرها وتوقفت قرب المائدة مستندة اليها باطراف اصابعها ، وكأنما شعرت بان مجيئها امر مخجل ، ولكنها في الوقت ذاته تتصور بان لها الحق في ان تحضر .

قطب بافل بتروفيتش حاجبيه بصرامة ، بينما ارتبك نيكولاي بتروفيتش ، ثم قال الاول بصوت خافت :

– مرحباً ، فينيتشكا !

– مرحباً يا سيدي ، – اجابته بصوت خفيض رنان ، ثم خرجت بهدوء وهي تسترق النظر الى اركادي الذي ابتسم لها بود . كانت تسير متمايلة بعض الشيء ، ولكن ذلك لم يكن يعيبها .

ساد الصمت الشرفة لحظات . وكان بافل بتروفيتش يرتشف الكاكاو ، ثم رفع راسه فجاة وقال بصوت يكاد يكون همساً :

– ها هو النهلستي قادم .

بالفعل كان بازاروف يسير في الحديقة متخطياً جنينات الزهور . كان معطفه القطني وسرواله ملطخين بالاوساخ ، وقد علقت نبتة من نبات المستنقع بقبعته المستديرة العتيقة فطوقت اسطوانتها . كان يحمل بيده اليمنى كيساً صغيراً تهتز داخله كائنات حية . اقترب من الشرفة بسرعة وحنى راسه قائلاً :

– مرحبا ايها السادة . معذرة لتاخري عن الفطور . ساضع هؤلاء الاسيرات في اماكنهن واعود في الحال .

– ما هذا ؟ اهو علق ؟ – سأل بافل بتروفيتش .

– كلا ، ضفادع .

– اتاكلها ، ام تربيها ؟

– استعملها في التجارب ، – قال بازاروف في غير اكتراث وذهب الى الدار . فعقب بافل بتروفيتش :

– سيشرّحها . يؤمن بالضفادع ولا يؤمن بالمبادئ .

القى اركادي نظرة آسفة على عمه ، فهز نيكولاي بتروفيتش كتفيه خلسة . وادرك بافل بتروفيتش نفسه بان نكتته غير موفقة فحول مجرى الحديث الى المزرعة وطفق يتكلم عن وكيلها

الجديد الذي جاء امس يتشكى من العامل «الازعر» فوما لانه لا يطيع احداً ، وقال عنه الوكيل : «سيعيش ويقضي نحبه في عبارة مش ايسوب الذي ساءت سمعته في كل مكان» .

٦

عاد بازاروف . جلس الى المائـــدة وشرع يحتسي الشاي باستعجال . تطلع اليه كلا الاخوين بصمت ، بينما راح اركادي ينقل نظراته خلسة بين ابيه وعمـــه . واخيراً سأل نيكولاي بتروفيتش :

– هل قطعت مسافة طويلة ؟

– هناك مستنقع قرب اجمة الحور . وقد رايت خمسة من طيور البكاسين ، بوسعك ان تصطادها يا اركادي .

– حضرتك ليس صياداً ؟

– كلا .

– انت تدرس الفيزياء ، اليس كذلك ؟ – سأل بافل بتروفيتش بدوره .

– اجل الفيزياء ، بل العلوم الطبيعية على العموم .

– يقال ان الجرمن تفوقوا كثيراً في هذا الميدان خلال الآونة الاخيرة .

– اجل ، الالمان اساتذتنا في ذلك – اجاب بازاروف بلا اكتراث .

استخدم بافل بتروفيتش كلمة «الجرمن» بدلا من «الالمان» للسخرية ، ولكن احداً ما لم يلاحظ ذلك .

– هل تكن كل هذا الاحترام للالمان ؟ – قال بافل بتروفيتش بتبجيل متكلف . فقد اخذ يشعر بانزعاج خفي ، اذ ان استهانة بازاروف المتمادية ولدت تذمراً في طبعه الارستقراطي . فان ابن الطبيب هذا لم يشعر بالخجل ، بل واجاب على نحو متقطع ، دون رغبة ، بصوت يشوبه شيء من الخشونة التي تكاد تقرب من الوقاحة .

– العلماء هناك اناس حاذقون .

– هكذا ، اذن . اما بخصوص العلماء الروس فليس لديك ، على مايبدو ، مثل هذا الاطراء ، اليس كذلك ؟

– اخشى ان يكون الامر كذلك ..

– هذا نكران ذات يستحق اكبر قدر من المديح – قال بافل بتروفيتش وهو يعدّل قامته ويميل براسه الى الوراء – ولكن كيف قال لنا اركادي نيكولايفيتش قبل قليل انك لا تعترف باية شخصيات بارزة ولا تؤمن بها ؟

– ما الذي يجعلني اعترف بها ؟ وما الذي اؤمن به ؟ عندما يعرض علي شيء معقول اوافق عليه ، هذا كل ما في الامر .

– وهل يعرض جميع الالمان شيئاً معقولاً ؟ – سأل بافل بتروفيتش واكتسى وجهه بتعبير لاابالي هائم كما لو كان قد حلق كلياً الى ما وراء السحب .

– ليس جميعهم ، – اجاب بازاروف بتثاؤبة قصيرة دلت على انه ليس راغباً في مواصلة الجدل الفارغ .

القـى بافل بتروفيتش نظرة على اركادي وكانما يريـــد ان يقول له : «صديقـــك مهذب حقا !» ، ثم قال من جديد بشيء من الجهد :

– اما انا فخطيئتي هي اني لا اخلع النعوت على الالمان . وما من داع للكلام عن الالمان الروسيين : فالكل يعلمون اي نوع من البشر هم . ولكنني لا استسيغ الالمان الالمانيين ايضاً . فالقدماء منهم كانوا يصلحون لشيء ، عندما كان لديهم ، مثلا ، شيلّر وغوته . . . واخي نيكولاي معجب بهما خصوصاً . اما الآن فليس هناك غير الكيمياويين والماديين . . .

– الكيمياوي الحاذق افضل بعشرين مرة من اي شاعر – قاطعه بازاروف . فقال بافل بتروفيتش رافعاً حاجبيه قليلا وكانما ينوي ان يغط في النوم :

– هكذا ، يعني انك لا تعترف بالفن ؟

– فن اكتساب المال ، او خير طريقة لعلاج البواسير ! – هتف بازاروف بضحكة ساخرة مستهينة .

– هكذا اذن ، هكذا تتفضل بالتنكيت . يعني انك ترفض كل شيء ، ولا تؤمن الا بالعلم . اليس كذلك ؟

– اخبرتك باني لا اؤمن بشيء . والعلم ، ما هو العلم عموماً ؟

هناك علوم مثلما هناك صنائع والقاب . اما العلم عموماً فهو غير موجود على الاطلاق .

– حسناً جداً . ولكن ماذا بخصوص القواعد الاخرى المقبولة في حياة الناس ؟ هل تلتزم بنفس هذا الاتجاه السلبي ازاءها ؟

– ما هذا ، اهو استجواب ؟ – سال بازاروف .

لون بافل بتروفيتش بعض الشيء . . . ورأى نيكولاي بتروفيتش ان من واجبه ان يتدخل في الحديث :

– سوف نتحدث معك يا عزيزي يفغيني فاسيليفيتش فيما بعد بتفصيل اكبر حول هذا الموضوع . وسوف تطلع على رأيك ونعرض رأينا . ومن ناحيتي فانا مسرور جداً لدراستك العلوم الطبيعية . سمعت ان ليبيغ (٥٧) اجرى اكتشافا مدهشا بخصوص تسميد الحقول . ويمكنك ان تساعدني في اعمالي الزراعية : فبوسعك ان تقدم لي نصيحة نافعة ما .

– انا في خدمتك ، يا نيكولاي بتروفيتش . ولكن شتان بيننا وبين ليبيغ ! يتعين في البداية تعلم الابجدية ثم تناول الكتاب . اما نحن فلا نزال غارقين في لجة الجهل .

«يبدو انك نهلستي حقاً» – فكر نيكولاي بتروفيتش في نفسه ، ثم اضاف قائلا :

– ومع ذلك اسمح لي ان استعين بك عند الاقتضاء . اما الآن ، يا بافل ، فقد حان الوقت ، على ما اعتقد ، للتداول مع وكيل المزرعة .

نهض بافل بتروفيتش من كرسيه وقال دون ان ينظر الى احد :

– ما اتعس ان يعيش المرء خمس سنوات في القرية بعيداً عن العقول العبقرية ! فهو يصبح اكثر بلادة . انه يحاول ان لا ينسى ما تعلمه في الماضي ، وعلى حين غرة يتضح له ان كل ذلك هراء ، فيقال له ان الاذكياء لم يعودوا يدرسون مثل هذه السخافات وانه هو مجرد طرطور متخلف . فما العمل ؟ ! يبدو ان الشباب اذكى منا حقاً .

استدار بافل بتروفيتش ببطء على كعبيه وخرج متباطئا فتبعه نيكولاي بتروفيتش . وحالما اغلق الباب بعد خروج الاخوين سال بازاروف من اركادي ببرود :

– ماذا ؟ هل هو على هذه الشاكلة دوماً ؟

– فقال اركادي :

– اسمع ، يا يفغيني ، تحدثت معه بخشونة بالغة . لقد اهنته .

– فهل يتعين عليّ ان اداريهم ، هؤلاء الارستقراطيين الريفيين ؟ ! كل ذلك مجرد خيلاء ، وحماقة وعادات السباع . الاحرى به ان يتابع مهمته في بطرسبورغ ما دام على هذه الطباع . . . ما لنا وله ، فلنتركه وشانه . هل تعلم ؟ لقد عثرت على نوع نادر جداً من الجعلان العوامة : (ديتيسكوس مارغيناتوس) * . ساريك اياه .

فقال اركادي :

– وعدتك ان احكي لك قصته .

– قصة الجعل ؟

– كفى ، يا يفغيني . قصة عمي . وسترى انه ليس بذلك الانسان الذي تتصوره . انه يستحق الرثاء اكثر مما يستحق السخرية .

– لا اشك في ذلك . ولكن لماذا تشغل بالك به الى هذا الحد ؟

– كن منصفاً يا يفغيني .

– وما الداعي لذلك ؟

– كلا ، اسمعني . . .

وقص عليه اركادي قصة عمه التي يجدها القارئ في الفصل التالي .

٧

تلقى بافل بتروفيتش كيرسانوف تعليمه في المنزل اول الامر ، شانه شان اخيه الاصغر نيكولاي ، ثم في «سلك الوصفاء» (٥٨) . وكان منذ طفولته يتمتع بجمال رائع . زد على ذلك انه كان معتداً بنفسه وساخراً بعض الشيء وحاد الطبع بشكل يثير الضحك احياناً . ولذا كان لا بد ان يروق للآخرين . حالما تخرج

---

* في الاصل باللاتينية Dytiscus marginatus .

ضابطاً اخذ يظهر في كل المحافل . كان يتحمل على الاكف ، ويداري نفسه لحد الحماقة ، بل ويتدلل ويتغنج ، وما كان ذلك ليعيبه بشيء . فقد كانت النساء مفتونات به لحد الجنون ، وكان الرجال ينعتونه بالمتانق ويحسدونه في سرهم . عاش ، كما ذكرنا ، في منزل واحد مع اخيه الذي احبه حباً صادقاً ، مع انه لم يكن يشبهه بشيء . نيكولاي بتروفيتش ضئيل القوام يعرج قليلاً ، وعيناه السوداوان غير الواسعتين جميلتان ولكنهما حزينتان بعض الشيء ، وشعره خفيف ناعم . كان يهوى الكسل ، ولكنه يهوى المطالعة ايضاً ويخشى الظهور في المحافل . اما بافل بتروفيتش فلم يصرف ولا امسية واحدة في المنزل ، وقد اشتهر بالبسالة واللياقة (فهو الذي جعل الجمباز موضة لدى شباب المجتمع الراقي) ، ولم يقرأ غير خمسة او ستة كتب فرنسية . وفي عامه الثامن والعشرين اصبح ضابطاً برتبة رائد تنتظره افضل المناصب . ولكن كل شيء تغير فجأة .

في ذلك الحين كانت تظهر في مجتمع بطرسبورغ الراقي من حين لآخر امراة لم يطوها النسيان حتى الآن . وهي الاميرة ر . كان لديها زوج مهذب مؤدب ، ولكنه على شيء من الغباوة . ولم يكن لديها اطفال . كانت تسافر الى الخارج فجأة ، وتعود الى روسيا فجأة . وعلى العموم كانت غريبة الاطوار ، تعيش حياة متميزة . اشتهرت بانها امراة لعوب تنغمر بولع كبير في مختلف انواع الملذات ، وترقص حتى الاغماء ، وتقهقه وتنكت مع الشباب الذين تلتقيهم قبيل الغداء في غرفة استقبال شبه معتمة . اما في الليل فكانت تنتحب وتصلي ، فلا يقر لها قرار ، وغالباً ما تظل حتى الصباح تجوب الغرفة جيئة وذهاباً ، غارقة في لجة الكآبة ، او تنكب ، شاحبة باردة ، على سفر المزامير . وحالما يحل النهار تتحول من جديد الى واحدة من نساء المجتمع الراقي ، وتتنقل وتضحك وتثرثر من جديد وكأنما تندفع لملاقاة كل ما يمكن ان يوفر لها ادنى قدر من التسلية . كانت ذات قوام مدهش . ضفيرتها الذهبية اللون الثقيلة كالذهب تتدلى الى اسفل الركبتين . ولكنه ما من احد بوسعه ان يطلق عليها نعت الحسناء . فلم يكن في محياها شيء جميل غير عينيها ، وليس عيناها بالضبط – فهما رماديتان غير واسعتين – بل نظرتهما السريعة العميقة اللامبالية حتى البسالة

والمتأملة حتى الكآبة – انها نظرة كلها الغاز . كان شيء ما مدهش يلوح في هذه النظرة حتى عندما تتفوه هي بأتفه الالفاظ . وكانت ملابسها على قدر كبير من الاناقة . صادفها بافل بتروفيتش في احدى السهرات ورقص معها المازوركا ، فلم تقل طوالها ولا كلمة واحدة ذات شأن ، ووقع في هواها بشدة وعنف . وسرعان ما حقق هدفه هذه المرة ايضاً وهو الذي تعود على الانتصارات . الا ان سهولة الفوز لم تخفف من غلوائه . على العكس ، فقد تعلق تعلقاً اشد واكثر مضضاً بهذه المراة التي ظل فيها ، على ما يبدو ، شيء منشود بعيد المنال لم يتوصل اليه احد ، حتى عندما تستسلم كلياً . ولا يعلم الا الله بما كان يعشش في هذه الروح ! لقد بدت وكأنها اسيرة قوى خفية مجهولة بالنسبة لها نفسها ، قوى تتلاعب بها كما يحلو لها . وما كان بوسع ذكائها غير المفرط ان يسيطر على نزوات تلك القوى . كان سلوكها بمجمله عبارة عن طائفة من الحماقات . فالرسائل الوحيدة التي يمكن ان تثير شكوك زوجها بحق هي رسائل كتبتها الى شخص غريب عليها تقريباً ، اما حبها فكان ينضح حزناً : لم تعد تضحك وتمزح مع الذي اختارته ، وصارت تستمع اليه وتحدق فيه متحيرة . وكانت تلك الحيرة تتحول احياناً ، بصورة مفاجئة على الاغلب ، الى رعب بارد ، فيكتسي وجهها بتعبير وحشي موات ، وتنطوي على نفسها في غرفة النوم تقفلها وتجهش في نحيب مخنوق بوسع الوصيفة ان تستمع اليه عندما تلصق اذنها بقفل الباب . كان كيرسانوف ، حينما يعود الى منزله بعد لقاءات الغرام ، يحس مراراً بكآبة مرة كالتي تعتصر القلب وتمزق نياطه عادة بعد الاخفاق المطبق . وكان يسائل نفسه : «ماذا اريد اكثر من ذلك ؟» . ولكن الكآبة تعتصر قلبه . وذات مرة اهداها خاتماً نحت ابو الهول الاسطوري (٥٩) على فصه . فسألته :

– ما هذا ؟ ابو الهول ؟

– اجل . وهو انت .

– انا ؟ – سألته واحتوته على مهل بنظرتها المليئة بالالغاز . ثم اضافت بسخرية غير متمادية ، وظلت عيناها تسلطان عليه نفس تلك النظرة الغريبة :

– الا تتصور ان ذلك اطراء بالغ ؟

كان الامر صعباً على باڤل بتروفيتش حتى عندما احبته الاميرة ر . ولكنه كاد يجن عندما خفت حبها له عاجلاً . كان يتعقب ويعاز عليها ، ويلاحقها في كل مكان ولا يتركها تذوق طعم الهدوء ، حتى سئمت من لجاجته وملاحقاته فسافرت الى الخارج . احال نفسه على التقاعد بالرغم من رجاء اصدقائه ونصائح رؤسائه ، ولحق بالاميرة ، فقضى اربعة اعوام في الغربة تارة يطاردها وتارة يفلتها عمداً . واخذ يشعر بالخجل من نفسه وصار يكره نفسه بسبب تخاذله . . . ولكن ما من شيء كان بوسعه ان يعينه . فقد انغرزت في اعماق روحه حتى الجذور صورتها الجذابة ، الغامضة التي لا تكاد تنطوي على اي معنى . وفي بادن عادت علاقاتهما ، ذات مرة ، الى سابق عهدها . وخيل اليه انها لم تكن تحبه فيما مضى ابداً بنفس القدر الذي تحبه به الآن . . . ولكن ما ان مر شهر حتى انتهى كل شيء : فقد اندلع اللهيب للمرة الاخيرة ثم انطفأ الى الابد . وعندما ادرك حتمية الفراق الذي لا مفر منه اراد ، على الاقل ، ان يظل صديقاً لها وكأنما الصداقة مع مثل هذه المرأة امر ممكن . . . غادرت بادن خلسة وصارت منذ ذلك الحين تتحاشى كيرسانوف دوماً . اما هو فقد عاد الى روسيا وحاول ان يعيش عيشته القديمة ، ولكنه لم يعد قادراً على العودة الى المجرى القديم . فراح يطوف من مكان لاخر كمن سلب عقله . كان لا يزال يظهر في المحافل ويحتفظ بجميع عادات الشخص المنتمي الى المجتمع الراقي ، وكان بوسعه ان يتفاخر بانتصارين جديدين او ثلاثة ، ولكنه لم يعد ينتظر شيئاً ذا شان لا من نفسه ولا من الاخرين ، ولم يتخذ اي اجراء يستحق الذكر . داهمته الشيخوخة ووخط الشيب شعره . وصار يشعر بحاجة الى قضاء الامسيات في النادي جالساً جلسته السوداوية المضجرة او مناقشاً بلا مبالاة في معشر العزاب ، وتلك ، كما هو معروف ، دلالة سوء . بديهي انه لم يكن يفكر في الزواج حتى مجرد تفكير . مضت على هذا النحو عشر سنوات كالحة عقيمة ، مضت بسرعة ، بسرعة مرعبة . فالوقت لا ينقضي في ايما مكان باسرع مما في روسيا . ويقال انه ينقضي في السجن فقط بصورة اسرع . ذات مرة ، اثناء الغداء في النادي عرف باڤل بتروفيتش بوفاة الاميرة ر . التي قضت نحبها في باريس في حالة تقرب من الجنون . نهض من المائدة واخذ يجوب غرف

النادي طويلا ، وكان يتوقف مستمراً قرب المقامرين ، ولكنه لم يعد الى المنزل قبل الموعد المعتاد . وبعد حين من الوقت تسلم مظروفاً باسمه . كان في المظروف الخاتم الذي اهداه للاميرة . لقد رسمت على ابي الهول علامة صليب وامرت حامل المظروف بان يقول له ان الصليب هو حل اللغز .

حدث ذلك في مطلع عام ١٨٤٨ ، في نفس الوقت الذي وصل فيه نيكولاي بتروفيتش الى بطرسبورغ بعد وفاة زوجته . لم يكن باڤل بتروفيتش قد تقابل مع اخيه منذ ان انتقل هذا الى القرية : فقد وافق زفاف نيكولاي بتروفيتش الايام الاولى لتعرف باڤل بتروفيتش على الاميرة . وعندما عاد من الخارج توجه اليه ناوياً البقاء عنده زهاء شهرين والاطلاع على حياته الهانئة ، ولكنه لم يمكث لديه غير اسبوع واحد . فقد كان الفارق في اوضاع الاخوين كبيراً جداً . وفي عام ١٨٤٨ تقلص هذا الفارق : اذ فقد نيكولاي بتروفيتش زوجته وفقد باڤل بتروفيتش ذكرياته . حاول باڤل الا يفكر بالاميرة بعد وفاتها . الا ان نيكولاي ظل يحتفظ بشعور انسان عاش الحياة على نحو صائب ، فقد كان ابنه يترعرع امام ناظريه . اما باڤل فهو ، على العكس ، اعزب مستوحش وقد دخل مرحلة كالحة معتمة ، مرحلة الندامة التي تشبه الآمال والآمال التي تشبه الندامة ، حيث مضى الشباب ، بينما لم تحل الشيخوخة بعد .

كانت هذه المرحلة اصعب على باڤل بتروفيتش مما على اي شخص اخر : فعندما فقد ماضيه فقد معه كل شيء .

قال له نيكولاي بتروفيتش ذات مرة :

– لا ادعوك الى مارينو (اطلق نيكولاي بتروفيتش هذا الاسم على قريته تكريماً لزوجته ماريا) ، فعندما كانت المرحومة على قيد الحياة شعرت هناك بالضجر ، اما الآن فسيكون ضجرك اشد على ما اعتقد .

فاجاب باڤل بتروفيتش :

– كنت آنذاك لا ازال احمق متململا . اما الآن فقد هدأت ، ان لم اقل صرت اذكى قليلاً . وانا ، على العكس ، مستعد لاسكن عندك الى الابد ، اذا سمحت .

وبدلاً من الجواب عانقه نيكولاي بتروفيتش . غير ان باڤل بتروفيتش لم يشد العزم على تحقيق ما نواه الا بعد عام ونصف من

هذا الحديث . ولكنه عندما سكن القرية لم يغادرها حتى في فصول الشتاء الثلاثة التي قضاهـــا نيكولاي بتروفيتش مع ابنه في بطرسبورغ . اخذ يطالع باللغة الانجليزية على الاكثر ، بل وصار يبني حياته كلها على النمط الانجليزي . صار نادراً ما يتقابل مع الجيران ، ولا يغادر القرية الا في الانتخابات حيث يصرف اغلب الوقت صامتاً ، ما عدا بعض الحالات النادرة حيث يغيظ الاقطاعيين المتمسكين بالقديم ويخيفهم بالنزوات المتحررة دون ان يتقرب الى ممثلي الجيل الجديد . وكان هؤلاء واولئك يعتبرونه مغروراً معتداً بنفسه . بيد ان هؤلاء واولئك كانوا يحترمونـــه لمسلكـــه الارستقراطي الممتاز وللاشاعات عن انتصاراته ولانه مهندم على اروع ما يكون ، ولانه ينزل دوماً في افضل الغرف في ارقى الفنادق ، ولانه على العموم لا يتناول الا الاطعمة الفاخرة ، حتى انه تغدى ذات مرة مع ولنغتون (٦٠) عند لودفيغ-فيليب (٦١) ، ويحترمونه لانه كان يحمل معه في ترحاله وتجواله حقيبة فضية لادوات الزينة وحوض استحمام متنقلاً ، ولانه يتطيب بعطور «كريمة» مدهشة غير معتادة ، ولانه يلعب الهويست * بمهارة ويخسر فيه دوماً ، وكانوا يحترمونه ، اخيراً ، لنزاهته التي لا تشوبها شائبة . وقد اعتبرته النساء ملنخولياً فاتناً ، ولكنه ما عاد يعبأ بالنساء . . .

وقال اركادي في ختام حديثه :

– ارايت ، يا يفغيني ، كم انت مجحف بحق عمي ! ثم انه انقذ ابي مراراً من المصائب واعطاه كل نقوده . وحتى الضيعة ، وهذا امر ربما لا تدري به ، غير مقسمة بينهما . بل هو مستعد لمساعدة اي كان . وبالمناسبة فهو يلتزم جانب الفلاحين دوماً ، لكنه ، والحق يقال ، يتقزز منهم ويتشمم الكولونيا عندما يتكلم معهم . . .

– امر واضح : اعصاب – قاطعه بازاروف .

– ربما . ولكن قلبه في منتهى الطيبة . ثم انه ليس بليداً ابداً . فما اثمن النصائح التي قدمها لي . . . وخصوصاً . . . وخصوصاً في الموقف من النساء .

---

* ضرب من لعب الورق . **المترجم** .

– طبعاً ! من لدغته الافعى يخشى من جر الحبل . ليس ذلك جديداً علينا !

– خلاصة القول – واصل اركادي كلامـــه – انه تعيس للغاية ، صدقني . وان احتقاره خطيئة .

– من يحتقره ؟ – اعترض بازاروف – ولكني اعتقد ان الانسان الذي قامر بحياته كلها على حب امراة وتكدر ، عندما خسر المقامرة ، فانحدر الى درجة اصبح معها عاجزاً عن القيام باي شيء ليس رجلاً وليس ذكراً . تقول انه تعيس ، فانت اعرف به ، ولكن الحماقة لم تفارقه كلياً . انا واثق من انه لا يمزح عندما يتصور نفسه انساناً ذكياً طيباً لكونه يقرأ وريقة غالينياني ويخلص الفلاحين مرة في الشهر من العقوبة الجسدية .

– ولكن تذكر تربيته والعصر الذي عاش فيه .

– ما شان التربية ؟ على كل فرد ان يربي نفسه بنفسه ، كما فعلت انا ، مثلاً . . . اما العصر ، فما الداعي لان اكون تحت سلطته ؟ فليكن هو تحت سلطتي . كلا ، يا اخي ، ما ذلك الا استهتار وحماقة ! ثم ما هذه العلاقات الغامضة بين الرجل والمراة ؟ انا الفسلجيين نعرف ماهية تلك العلاقات . راجع تشريح العين ، فمن اين تنبع تلك النظرة المليئة بالالغاز ، كما تقول ؟ ما ذلك الا رومانسية مصطنعة وهذر متعفن . الافضل ان نذهب لنتفحص الجعل .

وتوجه الصديقان الى غرفة بازاروف التي اكتنفتها ، منذ ان حل فيها ، روائح طبية وجراحية ممزوجة بنفح تبغ رخيص .

٨

لم يبق بافل بتروفيتش طويلاً اثناء التداول بين اخيه ووكيـل المزرعة النحيف الفارع القامة ذي العينين المراوغتين والصوت المعسل الشبيه بصوت المسلول . كان الوكيل يرد على جميع ملاحظات نيكولاي بتروفيتش بقوله «طبعاً ، يا سيدي ، امر معروف» ويحاول ان يصور جميع الفلاحين سكارى ولصوصاً . كانت المزرعة التي اصلحت على شاكلة جديدة مؤخراً تصر كعجلة بدون تشحيم وتتشقق

كالاثاث المصنوع كيفما اتفق من خشب لم يجف بعد . لم يكن نيكولاي بتروفيتش يائساً ، ولكنه كثيراً ما كان يتنهد ويتأمل ؛ فهو يعرف ان الامور لن تسير على ما يرام بدون مال ، في حين انه انفق جميع امواله تقريبا . وقد صدق اركادي عندما قال ان بافل بتروفيتش اعان اخاه اكثر من مرة . فان بافل بتروفيتش الذي راى اخاه مراراً يشقى ويمعن التفكير في كيفية تدبير الامور ولو بشكل ما ، كان يقترب من النافذة ببطء ، ويدس يديه في جيبه ويقول بصوت خافت : «استطيع ان اعطيك مالاً» * ، ويسلم المال له بالفعل . لكنه في ذلك اليوم لم يكن لديه شيء من المال ، ولذا فضل الانسحاب . كانت المشاحنات بشأن المزرعة تبعث الغم فيه . وكان يخيل اليه دوماً ان نيكولاي بتروفيتش ، بالرغم من حرصه ومثابرته ، لا يدير الامور كما يرام ، مع ان بافل بتروفيتش ما كان بوسعه ان يشير بالتحديد الى خطأ اخيه . وكان يفكر في نفسه : «ليس اخي عملياً بالقدر الكافي ، فهم يخدعونه» . وكان نيكولاي بتروفيتش ، على العكس ، يقدر كل التقدير مواهب اخيه العملية وينشد لديه النصح دوماً . كان يقول : «انا انسان ضعيف ليّن ، عشت عمري في الريف ، اما انت فقد عشت طويلاً مع الناس . انك تعرفهم جيداً ولديك نظرة صقر» . وكان بافل بتروفيتش لا يرد على هذه الكلمات ، بل يشيح بوجهه دون ان يبين لاخيه العكس .

ترك بافل بتروفيتش اخاه في مكتبه وسار في الرواق الذي يفصل القسم الامامي من الدار عن قسمها الخلفي . وعندما وصل الى باب واطئ توقف متفكراً ثم فتل شاربه وطرق الباب .

– من الطارق؟ ادخلوا – رن صوت فينيتشكا .

– انا – اجاب بافل بتروفيتش وفتح الباب .

نهضت فينيتشكا في الحال من الكرسي الذي كانت جالسة عليه مع طفلها ، وسلمت الطفل الى فتاة خرجت به فوراً من الغرفة ، وعدلت منديلها على عجل .

– معذرة اذا كنت قد ضايقتك – طفق بافل بتروفيتش يتكلم دون ان ينظر اليها – اريد فقط ان اكلفك . . . سيذهب احد ما

* في الاصل بالفرنسية «Mais je puis vous donner de l'argent»

الى المدينة اليوم على ما اظن . . اطلبي منه ان يشترى لي شاياً اخضر .

– سمعاً وطاعة يا سيدي – اجابت فينيتشكا – كم ترغبون ان تشتري ؟

– نصف رطل يكفي ، باعتقادي – اجاب ثم اضاف بعد ان القى نظرة عاجلة احاطت بما حواليه وانزلقت على وجه فينيتشكا ايضاً – يبدو ان لديك تغيرات هنا . – واردف عندما راى فينيتشكا لم تفهمه – هذه الستائر مثلاً .

– اجل ، هذه الستائر ، لقد تفضل بها علينا نيكولاي بتروفيتش . ولكنها معلقة منذ زمان .

– انا ايضاً لم ازرك منذ زمان . اما الآن فقد اصبحت غرفتك مريحة تماماً .

– بفضل نيكولاي بتروفيتش – اجابت فينيتشكا همساً ، فسألها بافل بتروفيتش بتادب ولكن بدون ادنى اثر للابتسام :

– هل هنا افضل مما في الجناح السابق ؟

– افضل ، طبعاً .

– ومن اسكنوا بدلك هناك ؟

– الغسالات .

– اها !

لزم بافل بتروفيتش الصمت . ففكرت فينيتشكا في نفسها : «سيذهب الآن» . ولكنه لم يذهب ، فظلت واقفة امامه متسمرة تفرك اصابعها بخفة ، الى ان قال اخيراً :

– لماذا اعطيتها طفلك ! انا احب الاطفال ، احضريه لي .

احتقن محيا فينيتشكا من الحياء والسرور . كانت تخشى بافل بتروفيتش ، فهو لم يكلمها ولا مرة تقريبا . فنادت دونياشا قائلة :

– احضروا ميتيا (كانت فينيتشكا تخاطب كل من في الدار بصيغة الجمع) . لا بل تمهلوا : ينبغي ان البسه بدلة .

توجهت فينيتشكا نحو الباب ، فبادرها بافل بتروفيتش :

– لا فرق .

– في الحال – اجابت فينيتشكا وخرجت برشاقة .

ظل بافل بتروفيتش وحيداً ، فاخذ يتلفت هذه المرة باهتمام

خاص الى ما حواليه . كانت الغرفة الواطئة الصغيرة التي يقع فيها نظيفة ومريحة للغاية ، تفوح فيها رائحة الارضية التي طليت مؤخراً ورائحة الاقحوان والنعناع . وعلى طول الجدران صفت كراسي ذات مساند خلفية بشكل قيثارات ، كان الجنرال الراحل قد اشتراها في بولندة ابان احدى الحملات ، وفي ركن من الغرفة انتصب سرير صغير فوقه حجاب من الشاش ، الى جانب صندوق مرصع بالمسامير وذي غطاء محدب . وفي الزاوية المقابلة اشتعل قنديل امام ايقونة معتمة كبيرة للقديس نيقولاي الذي تدلت بشريط احمر على صدره بيضة فرفورية صغيرة مثبتة الى هالته . وعلى رفي النافذتين زجاجات مربى الموسم المنصرم مغلقة بعناية ، ويتسرب من خلالها ضوء اخضر ، وقد كتبت فينيتشكا على اغطيتها الورقية بحروف كبيرة «عنب الثعلب» . نيكولاي بتروفيتش يحب هذا النوع من المربى خصوصاً . وكان قفص يتدلى بحبل طويل من السقف وفيه حسون قصير الذيل يشقشق ويتقافز بلا كلل ، والقفص يهتز ويرتعش بلا انقطاع ، وتقع حبات القنب على الارضية بنقر خفيف . وعلى الحائط بين النافذتين علقت ، فوق الصوان ، صور فوتوغرافية لنيكولاي بتروفيتش في وضعيات مختلفة ، وهي صور سيئة التقطها مصور متجول . والى جانبها صورة لفينيتشكا غير موفقة ابداً ، اذ لم يكن يلوح منها غير وجه بلا عينين يبتسم ابتسامة متوترة في اطار معتم . وفوقها صورة يرمولوف (٦٢) في معطف فضفاض من اللباد ، وهو يلقي نظرة عابسة رهيبة على جبال القوقاز البعيدة من تحت خف حريري للدبابيس علق فوقه وغطى جبهته كلها .

مرت خمس دقائق تقريباً . وكان يتهادى من الغرفة المجاورة حفيف وهمس . رفع بافل بتروفيتش من فوق الصوان كتاباً ملوثاً ، هو احد مجلدات رواية ماسالسكي «الرماة» (٦٣) ، فتصفح عدة صفحات منه . . . فتح الباب ودخلت فينيتشكا تحمل ميتيا . كانت قد البسته قميصاً احمر بشريط مقصب على الياقة ، ومشطت شعره ومسحت وجهه : كان يتنفس بصعوبة ويندفع بجسمه كله ويلوّح بيديه الصغيرتين كما يفعل جميع الاطفال الاصحاء ، بيد ان القميص الانيق اثر عليه ، كما يبدو ، فقد طفت على وجهه المنتفخ مسحة من الارتياح . وكانت فينيتشكا قد صففت شعرها

هي ايضاً . ارتدت منديلا افضل . غير انه كان بوسعها ان تظل كما كانت عليه . حقاً ، فهل هناك اكثر جاذبية في الوجود من ام جميلة شابة مع طفل معافى ؟

– يالك من طفل ريان ! – قال بافل بتروفيتش متساهلاً ودغدغ اسفل ذقن ميتيا بطرف ظفر سبابته الطويل . حدق الطفل في الحسون وابتسم .

– هذا عمك – قالت له فينيتشكا وقد مالت اليه بوجهها وهي تهزه هزة خفيفة ، في حين وضعت دونياشا على رف النافذة بهدوء شمعة البخور المشتعلة والصقتها من الاسفل على قطعة نقد صغيرة . فسأل بافل بتروفيتش :

– كم شهراً يبلغ يا ترى ؟

– ستة شهور ، وسيحل شهره السابع قريباً ، في الحادي عشر .

– اليس الشهر الثامن ؟ – تدخلت دونياشا بشيء من الاستحياء .

– كلا ، السابع ، كيف ذلك ؟ ! – ابتسم الطفل من جديد وحدق في الصندوق ثم خطف انف امه وشفتيها فجأة باصابعه الخمس ، فقالت فينيتشكا دون ان تبعد وجهها عن اصابعه : – مشاكس .

– يشبه اخي – لاحظ بافل بتروفيتش ، ففكرت فينيتشكا في نفسها : «ومن عساه ان يشبه ؟» فواصل بافل بتروفيتش كلامه وكأنه يخاطب نفسه :

– اجل ، شبه لا شك فيه . – ثم القى على فينيتشكا نظرة متفحصة تكاد تكون حزينة .

– هذا عمك – كررت هي همساً هذه المرة . وفجأة تعالى صوت نيكولاي بتروفيتش :

– اها ! بافل ! ها قد وجدتك !

التفت بافل بتروفيتش باستعجال وتجهم وجهه ، الا ان اخاه نظر اليه بفرح وامتنان جعلاه يرد بابتسامة من كل بد . ثم قال منطلقاً في ساعته :

– طفلك رائع . اما انا فقد عرجت الى هنا بخصوص الشاي . . .

خرج بافل بتروفيتش من الغرفة في الحال وقد اكتسى وجهه بمسحة من اللامبالاة . فسأل نكيولاي بتروفيتش من فينيتشكا

– هل جاء بنفسه ؟

– بنفسه ، يا سيدي ، طرق الباب ودخل .

– واركادي ، الم يزرك بعد تلك المرة ؟

– كلا . الا ينبغي ان انتقـــل الى الجناح ، يا نيكولاي بتروفيتش ؟

– ما الداعي لذلك ؟

– اعتقد ان ذلك سيكون افضل الآن .

– ك . . . كلا – قال نيكولاي بتروفيتش متلعثماً ومسح جبهته – كان ينبغي القيام بذلك قبل الآن . . . مرحباً ، يا عزيزي – قال بانتعاش مفاجئ واقترب من الطفل فقبلـــه في وجنته ، ثم انحنى قليلا ومس بشفتيه يد فينيتشكا التي بدت بيضاء كالحليب على قميص ميتيا الاحمر .

– ماذا دهاكم ، يا نيكولاي بتروفيتش ؟ ! – همست وغضت بصرها ، ثم رفعت عينيها بهدوء . . . كان رائعاً تعبير عينيها عند تسلط نظراتها المنبعثة من تحت الجبين وتضحك بحنان وبشيء من البلادة .

تعرف نيكولاي بتروفيتش على فينيتشكا بالشكل التالي : ذات مرة اضطر قبل ثلاثة اعوام ان يصرف الليل في خان بمدينة صغيرة نائية . وقد سر ودهش لنظافة الغرفة التي خصصت له ولنظافة شراشف الفراش . فخطرت على باله فكرة : «لعل صاحبة الخان المانية» . ولكنه اتضح له ان صاحبة الخان امرأة روسية في حوالي الخمسين من العمر ترتدي فستاناً انيقاً وتتحلى بمحيا ذكي مليح ولهجة رزينة . تحدث معها اثناء تناول الشاي ، فاعجب بها كثيراً . كان نيكولاي بتروفيتش آنذاك قد انتقل تواً الى داره الجديدة وما كان راغباً في ابقاء الاقنان معه ، فصار يبحث عن اجراء . وكانت صاحبة الخان قد تشكت ، بدورها ، من قلة عدد القادمين الى المدينة ومن مصاعب الدهر ، فاقترح عليها ان تشتغل لديه بمثابة مدبرة المنزل ، فوافقت . كان زوجها قد توفي منذ زمان وترك لها بنتاً وحيدة هي فينيتشكا . وبعد زهاء اسبوعين وصلت آرينا سافيشنا (وهذا هو اسم مدبرة المنزل الجديدة) مع

ابنتها الى مارينـــو وسكنت في الجناح . واتضح ان نيكولاي بتروفيتش قد وفق في الاختيار ، فقد رتبت آرينا شؤون الدار على ما يرام . اما فينيتشكا التي تجاوزت آنذاك السابعة عشرة من العمر فلم يتكلم عنها احد ونادراً ما كانت ترى : فقد عاشت بهدوء وتواضع . وفي الآحاد فقط كان نيكولاي بتروفيتش يلاحظ في زاوية ما من زوايا كنيسة الابرشية جانباً من وجهها الابيض الرقيق . مر اكثر من عام على هذا المنوال .

ذات صباح حضرت آرينا اليه في المكتب وانحنت ، عـــلى عادتها ، انحناءة شديدة ورجته ان يعالج ابنتها التي اصابتهـــا شرارة من الفرن في عينها . كان نيكولاي بتروفيتش ، شانه شان جميع الذين يلازمون منازلهم ، قد مارس العلاج ، حتى انه اقتنى صندوق ادوية منزلياً . امر آرينا ان تحضر المصابة فوراً . وعندما علمت فينيتشكا ان السيد يدعوها اليه اعتراها جبن شديد ، ولكنها تبعت امها مع ذلك . اقتادها نيكولاي بتروفيتش الى النافذة وامسك راسها بكلتا يديه . تفحص جيداً عينها المتورمة المحمرة ووصف باستخدام غسول اعده بنفسه في الحال ، ثم مزق منديله الى عدة قطع وبين لها كيف ينبغي غسل العين . استمعت اليه فينيتشكا ثم همت بالخروج . الا ان آرينا قالت لها : «قبلي يد السيد ، يا حمقاء» . ولم يمد لها نيكولاي بتروفيتش يده ، بـــل قبلها هو ، مرتبكاً ، في مفرق شعر راسها المنحني . وسرعان ما شفيت عين فينيتشكا ، ولكن الانطباع الذي تركته في نيكولاي بتروفيتش لم يمح بسرعة . كان يلوح في مخيلته دوماً ذلك الوجه النضير الرقيق المتطلع بشيء من الخوف . وقد احس تحت راحتي يديه بذلك الشعر الناعم ، وشهد تينـــك الشفتين العذراوين المنفرجتين قليلاً عن اسنان لؤلؤية تلمع ندية في الشمس . صار يتطلع اليها في الكنيسة باهتمام اكبر ويسعى الى التحدث معها . كانت في بادئ الامر تتجنبه ، وذات مرة لمحته ، قبيل المساء ، في درب ضيق شقه المارة عبر حقل الجودار ، فاندست بين السنابل الكثيفة العالية المختلطة بالشيح وبازهار العنبر ، كيلا تقع انظاره عليها . ولكنه لمح راسها بين السنابل الذهبية وهي تتطلع كالوحش الصغير ، فهتف برقة :

– مرحباً ، يا فينيتشكا ! انا لا اعض .

— مرحباً . — همست دون ان تغادر كمينها .

وصارت تتعود عليه شيئاً فشيئاً ، لكنها ظلت تشعر بالعجز في حضوره ، الى ان توفيت امها بالكوليرا . فالى اين تذهب فينيتشكا ؟ لقد ورثت عن امها حب النظام والتعقل والرزانة . ولكن ما انضر فتوتها وما اشد وحدتها ! وما اطيب نيكولاي بتروفيتش وما اكثر تواضعه ! اما الباقي فلا داعي لذكره . . .

— دخل اخي عليك هكذا ببساطة ؟ طرق الباب ودخل ؟ ! — سألها نيكولاي بتروفيتش .

— اجل ، يا سيدي .

— تلك بادرة حسنة . اعطيني ميتيا كي الاعبه .

واخذ نيكولاي بتروفيتش يقذفه حتى السقف تقريبا ، مما اثار اشد المرح لدى الطفل ، كما اثار قدراً غير ضئيل من القلق لدى الام التي صارت تمد يديها نحو رجليه العاريتين في كل قذفة يتلقاها .

اما بافل بتروفيتش فقد عاد الى مكتبه الانيق ، الى الجدران المزينة بورق جميل ذي لون غريب ، وبسجادة فارسية زاهية علقت عليها اسلحة ، والاثاث الجوزى المنجّد بحرير اخضر غامق ، والمكتبة المصنوعة من خشب البلوط الاسود القديم (على طراز عصر النهضة) * . والتماثيل البرنزية الصغيرة على طاولة الكتابة الرائعة والمدفاة الحائطية . . . ارتمى على الاريكة واشبك يديه تحت راسه وظل جامداً ينظر الى السقف بما يشبه القنوط . ولا احد يعلم ما اذا كان يريد ان يخفي حتى عن الجدران تلك المسحة التي طفت على وجهه او ما اذا كان هناك سبب آخر جعله ينهض فيسدل الستائر الثقيلة على النوافذ ، ثم يهوى على الاريكة من جديد .

٩

في نفس ذلك اليوم تعرف بازاروف على فينيتشكا . كان يتجول مع اركادي في البستان ويبين له السبب الذي منع بعض الشجيرات

* في الاصل بالفرنسية Renaissance .

المغروسة فيه ، وخصوصاً البلوط ، من ان تمد جذورها :

— ينبغي غرس المزيد من اشجار الحور الفضي والشوح ، بل والزيزفون واضافة شيء من التربة الخصبة اليها . — ثم واصل كلامه قائلا : — لماذا نمت هذه التعريشة جيداً ؟ ذلك لان الاقاصيا والليلاك شجيرات طيبة لا تحتاج الى رعاية . عجباً ، هناك اناس .

كانت في التعريشة فينيتشكا ودونياشا وميتيـــا . توقف بازاروف ، وحنى اركادي رأسه لفينيتشكا ، كما يحنيه لشخص من معارفه القدامى . فسأله بازاروف حالما ابتعدا قليلا :

— من هذه ؟ ما احلاها !

— عمن تتكلم ؟

— ليس هناك غير واحدة حلوة .

اوضح له اركادي باختصار وبشيء من الارتباك من هـــي فينيتشكا . فقال بازاروف :

— اها ! لابيك ذوق جيد على ما يبدو . انه يعجبني ، والله ! يا له من مقدام ! ولكن ينبغي ان اتعرف عليها — اضاف بازاروف واتجه عائداً نحو التعريشة . فصاح به اركادي مذعوراً :

— يفغيني ! احذر ، بالله عليك .

— لا تقلق . فنحن اناس محنكون ، عشنا في المدن .

اقترب بازاروف من فينيتشكا فرفع قبعته وبدأ كلامه بانحناءة مؤدبة :

— اسمحي لي بان اقدم نفسي : صديق اركادي نيكولايفيتش ، وانا انسان وديع .

نهضت فينيتشكا من المقعد ونظرت اليه بصمت . فواصل بازاروف كلامه :

— ما اروع هذا الطفل ! لا تقلقي فانا لم احسد احداً بعد . لماذا احمرت وجنتاه الى هذا الحد ؟ هل بدأت اسنانه تنبت ام ماذا ؟

— اجل ، يا سيدي . — اجابت فينيتشكا — ظهرت لديه اربع اسنان ، ولكن لثته تورمت من جديد .

— ناوليني اياه . . . لا تخشي شيئاً ، فانا طبيب .

اخذ بازاروف الطفل الذي لم يبد اية مقاومة ولم يرتعب ، مما اثار دهشة فينيتشكا ودونياشا .

– ها انا ذا ارى . . . لا باس ، كل شيء على ما يرام
سيكون حاد الاسنان . اذا حدث ما يسيء اخبريني . وانت هل تشتكين
من شيء ؟

– كلا ، والحمد لله .

– الحمد افضل من اسواه . وانت ؟ – اضاف بازاروف ملتفتا
الى دونياشا .

اكتفت دونياشا ، وهي فتاة عبوس في الدار وضحوك لما
عداها ، بان انفجرت ضاحكة رداً عليه .

– طيب . خذي طفلك العملاق .

اخذت فينيتشكا طفلها وقالت بصوت خافت :

– عجباً ، ما اهداه معكم .

– كل الاطفال هادئون معي ، فانا اعرف سرهم – اجاب
بازاروف ، فعلقت دونياشا :

– الاطفال يشعرون بمن يحبهم .

واكدت فينيتشكا ذلك قائلة :

– بالضبط . ميتيا لا يقبل ابداً ان ياخذه شخص اخر .

– وانا ، هل سيقبلني ؟ – سال اركادي الذي وقف بعيدا
بعض الوقت ثم اقترب من التعريشة .

حاول اغراء ميتيا لياتي اليه ، ولكن هذا ازاح راسه الى الوراء
وشرع بالبكاء ، مما جعل فينيتشكا ترتبك كثيرا . فقال اركادي
متساهلا :

– في مرة اخرى ، عندما يتسع الوقت ليتعود عليّ .

ابتعد الصديقان ، فسال بازاروف :

– ما اسمها يا ترى ؟

– فينيتشكا . . . فيدوسيا – اجابه اركادي .

– واسم ابيها ؟ ينبغي معرفته ايضا .

– نيكولايفنا .

– (حسنا) * . يعجبني فيها انها ليست خجولة جدا . يمكن
لشخص اخر ، في اغلب الظن ، ان يلومها على ذلك بالذات . ولكن
ما هذا الهراء ؟ ممّ الخجل ؟ انها ام وهي محقة .

---

* في الاصل باللاتينية Bene .

– هي محقة ، لا شك، ولكن ابي . . . – قال اركادي .

– وهو محق ايضا – قاطعه بازاروف .

– كلا ، لا اعتقد .

– يبدو ان وريثاً آخر لا يعجبك ، اليس كذلك ؟

– عيب عليك ان تظن بي ذلك – قال اركادي
حانقا – انني اعتبر والدي غير محق ليس من هذه الناحية ،
بل اعتقد انه ينبغي عليه ان يتزوجها .

– بخ ، بخ ! – قال بازاروف بهدوء – ما اعظم نبلنا !
انك لا تزال تعلق اهمية على الزواج . لم اكن اتوقع منك ذلك .

خطا الصديقان بضع خطوات صامتين . ثم شرع بازاروف يتكلم
من جديد :

– رايت كل شيء في مزرعة ابيك . الدواب عجاف والخيول
محطمة الحوافر والمباني في حالة يرثى لها ، والعاملون كسالى الى
اقصى حد . اما الوكيل فهو اما احمق واما محتال . لم اتاكد من
ذلك بعد بالشكل اللازم .

– ما اشد صرامتك اليوم ، يا يفغيني فاسيليفيتش !

– والفلاحون الطيبون يخدعون اباك من كل بد . انت تعرف
القول الماثور : «الفلاح الروسي ياكل حتى ربه» .

– اكاد اتفق مع عمي ، فلديك فكرة سيئة تماماً عن الروس .

– وما اهمية ذلك ! ليس في الروسي افضل من فكرته السيئة
عن نفسه . المهم ان اثنين في اثنين يساوي اربعة . وما عدا ذلك
فهو تفاهة .

– والطبيعة تفاهة ايضا ؟ – سال اركادي وهو ينظر متاملا في
ابعاد الحقول الزاهية وقد انارتها على نحو جميل شفاف اشعة
الشمس المائلة الى المغيب .

– الطبيعة كذلك تفاهة بالمعنى الذي تفهمها به انت .
فالطبيعة ليست معبدا ، وانما هي ورشة ، والانسان عامل فيها .

تهادت اليهما من الدار في تلك اللحظة اصوات فيولونسيل
متباطئة . كان شخص ما يعزف «انتظار» شوبرت متحمساً بالرغم
من قلة مهارة يده ، وكانت الموسيقى العسلية تنساب في الهواء
كالشهد . فسال بازاروف معجباً :

– من هذا يا ترى ؟



- ابي .
- ابوك يعزف على الفيولونسيل ؟
- اجل .
- وكم عمره ؟
- اربعة واربعون .

قهقه بازاروف فجاة .

- ما الذي يضحكك ؟
- كيف لا ! شخص في الرابعة والاربعين ، (رب عائلة)* في الريف يعزف على الفيولونسيل !

ظل بازرواف يقهقه ، ولكن اركادي لم يبتسم هذه المرة بالرغم من كل اعجابه بصديقه ومعلمه .

١٠

مضى اسبوعان تقريباً . سارت الحياة في مارينو على منوالها : اركادي يتنعم وبازاروف يعمل . تعود الجميع في الدار على بازاروف وعلى اسلوبه المستهين والفاظه المبتسرة المتقطعة . ورفعت الكلفة بينه وبين فينيتشكا خصوصا ، حتى انها امرت ذات ليلة بايقاظه من النوم لان تشنجاً انتاب ميتيا . حضر بازاروف وعالج الطفل وقضى هناك زهاء ساعتين وهو على عادتـــه تارة ينكت وتارة يتثاءب . غير ان بافل بتروفيتش كره بازاروف بكل جوانحه . كان يعتبره متعالياً سليطاً ودهماوياً وقحاً . وخيل اليه ان بازاروف لا يحترمه ويكاد يحتقره هو بافل كيرسانوف ! وكان نيكولاي بتروفيتش يخشى «النهلستي» بعض الشيء ويرتاب في جدوى تأثيره على اركادي ، ولكنه يستمع الى احاديثه باهتمام ويحضر باهتمام ايضاً تجاربه الفيزياوية والكيمياوية . كان بازاروف قد احضر معه مكرسكوباً وصار يصرف الساعات الطوال معه . وتعلق الخدم به ايضاً ، بالرغم من انه كان يمزح معهم لا اكثر . فقد احسوا بانه ، مع ذلك ، اخ لهم وليس سيداً . كانت دونياشا تتضاحك

* في الاصل باللاتينية pater familias .

معه برغبة وتسلط عليه نظرات منحرفة ذات معنى عندما تمر به مسرعة «كالسمانة» . وحتى بيوتر ، ذلك الانسان المغالي في التباهي والمفرط في الغباء بتجاعيده المتوترة دوماً على جبهتـــه ، والذي كان احسن ما فيه هو انه ذو نظرة تنطوي على الاحترام وانه يقرأ تهجيا ، وكثيرا ما ينظف بزته بالفرشاة ، صار يبتسم وتنفرج اساريره حالما يلتفت اليه بازاروف . كان ابناء الخدم والحشم يتراكضون وراء «الدختور» كالجراء . ولم يبغضه من الخدم غير بروكوفيتش العجوز الذي يقدم له الطعام على المائدة عابسا ، وينعته «بالجزار» و«الوغد» ، ويؤكد انه ، بفوديه الطويلين ، خنزير حقيقي في دغل . وكان بروكوفيتش ، على طريقته الخاصة ، ارستقراطياً ليس ادنى من بافل بتروفيتش .

حلت افضل ايام العام ، الايام الاولى من يونيو . كان الطقس رائعاً . غير ان الكوليرا كانت تتهدد وتتوعد من بعيد ، ولكن سكان هذا اللواء اعتادوا على زيارتها . كان بازاروف ينهض مبكرا جدا ويتوجه الى مسافة كيلومترين او ثلاثة ليس لغرض التجوال – فلم يكن يطيـــق الجولات دون هدف – بل لغرض جمـــع الاعشاب والحشرات . وفي بعض الاحيان يصطحب اركادي ، فيدور بينهما ، عادة ، في طريق العودة جدل اعتاد اركادي ان يكون الخاسر فيـــه بالرغم من انه يتكلم اكثر من رفيقه .

ذات مرة تأخرا امداً طويـــلاً . فخرج نيكولاي بتروفيتش للقائهما في البستان . وعندما اقترب من التعريشة سمع فجأة خطوات الشابين السريعة وصوتيهما . كانا يسيران في الجانب الآخر من التعريشة وليس بوسعهما ان يرياه . قال اركادي :

– معرفتك بابي غير كافية .

فاختبأ نيكولاي بتروفيتش . في حين اجاب بازاروف :

– ابوك رجل طيب . ولكنه انسان متقاعد حانت نهايته .

ارهف نيكولاي بتروفيتش السمـــع . . . ولم يحر اركادي جوابا .

صرف «الانسان المتقاعد» زهاء دقيقتين بلا حراك ثم عاد الى الدار خلسة وببطء . بينما واصل بازاروف كلامه :

– رأيته اول امس وهو يقرأ اشعار بوشكين . قل له من فضلك ان ذلك لا جدوى فيه . فهو ليس غلاما : لقد حان الوقت

لترك هذه التفاهة . فمن الذي يرغب في ان يغدو رومانسياً في الآونة الراهنة ؟ ! اعطه شيئاً ما جيداً للقراءة .

– ماذا اعطيه ؟

– اظن من الافضل ان تعطيه في البداية «المادة والقوة»* لبوخنر .

– رايي من رايك . فان «المادة والقوة»** مكتوب بلغة سلسة – قال اركادي مؤيدا .

بعد ظهر ذلك اليوم حدث نيكولاي بتروفيتش اخاه وهو جالس في مكتبه :

– هكذا صرت واياك في عداد المتقاعدين ، وقد حانت نهايتنا . من يدري ؟ ربما بازاروف على حق . ولكن الشيء الوحيد الذي يؤلمني ، واقولها صراحة ، هو اني كنت آمل بان اعيش مع اركادي الآن بالذات برد ووئام ، ولكن اتضح اني بقيت متخلفاً ، بينما تقدم هو الى الامام ، ولا يمكن ان يفهم بعضنا بعضا .

فهتف بافل بتروفيتش بنفاد صبر :

– ما الذي جعله يتقدم الى الامام ؟ وبم يختلف اختلافاً كبيراً عنا ؟ كل ذلك غرسه في ذهنه هذا السنيور النهلستي . انني اكره هذا الطبيب التافه ، ويخيل الي انه دجال لا اكثر . انا واثق من انه لم ينجز في الفيزياء شيئاً بجميع ضفادعه .

– كلا ، يا اخي ، لا تقل ذلك . بازاروف ذكي وعلامة .

– ثم ان غروره شيء مقيت – قاطعه بافل بتروفيتش من جديد . فوافقه اخوه :

– اجل ، انه مغرور . يبدو ان ذلك امر لا مفر منه . ولكن الشيء الوحيد الذي لا افهمه هو اني ابذل قصارى جهدي ، على ما اظن ، كيلا اتخلف عن العصر : دبرت امور الفلاحين وانشات مزرعة حتى صار الناس في اللواء كله ينعتونني **بالاحمر** ، وانا اطالع واتعلم واحاول عموماً ان اكون على مستوى المتطلبات العصرية ، ومع ذلك يقولان ان نهايتي قد حانت . بل اني بنفسي اخذت افكر ، يا اخي ، ان نهايتي قد حانت بالفعل .

* في الاصل بالالمانية Stoff und Kraft ، كتاب العالم الفسلجي الالماني فريدريك بوخنر (١٨٢٤–١٨٩٩) – **المترجم** .

** في الاصل بالالمانية .

– لماذا ؟

– لانني عندما كنت اليوم اقرا بوشكين . . . وقعت في يدي ملحمة «الغجر» ، على ما اتذكر . . . اقترب مني اركادي في الحال ، وانتزع الكتاب بصمت وهدوء وبأسف حنون على وجهه كما لو انتزعه من طفل غرير ووضع امامي كتابا آخر بالالمانية . . . ثم ابتسم وذهب واخذ معه بوشكين .

– هكذا اذن ! واي كتاب اعطاك ؟

– ها هو .

اخرج نيكولاي بتروفيتش من الجيب الخلفي لبزته الطبعة التاسعة من كراس بوخنر بالذات .

قلّبه بافل بتروفيتش بيديه ، فقال :

– احم ! اركادي مهتم بتربيتك . ماذا ، هل حاولت ان تقراه؟

– حاولت .

– وماذا ؟

–فاما اني غبي ، واما ان هذا كله هراء . الارجح اني غبي .

– الم تنس الالمانية ؟

– لا ازال افهمها .

قلّب بافل بتروفيتش الكتاب من جديد والقى على اخيه نظرة عابسة . ولزم كلاهما الصمت . ثم قال نيكولاي بتروفيتش في محاولة لتغيير مجرى الحديث على ما يبدو :

– بالمناسبة ، تسلمت رسالة من كوليازين .

– من ماتفي ايليتش ؟

– نعم . وصل لتفتيش اللواء . واصبح من الكبار ، ويريد ، كما كتب ، ان يرانا باعتبارنا اقرباءه وقد دعانا مع اركادي الى المدينة .

– هل ستذهب ؟ – سال بافل بتروفيتش .

– كلا ، وانت ؟

– لن اذهب انا ايضا . ليس هناك ما يستحق ان نقطع اكثر من خمسين كيلومترا . (ماثيو)* يريد ان يعرض علينا امجاده ،

* في الاصل بالفرنسية Mathieu ، يقصد ماتفي كوليازين – **المترجم** .

فليذهب الى الشيطان ! يكفيه بخور اللواء وحده ، ولا داعي لنحرق نحن ايضا البخور امامه . ثم ما قيمة المستشار السري ؟ ! لو كنت واصلت هذه الخدمة الروتينية الغبية لغدوت الآن جنرالا ، زد على ذلك انني واياك متقاعدان .

– اجل ، يا اخي ، يبدو ان الوقت قد حان لاعداد التابوت وتصليب اليدين على الصدر – قال نيكولاي بتروفيتش متنهدا . فدمدم اخوه :

– كلا ، لن استسلم بهذه السرعة . امامنا بعد مناوشة مع هذا الطبيب الصعلوك ، انني اتوقع ذلك .

حدثت المناوشة في نفس ذلك اليوم اثناء احتساء شاي المساء . دخل بافل بتروفيتش غرفة الاستقبال مستعدا للمعركة . كان مستثاراً منفعلا ، لا ينتظر غير توفر الحجة للانقضاض على العدو . ولكن الحجة لم تتوفر لامد طويل . بازاروف على العموم قليل الكلام بحضور «العجوزين كيرسانوف» (هكذا نعت الاخوين) . وفي ذلك المساء كان مزاجه متعكراً ، فاخذ يحتسي الشاي ، صامتاً ، فنجاناً اثر آخر . وظل بافل بتروفيتش على احر من الجمر حتى تحققت رغبته في آخر الامر .

تطرق الحديث الى احد الاقطاعيين المجاورين . فقال بازاروف بلا مبالاة ، وكان قد تقابل معه في بطرسبورغ : – «ارستقراطي مزيف دني» . فبدأ بافل بتروفيتش كلامه وشفتاه ترتعشان :

– اسمح لي ان أسألـــك ، هل تعني كلمتا «ارستقراطي» و«دني» ، بمفهومك ، شيئاً واحداً ؟

– قلت «ارستقراطي مزيف» – اجاب بازاروف وهو يرتشف بكسل جرعة من الشاي .

– بالضبط ، ولكني اعتقد ان رايـــك هو ذاته بخصوص الارستقراطيين الحقيقيين والارستقراطيين المزيفين على حد سواء . ارى من واجبي ان اعلن لك بانني لا اشاطرك هذا الراي . واتجرأ على القول ان الجميع يعرفونني انساناً ليبرالياً محباً للتقدم ، ولذلك بالذات فانا احترم الارستقراطيين الحقيقيين . تذكر ، يا سيدي الجليل ، (رفع بازاروف بصره الى بافل بتروفيتش لدى سماعه هذه الكلمات ، فكرر هذا قوله بشدة) تذكر ، يا سيدي الجليل ، الارستقراطيين الانجليز . انهم لا يتنازلون عن ذرة من حقوقهم ،

ولذلك فهم يحترمون حقوق الآخرين ، انهم يطالبون بتنفيذ الواجبات ازاءهم ولذلك ينفذون واجباتهم هم . الارستقراطية منحت بريطانيا الحرية وهي تحافظ عليها .

فاعترض عليه بازاروف :

– سمعنا هذه الاغنية مرات عديدة . ولكن ما الذي تريـــد اثباته بهذا ؟

– اريد **بهيذا** ، يا سيدي الجليل ، (كان بافل بتروفيتش حينما يغضب يقول متعمداً «هيذا» ، «بهيذا» ، مع انه يعلم جيداً ان قواعد اللغة لا تسمح بذلك . وتجلت في هذه العادة الغريبة مخلفات تقاليد عهد الاسكندر (٦٤) . ففي الحالات النادرة التي كان كبار الشخصيات آنذاك يتكلمون فيها باللغة الام كان بعضهم يستخدم كلمة «هيذا» والبعض الاخر كلمة «هوذا» بدلاً من «هذا» ، ولسان حالهم يقول : نحن روس اقحاح ولكننا في الوقت ذاته وجهاء يجوز لنا ان نستهين بالقواعد المدرسية) اريد **بهيذا** ان اثبت انه بدون شعور الكرامة الشخصية ، وبدون احترام النفس – وهذه المشاعر متطورة لدى الارستقراطية – لا يمكن وجود اي اساس متين (لخير المجتمع) * . للكيان الاجتماعي . ان شخصية الفرد ، يا سيدي الجليل ، هي الامر الرئيسي . ويتعين على شخصيـــة الانسان ان تكون متينة كالصخرة لان كل شيء يبنى عليها . وانا اعلم جيدا بانك ، مثلا ، ترى عاداتي ، وهندامي ، واناقتي في الاخير ، امرا مضحكا ، ولكنني افعل ذلك كله بدافع من احترامي لنفسي ، وبدافع من شعوري بالواجب ، اجل ، يا سيدي ، بالواجب . انني اعيش في القرية ، في الريف ، ولكنني لا اتضع ، فانا احترم الانسان الكامن في دخيلتي .

فقال بازاروف :

– اسمح لي ، يا بافل بتروفيتش . انك تحترم نفســـك وتجلس مكتوف اليدين ، فما نفع ذلك (لخير المجتمع ؟) ** بوسعك ان لا تحترم نفسك ، مثلا ، فلا يتغير في الامر شيء .

شحب لون بافل بتروفيتش :

---

* في الاصل بالفرنسية bien public .

** في الاصل بالفرنسية .

– هذه مسالة اخرى تماماً . لست بحاجة لاوضح لك الآن لماذا اجلس مكتوف اليدين على حد تعبيرك . اكتفي بالقول ان النزعة الارستقراطية مبدأ ، ولا يستطيع ان يعيش بدون مبادئ في عصرنا الا اللااخلاقيون او الفارغون . قلت ذلك لاركادي في اليوم التالي من وصوله واكرره لك الآن . اليس كذلك يا نيكولاي ؟

هز نيكولاي بتروفيتش راسه بالايجاب ، في حين قال بازاروف :

– ارستقراطية ، لبرالية ، – ما اكثر الكلمات الاجنبية . . . العديمة الجدوى ! الروسي ليس بحاجة الى هذه الكلمات مطلقاً .

– فما الذي هو بحاجة اليه باعتقادك ؟ عندما نستمع اليك يخيل الينا اننا خارج البشرية وخارج قوانينها . معذرة ، ان منطق التاريخ يتطلب . . .

– ما نفع هذا المنطق ؟ – قال بازاروف – نحن في غنى عنه .

– كيف ؟

– بكل بساطة . انت ، على ما اعتقد ، لا تحتاج الى المنطق لكي تضع كسرة الخبز في فمك عندما تشعر بالجوع . فأين انت ، حينئذ ، من تلك التجريدات ؟

لوح بافل بتروفيتش بيده يائسا :

– انني لا افهمك بعد هذا كله . انت تهين الشعب الروسي . لا افهم كيف يمكن عدم الاعتراف بالمبادئ والاصول ! فباية قوة تعملون ؟

– قلت لك ، يا عمي ، اننا لا نعترف بالشخصيات – تدخل اركادي في الحديث . فقال بازاروف :

– نحن نعمل مدفوعين بتاثير ما نعتبره نافعاً . وفي الحال الحاضر يعتبر الرفض انفع شيء . لذا فنحن نرفض .

– كل شيء ؟

– كل شيء .

– كيف ؟ ليس الفن والشعر فقط . . . بل وحتى الـ . . . لا اتجرأ على ذكره . . . يا للفظاعة . . . (٦٥)

– كل شيء – كرر بازاروف بمنتهى الهدوء .

حدق فيه بافل بتروفيتش . فلم يكن يتوقع ذلك ، بينما احتقن

وجه اركادي من شعوره بالارتياح . فشرع نيكولاي بتروفيتش يتكلم :

– معذرة ، انكم ترفضون كل شيء ، او على الاصح تهدمون كل شيء . . . ولكن يجب البناء ايضا .

– ليس ذلك من واجبنا . ينبغي تطهير المكان اولا .

واضاف اركادي بلهجة ذات شأن :

– حالة الشعب الراهنة تتطلب ذلك . وعلينا ان ننفذ هذه المطالب ، فليس لنا حق في الانهماك بارضاء الانانية الفردية .

يبدو ان هذه العبارة الاخيرة لم تعجب بازاروف ، فقد كانت تفوح منها رائحة الفلسفة ، اي الرومانسية ، ذلك لان بازاروف نعت الفلسفة ايضا بالرومانسية ، ولكنه لم ير ضرورة لدحض راي تلميذه الفتي . بيد ان بافل بتروفيتش هتف بحماس مفاجئ :

– كلا ، ثم كلا ! لا اصدق بانكما ، ايها السيدان ، تعرفان الشعب الروسي حق المعرفة ، وتمثلان متطلباته ومطامحه ! كلا ، فالشعب الروسي ليس بالشكل الذي تتصورانه . انه يحترم قدسية التقاليد ، ويمجد الآباء ، ولا يمكن ان يعيش بدون ايمان . . .

فقاطعه بازاروف :

– لن اجادل في ذلك ، بل انني مستعد للموافقة على انك محق فيه .

– واذا كنت محقاً . . .

– ومع ذلك فهذا لا يدلل على شيء .

– بالفعل ، لا يدلل على شيء – كرر اركادي هذا القول بثقة لاعب الشطرنج الماهر الذي توقع نقلة الخصم الخطرة ، على ما يبدو ، ولكنه لم يرتبك قيد شعرة . بيد ان بافل بتروفيتش دمدم مبهوتا :

– كيف لا يدلل على شيء ؟ افلا يعني ذلك انكما ضد شعبكما ؟

– فليكن . – هتف بازاروف – عندما يهدر الرعد يتصور الشعب ان الرسول ايليا يتجول على عربته في السماء . فماذا ؟ هل عليّ ان اوافقه ؟ ثم انه روسي ، وانا ؟ ألست روسيا ؟

– كلا ، لست روسياً بعد كل ما قلته الآن ! لا استطيع ان اعتبرك روسياً .

فرد بازاروف بتفاخر وكبرياء :

– كان جدي يحرث الارض . اسأل اي فلاح من فلاحيكم هل يعتبرك انت ام يعتبرني انا قريبا له ؟ بل انك لا تجيد حتى الكلام مع الفلاح .

– اما انت فتتكلم معه وتحتقره في الوقت ذاته .

– لا ضير في ذلك اذا كان يستحق الاحتقار ! انت تلومني على اتجاهي هذا ، فمن قال لك انه ظهر لدي بالصدفة ، وان مبعثه ليس هو نفس تلك الروح الشعبية التي تدافع عنها ؟

– طبعاً ! طبعاً ! ما احوج الشعب الى النهلستيين !

– لا يحق لك ان تحكم هل هناك حاجة الى النهلستيين ام لا . ثم انك تعتبر نفسك ايضا شخصاً نافعاً .

– يـــا سادة ، ارجوكـــم ، يا سادة ، لا تتعرضوا للاشخاص ! –هتف نيكولاي بتروفيتش وهمّ بالنهوض . الا ان بافل بتروفيتش ابتسم واضعا يده على كتف اخيه ، فحمله على الجلوس من جديد . وقال له :

– لا تقلق . فانا لن انحدر الى ذلك بحكم الشعور بالكرامة التي يسخر منها ، بقساوة ، السيد . . . السيد الطبيب . معذرة – واصل كلامه مخاطبا بازاروف من جديد – ربما تظن ان مذهبك هذا جديد ، اليس كذلك ؟ عبثا تتصوره على هذا النحو . فالمادية التي تبشر بها كانت على الالسنة اكثر من مرة ، ولكن بطلانها كان يتضح على الدوام . . .

– وها هي كلمة اجنبية * اخرى ! – قاطعه بازاروف وبدا عليه الغضب فاكتسى وجهه بلون نحاسي خشن – نحن لا نبشر بشيء ، ذلك ليس من عاداتنا .

– فما الذي تفعلونه ؟

– اليكم ما نفعله : في السابق ، في الماضي غير البعيد ، كنا نقول ان موظفينا يستلمون الرشاوى ، وانه ليست لدينا لا طرق ولا تجارة ولا قضاء عادل . . .

– اجل ، اجل ، انكم نقاد متشددون ، هكذا يسمى ذلك على ما اظن . انا موافق على الكثير من انتقاداتكم ، ولكن . . .

* يقصد مصطلح «المادية» الذي هو بالروسية ايضا لاتيني الاصـل (materialism) – **المترجم** .

– ثم ادركنا ان الثرثرة ، الثرثرة وحدها عن عللنا من اسهل الامور ، وان ذلك يؤدي الى الابتذال والتحذلق فقط . ورأينا كذلك ان النابهين من بيننا ، اولئك الذين ينعتون بالتقدميين والنقاد المتشددين ، لا يصلحون لشيء ، واننا غارقون في السخافات ، واننا نتشدق في الكلام عن الفن والابداع العفوي ، والنزعـــة البرلمانية والمحاماة وغير ذلك مما لا يعرفه الا الشيطان وحده ، في حين ان المطلوب هو الخبز الكفاف . الخرافات المرهقة تخنقنا ، وشركاتنا المساهمة تفلس وتنهار لسبب واحد هو قلة الناس النزيهين ، والحرية التي تجهد الحكومة في تأمينها لا تكاد تعود علينا بنفع لان فلاحنا مستعد لان يسرق نفسه بنفسه لا لشيء الا ليتجرع المسكرات في الحانة .

فقاطعه بافل بتروفيتش :

– لذا اقتنعتم بهذا كله وقررتم ان لا تباشروا بأي عمـــل جدي .

– قررنا ان لا نباشر باي عمل – كرر بازاروف متجهما .

لقد حزن لنفسه فجأة ، فما الداعي للصراحـــة امام هذا الاقطاعي . . .

– ما عدا الشتم والسباب ، اليس كذلك ؟

– ما عدا الشتم والسباب . . .

– وهذا يسمى نهلستية ؟

– وهذا يسمى نهلستية – كرر بازاروف بتسلط شديد هذه المرة .

اغمض بافل بتروفيتش جفنيه بعض الشيء وقال بصوت بدا غريبا لهدوئه :

– هكذا اذن ، يعني ان النهلستية دواء لكل داء . وانكم مخلصونا وابطالنا . ولكن ماذا فعل الآخرون ، النقاد الاخرون مثلا ، ليستحقوا ملامتكم ؟ افلا تثرثرون انتم ايضا كالآخرين ؟

فتمتم بازاروف :

– ربما لدينا خطايا اخرى ، ولكن ليست هذه الخطيئة منها .

– فماذا اذن ؟ هل تفعلون شيئا يا ترى ؟ او هل تنوون فعل شيء ؟

لم يجبه بازاروف . فارتعش بافل بتروفيتش منفعلا ، ولكنه

سيطر على نفسه في الحال ثم تابع كلامه :

– احم ! انهم يفعلون ، يهدمون . . . ولكن كيف يجوز الهدم دون معرفة الغرض منه ؟

– اننا نهدم ، لاننا قوة – قال اركادي .

فالقى بافل بتروفيتش نظرة على ابن اخيه وابتسم ساخرا .

فكرر اركادي وهو يعدّل من قامته :

– اجل نحن قوة لا تطاطىء راسها لاحد .

– مسكين ! – جار بافل بتروفيتش ، فلم يعد يطيق المزيد ابداً – هلا فكرت ما فائدة مواعظك التافهة هذه في روسيا ! كلا ، حتى الملاك يمكن ان يضيق ذرعا بذلك ! قوة ! القوة موجودة لدى القلموقي * المتوحش ولدى المغولي ايضا ، فما حاجتنا اليها ؟ اننا نعتز بالحضارة ، اجل ، اجل يا سيدي الجليل ، نعتز بثمارها . فلا تقل لي ان هذه الثمار ضئيلة : ان (اردأ رسام) ** واسوأ عازف من الذين يتسلمون خمسة كوبيكات لقاء الحفلة الواحدة انما هما اكثر نفعا منكم ، لانهما يمثلان الحضارة ، ولا يمثلان القوة المغولية الفظة ! تتصورون انفسكم اناسا تقدميين ، بينما لا يعوزكم غير الجلوس في خيمة القلموق ! قوة ! تذكروا اخيرا ، ايها السادة الاقوياء ، ان عددكم لا يزيد على اصابع اليد ، بينما يشكل اولئك ملايين من الذين سيسحقونكم ولن يسمحوا لكم ان تدوسوا باقدامكم اقدس اقداسهم !

فقال بازاروف : – اذا كانوا سيسحقوننا فليكن . ولكن تلك مسالة فيها نظر . ثم ان عددنا ليس بالقليل ، كما تتصور .

– كيف ؟ هل تفكرون بلا مزاح ان تتغلبوا على شعب بكامله ؟

– انت تعرف ان موسكو احترقت من شمعة بخسة – اجاب بازاروف .

– هكذا اذن . من الكبرياء التي تكاد تشبه كبرياء الشيطان الى التهكم . ذلك ما يولع به الشباب ، وذلك ما تنصاع له افئدة الغلمان غير المحنكة ! انظر ، ها هو احدهم يجلس قربك ، انه يكاد يصلي لك ، فمتع انظارك (اشاح اركادي بوجهه الذي تجهم) .

* القلموق قبائل رعوية من اصل مغولي . يعيش الشعب القلموقي حاليا في جمهورية كلميكيا السوفييتية ذات الحكم الذاتي – المترجم .

** في الاصل بالفرنسية un barbouilleur .

ثم ان هذه العدوى قد انتشرت بعيداً . قيل لي ان رسامينا في روما لا يترددون على الفاتيكان مطلقا (٦٦) . ويكادون يعتبرون روفائيل احمق ، ويعللون ذلك بكونه شخصية بارزة ، بينما هم عاجزون عقيمون حتى القرف ولا يقودهم خيالهم الى ابعد من «الفتاة عند النافورة» مهما بذلوا من جهد ! ثم ان الفتاة تلك مرسومة باقبح شكل . انهم رائعون برأيك ، اليس كذلك ؟

فاعترض بازاروف قائلا :

– برايي ان روفائيل لا يساوي شروى نقير ، وانهم ليسوا افضل منه .

– مرحى ! مرحى ! اسمع يا اركادي . . . على هذا النحو ينبغي للشباب العصريين ان يتكلموا ! فكيف لا يقتدون بكم ، يا ترى ؟ في السابق كان الشباب مضطرين الى التعلم ، فلم يكونوا راغبين في ان يذيع صيتهم كجهلة ، ولذا كانوا ، طبعا ، يجدّون ويجتهدون . اما الآن فيكفيهم ان يقولوا ان كل شيء في العالم تافه ، وانتهى الامر ! لقد سر الشباب وفرحوا . وبالفعل ، في السابق كانوا بلهاء لا غير ، اما الآن فقد اصبحوا ، على حين غرة ، نهلستيين .

– ها قد خانك شعور الكرامة الشخصية المحمود – قال بازاروف ببرود ، في حين اشتاط اركادي غضبا وبرقت عيناه – لقد تمادينا في الجدال الى حد بعيد . . . ويخيل اليّ ان من الافضل وقفه . – ثم اضاف ناهضا – ساكون على استعداد للاتفاق معك حينما تقدم لي ولو مثالا واحدا في حياتنا الراهنة ، العائلية او الاجتماعية ، لا يستحق الرفض بلا رحمة .

فهتف بافل بتروفيتش :

– ساقدم لك الملايين من هذه الامثلة ، الملايين ! لناخذ على اقل تقدير ، المشاعة .

التوت شفتا بازاروف عن ابتسامة ساخرة باردة :

– بخصوص المشاعة ، الافضل ان تتكلم مع اخيك ، فقد جرب عمليا ، على ما يبدو ، ما هي المشاعة وما هو التكافل وما هو الامتناع عن تعاطي المسكرات وهلمجرا .

– والعائلة ، العائلة ، اخيرا ، بالشكل الذي هي عليه لدى فلاحينا ! – صاح بافل بتروفيتش .

– وهذه المسألة ايضا الافضل لك ، على ما اعتقد ، ان لا تتناولها بالتفصيل . أفلم تسمع بالذين يجامعون كناتهم ؟ خذ بنصيحتي ، يا بافل بتروفيتش ، امهل نفسك يومين ، حاليا من المستبعد ان تجد ولو مثالاً واحداً . تفحص كل فئات مجتمعنا وفكر جيداً في كل واحدة منها ، اما انا واركادي فسوف . . .

– . . . نسخر من كل شيء ، – قاطعه بافل بتروفيتش .

– كلا ، سنشرح الضفادع . فلنذهب يا اركادي ، الى اللقاء ايها السادة !

خرج الصديقان وظل الاخوان وحيدين ، فتطلعا الى بعضهما البعض اولا ، ثم قال بافل بتروفيتش :

– هؤلاء هم شباب اليوم ! هؤلاء ورثتنا !

– ورثتنا – كرر نيكولاي بتروفيتش بحسرة وكآبة . ظل ، طوال الجدال ، على احر من الجمر ، وكان يلقي على اركادي خلسة نظرات ممضة – هل تدري ماذا تذكرت ، يا اخي ؟ ذات مرة اختلفت مع المرحومة امنا ، فكانت تصيح ولا تريد ان تستمع الي . . . وقلت لها في آخر الامر انها لا تستطيع ان تفهمني واننا ننتمي الى جيلين مختلفين . لقد اغاظها هذا القول اشد الغيظ . ففكرت انا : ما العمل ؟ الحبة مرة ولكن يجب ابتلاعها . وها هو دورنا قد حان . فيمكن لورثتنا ان يقولوا لنا : لستم من جيلنا فابتلعوا الحبة المرة .

– انك طيب القلب ومتواضع اكثر من اللازم – اعترض عليه بافل بتروفيتش – فانا ، على العكس ، واثق من انني واياك محقان اكثر بكثير من هذين السيدين الصغيرين ، بالرغم من اننا ربما نتكلم بلغة عتيقة بعض الشيء ولا نمتلك مثل تلك الغطرسة الجسورة . . . ما اشد كبرياء الشباب الراهن ! فان سألت احدهم : اي نبيذ تريد ، حلوا ام مزاً ؟ يجيبك بصوت جهير وبمسحة من الخيلاء على وجهه وكأنما الكون كله يتطلع اليه في تلك اللحظة : «اعتدت على تفضيل النبيذ الحلو !» . . .

– هل تريدون المزيد من الشاي ؟ – سألت فينيتشكا وقد دست رأسها في شق الباب ، اذ لم تكن تجرأ على دخول غرفة الاستقبال طالما تتعالى فيها اصوات المتجادلين .

– كلا ، يمكنك ان تأمري بنقل السماور – اجاب نيكولاي

بتروفيتش ونهض للقائها . فقال له بافل بتروفيتش على نحو متقطع : (عم مساء) * ، وذهب الى مكتبه .

١١

بعد نصف ساعة توجه نيكولاي بتروفيتش الى تعريشته المحببة في البستان . واستولت عليه افكار حزينة . فقد تحسس بوضوح لاول مرة انفصال ابنه عنه . وتوقع ان الهوة بينهما ستتسع من يوم لآخر . فلا جدوى من قضائه اياما كاملة في شتاءات بطرسبورغ وهو يطالع احدث المؤلفات ، ومن العبث انه كان ينصت الى احاديث الشبان ويفرح عندما يتسنى له ان يدس كلمة في حوارهم الفوار . وفكر في نفسه : «اخي يقول اننا محقان ، واذا تخلينا عن اي اثر للغرور ، فانا شخصيا ارى انهما ابعد عن الحقيقة منا ، ولكنني في الوقت ذاته اشعر بان لديهما ما ليس لدينا ، وبانهما متفوقان علينا بشيء ما . . . الفتوة ؟ كلا : ليس الفتوة وحدها . أفلا يكمن تفوقهما في ان آثار الاقطاعية عندهما اقل مما عندنا ؟» .

طأطأ نيكولاي بتروفيتش رأسه ومسح وجهه بيده ، وفكر من جديد :

«ولكن كيف يمكن رفض الشعر ؟ وعدم الاحساس بالفن والطبيعة ؟ . . .»

تطلع الى ما حواليه وكأنما يريد ان يفهم كيف يمكن عدم الاحساس بالطبيعة . حل المساء ، واختفت الشمس وراء حرج الحور المنبسط على بعد نصف كيلومتر من البستان : كانت ظلاله تمتد بلا نهاية عبر الحقول الساكنة . ومر فلاح على ظهر فرس بيضاء يسير خببا في الدرب الضيق المعتم على طول الحرج . كان مرئيا كله بوضوح ، كله حتى الرقعة على كتفه بالرغم من الظلال التي تلفعه . وكانت قوائم الفرس قد لاحت بوضوح يبعث على الانشراح . كانت اشعة الشمس بدورها تخترق الحرج وتنساب عبر الاجمة فتغمر جذوع

* في الاصل بالفرنسية bon soir .

الحور بضوء داقٍ جعلها شبيهة بجذوع الصنوبر وجعل لون اوراقها نيليا فاتحا . وتشهق فوقها سماء زرقاء باهتة خضبها الشفق بلمسات خفيفة . كانت سنونوات تحلق عاليا ، وقد هدأ النسيم كليا ، واخذت نحلات متخلفة تئز بكسل وخمول بين ازهار الليلاك . وكان البرغش يتزاحم كعمود من الدخان على غصن منعزل اشراب بعيدا . «ما اروع ذلك ، يا الهي !» – فكر نيكولاي بتروفيتش وكاد ينشد اشعاره المحببة ، ولكنه تذكر اركادي وكراس «المادة والقوة»* فلزم الصمت وظل جالسا تتلاعب به الافكار اليتيمة على نحو محزن ومفرح معا . كان يحب الاحلام ، فقد طورت الحياة الريفية فيه القدرة على التمتع بالاحلام . فهل مر زمن طويل عليه عندما كان يحلم على هذا النحو وهو ينتظر عودة ابنه في الخان ؟ بيد ان تغيرا جرى منذ ذاك ، وتحددت العلاقات التي لم تكن واضحة آنذاك . . . ولكن على اي نحو ؟ ! لاحت امامه من جديد صورة المرحومة زوجته ، ليس بالشكل الذي عرفها فيه طوال سنين عديدة ، ربة بيت شاطرة طيبة ، بل فتاة يافعة ذات قوام نحيف ونظرة متفحصة عذراء وجديلة مفتولة بشدة فوق عنق طفولي . تذكر كيف رآها للمرة الاولى . كان ، وقتها ، لا يزال طالبا . صادفها على سلم المنزل الذي يقيم فيه . اصطدم بها صدفة ، فالتفت ليعتذر منها ولكنه لم يستطع الا ان يدمدم بالفرنسية : (معذرة يا سيدي)** في حين طاطات هي راسها وابتسمت ابتسامة ساخرة ثم ركضت فجاة كما لو كانت خائفة . وفي منعطف السلم القت عليه نظرة خاطفة واكتسى محياها بمظهر الجد واصطبغ بالاحمرار . وفيما بعد بدات اولى الزيارات الخجولة وانصاف الكلمات والابتسامات المبتورة والحيرة والكآبة والانفعالات ، واخيرا تلك الفرحة اللاهثة . . . اين تلاشى ذلك كله ؟ تزوج منها وكان سعيدا مثل القليلين في المعمورة . . . وفكر : «لم لا تعيش تلك اللحظات الحلوة الاولى عيشة ابدية لا تموت ؟»

لم يحاول ان يوضح لنفسه فكرته هذه ، ولكنه احس بانه راغب في ان يمسك بزمن المسرات ذاك بشيء ما اقوى من الذاكرة ،

* في الاصل بالالمانية . stoff und Kraft
** في الاصل بالفرنسية . Pardon, monsieur

وكان يريد ان يلمس من جديد قوام زوجته ماريا ويتحسس دفاها وانفاسها ، وخيل اليه وكأنها قد اطلت عليه . . .

– يا نيكولاي بتروفيتش ، اين انتم ؟ – صدح على مقربة منه صوت فينيتشكا .

فانتفض . ولم يشعر لا بالالم ولا بالخجل . . . لم يكن ليتقبل حتى فكرة المقارنة بين زوجته وفينيتشكا ، ولكنه اسف لانها عزمت على البحث عنه . فقد ذكره صوتها حالا بشعره الاشيب وشيخوخته وحاضره . . .

العالم السحري الذي كاد يلجه وكاد يظهر من امواج الماضي الضبابية اهتز فتبدد .

– انا هنا . سأحضر ، اذهبي – اجابها ، وتبادرت الى ذهنه فكرة بخصوص لهجة الجواب : «تلك هي آثار الاقطاعية» . نظرت فينيتشكا اليه في التعريشة صامتة ثم اختفت ، في حين لاحظ هو مندهشا ان الليل قد حل منذ ان غرق في احلامه . كان كل شيء حواليه قد اظلم وسكن ، ولاح محيا فينيتشكا امامه شاحباً ضئيلاً . نهض ليعود الى الدار ، ولكن فؤاده المترجرج ما كان ليهدأ بين جوانحه ، فاخذ يتمشى على مهل في البستان ، وهو يتأمل في الارض تارة ، وتارة يرفع بصره الى السماء المرصعة بنجوم راحت تومض لبعضها البعض . تمشى طويلا حتى كاد يكل ، في حين لم يخفت في دخيلته ذلك القلق الحزين التواق الغامض . ما كان اشد ضحك بازاروف عليه لو علم بما اعتمل في فؤاده آنذاك ! وحتى اركادي ربما ادانه على ذلك ! لقد انهمرت الدموع ، دموع بلا سبب ، من عينيه هو المهندس الزراعي والسيد الذي بلغ الرابعة والاربعين . ان ذلك افدح بمائة مرة من الفيولونسيل .

واصل نيكولاي بتروفيتش سيره ولم يستطع ان يشد العزم على دخول الدار ، ذلك العش المريح الوادع الذي يتطلع اليه بترحاب من جميع نوافذه المضاءة . كان عاجزا عن مفارقة الظلمة والبستان والاحساس بالنسيم العليل يداعب وجهه ، وذلك الحزن والقلق . . .

في منتصف الدرب لاقى بافل بتروفيتش الذي ساله :

– ماذا بك ؟ انك شاحب كالشبح ، انت متوعك ، فلم لا ترقد ؟

اوضح له نيكولاي بتروفيتش بايجاز حالته النفسية وانصرف . بلغ بافل بتروفيتش آخر البستان ، واخذ يتأمل . ثم رفع بصره هو ايضا الى السماء . لكن عينيه السوداوين الرائعتين لم تعكسا شيئا غير ضوء النجوم . فهو لم يولد رومانسيا ، ولم تكن روحه الجافة المتلهفة باناقة والنفورة من البشر على النمط الفرنسي لتجيد الانصياع الى الاحلام . . .

– هل تعلم ، يا اركادي ؟ تبادرت الى ذهني فكرة رائعة – قال بازاروف في تلك الليلة – ذكر ابوك اليوم انه تسلم دعوة من قريبك الوجيه . وانه لا ينوي السفر اليه ، فهلا سافرنا واياك الى مدينة (***) ، فذاك السيد يدعوك انت ايضا . الا ترى كيف تحول الطقس هنا ؟ فلنرتحل ولنر المدينة . سنصرف خمسة ايام او ستة وكفى !

– وهل ستعود الينا بعد ذلك ؟

– كلا . اريد ان اسافر الى والدي . فهو يقيم ، كما تعلم ، على مسافة ثلاثين كيلومتراً من تلك المدينة . لم اره من زمان ، وكذلك امي . ينبغي ان ازيل هم العجوزين . فهما طيبان ، وخصوصا والدي المرح للغاية . وانا وحيدهما .

– وهل ستبقى عندهما طويلا ؟

– لا اعتقد . ربما سيكون ذلك مملا .

– وهل ستمر بنا في طريق العودة ؟

– لا ادري . . . سأفكر في ذلك . اتفقنا ؟ هل سنسافر ؟

– اجل – قال اركادي متكاسلا .

كان قد سر في دخيلته كل السرور لاقتراح صديقه ، ولكنه راى ان من واجبه اخفاء مشاعره . فما جدوى كونه نهلستيا اذن ؟ !

في اليوم التالي سافر مع بازاروف الى مدينة (***) . اسف الشباب في مارينو لسفرهما . حتى ان دونياشا اسقطت دمعة . الا ان «العجوزين» تنفسا الصعداء .

١٢

يدير المدينة التي توجه اليها صاحبانا متصرف من الشباب ، تقدمي ومتعسف في الوقت نفسه ، كما يصادف كثيراً في روسيا . فقد استطاع اثناء العام الاول من حكمه ان يتشاجر ليس فقط مع زعيم نبلاء اللواء ، يوزباشي الفرسان المتقاعد المضياف وصاحب حقل تربية الجياد ، بل ومع موظفيه هو . واتسع نطاق النزاعات التي نشبت بهذا الخصوص حتى ان الوزارة في بطرسبورغ رأت في آخر الامر ان ترسل شخصاً مخولاً كلفته بالنظر في القضية هناك . ووقع اختيار المسؤولين على ماتفي ايليتش كوليازين ، وهو ابن كوليازين الذي رعى الاخوين كيرسانوف في غابر الزمان . وكان هو ايضاً من «الشباب» ، اي انه بلغ الاربعين مؤخراً ، لكنه اصبح من رجالات الدولة او يكاد ، وكانت على صدره نجمتان . الا ان احدى النجمتين اجنبية وليست من عداد الاوسمة السامية . كان يعتبر من دعاة التقدم شأنه شأن المتصرف الذي وصل للبت في امره ، ولم يكن يشبه السواد الاعظم من الموظفين الكبار بعد ان اصبح واحدا منهم . كان مغرورا اشد الغرور ، وكان زهوه بلا حدود ، بيد انه كان متساهلا متسامحا بسيط العادات ، ذا نظرة تنم عن الرضا . وهو يضحك من كل قلبه حتى كاد يشتهر في بادئ الامر بانه «شخص طيب جداً» . ولكنه يجيد في الحالات الهامة ذر الرماد في العيون ، كما يقال . وعندئذ كان يقول : «الحيوية ضرورية . (فالحيوية هي الخاصية الاولى لرجل الدولة) *» . وفيما عدا ذلك يظل مخدوعا عادة ، فيمتطيه اي موظف لديه شيء من الخبرة . كان ماتفي ايليتش يكن اعمق الاحترام لغيزو (٦٧) . ويحاول اقناع الجميع بانه لا ينتمي الى الروتينيين والبيروقراطيين المتخلفين ، وانه لا يدع اي مظهر هام للحياة الاجتماعية دون ان يلتفت اليه . . . كان مطلعا خير اطلاع على امثال هذه الكلمات . حتى انه كان يتابع ، ولو بتعال واستهانة ، تطور الادب الحديث ، كما يفعل الرجل عندما

* في الاصل بالفرنسية L'energie est la premiére qualité d'un homme d'état.

ينضم احيانا الى موكب الصبيان الذي يصادفه في الطريق . لم يكن ماتفي ايليتش ، في الواقع ، يختلف كثيرا عن رجالات الدولة في عصر الاسكندر (٦٨) ، اولئك الذين يطالعون في الصباح صفحة من كونديلياك (٦٩) استعداداً لحضور امسية عند السيدة سفيتشينا (٧٠) التي كانت تقطن بطرسبورغ آنذاك ، سوى ان اساليبه هي اساليب اخرى اكثر حداثة . كان من افراد الحاشية اللبقين وكان محتالاً جداً ولا شيء اكثر من ذلك . فلم يكن يعرف شيئا في شؤون الخدمة ولم يكن يمتلك حصافة ، لكنه يجيد تدبير اموره الشخصية ولا يستطيع احد ان يجاريه في ذلك ، وهذا هو الامر الرئيسي .

استقبل ماتفي ايليتش اركادي بطيبة القلب الملازمة للموظف الكبير المستنير ، بل وبشيء من المداعبة . لكنه استغرب عندما علم ان قريبيه اللذين دعاهما ظلا في القرية . فقال : «ابوك غريب الاطوار دوما» . واخذ ينش بشراريب ردائـــه المنزلي المخملي الرائع ، ثم توجه الى موظف شاب في بزة مهندمة على افضل ما يكون وهتف به فجاة وبمسحة من الاهتمام : «ماذا ؟» . اعتدل الشاب الذي التصقت شفتاه ببعضهما من طول السكوت ونظر الى رئيسه متحيراً . الا ان ماتفي ايليتش صرف نظره عن مرؤوسه بعد ان حيره . ان موظفينا الكبار يحبون على العموم تحيير مرؤوسيهم ، ثم ان الاساليب التي يلتجئون اليها لبلوغ هذا الهدف متنوعة للغاية . وبالمناسبة فان الاسلوب التالي يحظى بانتشار واسع ، اذ هو ، كما يقول الانجليز ، الاسلوب (المفضل) * : يكف الموظف الكبير فجاة عن فهـــم ابسط الكلمات فيتظاهر بالصمم . ويسأل ، مثلا ، اي يوم في الاسبوع الآن ؟

فيجاب باكمل قدر من الاحترام : «اليوم هو الجمعة يا صاحب المعالي» .

– آ ؟ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ – يكرر الموظف اسئلته على نحو متوتر .

– اليوم هو الجمعة ، يا صاحب المعالي .

–كيف ؟ ماذا ؟ ما هي الجمعة ؟ اية جمعة ؟

* في الاصل بالانجليزية « is quite a favourite » .

– الجمعة ، يا صاحب المعالي ، يوم من ايام الاسبوع .

– ماذا ؟ هل تتجرأ على تعليمي ؟

كان ماتفي ايليتش ، مع ذلك ، موظفا كبيرا ، بالرغم من انه يعتبر ليبراليا متحررا . قال لاركادي :

– انصحك ، يا صديقي ، ان تقوم بزيارة الى المتصرف . انت تعرف اني انصحك بذلك ليس لانني متمسك بالمفاهيم القديمة حول ضرورة التشريفات لدى السلطات ، بل لمجرد ان المتصرف انسان مستقيم ، زد على ذلك انك ربما ترغب في التعرف على المجتمع هنا . . . فلست دبا على ما اعتقد ؟ اما هو فسوف يقيم حفلة ساهرة كبرى بعد غد .

فسأل اركادي :

– هل ستحضر الحفلة انت ؟

– انه يقيمها من اجلي – قال ماتفي ايليتش بما يكاد يشبه الاسف . – هل تجيد الرقص ؟

– على نحو سيئ .

– شيء مؤسف . فهنا توجد فاتنات ، ثم ان من العيب على الشاب ان لا يجيد الرقص . اقول ذلك ايضا ليس بحكم المفاهيم القديمة ، فانا لا اعتقد ابدا بان العقل ينبغي ان يكون في الرجلين ، بيد ان البايرونية المقلدة مضحكة ، (لقد ولى زمانها) * .

– ليس ذلك ، يا عمي العزيز ، بسبب البايرونية . . .

– ساعرفك على سيدات المدينة ، واحميك تحت جناحي ، حيث ستجد الدفء ، اليس كذلك ؟ – قاطعه ماتفي ايليتش وقهقه بخيلاء .

دخل الخادم واعلن عن وصول مدير الخزينة ، وهو شيخ ذو عينين عسليتين وشفتين متجعدتين ، يهوى الطبيعة الى اقصى حد ، وخصوصا في ايام الصيف حيث «تأخذ كل نحَيْلة رشفة من كل زهَيْرة» على حد تعبيره . . .

عاد اركادي ، فوجد بازاروف في الخان الذي نزلاه . صرف وقتا طويلا في اقناعه بزيارة المتصرف ، حتى قال بازاروف اخيرا : «ما

* في الاصل بالفرنسية « il a fait son temps » .

في الامر حيلة ! ولا مجال للتراجع عما اقدمنا عليه ! طالما وصلنا لمشاهدة الاقطاعيين فلنشاهدهم !» . استقبل المتصرف الشابين بترحاب ولكنه لم يشر عليهما بالجلوس ولم يجلس هو الآخر . كان على الدوام في عجلة من امره . ففي الصباح يرتدي بدلته الرسمية وربطة عنق مشدودة على نحو خانق ، ولا يكمل طعامه وشرابه ، بل يصدر اوامره طوال الوقت . وكان سكان اللواء يلمحون عادة الى شخصيته الضعيفة . لقد دعــا هذا المتصرف كيرسانوف وبازاروف لحضور الحفلة الساهرة التي سيقيمها ، ولكنه بعد دقيقتين دعاهما من جديد لحضور نفس الحفلة وخيل اليه هذه المرة انهما شقيقان فسماهما بالاخوين كيساروف ، وليس كيرسانوف .

كانا عائدين الى الخان من المتصرف عندما قفز فجاة من عربة خفيفة قربهما شخص قصير القامة في سترة مجرية مما يرتديه انصار النزعة السلافية واندفع نحو بازاروف هاتفا : «يفغيني فاسيليفيتش !» .

فقال بازاروف مواصلا سيره على الرصيف :

— آ ! هذا انت ، يا سيد سيتنيكوف ، يا للمصادفة !

— تصور ، مصادفة بحت . — اجاب ذاك والتفت الى العربة فلوح بيده للحوذي خمس مرات وصاح : — هيا اتبعنا ، هيا ! — ثم واصل كلامه قافزا عبر الساقية : — رجاني ابي . . . فلديه هنا تجارة . . . علمت اليوم بوصولكمـــا فعرجت عليكما . . . (وبالفعل عندما عاد الصديقان الى غرفتهما في الخان وجدا هناك بطاقة ذات زوايا معقوفة وعليها اسم سيتنيكوف بالفرنسية على جهة وبخط سلافي فني على الجهة الثانية) . آمل انكما لستما عائدين من المتصرف !

— لا تامل في ذلك . فنحن عائدان منه بالذات .

— اها ! سأذهب اليه انا ايضا في هذه الحالة . . . يا يفغيني فاسيليفيتش ، عرفني على صديـ . . . على سيادته . . .

— سيتنيكوف ، كيرسانوف — دمدم بازاروف دون ان يتوقف . فقال سيتنيكوف مبتسما وهو يسير على نحو جانبي ويشد باستعجال قفازيه الانيقين للغاية :

— مسرور جدا ، سمعت الكثير جدا عن . . . انا من قدامى

معارف يفغيني فاسيليفيتش ، ويمكنني القول بانني تلميذه . وانا مدين له بتحولي الفكري . . .

تطلع اركادي الى تلميذ بازاروف . كانت مسحة من القلق والبلادة تغطي الملامح الضئيلة والمستساغة في الوقت ذاته على وجهه الحليق . كانت عينان غائرتان غير واسعتين تنظران بحدة واضطراب ، وكان هو يضحك باضطراب ايضا ، بقهقهة متقطعة كما لو كانت متخشبة . ثم واصل كلامه :

— هل تصدقني ؟ عندما قال يفغيني فاسيليفيتش بحضوري لاول مرة انه يجب عدم الاعتراف بالشخصية احسست باعجاب لا حد له . . . وكانما تفتحت ابصاري ! وفكرت في نفسي : «ها قد عثرت آخر الامر على انسان !» . وبالمناسبة ينبغي لك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، ان تزور من كل بد واحدة من السيدات هنا ، وهي قادرة كليا على ان تفهمك ، وستكون زيارتك لها عيدا حقيقيا . اعتقد انك سمعت بها ، اليس كذلك ؟

— من هي ؟ — سال بازاروف دون اكتراث .

— (ايدوكسي) * ، يفدوكسيا كوكشينا . انسانة رائعة ، (متحررة) ** بكل معنى الكلمة ، امراة تقدمية . على فكرة ، فلنذهب اليها سوية . انها تعيش على مقربة من هنا . وسوف نتناول الفطور عندها . فانتما لم تفطرا بعد ، اليس كذلك ؟

— لم نفطر بعد .

— حسنا . لعلمكما انها افترقت عن زوجها ، ولم تعد مرتبطة باحد .

فقاطعه بازاروف :

— هل هي مليحة ؟

— لـ . . . لا اعتقد .

— يا للشيطان ! فلاي غرض تدعونا لزيارتها ؟

— يا لك من منكت . . . ستسقينا قنينة شمبانيا . افليس ذلك كافيا ؟

— هكذا اذن ! يبدو انك انسان عملي حقا . وبالمناسبة ، الا يزال والدك يتاجر بالمسكرات ؟

* في الاصل بالفرنسية Eudoxie .

** في الاصل بالفرنسية émancipée .

– لا يزال – اجاب سيتنيكوف بعجلـــة وقهقه بصرير كالصاصاة – ماذا ؟ هل تذهبان اليها ؟

– لا ادري ، في الواقع .

– اردت ان تشاهد الناس ، فاذهب – قال اركادي بصوت كالهمس . فسال سيتنيكوف :

– وانت ، يا سيد كيرسانوف ؟ تفضل انت ايضا ، فلا يمكن الذهاب بدونك .

– كيف لنا ان ننهال عليها دفعة واحدة ؟

– لا باس . كوكشينا انسانة رائعة .

– وهل ستقدم لنا قنينـــة شمبانيا ؟ – سال بازاروف . فاجابه سيتنيكوف :

– ثلاث قنان . انني اتعهد .

– بماذا ؟

– براسي .

– الافضل باموال ابيك . ومع ذلك فلنذهب .

١٣

الدار الصغيرة التي تسكنها افدوتيا نيكيتيشنا (او يفدوكسيا) كوكشينا من دور النبلاء المبنية على الطراز المسكوبي ، وهي تقع في احد الشوارع التي احترقت مؤخرا بمدينة (***) . ومن المعروف ان مدن الالوية عندنا تحترق مرة كل خمسة اعوام . لاح فوق الرقعة المثبتة بصورة مائلة على الباب مقبض جرس صغير . وفي الدهليز استقبلت القادمين امراة ترتدي قلنسوة خفيفة . ربما هي وصيفة وربما هي رفيقة لصاحبة الدار ، مما يدل على المطامع التقدمية لهذه الاخيرة . وسالها سيتنيكوف : افدوتيا نيكيتيشنا موجودة ؟ فتعالى صوت رفيع من الغرفة المجاورة :

– هذا انت يا (فكتور) * ؟ ادخل .

وفي الحال اختفت المراة ذات القلنسوة .

* في الاصل بالفرنسية Victor .

– لست لوحدي – قال سيتنيكوف وهو يخلع سترتـــه المجرية الطويلة بحيوية ، وقد ظهر تحتها شيء يشبه حشية التدفئة او البطانة الفضفاضة . ثم القى نظرة متحمسة على اركادي وبازاروف ، في حين اجاب الصوت :

– لا فرق . (ادخلوا) * .

دخل الشبان غرفة تشبه مكتب العمل اكثر مما تشبه غرفة الاستقبال . كانت الاوراق والرسائل واعداد سميكة من المجلات الروسية ، واغلبها غير مفتوح ، منتشرة على الموائد المغبرة ، وقد القيت في جميع الانحاء اعقاب السجائر البيضاء . وعلى اريكة جلدية جلست في وضع يشبه الاضطجاع امراة لا تزال في عمر الشباب ، وهي شقراء مشعثة بعض الشيء ، في بدلة حريرية ليست على قدر من الاناقة ، واساور كبيرة تطوق يديها القصيرتين ومنديل مخرم يلف راسها . نهضت من الاريكة والقت على كتفيها دون عناية معطفاً مخملياً مبطناً بفرو القاقم العتيق المائل الى الاصفرار وقالت بكسل : «مرحباً يا (فكتور)» ** وصافحت سيتنيكوف ، بينما قال هو على نحو متقطع مقلداً بازاروف :

– بازاروف ، كيرسانوف .

– على الرحب والسعة – اجابت كوكشينا ، ثم ركزت على بازاروف نظرات من عينيها المستديرتين اللتين لاح بينهما انف محمر صغير ، اخنس كاليتيم ، واضافت قائلة : – انا اعرفك – وصافحته هو الآخر .

تقزز بازاروف . لم يكن في قوام هذه المراة المتحررة الباهت الدقيق شيء قبيح ابداً . الا ان تعبير وجهها يترك في الناظر اليها انطباعاً غير مريح . وكان يود المرء ان يسألها عفوياً : «ماذا ؟ هل انت جائعة ؟ او ضجرة ؟ او خجولة ؟ لماذا انت متوترة ؟» . كانت ، شانها شان سيتنيكوف ، تشعر على الدوام بالضيق النفسي . وهي تتكلم وتتحرك بلا ادنى اثر للتكلف ، ولكن على نحو اخرق في الوقت ذاته . ولعلها تعتبر نفسها كائناً بسيطاً طيب القلب ، بيد انه مهما فعلت من شيء ، يخيل اليكم ان هذا الشيء بالذات هو ما لـــم

* في الاصل بالفرنسية Entrez .

** في الاصل بالفرنسية Victor .

تكن تريد فعله ، فكل ما تفعله يبدو متعمداً ، اي انه لم يكن بسيطاً ولا طبيعياً .

– اجل ، اجل ، انا اعرفك يا بازاروف – كررت القول (وكانت متمسكة بالعادة الملازمة لكثير من سيدات الالوية وسيدات موسكو في تسمية الرجال بألقابهم فقط منذ اليوم الاول للتعارف) – هل تريدون سيجارا ؟

– بالطبع . – قال سيتنيكوف على الفور وقد جلس متراخياً على الكرسي رافعاً رجله الى الاعلى – فليقدموا لنا الفطور ، نحن جياع على نحو مرعب ، بل وامري بتقديم قنينة من الشمبانيا .

– يا له من محب للنعيم ! – قالت يفدوكسيا وضحكت (كانت لثتها العليا تتعرى من فوق اسنانها عندما تضحك) ، أليس كذلك ، يا بازاروف ؟ – فقال سيتنيكوف بشيء من الاستعلاء :

– انني اهوى الحياة المريحة وهذا لا يمنعني من ان اكون متحرراً .

– كلا ، يمنعك ! – هتفت يفدوكسيا ، ولكنها امرت وصيفتها باعداد الفطور واحضار الشمبانيا . ثم اضافت مخاطبة بازاروف :- ما هو رأيك بهذا الخصوص ؟ انا واثقة من انك توافقني .

– كلا – اعترض بازاروف – قطعة اللحم افضل من كسرة الخبز حتى من الناحية الكيمياوية .

– هل تدرس الكيمياء ؟ انها هوايتي ، حتى اني ابتدعت بنفسي نوعاً من الدهان .

– دهان ؟ انت ؟

– اجل ، انا . ولأي غرض ، هل تعلم ؟ لصنع الدمى ، كيلا تتحطم رؤوسها . فانا انسانة عملية ايضاً . ولكن ليس كل شيء جاهزاً بعد . ينبغي ان اطالع ليبيغ . وبالمناسبة هل قرأت مقالة كيسلياكوف في «الوقائع الموسكوبية» (٧١) عن عمل النساء ؟ اقرأها من فضلك فانت تهتم بمسألة المرأة ، وبالمدرسة ايضاً ، أليس كذلك ؟ ما الذي يمارسه صديقك ؟ وما اسمه ؟

كانت السيدة كوكشينا تنثر اسئلتها الواحد تلو الآخر باستهانة رقيقة دون ان تنتظر الجواب عليها ، كما يتكلم الاطفال المدللون عادة مع مربياتهم .

– اسمي اركادي نيكولايفيتش كيرسانوف ، وانا لا امارس شيئاً .

قهقهت يفدوكسيا .

– شيء مليح ! ماذا ؟ الا تدخن ؟ أتدري ، يا فكتور ، بأني زعلانة عليك ؟ !

– لأي سبب ؟

– يقال انك صرت تمدح جورج صاند (٧٢) من جديد . انها امرأة متخلفة ، ولا شيء غير ذلك ! كيف يمكن مقارنتها مع امرسون (٧٣) ؟ ! فليست لديها اية افكار لا عن التربية ولا عن الفسلجة ولا عن اي شيء . وانا واثقة من انها لم تسمع حتى بعلم الاجنة ، فكيف يمكن بدون ذلك في عصرنا ؟ (نشرت يفدوكسيا يديها) . آه ، يا للمقالة المدهشة التي كتبها يليسيفيتش (٧٤) بهذا الخصوص ! انه سيد عبقري ! (اعتادت يفدوكسيا دوماً على استخدام كلمة «سيد» بدلاً من «شخص») . يا بازاروف ، اجلس قربي على الاريكة . ربما انت لا تدري باني اخاف منك اشد الخوف .

– لماذا ؟ اسمحي لي ان اعرف .

– انك سيد خطر . ناقد لاذع . آه ، يا إلهي ! من المضحك انني اتكلم كما تتكلم اقطاعية في قرية نائية . وبالمناسبة ، فانا اقطاعية حقاً . ادير الضيعة بنفسي ، ثم ان مختار القرية لديّ ، يروفي ، لو تعلمون ، سيد مدهش ، مثل بطل كوبر «باثفايندر» (٧٥) . ففيه شيء من عدم التصنع ! قررت ان اعيش هنا نهائياً . انها مدينة لا تطاق ، أليس كذلك ؟ ولكن ليس في الامر حيلة !

فقال بازاروف ببرود :

– مدينة كسائر المدن .

– اهتمامات ضئيلة ، هذا هو الامر الفظيع ! في السابق كنت اقضي الشتاء ، من كل عام في موسكو . . . اما الآن فهناك يعيش زوجي المسيو كوكشين . ثم ان موسكو الآن . . . لا ادري . . . لم تعد على ما يرام . انني افكر في السفر الى الخارج . ففي العام الماضي كدت اتهيأ كلياً للسفر .

فسألها بازاروف :

– الى باريس ، أليس كذلك ؟

– الى باريس وهيديلبرغ .
– ما الداعي لهيديلبرغ ؟
– كيف لا ، فهناك بونزين (٧٦) !
لم يحر بازاروف جواباً .
– هل تعرف (بيير) * سابوجنيكوف ؟ . . .
– كلا ، لا اعرفه .
– كيف ؟ (بيير) * سابوجنيكوف . . . انه يزور ليديا خوستاتوفا على الدوام .
– انا لا اعرفها هي ايضاً .
– تعهد بان يرافقني . الحمد لله انني حرة طليقة ليس لدي اطفال . . . ماذا قلت ؟ : **الحمد لله** ! فليكن . لا فرق .
لفت يفدوكسيا سيجارة بأصابعها المسمرة من اثر التبغ وبللتها بلسانها ثم مصتها واشعلتها . دخلت الوصيفة تحمل صينية .
– ها هو طعام الفطور ! تفضلوا الى المائدة ! يا فكتور افتح القنينة ، فهذا اختصاصك .
– اجل ، اختصاصي – دمدم سيتنيكوف ثم ضحك بصرير كالصاصاة مرة اخرى .
– هل توجد هنا حسناوات ؟ – سأل بازاروف وهو يجهز على القدح الثالث . فأجابت يفدوكسيا :
– اجل ، ولكنهن جميعاً فارغات . فمثلا ، (صديقتي)** اودينتسوفا ، لا عيب في حسنها . ولكن مما يؤسف له ان سمعتها ليست على ما يرام . . . لا ضير في ذلك ، ولكنها لا تتمتع بأية حرية للرأي ، واي اتساع في الافق . . . مطلقاً . ينبغى تغيير نظام التربية بمجمله . ولقد فكرت في ذلك . فنساؤنا تربين تربية سيئة للغاية .
– لن تفعلي لهن شيئاً – تدخل سيتنيكوف – ينبغي احتقارهن ، وانا احتقرهن تماماً ! (كانت امكانية الاحتقار والافصاح عن هذا الاحتقار احب شيء لدى سيتنيكوف . وكان في الواقع

* في الاصل بالفرنسية Pierre .
** في الاصل بالفرنسية mon amie .

يتهجم على النساء دون ان يعلم بأنه سوف يضطر بعد بضعة اشهر ان يتزلف الى زوجته لسبب واحد هو انها ابنة الامير دوردوليوسوف) . فما من واحدة منهن تستطيع ان تفهم حديثنا هذا ، وما من واحدة منهن تستحق بأن نتكلم ، نحن الرجال الجادين ، عنها !
– لسن بحاجة مطلقاً الى فهم حديثنا – قال بازاروف ، فتدخلت يفدوكسيا :
– عمن تتكلم ؟
– عن الحسناوات .
– كيف ؟ ! يعني انك تؤيد رأي برودون ، (٧٧) اليس كذلك ؟
عدل بازاروف قوامه بكبرياء وقال :
– لا اؤيد آراء احد اطلاقاً . فلدي آرائي الخاصة .
– فلتسقط الشخصيات ! – صاح سيتنيكوف فرحاً بالمناسبة التي تهيأت له كي يعرب عن افكاره بقوة ، بحضور الشخص الذي يتزلف اليه .
– غير ان ماكولي (٧٨) نفسه – ارادت كوكشينا ان تتكلم ، ولكن صوت سيتنيكوف دوى :
– فليسقط ماكولي ! هل تدافعين عن هؤلاء النسوة ؟
– ليس عن النسوة ، بل عن حقوق المرأة التي اقسمت على الدفاع عنها حتى آخر قطرة من دمي .
– فليسقط ! – ولكن سيتنيكوف توقف عن الهتاف ، ثم اضاف :
– انني لا انكر هذه الحقوق .
– كلا ، يخيل الي انك من انصار النزعة السلافية البحت !
– لست منهم ، بالرغم من انني طبعاً . . .
– كلا ، ثم كلا . انك من انصار النزعة السلافية ، ومن المتمسكين بالتعاليم المتزمتة البالية . لا يعوزك الا سوط في اليد !
فقال بازاروف :
– السوط شيء حسن . ولكننا وصلنا الى آخر قطرة . . .
– من ماذا ؟ – قاطعته يفدوكسيا .

– من الشمبانيا ، يا يفدوكسيا نيكيتيشنا المبجلة ، من الشمبانيا ، وليس من دمك .

– لا استطيع ان اسمع بلامبالاة احداً يتهجم على النساء – واصلت يفدوكسيا كلامها – هذا امر فظيع ، فظيع . فبدلاً من ان تتهجموا عليهن من الافضل ان تقرأوا كتاب ميشليه «عن الحب»* . شيء رائع ! ايها السادة ، فلنتحدث عن الحب . – قالت ذلك والقت يدها بفتور ورقة على وسادة الاريكة المدعوكة .

وخيم صمت فجائي . ثم قال بازاروف :

– كلا ، ما الداعي للكلام عن الحب . لقد ذكرت اسم اودينتسوفا . . . هكذا سميتها ، أليس كذلك ؟ من هي هذه السيدة النبيلة ؟

– لا اروع منها ! – قال سيتنيكوف بصرير كالصاصاة – ساقدمك لها . ذكية ، غنية ، ارملة . ومن المؤسف انها غير متطورة بما فيه الكفاية . فمن اللازم لها ان تتعرف بصورة اقرب على عزيزتنا يفدوكسيا . اشرب نخبـك ، يا (يفدوكسي)** ! فلنقرع الكؤوس ! – ثم اخذ سيتنيكوف يترنم بالفرنسية :

« Et tok, et tok, et tin-tin-tin !
Et tok, et tok, et tin-tin-tin !! » (٧٩)

فقالت كوكشينا :

– انت عابث لعوب يا (فكتور) *** .

استغرق الفطور وقتاً طويلاً . ولحقت بقنينة الشمبانيا الاولى ثانية وثالثة ، بل ورابعة . . . كانت يفدوكسيا تثرثر بلا انقطاع . وكان سيتنيكوف يماشيها في الثرثرة . فقد تحدثا كثيراً عن الزواج ، وعما اذا كان تقليداً وهمياً او جريمة . وعن الناس الذين يولدون ، هل هم متماثلون ام لا ؟ وفيم يكمن التفرد الشخصي في الواقع ؟ واخيراً احتقنت يفدوكسيا كلياً بما احتسته من نبيـذ

* في الاصل بالفرنسية « De l'amour » . جول ميشليه (١٧٩٨-١٨٧٤) كاتب ومؤرخ فرنسي . صدر كتابه المذكور عام ١٨٥٩ . المترجم .

** في الاصل بالفرنسية Eudoxie .

*** في الاصل بالفرنسية .

واخذت تنقر باظافرها المسطحة على مفاتيح البيانو المشوش وشرعت تنشد بصوت مبحوح بعضاً من اغاني الغجر في البداية ثم موال سيمور-شيف «غرناطة الناعسة» (٨٠) ، بينما شد سيتنيكوف راسه بوشاح ومثل دور العشيق الولهان عندما غنت هي كلمات :

ولتلتحم شفتاك بشفتي
في قبلة حرى

نفد صبر اركادي فقال اخيراً بصوت مسموع : «يا سادة ، هذا الامر اشبه بدار المجاذيب» .

اما بازاروف الذي كان نادراً ما يضيف كلمة ساخرة الى الحوار – اذ انه مشغول بالشمبانيا اكثر من غيرها – فقد تثاءب بصوت عال ونهض ثم خرج مع اركادي دون ان يودع صاحبة الدار . هرع سيتنيكوف في اثرهما متسائلاً :

– ماذا ؟ ماذا ؟ – واخذ يتملقهما ويتراكض حولهما تارةً من اليمين وتارةً من الشمال – ألم اقل لكما انها شخصية رائعة ؟ ! كثّر الله من امثالها ! انها ظاهرة اخلاقية سامية في الواقع .

–ومؤسسة ابيك هذه هل هي ظاهرة اخلاقية سامية ايضاً ؟ – سأل بازاروف وهو يشير باصبعه الى الحانة التي مروا قربها في تلك اللحظة .

قهقه سيتنيكوف من جديد بصرير كالصاصاة . كان يخجل كل الخجل من منحدره العائلي ، وما كان يدري هل يتعين عليه ان يعتبر كلمات بازاروف الخشنة المفاجئة اطراء ام اهانة .

١٤

بعد بضعة ايام اقيمت الحفلة الساهرة لدى المتصرف . وكان ماتفي ايليتش «بطل الحفلة» حقاً . فقد اعلن رئيس نبلاء اللواء على رؤوس الاشهاد انه جاء ، في الواقع ، احتراماً له ، بينما واصل المتصرف «اصدار الاوامر» حتى في الحفلة مع انه ظل ساكناً بلا

حراك . اما رقة ماتفي ايليتش في مخاطبة الآخرين فكانت تضاهي عظمته بلا نقصان . كان يداري الجميع ، بعضهم بنأمة من الاشمئزاز وبعضهم الآخر بمسحة من الاحترام ، ويحاول جهده ان يبدو امام السيدات بمظهر (الفارس الفرنسي الحقيقي) * ، ويقهقه دون كلل بتلك الضحكة الرتيبة العريضة الرنانة التي تليق بالموظفين الكبار . طبطب على ظهر اركادي وناداه بصوت عال «يا ابن اختنا العزيز» ، وتفضل على بازاروف ذي البزة العتيقة بعض الشيء بنظرة هائمة عابرة ولكنها متساهلة انبعثت منه عبر وجنته ، وبفحيح ترحيبي مبهم لم يفهم منه سوى «أنا . . .» «جدا . . . » . وقدم اصبعه لسيتنيكوف كي يصافحه وابتسم له ، وهو يشيح عنه في الوقت ذاته . وقال «مفتون بك» ** حتى لكوكشينا التي حضرت ترتدي قفازات قذرة وبدون تنورة الحلقات المنتفخة ، غير انها شكلت شعرها بدبوس طائر الجنة . كان هناك جمهور غفير من الناس . ولا نقص في عدد الرجال . كان المدنيون قد حوصروا باغلبهم الى الجدران ، بينما راح العسكريون يرقصون ببالغ الجهد ، وخصوصاً واحد منهم ، كان قد عاش في باريس ستة اسابيع فتعلم مختلف الهتافات الفرنسية المتهورة من امثال «يا للشيطان !» و«يا للعجب !» و«ها ، ها ، يا صغيرتي» *** . راح يتلفظ هذه الهتافات على احسن ما يكون ، بلهجة باريسية فاخرة ، ولكنه ، فيما عدا ذلك ، كان يحطم اللغة الفرنسية تحطيماً ، اي انه يتكلم باللهجة الفرنسية-الروسية التي يسخر منها الفرنسيون عندما لا يشعرون بحاجة الى ان يقولوا لنا في مجاملة باننا نتكلم بلغتهم كما يتكلم الملائكة .

لم يكن اركادي يجيد الرقص ، كما نعلم ، اما بازاروف فلم يمارس الرقص مطلقاً . ولذلك انزويا في ركن ، فانضم اليهما سيتنيكوف الذي تظاهر بمسحة من السخرية المستنكفة واخذ يطلق ملاحظات جارحة ويسلط نظرات وقحة على ما حواليه ، ويبدو

---

* في الاصل بالفرنسية en vrai chevalier français .

** في الاصل بالفرنسية « Enchante » .

*** في الاصل بالفرنسية «Zut », « Ah fichtrrre » « Pst, pst, mon bibi »

ومحياه يشع بلذة خالصة . وعلى حين غرة تبدلت سحنته فالتفت الى اركادي وقال بشيء من الارتباك «وصلت اودينتسوفا» .

التفت اركادي فرأى امرأة فارعة القوام في بدلة سوداء توقفت عند باب الصالة . ادهشته بروعة قدها الممشوق . يداها العاريتان مستقرتان على نحو جميل الى جانبي خصرها الاهيف . واغصان الفوشية الخفيفة تتدلى على نحو جميل ايضاً من شعرها اللامع على كتفيها المنحدرتين . وعيناها الفاتحتان تبعثان من تحت جبينها الابيض البارز بعض الشيء نظرات ثاقبة هادئة ، هادئة بالذات وليس متاملة . وشفتاها تبتسمان ابتسامة تكاد لا تلحظ . كان محياها يبث قوة ما ، رقيقةً حنوناً .

– هل تعرفها ؟ – سأل اركادي من سيتنيكوف .

– اعرفها جيداً . اتريد ان اقدمك اليها ؟

– حبذا . . . بعد هذه الرقصة .

تنبه بازاروف هو الآخر الى اودينتسوفا . فقال :

– ما هذا القد ؟ انها لا تشبه الاخريات .

انتظر سيتنيكوف حتى انتهت الرقصة فاصطحب اركادي الى اودينتسوفا . ومن المشكوك فيه انه كان يعرفها جيداً : فقد تلعثم في اقواله ، بينما نظرت هي اليه بشيء من الاستغراب . الا ان وجهها اكتسى بمسحة من الترحاب عندما سمعت لقب اركادي . فسألته عما اذا كان هو ابن نيكولاي بتروفيتش .

– بالضبط .

– رأيت والدك مرتين وسمعت عنه الكثير . يسرني جداً ان اتعرف عليك – واصلت كلامها .

وفي تلك اللحظة اقترب منها ضابط ودعاها لرقصة الكدريل . فوافقت .

– هل ترقصين يا ترى ؟ – سألها اركادي باجلال .

– اجل . فلماذا تظن باني لا ارقص ؟ ام اني ابدو لك طاعنة في السن ؟

– عفواً ، كيف ذلك . . . ولكن في هذه الحالة اسمحي لي بان ادعوك لرقصة المازوركا .

ابتسمت اودينتسوفا متسامحةً وقالت :

– تفضل . – وسلطت على اركادي نظرة ، ان لم تكن متعالية فهي شبيهة بنظرات الاخوات المتزوجات الى اخوانهن الذين لا يزالون في مقتبل العمر .

لم تكن اودينتسوفا اكبر من اركادي بكثير . فقد دشنت عامها التاسع والعشرين ولكنه كان يشعر في حضورها بانه تلميذ او طالب ، وكانما الفرق في عمريهما اكبر من ذلك بكثير . اقترب منها ماتفي ايليتش ومظهره يدل على العظمة واقواله تنم عن التزلف . فانزوى اركادي جانباً ولكنه ظل يتطلع اليها . ولم تفارقها نظراته خلال رقصة الكدريل ايضاً . كانت تتكلم بلا تكلف مع مراقصها ، مثلما تكلمت لتوها مع الموظف الكبير ، وكانت تميل براسها وانظارها بهدوء ، وقد ضحكت مرتين بخفوت . كان انفها كبيراً بعض الشيء كانوف جميع الروس تقريباً ، ولم يكن لون بشرتها صافياً لحد الكمال ، ومع ذلك تصور اركادي انه لم يقابل ابداً مثل هذه المراة الرائعة . ولم تكن نغمات صوتها لتفارق مسمعه ، وحتى طيات بدلتها بدت له على غير ما هي عليه لدى الاخريات ، كانت اوسع واكثر استقامة ، وكانت حركاتها متناسقة على نحو خاص وطبيعية في الوقت ذاته .

احس اركادي بشيء من الوجل في الفؤاد حين تقدم الى صاحبته عندما تهادت اولى انغام المازوركا ، وعندما اراد ان يتكلم معها لم يفعل غير ان مسد شعره بيده دون ان يعثر على كلمة واحدة مناسبة . الا ان وجله واضطرابه لم يستمرا طويلاً ، فقد انتقلت اليه عدوى الهدوء من اودينتسوفا . ولم يمض ربع ساعة الا وصار يتحدث بطلاقة عن ابيه وعمه وعن الحياة في بطرسبورغ وفي القرية . استمعت اليه اودينتسوفا بادب وانتباه ، وكانت تفتح مروحتها وتغلقها بعض الشيء . كان اركادي يتوقف عن الثرثرة عندما يدعوها الراقصون للرقص . وبالمناسبة فقد دعاها سيتنيكوف مرتين . كانت تعود فتجلس من جديد وتلتقط المروحة ، وحتى صدرها لم يكن يتنفس اسرع من المعتاد ، بينما يواصل اركادي ثرثرته من جديد ، وهو مغمور بفرحة وجوده قربها والتحدث اليها والتطلع الى عينيها ، والى جبينها الرائع ، والى محياها البديع الذي ينم عن وجاهة وذكاء . كانت قليلة الكلام ، ولكن معرفتها بالحياة تجلت في كلماتها القليلة . ادرك اركادي من بعض

ملاحظات هذه المراة الشابة انه تيسرت لها معرفة الكثير والتمعن في امور جمة . . .

– من ذلك الذي كان واقفاً معك قبيل ان رافقك السيد سيتنيكوف الي ؟ –سالته ، فسالها اركادي بدوره :

– هل لاحظته ؟ ما اجمله ، أليس كذلك ؟ انه صديقي بازاروف .

وطفق اركادي يتحدث عن «صديقه» .

تحدث عنه باسهاب واعجاب جعلا اودينتسوفا تلتفت اليه وتسلط عليه نظرة متفحصة ، في حين كانت المازوركا تقترب من نهايتها . ما اشد اسف اركادي لمفارقة صاحبته : فقد صرف معها زهاء ساعة من احلى الاوقات ! صحيح انه كان طوال هذا الوقت يشعر وكانها متفضلة عليه وكانما ينبغي ان يكون ممتناً لها . . . الا ان مثل هذا الشعور لا يثقل على الافئدة الفتية .

صمتت الموسيقى .

فقالت اودينتسوفا ناهضة :

– (شكرا) * . وعدتني بزيارتي ، فاصطحب صديقك معك . وستكون في منتهى الطرافة رؤية شخص يتجاسر على عدم الايمان بشيء .

اقترب المتصرف من اودينتسوفا فاعلن ان العشاء جاهز وقدم لها يده وقد اكتسى وجهه بمسحة من الاهتمام . التفتت اودينتسوفا ، ذاهبة ، لكي تبتسم لاركادي وتحني له راسها لآخر مرة . انحنى هو انحناءة واطئة ولاحقها بنظراته (فكم اعجبه اعتدال قوامها الملفع بلمع رمادي من الحرير الاسود !) وفكر في نفسه : «في هذه اللحظة لم تعد تتذكر وجودي» ، واحس باستسلام رهيف يكتنف جوانحه . . .

– ماذا ؟ – سال بازاروف اركادي حالما عاد هذا اليه في الركن – هل تمتعت ؟ قال لي احد النبلاء الآن ان هذه السيدة «من الصنف المطواع» بيد ان ذاك النبيل احمق على ما يبدو . وفي رايك هل هي «من الصنف المطواع» حقا ؟

فاجاب اركادي :

---

* في الاصل بالفرنسية Merci .

– انني لا افهم هذا النعت حق الفهم .
– يا للبراءة العذرية !
– اذن فانا لا افهم نبيلك ذاك . اودينتسوفا فاتنة جداً ، دون شك ، ولكنها تتصرف ببرود وصرامة بحيث . . .
– في الماء الساكن تختبئ العفاريت . – اجابه بازاروف . – تقول انها تتصرف ببرود . ذلك ذوق رفيع . انت تحب المرطبات ، اليس كذلك ؟
فدمدم اركادي :
– ربما لا يمكنني ان احكم على ذلك . انها تريد ان تتعرف عليك ورجتني ان اصطحبك اليها .
– اتصور كيف بالغت في الحديث عني ! ومع ذلك حسناً فعلت . خذني اليها ، ولا فرق اذا كانت هي معبودة اهالي اللواء او «متحررة» على شاكلة كوكشينا ، فان لديها كتفين لم ار مثلهما من زمان .
تالم اركادي لوقاحة بازاروف ، ولكنه لام صديقه ، كما يحدث غالبا ، ليس على الشيء الذي ازعجه فيه . . . فسأله بهدوء :
– لمَ لا تريد للنساء ان يتمتعن بحرية الفكر ؟ !
– ذلك ، يا اخي ، لاني لاحظت ان القبيحات وحدهن يفكرن بحرية .
توقف الكلام عند هذا الحد . وغادر الشابان المكان فور انتهاء العشاء . فشيعتهما كوكشينا بضحكة عصبية حاقدة ، ولكن بشيء من الاستحياء ، فقد اهينت كرامتها لان هذا وذاك لم يلتفتا اليها . ظلت في الحفلة آخر الجميع ، وفي الساعة الرابعة ليلاً رقصت مع سيتنيكوف المازوركا البولونية على الطريقة الباريسية . وبهذا المشهد الكبير الدلالة اختتمت حفلة المتصرف .

١٥

في اليوم التالي قال بازاروف لاركادي وهما يرتقيان سلم الفندق الذي نزلت به اودينتسوفا :
– سنرى الى اية فصيلة من الثدييات تنتمي هذه المرأة . يخيل اليّ ان شيئا ما هنا ليس على ما يرام .

فهتف اركادي :
– انك تدهشني ! كيف ؟ كيف يجوز لك ، انت بازاروف ، ان تتمسك بتلك الاخلاق المتحجرة التي . . .
– يا لغرابة اطوارك ! – قاطعه بازاروف باستهانة . – أفلا تعرف ان تعبير «ليس على ما يرام» يعني في لهجتنا ، وبالنسبة لنا ، «على ما يرام» ؟ اي ان هناك غنيمة ما . افلست انت الذي قلت اليوم انها تزوجت على نحو يثير الاستغراب ، بالرغم من ان الزواج من عجوز غني ليس ، في رأيي ، بالامر الغريب ابداً ، بل هو ، على العكس ، خطوة حكيمة . انني لا اصدق الاقاويل الشائعة في المدينة ، ولكنني اميل الى الاعتقاد ، كما يقول متصرفنا المستنير ، بانها صادقة .
لم يجب اركادي بشيء ، وطرق الباب . رافق وصيف شاب يرتدي بزة الخدم كلا الصديقين الى غرفة واسعة مؤثثة على نحو سيئ ، كما هو شأن كل الغرف في الفنادق الروسية ، ولكنها تكاد تغص بالزهور . وسرعان ما ظهرت اودينتسوفا نفسها في فستان صباحي بسيط . بدت اكثر فتوة في ضوء شمس الربيع . قدم اركادي لها بازاروف ، ولاحظ بدهشة خفية ان هذا قد ارتبك شيئاً ، في حين ظلت اودينتسوفا هادئة كلياً ، مثلما كانت بالامس . واحس بازاروف نفسه بانه ارتبك ، فاكتأب لذلك ، وفكر في نفسه : «يا للعجب ! ارتعبت من امرأة !» ثم ارتمى على الكرسي بهيئة طليقة ليست افضل من هيئة سيتنيكوف ، وشرع يتكلم مغالياً في عدم التكلف ، بينما لم تحول اودينتسوفا عنه عينيها الصافيتين .
ولدت آنا سيرغييفنا اودينتسوفا من سيرغي نيكولايفيتش لوكتيف المقامر والنصاب الوسيم المعروف الذي ذاع صيته طوال خمسة عشر عاماً تقريباً في بطرسبورغ وموسكو وانتهى الى خسران كل شيء في القمار فاضطر الى سكنى القرية ، وسرعان ما وافته المنية هناك ، فترك ثروة ضئيلة جداً لابنتيه آنا البالغة من العمر عشرين عاماً وكاترينا البالغة من العمر اثني عشر عاماً . وكانت امهما ، وهي من سلالة الامراء خ . . . الذين احاق بهم الافلاس ، قد توفيت في بطرسبورغ عندما كان زوجها لا يزال في اوج ازدهاره . كانت حالة آنا بعد وفاة ابيها عسيرة للغاية .

فالتربية الممتازة التي تلقتها في بطرسبورغ لم تكن قد اعدتها لتحمل اعباء المعيشة والشؤون المنزلية ولا لحياة الريف الخاوية . ولم تكن تعرف احداً على الاطلاق في المنطقة كلها ، وما كان بوسعها ان تلتمس النصح من احد . كان ابوها يتحاشى الاتصال بالجيران ، فقد كان يحتقرهم وكانوا هم يحتقرونه كل على طريقته الخاصة . الا انها لم تفقد رشدها ، فاستدعت على الفور خالتها الاميرة افدوتيا ستيبانوفنا خ . . . ، وهي عجوز شريرة متعجرفة استأثرت بأفضل الغرف حالما انتقلت الى دار ابنة اختها وصارت تدمدم وتتذمر من الصباح الى المساء ، وحتى عندما تتمشى في البستان تصطحب وصيفها الوحيد القن المتجهم بعمرته المثلثة وبزته المتهرئة الصفراء الضاربة الى الخضرة والمقصّبة بشريط ازرق . تحملت آنا بصبر كل نزوات خالتها ، وواظبت على تربية اختها شيئا فشيئا ، وكادت تستسلم لفكرة الذبول في الريف . . . الا ان القدر اعد لها مصيراً آخر . فقد لمحها صدفة شخص ثري جداً اسمه اودينتسوف . كان في السادسة والاربعين من العمر ، غريب الاطوار متقبض النفس ، بديناً ثقيلاً متجهماً . ولكنه لم يكن بليداً ولا شريراً . اغرم بها وطلب يدها فوافقت على الزواج منه . غير انه عاش معها زهاء ستة اعوام وقضى نحبه مخلفا لها كل ثروته . قضت آنا سيرغييفنا زهاء عام بعد وفاته دون ان تغادر القرية ، ثم سافرت مع اختها الى الخارج ، ولكنها زارت المانيا فقط فانتابها الحنين وعادت لتعيش في قرية نيكولسكويه المحببة اليها والتي تبعد زهاء اربعين كيلومتراً عن مدينة (***) . لديها هناك دار فاخرة مؤثثة على نحو ممتاز وبستان رائع ذو مشاتل زجاجية : فالمرحوم اودينتسوف لم يبخل على نفسه بشيء . كانت آنا سيرغييفنا نادراً ما تسافر الى المدينة لقضاء بعض الاشغال في اغلب الحالات ، ولأمد قصير . ولم يكن الآخرون في اللواء يحبونها ، فكانوا يستفظعون زواجها من اودينتسوف ويروجون مختلف الاشاعات عنها ويزعمون بانها ساعدت اباها في احابيله وغشه ، وانها لم تسافر الى الخارج عبثاً ، بل لغرض ستر عواقب وخيمة . . . وكان المتحدثون الغاضبون يضيفون الى ذلك قائلين : «هل انتم فاهمون ؟» . كانوا يقولون انها «اجتازت النار والحديد» . وكان المنكت المعروف في اللواء كله يضيف الى ذلك عادة :

« . . . والانابيب النحاسية ايضاً» . وكانت كل هذه الاقاويل تبلغ مسامعها ، ولكنها لا تعيرها اهتماماً . فهي ذات طبع طليق حازم .

جلست اودينتسوفا متكئة على مؤخرة المقعد فوضعت يداً على يد وهي تستمع الى بازاروف الذي تحدث كثيراً ، خلافاً لعادته ، وكان واضحاً انه يحاول الهاء محدثته ، مما اثار استغراب اركادي من جديد . لم يكن اركادي واثقاً مما اذا كان بازاروف قد بلغ مقصده ام لا . فمن الصعب الحكم ، حسب تعابير وجه آنا سيرغييفنا ، على الانطباعات التي تكونت لديها . اذ ان محياها احتفظ بتعبير واحد ، رقيق بشوش ، وومضت عيناها بانتباه هادئ لا يعكر صفوه شيء . كان تصنع بازاروف في اللحظات الاولى للزيارة قد اثار استياءها ، كما تثير الاستياء الرائحة الكريهة او الصوت الحاد ، ولكنها ادركت في الحال ان ذلك بسبب الارتباك ، فانفرجت اساريرها . كان شيء واحد فقط يثير نفورها وهو الابتذال ، الا انه ما من احد بوسعه ان يتهم بازاروف بالابتذال .

وتعرض اركادي في ذلك اليوم للدهشة المرة تلو الاخرى . فقد كان يتوقع من بازاروف ان يتكلم مع اودينتسوفا ، كما يتكلم مع امرأة حصيفة ، عن معتقداته وآرائه . فقد اعربت عن رغبتها في الاستماع الى الشخص «الذي يتجاسر على عدم الايمان بشيء» . ولكن بازاروف ، بدلاً من ذلك ، صار يتحدث عن الطب والصيدلة وعلم النبات . واتضح ان اودينتسوفا لم تضيع الوقت سدى في وحدتها : فقد طالعت طائفة من الكتب الجيدة ، وكانت تتكلم بلغة روسية سليمة . سارت بالحديث الى الكلام عن الموسيقى . لكنها لاحظت ان بازاروف لا يعترف بالفن ، فعادت بشكل غير ملحوظ الى علم النبات ، مع ان اركادي تهيأ للكلام عن اهمية الانغام الشعبية . واستمرت اودينتسوفا على معاملته كما يعامل الاخ الاصغر . خيل اليه انها تقدر فيه طيبته وبساطة الفتوة لا اكثر . استغرق الحديث اكثر من ثلاث ساعات ، وكان متأنياً متنوعاً حيوياً .

نهض الصديقان في آخر الامر وودعا آنا سيرغييفنا فنظرت اليهما برقة وحنان ومدت يدها البيضاء الجميلة الى احدهما ثم الى الآخر ، وفكرت قليلاً ثم قالت بابتسامة طيبة متهيبة :

– اذا كنتما ، ايها السيدان ، لا تخشيان الملل فتعالا اليّ في نيكولسكويه .

فهتف اركادي :

– شكراً ، يا آنا سيرغييفنا ، اني اعتبر ذلك منتهى السعادة . . .

– وانت ، يا مسيو بازاروف ؟

اكتفى بازاروف بانحناءة ، مما اثار دهشة اركادي للمرة الاخيرة ، فقد لاحظ ان وجه صديقه قد احمر شيئاً .

وقال له في الشارع : – ماذا ؟ الا تزال على رايك بخصوص «الصنف المطواع» ؟

– من يدري ؟ ! الا ترى كيف جمدت نفسها ؟ ! – اعترض بازاروف ، ولكنه اضاف بعد قليل : – انها دوقة متسلطة . لا يعوزها غير حلة طويلة الاذيال وتاج على الراس .

– دوقاتنا لا يتكلمن الروسية بهذه الطلاقة .

– لقد ذاقت الامرين ، يا اخي ، وعركت الحياة مثلنا .

– ومع ذلك فهي في منتهى الروعة – قال اركادي . فواصل بازاروف كلامه : – يا له من بدن موفور . لا بد من نقله الى طاولة التشريح على الفور .

– كفاك هذراً يا يفغيني ! بالله عليك !بلغ السيل الزبى .

– لا تزعل ، ايها الفتى الرقيق . قلنا لك جادين انها من صنف ممتاز . وينبغي ان تذهب اليها .

– متى ؟

– بعد غد مثلاً . فما الذي نفعله هنا ؟ هل نظل نحتسي الشمبانيا مع كوكشينا ؟ ام نستمع الى قريبك الموظف الليبرالي الكبير ؟ . . سنشد الرحال بعد غد . ثم ان ضيعة ابي المتواضعة ليست بعيدة من هناك . نيكولسكويه تقع على طريق (***) ، اليس كذلك ؟

– بلى .

– (حسنا) * . لا داعي للتواني ، فلا يتوانى الا الحمقى والمتظاهرون بالذكاء . اقول لك : انه بدن موفور !

* في الاصل باللاتينية Optime .

بعد ثلاثة ايام شد الصديقان الرحال الى نيكولسكويه . كان النهار وضاءً معتدل الحرارة . وكانت خيول البريد المتخمة تنهب الطريق بوئام ، وهي تلوح دون عناء بذيولها الملتوية المتشابكة . اخذ اركادي يتطلع الى الطريق ويبتسم دون سبب واضح . الا ان بازاروف هتف فجاة :

– يمكنك ان تهنئني . فاليوم ، الثاني والعشرين من يونيو ، عيد ملاكي الحارس . وسنرى الى اي حد هو مهتم بي ، – ثم اضاف بصوت خفيض : – في البيت ينتظرونني اليوم . . . فلينتظروا ، ما اهمية ذلك ؟ !

١٦

تقع الضيعة التي تقطنها آنا سيرغييفنا على هضبة مكشوفة معتدلة الانحدار على مسافة غير بعيدة عن كنيسة حجرية صفراء ذات سقف اخضر واعمدة بيضاء ومدخل مزين في اعلاه برسم جداري * يمثل «قيام المسيح» على الطراز «الايطالي» . وكانت رائعة على الخصوص الملامح المستديرة في صورة محارب اسمر يرتدي خوذة فولاذية ويتصدر الرسم منبطحاً . ووراء الكنيسة امتدت القرية صفين من اكواخ تبدو على بعضها مداخن فوق سطوح من القش . وكانت دار اودينتسوفا مبنية بنفس طراز الكنيسة ، وهو الطراز المعروف عندنا باسم الاسكندري . وهي مطلية كذلك بدهان اصفر ولها سطح اخضر واعمدة بيضاء وقوصرة مثلثة ذات شعار . وقد انشأ معماري اللواء كلتا البنايتين بموافقة المرحوم اودينتسوف الذي لم يكن يطيق التجديدات الفارغة الاعتباطية على حد تعبيره . وتحاذي الدار من كلا الجانبين اشجار البستان القديم المعتمة ، ويؤدي الى مدخلها ممر من اشجار الشوح المقلّمة .

استقبل صاحبينا في الدهليز وصيفان فارعا القامة ، اسرع احدهما على الفور لاستدعاء كبير الوصفاء . كان هذا رجلاً بديناً في بزة رسمية سوداء . حضر في الحال ورافق الضيفين على السلم

* في الاصل بالايطالية al fresco .

المفروش بالسجاد الى غرفة خاصة فيها سريران مع جميع مستلزمات الزينة والغسيل . يبدو ان النظام سائد في الدار : فكل شيء نظيف ، وفي كل الانحاء تفوح روائح مقبولـــــة ، كما في صالات الاستقبال في الوزارات .

قال كبير الوصفاء :

– آنا سيرغييفنا ترجوكما ان تشرفاها بعد نصف ساعة . فهل من اوامر او توجيهات ؟

فاجاب بازاروف :

– ليست لدينا اوامر ، ايها المحترم ، سوى قدح من الفودكا اذا تفضلت .

– سمعاً وطاعة يا سيدي – قال كبير الوصفاء بشيء من الاستغراب ، وذهب مصراً بجزمته . فعلق بازاروف :

– ياله من اسلوب راق مهيب ! أليس كذلك ؟ انها دوقة حقاً .

فاعترض اركادي :

– اية دوقة هي اذا كانت قد دعت لضيافتها منذ اللقاء الاول ارستقراطيين شديدي البأس مثلنا ؟ !

– وخصوصاً انا ، طبيب المستقبل ، ابن الطبيب وحفيد القندلفت . . . انت تعلم اني حفيد قندلفت ، أليس كذلك ؟

– مثل سبيرانسكي (٨١) – اضاف بازاروف بعد فترة صمت قصيرة وقد زم شفتيه . . . – ومع ذلك فقد دللت هذه السيدة نفسها . ما اشد دلالها ! أفلا يتعين علينا ان نرتدي بزة رسمية؟ !

اكتفى اركادي بان هز كتفيه . . . ولكنه هو الآخر احس ببعض الارتباك .

بعد نصف ساعة دخل بازاروف واركادي غرفة الاستقبال . وهي غرفة واسعة عالية السقف مؤثثة باثاث فاخر تماماً ولكن بدون ذوق رفيع . الموبيليا الثقيلة الثمينة مصفوفة على طول الجدران المزينة بورق بني موشح بلون ذهبي . كان المرحوم اودينتسوف قد اقتناها في موسكو بواسطة صديقه ووكيله تاجر الخمور . وفوق الاريكة الوسطى علقت صورة رجل اشقر مترهل ، بدا وكأنه يسلط على الضيفين نظرة غير ودية . فهمس بازاروف لاركادي : «انه هو على ما يبدو» ، ثم اضاف وقد انكمش انفه : «ماذا ؟

هل نهرب ؟» الا ان ربة البيت دخلت في تلك اللحظة . كانت ترتدي فستاناً خفيفاً . وكان شعرها المصفف على نحو املس وراء اذنيها قد اضفى مسحة عذرية على محياها الطري الصافي .

بدأت كلامها قائلة :

– اشكركما على الوفاء بالوعد . ارجو ان تقيما في ضيافتي . الاحوال هنا ليست سيئة في الواقع . وسأعرفكما على اختي . انها تجيد العزف على البيانو . وهذا لا يعني شيئاً بالنسبة لك يامسيو بازاروف ، ولكنك ، يامسيو كيرسانوف ، تحب الموسيقى كما يخيل الي . وبالاضافة الى اختي تعيش عندي خالتي العجوز ، وفي بعض الاحيان يزورنا احد الجيران فنلعب الورق . ذلك هو مجتمعنا كله . اما الآن فلنجلس .

تلفظت اودينتسوفا هذه الخطبة القصيرة بمنتهى الوضوح ، كما لو كانت قد حفظتها عن ظهر قلب . ثم وجهت كلامها الى اركادي ، واتضح ان امها كانت تعرف ام اركادي ، بل وكانت حافظة سر حبها لنيكولاي بتروفيتش . وتكلم اركادي بحماس عن المرحومة والدته ، بينما انشغل بازاروف في تصفح الألبومات وفكر في نفسه : «كم صرت وديعاً !» .

هرعت الى غرفة الاستقبال كلبة سلوقية جميلة بطوق ازرق ، واخذت تداعب الارضية بمخالبها . وعلى اثرها دخلت فتاة في حوالى الثامنة عشرة ذات شعر اسود ومحيا اسمر لطيف مستدير بعض الشيء وعينين سوداوين واسعتين . كانت تحمل سلة مليئـــة بالزهور ، فاومأت اليها اودينتسوفا بحركة من راسها وقالت :

– هذه اختي كاتيا .

سلمت كاتيا على الحاضرين ثم جلست قرب اختها واخذت تصفف الزهور ، بينما اقتربت الكلبة السلوقية ، واسمها فيفي ، من الضيفين وهي تهز ذيلها ، ودست انفها البارد في يد احدهما ثم في يد الآخر . وسالت اودينتسوفا اختها :

– هل جمعت كل هذه الزهور بنفسك ؟

فاجابت كاتيا :

– اجل .

– وخالتنا ، هل ستأتي لتناول الشاي ؟

– ستأتي .

عندما تتكلم كاتيا تبتسم على نحو رقيق للغاية ، باستحياء وصراحة وتنظر من الاسفل الى الاعلى بشكل طروب وبشيء من الصرامة . كل شيء فيها لا يزال غضاً نضيراً : صوتها والزغب على وجهها كله واليدان الورديتان براحتيهما المائلتين الى بياض والكتفان المضغوطتان بالكاد . . . كانت مصطبغــة بالاحمرار دوما وكانت تتنفس بصورة متلاحقة سريعة .

التفتت اودينتسوفا الى بازاروف قائلة :

– انك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، تقلّب الصور بحكم اللياقة لا اكثر . فهي لا تثير اهتمامك . الافضل ان تقترب منا ، فلنتجادل في امر ما .

اقترب بازاروف وسأل :

– فيم نتجادل ، يا سيدتي ؟

– في كل ما تريد . واحذرك بأني احب الجدل كثيرا .

– انت ؟

– اجل . هل يدهشك ذلك ؟ لماذا ؟

– لأن طباعك ، ان صح حكمي ، هادئة باردة ، في حين يتطلب الجدل ولعاً وانهماكاً .

– كيف استطعت ان تخبر طباعي بهذه السرعة ؟ انني عنيدة ضعيفة الصبر . ومن الافضل ان تستفسر من كاتيا عن ذلك . هذا اولاً . ثم اني انساق للولع بسهولة كبيرة .

نظر بازاروف الى آنا سيرغييفنا وقال :

– ربما ، فانت اعرف . وما دمت تريدين المجادلة فتفضلي . كنت اتطلع الى مناظر سويسرا السكسونية في البومك ، لكنك قلت لي ان هذا لا يمكن ان يثير اهتمامي . ولقد قلت ذلك لأنك لا تتصورين وجود شعور فني عندي . وبالفعل فهو غير موجود . لكن هذه المناظر يمكن ان تثير اهتمامي من الناحية الجيولوجية ، من حيث تكوّن الجبال ، مثلاً .

– عفواً . انك ، كجيولوجي ، ستلجأ على الاغلب الى الكتب ، الى المؤلفات المتخصصة ، وليس الى الرسوم .

– الرسم يبيّن لي بوضوح وايجاز ما يتحدث عنه الكتاب في عشر صفحات كاملة .

لزمت آنا سيرغييفنا الصمت لحظة ، ثم قالت بعد ان استندت بكوعها الى الطاولة فقربت وجهها من بازاروف :

– هل يعقل انه ليست لديك ذرة من الشعور الفني . فكيف تستطيع الاستغناء عنه ؟

– اسمحي لي ان اسألك : ما الحاجة اليه ؟

– من اجل اجادة معرفة الناس ودراستهم على الاقل .

ضحك بازاروف بشيء من السخرية وقال :

– توجد لهذا الغرض ، اولاً ، الخبرة الحياتية ، وثانياً ، افيدك بأن لا جدوى من دراسة كل فرد على حدة . البشر متشابهون جسدياً وروحياً . ولدى كل منا دماغ وطحال وقلب ورئتان ، وكلها مبنية بشكل واحد . وحتى ما يسمى بالسجايا الخلقية انما هي واحدة لدى الجميع : فالفروق الطفيفة لا تعني شيئاً . يكفي وجود نموذج بشري واحد لكي يمكن الحكــم على الآخرين جميعــاً . فالبشر كأشجار الغاب ، وما من عالم نباتي يمارس دراسة كل شجرة على حدة .

رفعت كاتيا التي كانت تصف زهرة الى زهرة دون استعجال انظارها متحيرة الى بازاروف فاحتقن وجهها حمرة حتى الاذنين عندما اصطدمت نظرتها بنظرته السريعة المستهينة . اما آنا سيرغييفنا فقد هزت راسها وقالت :

– اذا كانوا كأشجار الغاب فذلك يعني ، برأيك ، انه لا فرق بين البليد والذكي ، ولا فرق بين الانسان الخيّر والشرير ، أليس كذلك ؟

– كلا ، يوجد فرق ، كما بين المريض والمعافى . فالرئتان لدى المصاب بالتدرن ليستا بمثل حالتهما لدينا ، مع انهمــا مبنيتان بشكل واحد . ونحن نعرف على وجه التقريب بواعث العلل الجسدية ، اما العلل الاخلاقية فسببها التربية الفاسدة ومختلف التفاهات التي تتحشى بها ادمغة البشر منذ الصغر . سببها ، باختصار ، حالة المجتمع البشعة . فصححوا اوضاع المجتمع ولن تظل هناك علل .

كان بازاروف يتحدث بشكل بدا معه وكأنه يفكر في الوقت ذاته على النحو التالي : «لا فرق بين ما اذا كنت تصدقينني ام

لا !» . مسد فوديه بحركة بطيئة من اصابعه الطويلة ، بينما راحت عيناه تجولان في الانحاء . فقالت آنا سيرغييفنا :

– تتصور انه لن يبقى هناك بلداء، ولا اشرار بعد تصحيح المجتمع ؟

– لدى توفر النظام الاجتماعي الصائب سيكون سواء ، على اقل تقدير ، ما اذا كان الانسان بليداً او ذكياً ، شريراً او خيراً .

– اجل ، فهمت . سيكون لدى الجميع نفس الطحال المتماثل .

– بالضبط ، يا سيدتي الجليلة .

فالتفتت اودينتسوفا الى اركادي متسائلة :

– وانت ، يا اركادي نيكولايفيتش ، ما هو رايك ؟

فاجاب اركادي :

– انني متفق مع يفغيني .

نظرت اليه كاتيا عابسة ً . فقالت اودينتسوفا :

– انكما تثيران دهشتي ، ايها السيدان . ولكننا سنواصل الحديث فيما بعد . فان خالتي قادمة لتناول الشاي . وعلينا ان نراف بحالها .

دخلت الاميرة خ . . . ، خالة آنا سيرغييفنا ، وهي امرأة نميئة نحيلة ذات وجه صغير منقبض وعينين شريرتين جامدتين تطلان من تحت شعر مستعار اشيب . انحنت للضيفين بالكاد وارتمت على المقعد المخملي الواسع الذي لا يحق لاحد غيرها ان يجلس عليه . وضعت كاتيا تكية تحت قدمي العجوز فلم تشكرها على ذلك بل ولم تنظر اليها ، سوى انها حركت يديها تحت الوشاح الاصفر الذي يغطي جسمها النحيف كله تقريباً . الاميرة تحب اللون الاصفر . فحتى قلنسوتها مزينة باشرطة صفراء صارخة . سالتها اودينتسوفا رافعة ً صوتها اكثر من المعتاد :

– كيف قضيت ليلتك يا خالتي ؟

– هذه الكلبة هنا ايضاً – دمدمت العجوز بدلاً من الجواب ، وعندما لاحظت ان فيفي قامت بخطوتين مترددتين نحوها صاحت بها : – اغربي ! اغربي !

استدعت كاتيا فيفي وفتحت لها الباب :

فاندفعت فيفي الى الخارج فرحة ً على امل ان احداً ما سيذهب للتنزه معها ، ولكنها عندما ظلت وحدها وراء الباب اخذت تخدش

وتزعق بخفوت . عبست الاميرة ، ز ّت كاتيا بالخروج . . .

فقالت اودينتسوفا :

– اظن ان الشاي جاهز ، اليس كذلك ؟ ايها السيدان ، هيا ، يا خالتي تفضلي لتناول الشاي .

نهضت الاميرة صامتة ً من مقعدها وخرجت في مقدمة الجميع من غرفة الاستقبال ، فتوجه الآخرون على اثرها الى غرفة الطعام . ازاح وصيف صغير مقعداً محفوفاً بالوسائد عن المائدة وقد اثار صريفاً . هذا المقعد مخصص هو الآخر للاميرة فارتمت عليه . صبت كاتيا الشاي وقدمت اليها اولاً قدحاً مزخرفاً بشعار ملون . وصبت العجوز لنفسها شيئاً من العسل في القدح (فكانت ترى ان احتساء الشاي بالسكر خطيئة وانه يكلف غالياً مع انها لم تنفق كوبيكاً واحداً على اي شيء) . ثم سالت على حين غرة بصوت ابح وبلهجة ملتوية :

– ماذا كتب الامير ايفان ؟

لم يجبها احـــد . وسرعان ما ادرك بازاروف واركادي ان اصحاب البيت لا يعيرونها اهتماماً بالرغم من احترامهم الظاهري لها . وفكر بازاروف في نفسه : «يحتفظون بها من اجل المظاهر لانها من سلالة الامراء» . . . اقترحت آنا سيرغييفنا بعد تناول الشاي الذهاب للنزهة . الا ان المطر بدأ يتساقط رذاذاً ، فعاد الجميع الى غرفة الاستقبال ما عدا الاميرة . وصل الجار المحب للعب الورق . واسمه بورفيري بلاتونيتش . وهو شخص بدين اشيب قصير القامة ، مرح ومؤدب للغاية . كانت آنا سيرغييفنا تتحدث مع بازاروف اكثر من غيره فسالته عما اذا كان راغباً في ان ينازلهما في لعبة البرفرانس العتيقة . فوافق بازاروف معلناً انه يتعين عليه ان يتعود على قتل الفراغ بلعب الورق كي يستعد مسبقاً للوظيفة التي تنتظره كطبيب في احد الاقضية . فقالت آنا سيرغييفنا :

– ولكن حذار . فانا وبورفيري بلاتونيتش سنحطمك . – ثم اضافت قائلة : – اما انت يا كاتيـــا فاعزفي شيئاً لاركادي نيكولايفيتش اذ انه يهوى الموسيقى ، وسوف نستمع اليها نحن ايضاً .

اقتربت كاتيا من البيانو على مضض . وتبعها اركادي على

مضض ايضاً مع انه يهوى الموسيقى فعلا . فقد خيل اليه ان اودينتسوفا تبعده عنها بينما اجتاح فؤاده ، كما هو شان اي شاب في عمره ، ذلك الشعور الغامض المتلهف الشبيه ببوادر الحب . رفعت كاتيا غطاء البيانو وسالت بصوت خفيض دون ان تنظر الى اركادي :

– ما الذي تريد ان اعزف ؟

فاجاب اركادي بلا مبالاة :

– ما تشائين .

فكررت كاتيا السؤال دون ان تبدل جلستها :

– اية موسيقى تفضل ؟

فاجاب اركادي بنفس اللهجة :

– الكلاسيكية .

– هل تحب موزارت ؟

– احب موزارت .

احضرت كاتيا نوطات السوناتا الفانطازية لموزارت . وعزفتها على نحو ممتاز وان بشيء من الصرامة والجفاف . جلست باستقامة وبلا حراك دون ان تحيد بنظرها عن النوطات وقد ضمت شفتيها بشدة ، وفي آخر السوناتا احتقن وجهها وتدلت خصلة صغيرة من شعرها المتهدل على حاجبها القاتم .

اعجب اركادي خصوصاً بالقسم الاخير من السوناتا الذي تظهر فيه بغتة ، وسط فرحة النغم المنطلق الآسرة ، انفعالات الكآبة المريرة ، المأساوية تقريباً . . الا ان افكار اركادي التي اثارتها انغام موزارت لم تكن تحوم حول كاتيا . فعندما نظر اليها لم تخطر على باله غير فكرة واحدة : «هذه الفتاة تعزف على نحو لا باس به ، وهي نفسها لا باس بها» .

بعد ان انتهت كاتيا من عزف السوناتا سالت دون ان ترفع يديها عن مفاتيح البيانو : «كفاية ؟» .

فقال اركادي انه لا يجرأ على تكليفها المزيد ، وشرع يتكلم معها عن موزارت ، وسألها عما اذا كانت قد اختارت هذه السوناتا بنفسها ام ان احداً ما نصحها بذلك . الا ان كاتيا كانت تجيبه باختصار . فقد انطوت على نفسها وتقوقعت . عندما تنتابها تلك الحالة يكتسي وجهها بمسحة من العناد الذي يقرب من البلادة . وما

١٥

كانت لتخرج الى السطح من توقعتها الا بعد فترة . لم تكن خجولة ، لكنها كانت مرتابة وعلى شيء من الوجل من اختها التي ربتها ، وما كانت هذه الاخيرة تعرف بذلك طبعاً . وانتهى الامر باركادي الى ان استدعى فيفي التي عادت واخذ يمسد راسها بابتسامة ملاطفة بحكم اللياقة لا اكثر . وراحت كاتيا تصفف ازهارها من جديد .

اما بازاروف فكان يتعرض لجزاء تلو آخر . كانت آنا سيرغييفنا تلعب الورق بمهارة ، وكان بورفيري بلاتونيتش ماهراً ايضاً . لذا ظل بازاروف هو المغلوب ولو قليلاً ، الا ان ذلك لم يكن بالامر المريح له تماماً . وخلال العشاء عادت آنا سيرغييفنا الى الكلام عن علم النبات حيث قالت لبازاروف :

– فلنذهب للنزهة غداً منذ الصباح . اريد ان اعرف منك التسميات اللاتينية للنباتات البرية وخواصها .

– وما حاجتك الى التسميات اللاتينية ؟ – سال بازاروف فاجابته هي :

– ينبغي ان يسود النظام كل شيء .

عندما خلا اركادي بصديقه في الغرفة المخصصة لهما هتف قائلا :

– ما اروعها !

– اجل . آنا سيرغييفنا إمراة ذكية . لقد رات ما رات .

– باي معنى تقول ذلك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ؟

– بمعنى طيب ، يا عزيزي ! وانا واثق من انها تتصرف بضيعتها على افضل ما يكون . الا ان المعجزة ليست هي وانما اختها .

– كيف ؟ تلك السمراء ؟

– اجل ، تلك السمراء . فهي النضارة التي لم يمسها احد ، انها الخوف والصمت وكل ما يرغب المرء فيه . وهي تستحق الاهتمام . يمكنك ان تصنع منها ما تشاء . اما تلك فهي امراة محنكة .

لم يرد اركادي على بازاروف بشيء . رقد كلاهما وفي ذهنه افكاره الخاصة .

كانت آنا سيرغييفنا في ذلك المساء تفكر هي الاخرى بضيفيها . اعجبها بازاروف بعدم تصنعه وبحدة احكامه . ووجدت

فيه شيئاً جديداً لم تصادفه من قبل ، في حين لا يعوزها الفضول .

كانت آنا سيرغييفنا كائنا غريب الاطوار لدرجة كبيرة . فهي لا تؤمن باية خرافات وليس لديها اية معتقدات راسخة ، لكنها لا تتنازل لأحد ولا تتبع احداً . لقد رات الكثير ، واولعت بالكثير ، ولكن ما من شيء يرضيها بالتمام والكمال ، بل ومن المستبعد انها كانت راغبة فيما يرضيها بالتمام والكمال . كان ذهنها حاداً ولاابالياً في الوقت ذاته : لم تكن شكوكها لتخمد ابداً الى حد النسيان ، كما لم تكن لتتاجج ابداً الى حد القلق . ولو لم تكن ثرية مستقلة لربما انخرطت في المعركة وتذوقت طعم الهوى . . . لكنها كانت تعيش حياتها بيسر رغم الضجر الذي ينتابها احياناً ، وهي تواصل توديع ايامها الواحد تلو الآخر دون استعجال ، ودون تهيج تقريباً . كانت الألوان المستبشرة تلوح احياناً امام ناظريها ، لكنها تشعر بالارتياح لتلاشي تلك الألوان ولا تحس بالأسف لغيابها . كان تصورها يتجاوز حتى حدود ما تعتبره مبادئ الاخلاق المعتادة امراً مسموحاً به ، لكن دمها حتى في تلك الحالة يظل يجري باستقرار كالسابق في بدنها الهادئ القويم الجذاب . ويصادف انها ، عندما تخرج من الحمام المعطر دافئة رقيقة كل الرقة ، تأخذ في تأمل تفاهات الحياة وكدحها وشرورها . . . فيمتلئ فؤادها ببسالة مفاجئة ، ويطفح بالمطامع النبيلة ، ولكن آنا سيرغييفنا تنقبض وتتاوه حالما يهب نسيم من النافذة المواربة ، فتكاد تزعل ، ولا تعود بحاجة في تلك اللحظة الا الى شيء واحد هو ان لا يهب هذا النسيم الدنيء عليها .

كانت تريد شيئاً ما ، شأنها شأن جميع النساء اللواتي لم يتسن لهن ان يتذوقن طعم الحب ، ولكنها لا تعرف ماذا تريد بالضبط . وفي الواقع فهي لم تكن تريد شيئاً ، بالرغم من توهمها بانها تريد كل شيء . كانت بالكاد تطيق المرحوم اودينتسوف (فقد تزوجت منه لمصلحة ، بالرغم من انها وربما لم تكن لتوافق ان تصبح زوجة له لو لم تعتبره انساناً طيباً) فولد لديها ذلك اشمئزازاً خفياً من جميع الرجال ، فلم تعد تتصورهم الا بشكل كائنات ثقيلة ذاوية متحشفة وملحاحة عاجزة . ذات مرة صادفت في مكان ما في الخارج فتى سويدياً وسيماً بمحيا تكسوه مسحة من الفروسية وعينين زرقاوين طاهرتين تظللهما جبهة عريضة . ترك

فيها هذا الفتى اثراً شديداً ، ولكن ذلك لم يمنعها من العودة الى روسيا .

فكرت آنا سيرغييفنا في نفسها : «يا لهذا الطبيب من شخص غريب الاطوار !» وهي مضطجعة في فراشها الرائع على وسائد مخرمة تحت لحاف حريري خفيف . لقد ورثت عن ابيها بعضا من ميله الى الابهة . وهي تكنّ حباً جماً لأبيها الخاطئ والطيب في الوقت ذاته . وكان هو متيماً بها ، يمزح معها بود كالنـــد للنـــد ، ويثق بها تمام الثقة ويلتمس النصح عندها . لكنها لا تتذكر امها .

وفكرت من جديـــد : «يا لهذا الطبيب من شخص غريب الاطوار !» . تمددت وابتسمت واشتبكت يديها تحت رأسها ، ثم جابت بنظراتها على عجل زهاء صفحتين من رواية فرنسية تافهة ، وسقط الكتاب من يديها وغفت نظيفة باردة في بياضات نظيفة عاطرة .

في صباح اليوم التالي توجهت آنا سيرغييفنا مع بازاروف فور انتهاء الفطور لدراسة النباتات البرية ولم تعد الا قبيل الغداء . لم يترك اركادي المكان فصرف زهاء ساعة مع كاتيا دون ان يشعر بالملل ، وقد اعربت هي نفسها عن استعدادها لتكرار سوناتا الامس ، لكن قلبه انقبض في الحال عندما عادت اودينتسوفا اخيراً وعندما رآها . . . كانت تسير في البستان بخطوات متعبة بعض الشيء ، وكانت وجنتاها متوردتين وعيناها تلمعان باسطع من المعتاد تحت قبعة القش المستديرة . كانت اصابعها تداعب عوداً رفيعاً لزهرة برية ، وقد هبطت طرحتها الخفيفة على مرفقيها وتدلت الاشرطة الرمادية العريضة من القبعة فلامست صدرهـــا . كان بازاروف يسير خلفها واثقاً من نفسه وبلا اعتناء ، كما هي عادته دوماً ، الا ان ملامح وجهه لم تعجب اركادي بالرغم من مرحها بل وحتى رقتها . توجه بازاروف الى غرفته بعد ان دمدم : «مرحباً !» . اما اودينتسوفا فقد شدت على يد اركادي شاردة البال ومرت ازاءه هي الاخرى .

ففكر اركادي : «لماذا قال لي مرحباً ، افلم نلتق اليوم ؟»* .

* من عادات الروس ان يحيوا بعضهم البعض بكلمة «مرحبا» مرة واحدة في اليوم لا اكثر . — **المترجم** .

الزمن (وهذا امر معروف) يطير كالطير احيانـــاً ويزحف كالسلحفاة احياناً اخرى . الا ان المرء يغدو على احسن حال عندما لا يلاحظ كيف يمر الزمن : سريعاً او بطيئاً . على هذه الحال بالذات صرف اركادي وبازاروف لدى اودينتسوفا زهاء خمسة عشر يوماً . وساعد على ذلك ما اعتادت عليه هي من نظام في دارها وحياتها . كانت متمسكة بهذا النظام تمسكاً صارماً ، وكانت تحمل الآخرين على الانصياع له . فكل شيء في غضون اليوم الواحد يجري في اوقاته المحددة . في تمام الثامنة صباحاً يلتئم الجمع لاحتساء الشاي . وفي الفترة بين الشاي والفطور يفعل كل ما يشاء ، وكانت ربة البيت نفسها آنذاك تسوي الامور مع الوكيل (فلاحو الضيعة يعملون على اساس الجزية) ومع كبير الوصفاء وكبيرة مدبرات المنزل . وقبيل الغداء يلتئم الجمع من جديد لتجاذب اطراف الحديث او للمطالعة . وكانت فترة المساء تخصص للتنزه ولعب الورق والموسيقى . وفي الساعة العاشرة والنصف تتوجه آنا سيرغييفنا الى مضجعها لتنام بعد ان تصدر اوامرها بخصوص يوم غد . لم يرق لبازاروف تنظيم الحياة اليومية الرتيب هذا والمتسم بشيء من المراسيم الاحتفالية . كان يقول : «كان المرء يتدحرج على سكة حديد» . ويعتبر الخدم ببزاتهم الخاصة والوصفاء الخاشعين بمثابة اهانة لمشاعره الديمقراطية . ويرى انه ما دامت الامور تسير على هذا الشكل فينبغي تناول الغداء على الطريقة الانجليزية اذن : ببزات رسمية وربطات عنق بيضاء . وقد تداول في هذا الموضوع ذات مرة مع آنا سيرغييفنا التي اعتادت ان يعرض كل شخص امامها آراءه بلا مواربة . استمعت اليه ثم قالت : «انت محق من وجهة نظرك . ولربما انني ، في هذه الحالة ، ابدو اقطاعية حقاً . لكنه لا يجوز العيش في الريف على نحو مشوش ، فالضجر سيقتلنا آنذاك» . وواصلت العمل على هواها . كان بازاروف يتذمر من ذلك . لكن السبب الذي جعله واركادي يعيشان بيسر وسهولة عند اودينتسوفا هو بالذات ان كل شيء في دارها «كانما يتدحرج على سكة حديد» . ومع ذلك حدث تغير لدى كلا الشابين منذ الايام الاولى لمكوثهما في نيكولسكويه . فان بازاروف الذي مالت اليه

آنا سيرغييفنا ، كما هو واضح ، بالرغم من ندرة اتفاقها معه ، صار يشعر بقلق لم يكن يعرف له اثراً في السابق : غدا سريع الانزعاج ، قليل الرغبة في الكلام ، واخذ ينظر شزراً ، ولا يقر له قرار ، كما لو انه يشعر بوخز خفي . اما اركادي الذي خيل اليه نهائياً بانه وقع في غرام اودينتسوفا فقد اخذ ينساق للكآبة الهادئة . ومع ذلك لم تمنعه هذه الكآبة من التقرب الى كاتيا ، بل وساعدته على ان يقيم معها علاقات ودية رقيقة . فكر اركادي في نفسه : «تلك لا تقدرني ! فليكن ! . . اما هذا الكائن الطيب فلا يرفضني» ، وتذوق قلبه من جديد حلاوة الاحاسيس المتسامحة . كانت كاتيا تخمن بانه يبحث عن تهدئة للنفس بمعاشرتها ، فلم تحرمه ولم تحرم نفسها من اللذة العذرية الناجمة عن الصداقة المشوبة بشيء من الخجل والموشحة بشيء من الثقة . وما كان الاثنان ليحادثا بعضهما البعض بحضور آنا سيرغييفنا : كانت كاتيا تنكمش دوماً بتأثير نظرة اختها الثاقبة ، اما اركادي فما كان باستطاعته ، شأنه شأن اي محب ، ان يلتفت الى اي كائن آخر بحضور محبوبته ، ولكنه لم يكن يشعر بالارتياح الا لوجوده مع كاتيا وحدهـــا . كان يدرك بانــــه عاجز عن اثارة اهتمام اودينتسوفا ، ولذا فهو يعاني من الوجل والحيرة عندما يبقى معها وحيداً . ولم تكن هي الاخرى تعرف ماذا ينبغي ان تقول له : فهو لا يزال يافعاً جداً بالنسبة لها . اما مع كاتيا فعلى العكس . كان اركادي يشعر وكانه مع واحد من اهله ، وكان متساهلاً معها ، فلا يعيقها عن الاعراب عن الانطباعات التي تخلفها في نفسهـــا الموسيقى ومطالعة القصص والاشعار وغير ذلك من التفاهات ، دون ان يلاحظ او يدرك ان هذه التفاهات تشغل باله هو ايضاً . ولم تكن كاتيا ، من ناحيتها ، لتعيقه عن الاستسلام للأحزان . كان اركادي يرتاح لكاتيا ، وكانت اودينتسوفا ترتاح لبازاروف ولذلك جرت العادة على ان يلتقي الاربعة لأمد قصير ثم يفترقوا فيتوجه كل زوج الى جهته ، وخصوصاً اثناء النزهات . كاتيا مغرمة بالطبيعة ، واركادي يحب الطبيعة ايضا بالرغم من انه لم يجرؤ على الاعتراف بذلك . كانت اودينتسوفا ، شأنها في ذلك شأن بازاروف ، غير مولعة بالطبيعة . ولم تمر الفرقة المستمرة تقريباً بين صاحبينا دون ان تترك اثرها : فقد اخذت علاقاتهما تتغير .

كف بازاروف عن التحدث الى اركادي بشأن اودينتسوفا ، بل وكف حتى عن نقد «عاداتها الارستقراطية» . ولكنه ظل كالسابق يمتدح كاتيا ، سوى انه نصح بتهدئة الميول العاطفية لديها . الا ان مدائحه كانت مستعجلة ونصائحه جافة . وعلى العموم صار يتحدث مع اركادي اقل بكثير من السابق . . . لقد بدا وكأنه يتحاشاه ويخجل منه . . .

لاحظ اركادي ذلك كله ، ولكنه احتفظ بملاحظاته لنفسه .

كان السبب الفعلي لهذا «التغير الطارئ» هو الشعور الذي اوحته اودينتسوفا لبازاروف ، فصار يعذبه ويخرجه عن طوره ، في حين كان بازاروف مستعداً للتخلي عنه في الحال بقهقهة مستهينة وشتائم وقحة لو ان احداً ما لمح مجرد تلميح الى احتمال وقوع ما يعتمل في دخيلته . كان بازاروف من اشد هواة النساء والجمال الانثوي ، ولكنه نعت الحب المثالي ، او الرومانسي على حد تعبيره ، بالهراء وبالحماقة التي لا تغتفر ، واعتبر المشاعر الفروسية بمثابة القبح او المرض ، واعرب اكثر من مرة عن استغرابه من عدم زج توغينبورغ * مع جميع شعراء الفروسية العاطفيين في دار المجاذيب . كان يقول : «اذا اعجبتك امرأة فحاول ان تحصل منها على مبتغاك ، واذا لم يكن هذا ممكناً ، فلا داعي لشيء ، حول وجهك عنها : فالكون غير متوقف عليها» . لقد راقت له اودينتسوفا . وكانت الاشاعات المنتشرة عنها وطلاقة افكارها واستقلالها وميلها دون شك اليه – كل ذلك كان لصالحه حسب الظاهر . لكنه سرعان ما ادرك بانه «لن يحصل منها على مبتغاه» ، وبانه لا يمتلك القوى الكافية ، ويا لدهشته ، لتحويل وجهه عنها . كان دمه يفور حالما يتذكرها . وكان بوسعه ان يكبح دمه بسهولة ، لكن شيئاً آخر اجتاحه ، شيئا ما كان يتوقعه ابداً ، شيئاً كان يسخر هو منه دائماً ، مما اهان كبرياءه اشد اهانة . وصار في احاديثه مع آنا سيرغييفنا يعرب باكثر من السابق عن احتقاره اللاابالي لكل ما هو رومانسي ، ولكنه عندما يخلو بنفسه يشتاط غضبا لوجود الرومانسي في دخيلته هو . وعند ذاك

* بطل ملحمة شيلر «الفارس توغينبورغ» . – **المترجم** .

يتوجه الى الغابة ويجوبها بخطوات واسعة محطماً الاغصان التي تصادفه ومسلطاً اللوم بصوت خافت على اودينتسوفا وعلى نفسه ، او يرتقي بيدر العشب المجفف في العنبر ثم يغلق عينيه بعناد ليرغم نفسه على النوم ، الامر الذي لا يتيسر له على الدوام بالطبع . وعلى حين غرة يخيل اليه ان هاتين العينين الذكيتين ستحدقان في عينيه برقة ، اجل برقة . . . وعند ذاك ينتابه الدوار ، وينسى نفسه للحظة الى ان يثور الحنق فيه من جديد . كان يلوم نفسه على مختلف انواع الافكار «الشائنة» ، كما لو ان الشيطان هو الذي اغواه . ويخيل اليه احياناً ان تغيراً يطرأ على اودينتسوفا ايضاً ، وان شيئاً ما متميزاً صار يبدو على ملامح وجهها ، لربما . . . ولكنه آنذاك كان يضرب الارض برجله عادة او يصر على اسنانه ويهدد نفسه بقبضته .

والحال فان بازاروف لم يكن على خطأ تماما . لقد ادهش اودينتسوفا وشغل بالها فصارت تفكر فيه كثيراً . لم تكن تشعر بالملل في غيابه ولم تكن تتوق اليه ، لكن ظهوره ينعشها على الفور ، وهي تنفرد به برغبة وتتحدث اليه برغبة حتى عندما يغيظها او ينال من ذوقها ومن عاداتها الرشيقة . كانت كأنما تريد ان تختبره وتختبر نفسها .

ذات مرة اعلن بصوت متجهم وعلى نحو مباغت ، اثناء تجوله معها في البستان ، انه ينوي السفر قريبا الى ابيه في القرية . . . شحب لونها وكأنما تعرض قلبها لوخزة ، وخزة حادة اثارت دهشتها وجعلتها فيما بعد تفكر لأمد طويل فيما يعنيه ذلك . وما كان بازاروف ليعلن لها عن رحيله بغية اختبارها ومعرفة ما يمكن ان يؤول اليه ذلك : فهو لم يكن يلجأ الى الكذب ابداً . اذ انه تقابل في صباح ذلك اليوم مع خادمه السابق تيموفييتش الذي اصبح وكيلاً لابيه . وهو عجوز ضئيل محنك ورشيق بشعره الاصفر الباهت ووجهه المتورد المسفوع وعينيه المنكمشتين المنطويتين على دمعتين دقيقتين . فعلى حين غرة مثل امام بازاروف تيموفييتش هذا بقفطانه القصير من الجوخ السميك الرمادي المائل الى الزرقة ، وجزمته المطلية بالقطران ، وهو متمنطق بحزام جلدي مقطوع الطرفين . هتف به بازاروف قائلا :

– هيا ، مرحباً يا شيخ !

– مرحباً يا سيدي يفغيني فاسيليفيتش – اجاب العجوز وابتسم منشرحاً ، فاكتسى وجهه فوراً بالتجاعيد والغضون .

– لمَ جئت ؟ ارسلوك لاستدعائي ، اليس كذلك ؟

– معذرة ، يا سيدي ، كيف يجوز ذلك ؟ – تمتم تيموفييتش (وقد تذكر الوصية الصارمة التي تلقاها من سيده الأب قبيل رحيله) – كنت متوجهاً الى المدينة لاداء بعض الشؤون ، فسمعت بوجود حضرتكم ، ولذا عرجت في طريقي ، لأنظر الى طلعتكم البهية . . . فكيف لي ان اقلقكم ؟ !

– لا تكذب – قاطعه بازاروف –فهل يمر الطريق الى المدينة من هنا ؟

انكمش تيموفييتش ولم يحر جواباً .

– كيف حال والدي ؟ هل هو بصحة جيدة ؟

– الحمد لله ، يا سيدي .

– ووالدتي ؟

– ايرينا فلاسيفنا كذلك ، والحمد لله .

– لا بد انهما ينتظرانني ، اليس كذلك ؟

مال العجوز براسه الضئيل جانباً وقال :

– آه ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، كيف لا ينتظران ؟ ! الله شاهد على ما اقول . يتفطر القلب ألماً عندما انظر الى والديكم .

– كفى ، كفى ، لا تبالغ . قل لهما بانني ساحضر قريباً .

– سمعاً وطاعة ، يا سيدي – اجاب تيموفييتش وتنفس الصعداء .

خرج من الدار وهو يرتدي عمرته ويشدها على راسه بكلتا يديه . صعد الى عربته الخفيفة المزرية التي تركها عند البوابة ، ثم اسرع بها خبباً ، ولكن ليس باتجاه المدينة .

في مساء ذلك اليوم كانت اودينتسوفا جالسة في غرفتها مع بازاروف ، بينما راح اركادي يجوب القاعة منصتاً الى عزف كاتيا . وقبعت الاميرة في غرفتها في الطابق العلوي ، فهي على العموم لا تطيق الضيوف ، وخصوصاً هذين «الوقحين الجديدين» كما وصفتهما . اعتادت ان تجلس منتفخة الاوداج في سائر غرف المنزل ، ولكنها عندما تختلي في غرفتها تنفجر احيانا امام وصيفتها بشتائم

مقذعة بحيث تهتز قلنسوتها على رأسها مع شعرها المستعار من جراء الانفعال . وكانت اودينتسوفا على علم بذلك .

بدات كلامها متسائلة :

– كيف عزمت على السفر دون ان تفي بوعدك ؟

انتفض بازاروف :

– اي وعد يا سيدتي ؟

– هل نسيت ؟ لقد اردت ان تقدم لي بضعة دروس في الكيمياء .

– لا حيلة في الامر ! والدي ينتظرني . ولا يجوز ان اتاخر اكثر مما تاخرت . بالمناسبة يمكنك ان تقراي كتاب «مبادئ الكيمياء العامة» من تاليف بيلوز وفريمي) * فهو كتاب جيد بلغة واضحة . وستجدين فيه كل ما تحتاجين اليه .

– افلا تتذكر انك اكدت لي ان الكتاب لا يمكن ان يعوض عن . . . نسيت تعبيرك ، ولكنك تعرف ما اريد ان اقول . . . هل تتذكر ؟

– لا حيلة في الامر يا سيدتي ! – كرر بازاروف .

فقالت اودينتسوفا بصوت اوطأ :

– ما الداعي للسفر ؟

القى عليها بنظرة ومالت هي براسها الى مؤخرة المقعد وصلبت يديها العاريتين حتى المرفقين على صدرها . بدت شاحبة في ضوء المصباح الوحيد المغطى باباجور من قماش مخرم . وكان فستان ابيض فضفاض يلفعها كلياً بطياته الناعمة ، وبالكاد بدا طرفا رجليها المتصالبتين ايضاً .

اجابها بازاروف بسؤال : وما الداعي للبقاء ؟

التفتت اودينتسوفا :

– كيف ؟ افلست مسروراً عندي ؟ ام انك تظن بانه لن ياسف عليك احد هنا ؟

– انا واثق من ذلك .

---

* في الاصل بالفرنسية Pelouse et Frémy « Notions générales de Chimie » جول بيلوز (١٨٠٧–١٨٦٧) وادموند فريمي (١٨١٤–١٨٩٤) عالمان فرنسيان صدر كتابهما في باريس عام ١٨٥٣ .



صمتت اودينتسوفا قليلاً ثم قالت :

– عبثاً تفكر هكذا . وبالمناسبة انا لا اصدقــك . فليس بامكانك ان تقول ذلك بجد – ظل بازاروف جالساً بلا حراك – لماذا الصمت ، يا يفغيني فاسيليفيتش ؟

– ما الذي يمكنني ان اقوله لك ؟ لا داعي للتأسف على الناس عموماً ، وعليّ خصوصاً .

– لماذا ؟

– انا شخص مستقيم موحش ، ولا اجيد الكلام .

– انك تنشد المديح يا يفغيني فاسيليفيتش .

– ليس ذلك من عاداتي . افلا تعلمين ان التمتع بالجانب الجميل من الحياة ، ذلك الجانب الذي تعتزين به انت ، ليس في مقدوري ؟

اخذت اودينتسوفا تمضغ طرف منديلها اليدوي ثم قالت :

– فكر ما شاء لك . اما انا فسأشعر بالضجر عندما تسافر .

فقال بازاروف :

– سيظل اركادي عندكم .

هزت اودينتسوفا كتفيها وكررت من جديد :

– سأشعر بالضجر .

– على كل حال لن تضجري لأمد طويل .

– لماذا تفترض ذلك ؟

– لانك قلت لي ان الضجر لا ينتابك الا عندما يصيب الخلل النظام لديكم . وقد بنيت حياتك على نحو صائب لا خلل فيه ، بحيث لن يبقى فيها مجال لا للضجر ولا للسأم . . . بل ولا لأية مشاعر مريرة .

– هل صحيح ما تقول ؟ هل بنيت حياتـــي على نحو صائب حقاً ؟

– كيف لا ؟ ! الساعة ، مثلاً ، ستدق العاشرة بعد لحظات وانا اعرف مسبقاً انك ستطردينني .

– كلا ، لن اطردك ، يا يفغيني فاسيليفيتش . بوسعك ان تبقى . افتح هذه النافذة . . . فقد ضاقت انفاسي شيئاً .

نهض بازاروف ودفــع النافــذة فانفتحت مدويــــةً على مصراعيها . . . لم يكن يتوقع انها ستنفتح بهذه السهولة ، ثم ان

بديه ترتعشان . اطلت على الغرفة ليلة ناعمة حالكة بسماء سوداء تقريباً واشجار ينبعث منها حفيف خفيف ونسيم طلق عليل تفوح منه رائحة طرية .

فقالت اودينتسوفا :

– اسحب الستارة واجلس . اريد ان اثرثر معك قبيل رحيلك . حدثني قليلاً عن شخصك ، فانت لا تتكلم عن نفسك ابداً .

– احاول ، يا آنا سيرغييفنا ، ان اتحدث معك عن اشياء نافعة .

– انت في منتهى التواضع . . . ولكن بودي ان اعرف شيئاً عنك ، عن اسرتك ، عن والدك الذي تتركنا من اجله .

ففكر بازاروف : «لماذا تقول مثل هذا الكلام ؟» ثم نطق بصوت مسموع :

– ليس في ذلك ما يسر ابداً . وخصوصاً بالنسبة لك . فنحن من سواد البشر . . .

– اما انا فارستقراطية برايك ، اليس كذلك ؟

رفع بازاروف بصره اليها وقال بحدة فيها شيء من المبالغة :

– بلى .

ضحكت بسخرية وقالت :

– يخيل اليّ انك لا تعرفني الا قليلاً ، لاسيما وانك تؤكد ان الناس جميعاً متشابهون ولا داعي لدراستهم . سوف اقص عليك قصة حياتي كاملة في وقت ما . . . ولكن حدثني عن حياتك اولاً .

فقال بازاروف :

– انني لا اعرفك الا قليلاً . ربما انت على حق . ولعل كل انسان لغز في الواقع . فلو تناولناك انت مثلاً ، انك تشعرين بالغربة في المجتمع ، وهو يثقل عليك ، ومع ذلك دعوت طالبين ليسكنا عندك حيناً من الوقت . ثم لماذا تقيمين في الريف ، انت التي تتحلين بالحصافة والجمال ؟

– كيف ؟ ماذا قلت ؟ انا اتحلى . . . بالجمال ؟

سألت اودينتسوفا منتعشة . فعبس بازاروف ثم قال :

– لا فرق ، اردت ان اقول اني لا افهم جيداً لماذا تقيمين في الريف ؟
– انك لا تفهم . . . ولكنك تفسر ذلك لنفسك بشكل ما ، أليس كذلك ؟
– اجل . . . يخيل اليّ انك باقية طوال الوقت في مكان واحد لانك دللت نفسك ولانك تحبين اسباب الراحة حباً جماً ، ولا تبالين باي شيء آخر .
ضحكت اودينتسوفا من جديد :
– انت لا تريد قطعاً ان تصدق باني يمكن ان اولع ؟ . .
فنظر اليها بازاروف عابساً :
– بحب الاستطلاع ، ربما . ولكن ليس بشيء آخر .
– حقاً ؟ ها انا افهم لماذا تآلفنا . ان الطيور على اشكالها تقع .
– تآلفنا . . . – دمدم بازاروف بصوت مكتوم .
– آه ! لقد نسيت بانك تنوي السفر .
نهض بازاروف . كان المصباح ينور بخفوت وسط الغرفة المنعزلة العاطرة التي اكتنفها الظلام بعض الشيء . وكانت طراوة الليل المستثيرة تتسرب عبر الستارة التي تتموج بين الفينة والفينة ، ويتهادى الهمس الليلي السحري . لم تحرك اودينتسوفا ساكناً ، لكن اضطراباً خفياً اخذ يدب فيها تدريجياً . . . وانتقل هذا الاضطراب بالتدريج الى بازاروف الذي ادرك اخيراً انه اختلى بامراة شابة رائعة . . . سالت متباطئة : – الى اين انت ؟
لم يحر جواباً وارتمى على الكرسي . فواصلت كلامها بنفس الصوت دون ان تحيد ببصرها عن النافذة :
– انت تعتبرني انسانة هادئة منعمة مدللة . بينما انا واثقة من انني في منتهى التعاسة .
– التعاسة ! ما سببها ؟ هل تستحق تلك الاقاويل الدنيئة ان تعيريها ادنى اهتمام ؟
عبست اودينتسوفا ، واحزنها ان بازاروف فهمها على هذا النحو فقالت :
– هذه الاقاويل عاجزة حتى عن اثارة الضحك ، يا يفغيني فاسيليفيتش . وانا اربأ بنفسي عن ان اجعلها تقلقني . انني

تعيسة لانني . . . لست راغبة في العيش . انت تنظر اليّ بارتياب ، وتفكر ان التي تتكلم معك «ارستقراطية» غارقة في المانتيلا والثياب الفاخرة وجالسة على مقعد مخملي . لا انكر اني اهوى ما وصفته بأسباب الراحة ، ومع ذلك لا ارغب كثيرا في العيش . حاول ان توفق بين هذين الضدين كما يحلو لك . ولكن ذلك كله في نظرك ، رومانسية .
فهز بازاروف رأسه وقال :
– انك انسانة حرة ثرية معافاة ، فما الذي يعوزك ؟ وماذا تريدين بعد ؟
فكررت اودينتسوفا قوله وتنهدت :
– ماذا اريد ! انا مرهقة للغاية ، ولقد شخت ، حتى خيل اليّ انني اعيش من زمان بعيد جداً . اجل ، لقد شخت – اضافت وهي تسحب بهدوء اطراف الطرحة فتغطي بها يديها العاريتين . تقابلت عيناها مع عيني بازاروف ، فاحمر محياها بعض الشيء :
– خلفت الكثير من الذكريات : الحياة في بطرسبورغ ، والثراء ، ثم الفقر ، ثم وفاة ابي ، والزواج ، ثم الرحلة الى الخارج . . . الذكريات كثيرة ، ولكن لا قيمة لها . وامامي طريق طويل ، طويل للغاية ، بينما ليس لديّ هدف . . . ولذا فانا لست راغبة في السير .
– هل خابت آمالك الى هذه الدرجة ؟ – سألها بازاروف ، فاجابته متمهلة :
– كلا . ولكني لست قانعة . يخيل اليّ لو اني استطعت ان اتعلق بشيء ما تعلقاً شديداً . . .
فقاطعها بازاروف :
– بودك ان تحبي ، لكنك لا تستطيعين . وهذا هو مبعث تعاستك .
انشغلت اودينتسوفا بتفقد ردني طرحتها ، ثم تساءلت :
– الا استطيع ان احب ؟
– امر مستبعد . ولكن عبثاً وصفتُ حالتك بالتعاسة . على العكس فالذي يحدث له ذلك يستحق الشفقة على الاكثر .
– من تعني ؟
– الذي يحب .

– ومن اين لك ان تعرف ؟
– بالسماع – اجاب بازاروف حانقاً ، وفكر في نفسه : «انك تتغنجين . انك ضجرة وتتحرشين بي لعدم انشغالك بشيء ، بينما انا . . .» وكاد قلبه يتفطر حقاً . فقال وقد مال بجسمه كله الى امام وهو يتلاعب باهداب المقعد :
– ثم انك متشددة جداً ، على ما اعتقد .
– ربما . في رايي : اما كل شيء ، واما لا شيء . حياة بحياة . فاذا استأثرت بحياتي هبني حياتك ، وعند ذاك لن يكون هناك مجال للاسف ولن يكون هناك خط رجعة . والا فلا داعي لشيء .
فقال بازاروف :
– حقاً . هذا شرط مشروع . لكن ما يدهشني هو انك حتى الآن . . . لم تعثري على ما ترغبين .
– وهل تظن ان من السهل الاستسلام كلياً لاي شيء مهما كان ؟
– ليس ذلك بالامر السهل اذا اخذ المرء يتأمل ، وينتظر ، بل ويقيم نفسه بنفسه ، اي يعتز بها . اما الاستسلام بدون تفكير فهو في منتهى البساطة .
– كيف لا يعتز المرء بنفسه ؟ فاذا لم تكن لي اية قيمة فمن ، يا ترى ، بحاجة الى اخلاصي ؟
– ليس من شاني ، بل من شان الانسان الآخر ، ان يقدر قيمتي . الامر الرئيسي هو اجادة الاستسلام .
مالت اودينتسوفا الى الامام قليلاً فابتعد ظهرها عن مؤخرة المقعد ، وقالت :
– انك تتكلم وكانما قد جربت ذلك كله .
– اقول هذا الكلام للمناسبة فقط . فانت تعرفين ، يا آنا سيرغييفنا ، ان ذلك كله ليس من اختصاصي .
– ولكن بوسعك انت ان تستسلم ، اليس كذلك ؟
– لا ادري . لا اريد التباهي .
لم تقل اودينتسوفا شيئاً ، فلزم بازاروف الصمت .
تهادت اليهما اصوات البيانو من غرفة الاستقبال . فقالت اودينتسوفا :
– ما الذي جعل كاتيا تعزف في هذا الوقت المتاخر ؟ !

فنهض بازاروف وقال :
– اجل ، الوقت متاخر بالفعل ، وقد حان موعد نومك .
– تمهل ، ما الداعي للعجلة ؟ . . اريد ان اقول لك كلمة واحدة .
– ما هي ؟
– تمهل – قالت اودينتسوفا همساً .
تجمدت نظرتها على بازاروف وكانما هي تتفحصه باهتمام .
جاب الغرفة بعض الشيء ثم اقترب منها على حين غرة وقال باستعجال «وداعاً» وشد على يدها بقوة كادت تجعلها تصرخ ، ثم خرج . رفعت اصابعها المتلاصقة الى شفتيها ونفخت عليها ، ثم نهضت من المقعد بقفزة على الفور وتوجهت الى الباب بخطوات سريعة وكانما تريد اعادة بازاروف . . . دخلت الى الغرفة في تلك اللحظة وصيفة تحمل دورقاً زجاجياً على صينية فضية . توقفت اودينتسوفا واشارت على الوصيفة بالانصراف ثم جلست مجدداً وغرقت في التفكير من جديد . انفكت ضفيرتها وتهدلت كافعى سوداء على كتفها . ظل المصباح ينير غرفتها لامد طويل ، وظلت هي لامد طويل بلا حراك ، سوى انها كانت تمسد باصابعها بين الفينة والفينة ذراعيها اللتين مسهما برد الليل .
اما بازاروف فقد عاد بعد زهاء ساعتين الى غرفة نومه منكمشاً متجهماً وقد تبللت جزمته بالندى . وجد اركادي جالساً قرب الطاولة وبيده كتاب وسترته مشدودة الازرار حتى العنق . فساله بازاروف وكانما في صوته نامة زعل :
– ألم تنم بعد ؟
فقال اركادي دون ان يجيب على سؤاله :
– جلستَ طويلاً اليوم مع آنا سيرغييفنا .
– اجل ، جلست معها عندما كنتما ، انت وكاتيا ، تعزفان على البيانو .
– انا لم اعزف . . . – اراد اركادي ان يواصل كلامه ، ولكنه لزم الصمت . لقد احس بان الدموع ستنهمر من عينيه ، ولكنه لا يريد البكاء امام صديقه الساخر .

عندما حضرت اودينتسوفا لتناول الشاي قبيل الافطار صباح اليوم التالي ظل بازاروف جالساً لامد طويل وقد انحنى على قدحه . ثم نظر اليها فجأة . . . فالتفتت اليه وكأنما تلقت دفعة منه . خيل اليه ان وجهها قد شحب شيئاً خلال الليل . وسرعان ما انزوت في غرفتها حتى حان موعد الافطار . كان الطقس ممطراً منذ الصباح ، ولم يكن بالامكان التنزه . فالتأم الجمع كله في غرفة الاستقبال . احضر اركادي آخر عدد من احدى المجلات واخذ يقرأه بصوت مسموع . فبدت الدهشة على وجه الاميرة ، كما هي العادة ، في بادىء الامر ، وكأنما اقترف هو جريرة معيبة ، ثم ركزت انظارها الحاقدة عليه ، ولكنه لم يعبأ بها .

فقالت آنا سيرغييفنا لبازاروف :

– فلنذهب الى مكتبي . . . يا يفغيني فاسيليفيتش . . . اريد ان اسالك شيئاً . . . لقد ذكرت امس اسم كتاب . . .

نهضت وتوجهت الى الباب . فتلفتت الاميرة حواليها ولسان حالها يقول : «انظروا ، انظروا ، ما اشد دهشتي !» ثم ركزت انظارها من جديد على اركادي ، ولكنه رفع صوته وتبادل النظرات مع كاتيا الجالسة قربه وواصل القراءة .

ادركت اودينتسوفا مكتبها بخطوات سريعة . وتبعها بازاروف بخفة دون ان يرفع بصره ، ولكنه كان يتلقف بمسمعه الحفيف الرقيق المنبعث من الفستان الحريري السائر امامه . جلست اودينتسوفا في نفس المقعد الذي جلست عليه بالامس ، وشغل بازاروف المكان الذي شغله بالامس .

فقالت هي بعد فترة صمت قصيرة :

– ما اسم ذلك الكتاب ؟

فاجاب بازاروف :

– («مبادىء الكيمياء العامة» من تاليف بيلوز وفريمي)* . ويمكن ان اوصيك كذلك بدراسة : («المنهج الاولي في الفيزياء

---

* في الاصل بالفرنسية .

19—20

التجريبية» من تاليف غانو)* . فالرسوم في هذا الكتاب اكثر وضوحاً ، وعلى العموم فان هذا المنهج . . .

مدت اودينتسوفا يدها وقالت :

– معذرة ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، فقد دعوتك الى هنا ليس بقصد مناقشة المناهج الدراسية . بودي ان نستأنف حديث البارحة . فقد انصرفت انت على نحو مفاجىء . . . هل يزعجك ذلك ؟

– انا في خدمتك ، يا آنا سيرغييفنا . ولكن عم تحدثنا البارحة يا ترى ؟

صوبت اودينتسوفا نظرة منحرفة الى بازاروف :

– يخيل اليّ اننا تحدثنا عن السعادة . حدثتك انا عن نفسي . وبالمناسبة فقد ذكرت كلمة «السعادة» . فاخبرني ما الذي يجعلنا ، حتى عندما نتمتع بالموسيقى ، مثلاً ، او بأمسية جيدة او بحديث مع اناس طيبين ، نتصور ذلك كله مجرد اشارة الى سعادة لا حدود لها ، سعادة موجودة في مكان ما ، غير السعادة الفعلية ، اي السعادة التي نتمتع بها نحن ؟ ما السبب في ذلك ؟ ام انك ربما لا تشعر بشيء من هذا القبيل ؟

فاعترض بازاروف :

– انت تعرفين المثل القائل «الحال افضل في ديار الآخرين» . ثم انك نفسك قلت البارحة بانك غير قانعة . اما انا فلا تتبادر الى ذهني مثل هذه الافكار .

– ربما تبدو لك مضحكة ؟

– كلا ، ولكني لا افكر بها .

– حقاً ؟ اتعلم باني تواقة جداً الى معرفة ما تفكر به **انت** ؟

– كيف ؟ انني لا افهمك .

– تصور ، لقد اردت ان نتصارح من زمان . ولا داعي لان اقول لك انك لست من الناس العاديين . فانت تعرف ذلك بنفسك . انك لا تزال في طور الشباب والحياة كلها امامك . فالامَ تعد نفسك ؟ وما هو المستقبل الذي ينتظرك ؟ اقصد : اي هدف تنوي تحقيقه ؟ والى اين تسير ؟ وما الذي تنطوي عليه جوانحك ؟ وباختصار : فمن انت ؟ وما هي هويتك ؟

* في الاصل بالفرنسية Ganot, «Traité élémentaire de physique expérimentale» ادولف غانو عالم فيزياوي ورياضي (١٨٠٤–١٨٨٧) .

– انك تثيرين دهشتي ، يا آنا سيرغييفنا . انت تعلمين باني ادرس العلوم الطبيعية . اما من انا . . .

– اجل ، من انت ؟

– لقد اخبرتك باني ساكون طبيباً في احد الاقضية .

ندت عن آنا سيرغييفنا حركة غير متانية :

– لماذا تقول ذلك ؟ انك لا تؤمن بما تقول . بوسع اركادي ان يجيبني على هذا النحو ، وليس انت .

– فهل اركادي اسوأ . . .

– كفاك . هل يجوز ان تقتنع بمثل هذا العمل المتواضع ؟ اولست انت الذي اكدت دوماً ان الطب غير موجود بالنسبة لك ؟ كيف لك ، بانفتك المعروفة ، ان تصبح طبيباً في احد الاقضية ؟ ! انك تجيبني على هذا النحو لكي تتخلص مني لانك لا تثق بي قيد شعرة . ولكن هل تعلم ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، بانني يمكن ان افهمك : كنت بنفسي فقيرة انوفا مثلك ، ولربما اجتزت نفس المحن التي تجتازها .

– كل ذلك شيء طيب ، يا آنا سيرغييفنا ، ولكن معذرة . . . فانا على العموم لم اعتد الحديث عن نفسي . ثم ان الهوة بينك وبيني سحيقة . . .

– اية هوة ؟ ستقول لي من جديد اني ارستقراطية ، اليس كذلـــك ؟ كفاك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ! اظن اني اثبت لك . . .

– ثم – قاطعها بازاروف – ثم ما الداعي للكلام والتفكير في مستقبل لا يعتمد علينا بقسمه الاعظم ؟ فاذا حدث وعملت شيئاً مفيداً فذلك امر رائع ، واذا لم يحدث فساكون ، على الاقل ، قانعاً باني لم اثرثر عبثاً قبل الاوان .

– انت تنعت الحديث الودي بالثرثرة . . . ام انك ربما لا تعتبرني ، كامراة ، انساناً يستحق ثقتك ؟ فانت تحتقرنا جميعاً .

– انني ، يا آنا سيرغييفنا ، لا احتقرك بالذات ، وانت تعرفين ذلك .

– كلا ، لا اعرف شيئاً . . . ولكن فلنفترض اني افهم عدم رغبتك في الكلام عن عملك المرتقب ، بيد ان ما يعتمل فيك الآن . . .

– يعتمل ! فهل انا دولة او مجتمع ؟ ! على كل حال ليس ذلك امرا هاماً . ثم هل يستطيع المرء ان يتكلم بصوت جهوري دوماً عن كل ما «يعتمل» فيه ؟

– انا لا افهم المانع في الافصاح عن كل ما يشعر به المرء .

– وهل تستطيعين ذلك **انت** ؟ – سالها بازاروف ، فاجابت بعد تردد قصير :

– استطيع .

طاطا بازاروف راسه ، وقال :

– انت اسعد مني .

فالقت عليه آنا سيرغييفنا نظرة متسائلة ، وواصلت كلامها :

– فليكن . ومع ذلك هناك شيء يقول لي اننا لم نتآلف عبثاً ، واننا سنكون صديقين حميمين . انا واثقة من ان توترك هذا ، ان صح القول ، او تحفظك سيتلاشى في آخر المطاف .

– هل لاحظت لديّ تحفظاً . . . او توتراً على حد تعبيرك ؟

– اجل .

نهض بازاروف واقترب من النافذة .

– وتريدين ان تعرفي سبب هذا التحفظ ، وتعرفي ما يعتمل في دخيلتي ؟

– اجل – كررت اودينتسوفا بخوف غامض .

– الن تزعلي مني ؟

– كلا .

– كلا ؟ – كان بازاروف واقفاً وظهره اليها – فاعلمي اذن اني احبك بغباء وجنون . . . هذا ما فعلته بي .

مدت اودينتسوفا كلتا يديها الى الامام ، بينما التصقت جبهة بازاروف بزجاج النافذة . كان يتنفس بعسر ، وكان بدنه يرتعش كلياً على ما يبدو . لكن ما انتابه لم يكن هو ارتعاشة وجل الشباب ولا الذعر اللذيذ من الاعتراف الاول . لقد نبض في دخيلته هوى شديـــد مرهـــق ، هوى شبيه بالغيظ ، ولربما هـــو الغيظ ذاته . . .

ارتعبت اودينتسوفا من ذلك وشعرت بالعطف على بازاروف فقالت بصوت رنت فيه نغمة عفوية رقيقة :

– يفغيني فاسيليفيتش .

استدار بسرعة والقى عليها نظرة نهمة ، ثم امسك بكلتا يديها واحتضنها بغتة .

لم تتخلص من احضانه فوراً . لكنها بعد لحظة صارت تقف بعيداً في الركن وتنظر الى بازاروف من هناك . وهرع هـــو اليها . . .

فقالت برعب واستعجال :

— لم تفهمني .

وخيل اليهـا انه لو خطا خطوة اخرى لصرخت . . . عض بازاروف شفته وانصرف .

بعد نصف ساعة سلمت الخادمة تذكرة من بازاروف الى آنا سيرغييفنا . كان فيها سطر واحد لا غير : «هل يتعين عليّ السفر اليوم ، ام يمكنني البقاء الى غد ؟» فاجابته آنا سيرغييفنا : «اما الداعي للسفر ؟ لم اكن افهمك وانت لم تفهمني» وفكرت : «انني لم اكن افهم نفسي ايضاً» .

لم تغادر غرفتها حتى الغداء . كانت تجوبها جيئة وذهاباً ، وقد اشبكت يديها خلف ظهرها . لم تكن تتوقف الا نادراً امام النافذة تارةً وامام المرآة تارةً اخرى ، لتمسح بالمنديل على نحو بطيء بقعة ساخنة خيل اليها انها ظهرت على جيدها . كانت تسائـــل نفسها عما حدا بها الى ان «تسعى» ، على حد تعبير بازاروف ، الى جعله يصارحها ، وعما اذا كانت تتوقع شيئاً . . . فقالت بصوت مسموع : «انا المذنبة . ولكنني لم اكن اتوقع ذلك» . غرقت في تأملاتها واحتقنت بصبغة حمراء حين تذكرت وجه بازاروف الذي بدا متوحشاً تقريباً عندما هرع اليها . . .

«ام ان . . . — نطقت بذلـــك فجاة ثم توقفت ، فنفضت شعرها . . . وشاهدت نفسها في المرآة . بدا راسها المائل الى الوراء ، بابتسامة خفية في عينيها وشفتيها المنفرجتين بالكاد ، وكانما يشير عليها في تلك اللحظـــة بشيء خجلت منه هي نفسها . . .

فقررت في آخر الامر : «كلا . الله يعلم إلامَ سيقودنا ذلك . لا تجوز المخاطرة . فالهدوء ، مع ذلك ، هو افضل ما في الكون» .

لم يتزعزع هدوؤها . ولكن الغم اعتراها حتى انها بكت مرة دون ان تعلم السبب . بيد انها لم تبك للشعور بالاهانة ، فهي لم

تشعر بانها قد اهينت ، وانما تتصور نفسها ، على الاكثـــر ، مذنبة . فبتأثير مختلف المشاعر الغامضة والاسف على الحياة الآفلة والرغبة في التجديد حملت نفسهـــا على الوصول الى خط معين وارغمتها على التطلع الى ما وراءه ، فرأت وراءه ليس هوة سحيقة ، بل خواء . . . او ما هو ابشع من الخواء .

١٩

مهما بلغت قدرة اودينتسوفا على ضبط نفسها وتجاوز مختلف الاباطيل ، فقد شعرت بعدم الارتياح عندما حضرت للغداء في غرفة الطعام . وبالمناسبة فقد مضى الغداء بصورة مرضية نوعاً ، حيث وصل بورفيري بلاتونيتش واورد مختلف الاخبار المضحكة ، اذ كان قد عاد من المدينة لتوه . وقال ، فيما قال ، ان المتصرف امر معاونيه الخاصين ان يرتدوا المهاميز تحوطاً لما اذا كان سيرسلهم راكبين الى مكان ما على جناح السرعة . وكان اركادي يتحدث مع كاتيا بصوت خافت ويداري الاميرة بتصنع ، بينما لزم بازاروف الصمت متجهماً متعنتاً . نظرت اودينتسوفا مرتين على نحو مباشر وبدون مواربة الى وجهه السوداوي الصارم بعينيه الخفيضتين واثر التصميم الانوف باد في كل ملامحـــه ، وفكرت في نفسها : «كلا . . . ثم كلا . . .» بعد الغداء توجهت مع الجميع الى البستان . وعندما لاحظت ان بازاروف يريد التحدث معها خطت بضع خطوات الى الجانب وتوقفت . فاقترب منها وقال بصوت مكبوت دون ان يرفع اليها انظاره هنا ايضاً :

— يتعين عليّ ان اعتذر منك ، يا آنا سيرغييفنا ، فانت غاضبة عليّ ولا بدّ .

فاجابته اودينتسوفا :

— لست غاضبة عليك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، ولكنني متكدرة .

— وهذا اسوا . على كل حال فقد عوقبت انا بما فيه الكفاية . اذ ليس هناك اكثر حماقـــة من موقفي ، وانت ، على ما اظن ،

توافقينني في ذلك . لقد كتبت لي : ما الداعي للسفر ؟ بينما لا استطيع البقاء ولا اريده . ولن اكون هنا غداً .

– يا يفغيني فاسيليفيتش ، لماذا . . .

– لماذا اسافر ؟

– كلا ، ليس هذا ما اردت ان اقوله .

– الماضي لا يعود ، يا آنا سيرغييفنا . . . وذلك شيء يجب ان يحدث عاجلاً ام آجلاً . وبالتالي علي ان اسافر . انني اعرف شرطاً واحداً يمكنني ان ابقى اذا تحقق ، ولكن ذلك الشرط لن يتحقق ابداً . فانت ، ومعذرة على تجاسري ، لا تحبينني ولن تحبيني ابداً ، اليس كذلك ؟

لمعت عينا بازاروف للحظة من تحت حاجبيه القاتمين .

لم تجبه آنا سيرغييفنا ، وخطرت على بالها فكرة : «انا اخشى هذا الانسان» . فقال بازاروف وكأنما حزر فكرتها :

– وداعاً .

وتوجه نحو الدار .

تبعته آنا سيرغييفنا بهدوء ، ونادت كاتيا فاصطحبتها ممسكة بساعدها . لم تفارقها حتى المساء . كما لم تلعب الورق ، بل اخذت تضحك ساخرة ، الامر الذي لم يناسب محياها الشاحب المرتبك . تحير اركادي وصار يراقبها كما يفعل الشبان عادة ، فيسائل نفسه على الدوام : ما الذي يعنيه ذلك ؟ انزوى بازاروف في غرفته ، ولكنه عاد لاحتساء الشاي . ارادت آنا سيرغييفنا ان تقول له كلمة طيبة ، ولكنها لم تكن تعرف كيف تبدأ الكلام معه . . .

بيد ان حادثاً غير متوقع اخرجها من المازق . فقد اعلن كبير الوصفاء عن قدوم سيتنيكوف .

يصعب على الكلمات ان تعبر عن السرعة الخرقاء التي اقتحم بها الغرفة داعية التقدم الشاب هذا . فبعد ان صمم ، باللجاجة الملازمة له ، على التوجه الى القرية ، الى امراة لا يعرفها الا بالكاد ولم تكن قد دعته لزيارتها ابداً ، ولكنها تستضيف ، حسب المعلومات التي وردته ، شخصين ذكيين عزيزين عليه ، فانه مع ذلك شعر بالوجل يتنابه حتى العظام ، وبدلاً من ان ينطق عبارات الاعتذار والتحية التي حفظها عن ظهر قلب مسبقاً دمدم سخافة وهذراً حيث زعم ان يفدوكسيا كوكشينا بعثتـــه ليستفسر عن صحـــة آنا

سيرغييفنا وان اركادي نيكولايفيتش كان يثني دوماً اعظـــم الثناء . . . تلعثم عندما لفظ هذه الكلمة ونسي نفسه حتى انه جلس على قبعته . بيد ان احداً لم يطرده ، بل قدمته آنا سيرغييفنا الى خالتها واختها ، ولذا سرعان ما التقط انفاسه واسترسل في الهذر .

غالباً ما يصبح ظهور الابتذال امراً نافعاً في الحياة : فهو يخفف من حدة الاوتار المشدودة جداً كما يخفف من المشاعر المتعالية او المنفلتة ، اذ تتجلى صلة القربى التي تربط بينها وبينه . بوصول سيتنيكوف اصبح كل شيء اكثر بلادة واكثر بساطة على نحو ما ، حتى ان الجميع تناولوا طعام العشاء بشهية اكبر وتفرقوا للنوم قبل نصف ساعة من المعتاد .

قال اركادي وهو مضطجع على الفراش لبازاروف الذي خلع ملابسه هو الآخر :

– بوسعي ان اكرر لك الآن ما قلته لي انت ذات مرة : «لماذا انت حزين الى هذا الحد وكأنما اديت واجباً مقدساً ؟»

منذ امد غير طويل ساد العلاقات بين الشابين نوع من المداعبة المغالية في عدم التكلف ، الامر الذي يدل دوماً على التذمر الخفي او على الشكوك التي لم تجد لها متنفساً .

فقال بازاروف :

– ساسافر غداً الى والدي .

فنهض اركادي قليلاً واستند الى مرفقه . لقد دهش وفرح لسبب ما . وقال :

– آها ! هذا هو مبعث حزنك ؟

فقال بازاروف متثائباً :

– من يعرف المزيد تداهمه الشيخوخة قبل الاوان .

فواصل اركادي كلامه :

– وآنا سيرغييفنا ، ما هو رأيها ؟

– وما شأن آنا سيرغييفنا ؟

– اقصد هل ستسمح لك ؟

– لست اجيراً عندها .

تأمل اركادي بعض الشيء ، بينما رقد بازاروف ووجهه الى الجدار .

مرت عدة دقائق في صمت . فهتف اركادي على حين غرة :

– يفغيني !

– ماذا ؟

– سأسافر غداً معك .

لم يجب بازاروف بشيء ، فواصل اركادي كلامه :

– غير انني سأذهب الى اهلي . سنتوجه معاً الى قريـ[illegible] خوخلوفو ، وهناك تأخذ خيولاً من فيدوت . يسرني جداً ان اتعرف على والديك ، ولكني اخشى ان اضيق عليهما وعليك . ثم الا [illegible] ستعود الينا فيما بعد ، اليس كذلك ؟

فقال بازاروف دون ان يستدير نحوه :

– تركت حاجياتي عندكم .

فكر اركادي في نفسه : «لِمَ لا يسألني عن السبب في سفري على هذا النحو المفاجئ مثل سفره ؟» . وواصل تأملاته : «حقا [illegible] لماذا اسافر انا ولماذا يسافر هو ؟» . ولم يستطع ان يجد جواباً مرضياً على اسئلته ، بينما طفح قلبه بشيء ما لاذع . واحس بانه سيكون من العسير عليه مفارقة هذه الحياة التي اعتاد عليها . غير ان بقاءه لوحده امر فيه شيء من الغرابة . فصار يحاجـج نفسه : «لقد حدث بينهما شيء ما . فما الداعي لان اثقل عليها بعد سفره ؟ سوف تمل مني نهائياً ، وسأفقد آخر ما لديّ» . واخذ يتصور آنا سيرغييفنا ، ويتصور وجهاً آخر يلوح قليلاً من ورا[illegible] محيا الارملة الشابة المليح .

«اسفي لكاتيا ايضاً !» – همس اركادي للوسادة التي سقطت عليها دمعة . . . ثم نفض شعره بغتة وقال بصوت عال :

– اي شيطان جاء بسيتنيكوف البليد هذا ؟

تحرك بازاروف في سريره ، ثم قال :

– لا تزال انت ، يا اخي ، غبياً على ما اعتقـــد . ان امثال سيتنيكوف يلزموننا . فانا بحاجة الى امثال هؤلاء البلداء ، وعليك ان تفهم ذلك . هل يتعين على الآلهة ان ينشغلوا بالتفاهات ؟ . .

«عجباً !» – فكر اركادي وانفرجت امامه فجأة هوة كبيـــرة [illegible] بازاروف سحيقة لا قرار لها . «ذلك يعني اننا من عداد الآلهة ، او على الاصح انت إله ، وانا من البلداء ، اليس كذلك ؟» .

– اجل ، لا تزال انت غبياً – كرر بازاروف متجهماً .

لم تبد اوديننتسوفا دهشة كبيرة عندما اعلن اركادي في اليوم التالي عن عزمه على السفر مع بازاروف . لقد بدت متعبة شاردة البال . وجهت اليه كاتيا نظرة صامتة جادة ، بينما رسمت الاميرة شارة الصليب تحت وشاحها ، وكان لا بد له ان يلاحظ ذلك . بيد ان سيتنيكوف بالذات اصبح في اشد الانزعاج . كان قد حضر تواً لتناول الفطور في بدلة جديدة انيقة للغاية ، وليست هذه المرة مما يرتديه انصار النزعة السلافية . وفي يوم امس دهش الشخص الذي عين لخدمته من كثرة الملابس التي جلبها معه . وها ان رفيقيه يغادرانه على حين غرة ! تخطر بعض الشيء بخطوات متقاربة ، ثم اندفع كارنب مطارد في طرف الغابة ، واعلن فجاة بشيء من الذعر وبصوت يكاد يقرب من الصراخ انه عازم على السفر ايضاً . ولم تحاول اوديننتسوفا اقناعه بالبقاء .

قال الشاب التعيس مخاطباً اركادي :

– عندي عربة مكشوفة مريحة جداً ، وبوسعي ان اصطحبك ، اما يفغيني فاسيليفيتش فيمكن ان يستقل عربتك ، وسيكون ذلك افضل .

– كيف ؟ طريقك غير طريقي . والمسافة الينا بعيدة .

– لا بأس ، لا بأس ، لدي متسع من الوقت ، ثم على ان ادبر بعض الشؤون في تلك الناحية .

– شؤون تجارة المسكرات ؟ – سأله اركادي بمنتهـــى الازدراء .

بيد ان سيتنيكوف كان في حالة من اليأس والقنوط حتى انه لم يقهقه هذه المرة خلافاً لعادته . فكرر القول :

– أؤكد لك ان العربة مريحة للغاية ، وفيها مكان لنا جميعاً .

فقالت آنا سيرغييفنا :

– لا تكدر المسيو سيتنيكوف بالممانعة .

نظر اليها اركادي وطأطأ رأسه بمهابة .

سافر الضيوف بعد الفطور . ودّع بازاروف اوديننتسوفا فمدت له يدها قائلة :

– سنلتقي مرة اخرى ، اليس كذلك ؟

فأجاب بازاروف :

– كما تأمرين .

– اذن سنلتقي .

كان اركادي اول من خرج من الدار ، فصعد الى عربة سيتنيكوف . وساعده كبير الوصفاء في ذلك بكل اجلال ، في حين كان بود اركادي ان يصفعه او ينتحب . واستقل بازاروف العربة الاخرى . عندما وصلوا الى قرية خوخلوفو انتظر اركادي حتى شد صاحب الخان فيدوت الخيول ، فاقترب من عربة بازاروف وقال له بابتسامته المعهودة :

– يفغيني . خذني معك ، اريد ان اذهب اليكم .

فتمتم بازاروف :

– اصعد .

كان سيتنيكوف وهو يتمشى حول عجلات مركبته ويصفر بحماس ، قد فغر فمه عندما سمع تلك الكلمات ، بينما سحب اركادي ببرود حاجياته من عربة ذاك وصعد الى عربة بازاروف فجلس قربه وحنى رأسه انحناءة تبجيل لسيتنيكوف وصاح : «هيا بنا !» . تحركت العربة وسرعان ما اختفت عن الانظار . . . تطلع سيتنيكوف المرتبك اشد ارتباك الى حوذيه ، بيد ان ذاك كان يتلاعب بسوطه فوق ذيل الفرس . وعند ذاك قفز سيتنيكوف الى عربته ، زعق صارخاً على فلاحَيْن مراقبه : «البسا قبعتيكما ايها الاحمقان !» ، وتوجه الى المدينة حيث وصلها في ساعة متأخرة . وفي اليوم التالي انهال ، لدى كوكشينا ، وابل من اللوم المقذع على ذينك «المتكبرين الوقحين الكريهين» .

عندما صعد اركادي الى عربة بازاروف شد على يده بقوة ولم يقل شيئاً لامد طويل . وبدا وكان بازاروف قد فهم وقدر هذه الالتفاتة من رفيقه . لم يكن قد ذاق طعم النوم ولا التدخين في الليلة المنصرمة ، ولم يكن قد تناول طعاماً يذكر منذ بضعة ايام . ونتأت صفحة وجهه من تحت طاقيته مكفهرة متجهمة . ثم قال اخيراً :

– ماذا ، يا اخي ، هلا اعطيتنـــي سيجاراً؟ . . . ثم انظر : اليس لساني اصفر ؟

– اصفر .

– هكذا . . . حتى السيجار غير لذيذ . تفككت الماكنة .

– تغيرت حقاً في الآونة الاخيرة .

– لا باس ، سنتعافى . هناك شيء واحد محـــزن . فــان امي رقيقة القلب الى درجة ، حتى انها تتالم اشد الالم اذا لم ينتفخ بطني ولم آكل عشر مرات في اليوم . اما ابي فلا باس . لقد رأى ما رأى ، وغربل الامور ونخلها . كلا ، لا يمكن التدخين – قال ذلك وقذف السيجار وسط غبار الطريق .

فسأله اركادي :

– المسافة الى ضيعتك خمسة وعشرون كيلومتراً ؟

– اجل . ولكن اسأل هذا الحكيم عنها .

واشار الى الفلاح الجالس على مقعد الحوذي ، وهو من العاملين لدى فيدوت .

بيد ان الحكيم اجاب بلهجة محلية : «من يدري ؟ لم يقس احد المسافة هنا» . وواصل شتائمه بصوت خافت على فرس المقدمة التي كانت تهز رأسها بتشنج .

وطفق بازاروف يتكلم :

– اجل ، اجل ، يا صديقي الفتي ، انه لدرس فيه عبرة لك . الشيطان وحده يعرف هذه الحماقة ! كل شخص معلـــق بشعرة ، ويمكن ان تنفرج تحته هوة سحيقة في كل لحظة ، بينما يبتدع هو لنفسه مختلف المشاكل ويفسد حياته .

فسأله اركادي :

– الامَ تلمح ؟

– ليس في ذلك تلميح . فانا اقول صراحة انني واياك تصرفنا تصرفاً احمق . الامر واضح تماماً . وقد لاحظت في المستشفى ان الذي يغضب على المه لا بد وان يقهره ،

فقال اركادي :

– لا افهمك تماماً . يخيل الي انه لم يكن هناك ما يمكن ان تشكي منه .

– ما دمت لا تفهمني تماماً فانا احيطك علماً بما يلي : برأيي ان قلع البلاط من الشارع اهون من السماح لامرأة بان تمتلكك قيد انملة . فذلك كله مجرد . . . – كاد بازاروف يتلفظ كلمته المحببة «رومانسية» ، ولكنه امتنع وقال : – سخافة صرف . وسوف لن تصدقني اذا قلت لك الآن : لقد كنا في معشر نسائي ، وكان ذلك امراً مسراً ، لكن ترك مثل هذا المعشر كالاستحمام بماء

بارد في يوم قائظ . فليس لدى الرجـــل وقت لممارسة هذه التفاهات . على الرجل ان يكون شرساً ، كما يقول المثل الاسباني الرائع . فانت مثلاً – اضاف بازاروف مخاطباً الفلاح الجالس في مقعد الحوذي – انت ، ايها الحصيف ، هل لديك زوجة ؟

التفت الفلاح الى الصديقين بوجهه المسطح الاعشى :

– زوجة ؟ طبعاً ، فكيف يمكن بدونها ؟

– وهل تضربها ؟

– من ، زوجتي ؟ يصادف . فنحن لا نضرب بدون سبب .

– حسناً . وهي هل تضربك ؟

هز الفلاح الاعنة :

– ما هذا الكلام ، ايها السيد . ليس كل شيء يصلح للمزاح . . . – زعل الفلاح على ما يبدو .

– هل انت سامع يا اركادي نيكولايفيتش ؟ اما نحن فقد ضربونا . . . ذلك ما يعنيه ان يكون المرء مثقفاً .

ضحك اركادي بتكلف ، بينما اشاح بازاروف بوجهه ، ولم ينبس ببنت شفة طوال ما تبقى من الطريق .

بدت الخمسة والعشرون كيلومتراً لاركادي بقدر خمسين . واخيراً لاحت على صفحة هضبة منحدرة القرية الصغيرة التي يقطنها والدا بازاروف . والى جانبها بدت وسط اجمة من صغار البتولا دار غير كبيرة من دور النبلاء وسقفها مغطى بالقش . وعند اول بيت قروي كان فلاحان مهندمان يتشاجران . فقد قال احدهما للآخر «انت خنزير كبير ولكنك اسوأ من الخنوص الصغير» ، فقال الثاني «وزوجتك سحارة» .

فقال بازاروف لاركادي :

– يمكنك الحكم من صيغة المخاطبة غير المتكلفة ومن لهجة الكلام بان فلاحي ابي لا يتعرضون لمضايقة شديدة . وبالمناسبة فها هو نفسه يخرج الى باحة الدار . لا بد وانه سمع جرس العربة . انه هو ، هو طبعاً ، عرفته من قوامه . ولكن ، يا للعجب كيف شاب ، المسكين ، الى هذا الحد !

٢٠

اطل بازاروف من العربة ، واشرأب اركادي بعنقه من وراء ظهر رفيقه فرأى في مدخل الدار رجلاً نحيفاً فارع القامة بشعر اشعث وانف دقيق كمنقار الصقر ، وهو يرتدي سترة عسكرية ضيقة مفتحة الازرار . كان واقفاً منفرج الساقين ، يدخن غليوناً طويلاً ، ويضيق عينيه بسبب اشعة الشمس .

توقفت الخيول .

فقال بازاروف الاب ، وهو يواصل تدخينه مع ان الغليون يتراقص بين اصابعه : – ها قد وصلت اخيراً . هيا انزل ، انزل ، فلنتعانق .

عانق ابنه . . . فارتفع صوت نسائي مرتعش : «ينيوشا» * ، ينيوشا» . فتح الباب على مصراعيه وظهرت على عتبته عجوز متكورة قصيرة القامة في قلنسوة بيضاء وبلوزة زاهية قصيرة . تأوهت وتمايلت وكادت تسقط لولا ان اسندها بازاروف . طوقت يداها الممتلئتان عنقه على الفور والتصق راسها بصدره ، وساد الصمت كل شيء ، ما عدا نشيجها المتقطع .

كان العجوز بازاروف يتنفس بصعوبة ، وصار يضيق عينيه اكثر من السابق . ثم قال بعد ان التقت نظرته بنظرة اركادي ، في حين اشاح الفلاح الجالس على مقعد الحوذي بوجهه :

– كفاك ، كفاك يا آرينا ! لا داعي لذلك ! ارجوك .

فتمتمت العجوز :

– آه يا فاسيلي ايفانوفيتش ! منذ متى لم ار حبيب قلبي وقرة عيني ينيوشا . . . – وابعدت وجهها المتيم المدعوك المبلل بالدموع عن بازاروف دون ان ترفع يديها عن عنقه ، ونظرت اليه بعينين مغتبطتين ، مضحكتين بعض الشيء ، ثم التصقت به من جديد . فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– كل ذلك في طبيعة الاشياء . ولكن من الافضل ان ندخل البيت . فقد وصل ضيف مع يفغيني . – ثم اضاف مخاطباً اركادي ، وخض برجله قليلاً – عفوا ، انت تعرف هذه الامور . تلك هي نقطة ضعف المرأة . يا لقلب الام . . .

* صيغة التحبيب من اسم يفغيني . – المترجم .

قال ذلك وارتعشت شفتاه وحاجباه ، وكان ذقنه يهتز اهتزازاً . . . بيد انه كان ، على ما يبدو ، راغباً في ضبط مشاعره والتظاهر بشيء من اللامبالاة . فانحنى له اركادي . وقال بازاروف :

– فعلاً ، فلندخل يا ماما .

واقتاد الى الدار العجوز التي خارت قواها . اجلسها في مقعد مريح ، وعانق اباه من جديد على عجل وقدم له اركادي .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– يسعدني من صميم القلب ان نتعارف ، ولكن لا تلمني ، فكل شيء هنا بسيط على الطراز العسكري . يا آرينا فلاسيفنا ، اعملي معروفاً ، وروّحي عن نفسك . فما هذا الخور ؟ لا بد وان السيد الضيف يلومك على ذلك .

فقالت العجوز والدموع تنهمر من عينيها :

– يا عزيزي . . . لم اتشرف بعد بمعرفة اسمك واسم ابيك . . .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش بصوت خافت له وزنه :

– اركادي نيكولايفيتش .

فقالت العجوز بعد ان تمخطت ومالت براسها ذات اليمين وذات الشمال ومسحت عيناً بعد اخرى بكل عناية :

– اعذرني انا الغبية . اعذرني . كنت افكر باني سأموت دون ان يطول بي العمر لأرى قر . . . قرة عيني .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– ها قد رايته ، يا سيدتي .

ثم التفت الى بنت حافية القدمين في حوالي الثالثة عشرة من العمر ترتدي فستاناً قطنياً احمر صارخاً ، وهي تتطلع بخوف من شق الباب ، وناداها قائلاً :

– تانيوشا . احضري للسيدة قدحاً من الماء بالصينية ، هل انت سامعة ؟ – ثم اضاف بشيء من المداعبة العتيقة الطراز : اما انتما ايها السيدان فاسمحا لي ان ادعوكما الى مكتب المحارب القديم المتقاعد .

وانّت آرينا فلاسيفنا متنهدةً :

– تعال لاعانقك مرة اخرى يا ينيوشا . – انحنى اليها بازاروف – كم اصبحت جميلاً !

فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– لست واثقاً من جماله ، ولكنه غدا رجلاً من خيرة الرجال ، كما يقال . اما الآن فآمل ، يا آرينا فلاسيفنا ، انك بعد ان اشبعت قلب الامومة سوف تهتمين باشباع ضيفيك العزيزين ، فالبلبل ، كما تعرفين ، لا يقتات على الحكايات .

نهضت العجوز من المقعد وقالت :

– في الحال ، يا فاسيلي ايفانوفيتش ، ستكون المائدة جاهزة . سأذهب بنفسي الى المطبخ وسآمر باعداد السماور . سيكون كل شيء على ما يرام . منذ ثلاث سنوات لم اره ولم اطعمه ولم اسقه ، فهل ذلك بالامر الهين ؟

– ارجوك يا ربة البيت ، ابذلي جهدك ، فلا تجلبي الملامة على نفسك . اما انتما ايها السيدان فارجوكما ان تتبعاني . وها هو تيموفييتش جاء ليحييك يا يفغيني . فهو ايضاً قد سر ، ولا بد ، اليس كذلك ايها العجوز ؟ اتبعوني رجاء .

سار فاسيلي ايفانوفيتش في المقدمة حركاً متململاً وهو يحف ويخشخش بحذائه البالي .

كانت داره تضم ست غرف صغيرة لا غير . وكانت احداها ، وهي الغرفة التي اقتاد اليها صاحبينا ، تسمى بالمكتب . كانت طاولة بقوائم سميكة تحتل كل الفسحة بين النافذتين . وعلى الطاولة اكداس اوراق اسودت من الغبار والقدم حتى بدت كالمشوية بالدخان . وعلى الجدران بنادق ومجالد تركية وسيف وخريطتان جغرافيتان وبعض الرسوم التشريحية وصورة هوفيلاند (٨٢) وطغراء مصنوعة من الشعر في اطار اسود ودبلوما مزججة . وكانت هناك اريكة جلدية مخسوفة في ناحية وممزقة في ناحية اخرى بين صوانين هائلين من خشب البتولا الكاريلية . وكانت الرفوف غاصة ، على غير انتظام ، بالكتب والعلب والطيور المحنطة والقناني والزجاجات الصغيرة . وفي احد الاركان ماكنة كهربائية معطبة .

بدأ فاسيلي ايفانوفيتش كلامه :

– ذكرت لك يا زائري العزيز اننا نعيش هنا كما في المخيمات العسكرية المكشوفة . . .

فقاطعه بازاروف :

– كفاك ، علامَ تعتذر ؟ اركادي يعرف جيداً بانك لست

قارون وانك لا تمتلك قصراً . ولكن اين سيقيم ؟ تلـــك هي المشكلة .

– كيف يا يفغيني ؟ لدينا في الجناح غرفة ممتازة . وسيرتاح فيها كلياً .

– ماذا ؟ هل بنيت جناحاً ؟

فتدخل تيموفييتش قائلاً :

– كيف لا يا سيدي ؟ هناك في مبنى الحمام .

– اي قرب الحمام – اضاف فاسيلي ايفانوفيتش على عجل – فالوقت صيف . . . ساذهب الى هناك في الحال لاعطـــي بعض التعليمات . هلا احضرت ، يا تيموفييتش ، حاجياتهما ! اما انت ، يا يفغيني ، فاترك لك مكتبي طبعاً (لكل ما له) * .

فقال بازاروف حالما خرج فاسيلي ايفانوفيتش :

– يا له من عجوز ظريف . انه في منتهى الطيبة . وهو غريب الاطوار مثل ابيك ، ولكن على طراز آخر . انه كثير الثرثرة .

فقال اركادي :

– وامك ايضاً امرأة رائعة على ما يبدو .

– اجل ، انها طيبة القلب . وسوف ترى اي غداء ستقدم لنا .

فقال تيموفييتش وقد دخل لتوه حاملاً حقيبة بازاروف :

– لم نتوقع وصولكـــما اليوم ، يا عزيزي ، فلم نحضر لحم البقر .

– سنستغني عن لحم البقر ما دام غير موجود . فالفقر ليس عيباً كما يقال .

فسال اركادي على نحو غير متوقع :

– كم نسمة يمتلك ابوك ؟

– الضيعة ليست له ، فهي ملك لوالدتي ، وعدد الفلاحين ، على ما اتذكر ، خمسة عشر .

– بل اثنان وعشرون – قال تيموفييتش بعدم ارتياح .

تهادى حفيف حذاء ، وظهر فاسيلي ايفانوفيتش من جديد واعلن كالمنتصر :

– بعد بضع دقائق ستكون غرفتك جاهزة يا اركادي . . . نيكولايفيتش . هذا هو اسم ابيك على ما اعتقد ، اليس كذلك ؟ –

* في الاصل باللاتينية Suum cuique .

21-100

ثم اضاف مشيراً الى غلام قصير الشعر في قفطان ازرق ممزق عند المرفقين وفي جزمة ليست له : – هذا خادمك . واسمه فيدكا . اعتذر مرة اخرى ، مع ان ولدي لا يسمح بالاعتذار . فالصبي يجيد على الاقل ، شحن الغليون . انت تدخن ، اليس كذلك ؟

– انا ادخن السجائر اكثر . – اجاب اركادي .

– ذلك في منتهى الحكمة . وانا شخصياً افضل السجائر ، ولكن من الصعب جداً الحصول عليها في بقاعنا النائية هذه .

فقاطعه بازاروف من جديد :

– كفاك مسكنة . من الافضل ان تجلس هنا على الاريكة لنستطيع التطلع اليك .

ضحك فاسيلي ايفانوفيتش وجلس . كان وجهه يشبه وجه ابنه لدرجة كبيرة ، سوى ان جبهته اوطأ واضيق ، وفمه اوسع قليلاً . كان دائم الحركة ، يهز كتفيه بلا كلل وكانما الثوب ضيق تحت ابطيه . ويطرف كثيراً ويسعل بين الفينة والفينـــة ويحرك اصابعه ، في حين يتميز ابنه بشيء من الهدوء اللاابالي .

تحدث فاسيلي ايفانوفيتش :

– تقول ، يا يفغيني اني اتمسكن ! كلا ، لا تظن باني كانما اريد ان اتشكى لضيفنا من عيشتنا في طرف منعزل بعيد . فانا على العكس ارى انه لا يوجد طرف بعيد بالنسبة للانسان المفكر . وانا ، على الاقل ، احاول ، قدر الامكان ، ان اواكب العصر ، فلا اترك الطحالب تغطيني ، كما يقال .

اخرج فاسيلي ايفانوفيتش من جيبه منديلاً حريرياً اصفر جديداً ، كان قد اخذه عندما ذهب لترتيب غرفة اركادي ، وواصل كلامه وهو يلوح بالمنديل :

– ناهيك عن اني ، مثلاً ، حولت الفلاحين للعمل حسب الجزية واعطيتهم ارضي مناصفـــــة في المحصول ، بالرغم من الاضرار المحسوسة التي اتكبدها نتيجة لذلك . فقد اعتبرت هذا واجباً علي ، فالعقل السليم نفسه يتطلب ذلك ، مع ان الكثيرين من الملاك الآخرين لا يفكرون به . وانا اهتم بالعلوم والتعليم .

فقال بازاروف :

– اجل ، ارى لديك «صديق العافية» (٨٣) لعام الف وثمانمئة وخمسة وخمسين .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش باستعجال :

– يرسلها لي احد اصدقائي القدامى . – ثم اضاف موجهاً كلامه الى اركادي على الاكثر ، واشار الى راس صغير من الجبس انتصب على الصوان وقسم الى مستطيلات مرقمة وقال : – نحن مثلاً ، نعرف ما هي فراسة الدماغ* . ولم يبق شينلين (٨٤) وراديماخير (٨٥) مجهولين لدينا .

فسأل بازاروف :

– افلا يزالون في هذا اللواء يصدقون راديماخير ؟

سعل فاسيلي ايفانوفيتش وقال :

– في اللواء . . . انتم اعرف طبعاً ، ايها السادة . فمن اين لنا ان نلحق بكم ؟ سوف تحلون انتم بالذات محلنا . حتى في زماني بدا هوفمان (٨٦) ونظريته للاخلاط وبراون (٨٧) ومذهبه الحيوي شخصين مضحكين للغاية ، ولكن صيتهما ذاع ايضاً في حينه . وحل شخص ما جديد لديكم محـــل راديماخير وانتم تطاطئون رؤوسكم امامه ، لكنه ربما سيكون هو الآخر مثاراً للسخرية بعد عشرين عاماً .

فقال بازاروف :

– ازيدك علماً باننا الآن نسخر من الطب عموماً ولا نطاطئ رؤوسنا امام احد .

– كيف ؟ افلا تريد ان تصبح طبيباً ؟

– بلى ، فليس في ذلك تعارض .

دس فاسيلي ايفانوفيتش اصبعه الوسطى في غليونه ، فلا يزال هناك شيء من الرماد الساخن . وقال :

– ربما ، ربما . لن اجادل في ذلك . فمن انا ؟ مجرد طبيب عسكري متقاعد . وقد تحولت الآن الى مهندس زراعي . – ثم وجه كلامه الى اركادي من جديد : – خدمت في لواء جدك . اجل رايت في حياتي الكثير . فمـــا اكثر المجتمعات التي حضرتهـــا والشخصيات التي صادقتها ! انني ، انا الذي تراني الآن امامك ، قد جسست نبض الامير فيتغينشتين (٨٨) وجوكوفسكي (٨٩) ! وكنت اعرف فرداً فرداً جميع الذين كانوا في الجيش الجنوبي (٩٠) ، هل

* نظرية غير علمية للتدليل على السجايا الشخصية والملكات الذهنية من دراسة شكل الجمجمة . – **المترجم** .

انت فاهم ؟ (وهنا زم فاسيلي ايفانوفيتش شفتيه متباهياً) . ولكن عملي ثانوي لا شأن له . فلا يطلب مني غير اجادة المبضع وكفى ! اما جدك فكان عسكرياً حقيقياً وانساناً مبجلاً للغاية .

فقال بازاروف متكاسلاً :

– قل الحقيقة : كان في منتهى الحماقة .

– آه يا يفغيني ! اية الفاظ تنطق ؟ ! ارحم حالي . . . بالطبع ، لم يكن الجنرال كيرسانوف في عداد اولئك . . .

فقاطعه بازاروف :

– اتركه وشأنه . عندما اقتربت من هنا سررت لاجمتك ، اجمة البتولا . لقد شهقت وارتفعت كثيراً .

انتعش فاسيلي ايفانوفيتش وقال :

– هل لاحظت كيف ازدهر البستان ؟ ! غرست بنفسي كل شجرة فيه . وتوجد فاكهة وثمار واعشاب طبية . ومهما كان رأيكم ايها السادة الشباب فان العجوز باراتسيلس (٩١) نطق بالحقيقة عينها حينما قال : (بالاعشاب والكلمات والاحجار . . . . *) . تخليت عن ممارسة التطبيب ، كما تعلم . غير اني مضطر الى العودة اليه مرتين في الاسبوع . فعندما يلتمس الناس المشورة لا يمكن طردهم . ويصادف ان يحتاج الفقراء الى اسعاف ، بينما لا يوجد هنا اطباء على الاطلاق . تصور ان احد الجيران ، وهو رائد متقاعد ، يمارس التطبيب ايضاً . وعندما سألت عما اذا كان قد درس الطب ام لا ، قيل لي : كلا ، لم يدرســـه . انما يمارســـه عملاً بالمعروف . . . ها – ها ، عملاً بالمعروف ! ارايت ؟ ها – ها ! ها – ها !

فقال بازاروف متجهماً :

– فيدكا ! املأ غليوني !

ثم واصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه بشيء من الاسف :

– ذات مرة وصل طبيب لعيادة مريض ولكن هذا الاخير (التحق بالاجداد**) فلم يسمح الوصيف للطبيب بالدخول وقال

* في الاصل باللاتينية in herbis, verbis et lapidibus لعله يقصد امكان المعالجة بها . – **المترجم** .

** في الاصل باللاتينية ad patres .

له : لا حاجة . ولم يكن الطبيب يتوقع ذلك فسأله مرتبكاً : «ماذا ؟ هل فاق السيد قبيل الوفاة ؟» – «اجل» . – «وهل فاق كثيراً ؟» – «كثيراً» – . «ذلك شيء حسن» . وعاد ادراجه . ها – ها – ها ! ضحك العجوز لوحده . وارتسمت ابتسامة متكلفة على محيا اركادي ، بينما اكتفى بازاروف بان اخذ نفساً من غليونه . استمر الحديث على هذا النحو زهاء ساعة . وتيسر وقت لاركادي كي يذهب الى غرفته ويعود ، فاتضح له انها غرفة ملابس الاستحمام ، ولكنها مريحة ونظيفة للغاية . واخيراً دخلت تانيوشا واعلنت ان الغداء جاهز .

نهض فاسيلي ايفانوفيتش اولاً ، وقال :

– فلنذهب ايها السادة ! معذرة اذا كنت قد اضجرتكما . ولعل ربة بيتي تلبي حاجتكما اكثر مني .

كان الغداء فاخراً ، بل وسخياً ، بالرغم من الاستعجال في اعداده . غير ان النبيذ لم يكن على المستوى المطلوب ان صح القول . كان طعم نبيذ الهيريس القاتم الذي اشتراه تيموفييتش من بائع يعرفه في المدينة شبيهاً بطعم النحاس او صمغ الصنوبر . وكان الذباب قد لعب دوره ايضاً . في الاوقات العادية كان الخادم الصغير يطرد الذباب بغصن اخضر كبير ، الا ان فاسيلـــي ايفانوفيتش ابعده هذه المرة كي لا يتعرض للملامة من قبل الجيل الفتي . وتسنى لآرينا فلاسيفنا ان تتزين ، فقد ارتدت قلنسوة عالية باشرطة حريرية ووشاحاً ازرق موشى . انتحبت من جديد حالما وقع نظرها على ابنها ينيوشا ، غير ان زوجها لم يضطر الى تهدئتها ، فقد عجلت هي نفسها بمسح دموعها كي لا يبتل الوشاح . تناول الشابان الطعام وحدهما ، اذ ان اهل البيت تغدوا قبل حين . وسهر على الخدمة فيدكا الذي بدا مرهقاً بالجزمة غير المعتادة ، وعاونته في ذلك انفيسوشكا وهي امرأة عوراء ذات ملامح تنم عن البسالة ، تؤدي وظائف مدبرة المنزل ومربية الدواجن والغسالة . اخذ فاسيلي ايفانوفيتش طوال الغداء يتمشى في الغرفة ويتحدث بسرور بل وبغبطة عن المخاوف الوخيمة التي اوحت بها اليه سياسة نابليون والمسألة الايطالية المشوشة (٩٢) . ولم تكن آرينا فلاسيفنا لتلتفت الى اركادي ولم تستحثه على تناول الطعام . فقد اسندت بقبضتها وجهها المستدير الذي اضفت عليه شفتاها

المنتفختان القرمزيتان والشامات على وجنتيها وفوق حاجبيها مسحة من الطيبة المتناهية ، وركزت انظارها على ابنها وراحت تتنهـــد طوال الوقت . كانت تتحرق الى معرفة المدة التي سيقضيها بين ظهرانيهم ، ولكنها تخشى ان تسأله عن ذلك . فكرت في نفسها : «ماذا لو قال يومين ؟ !» – وكاد قلبها يتوقف عن الوجيب . بعد تناول المقبلات اختفى فاسيلي ايفانوفيتش لحظة ، ثم عاد يحمل قنينة شمبانيا مفتوحة وهتف قائلاً : «مع اننا نعيش في الريف البعيد فلدينا ما نسلي انفسنـــا به في المناسبات !» . صب الشمبانيا في ثلاث كؤوس كبيرة وقدح صغير ورفع نخب «الزائرين الكريمين» وتجرع كأسه دفعة واحدة كما يفعل العسكريون وارغم آرينا فلاسيفنا على احتساء القدح حتى الثمالة . وعندما جاء دور المربى رأى اركادي الذي لا يطيق اي شيء سكري ان من واجبه ان يتذوق اربعة انواع مختلفة كانت قد اعدت مؤخراً ، لاسيما وان بازاروف رفض المربى رفضاً قاطعاً ودخن سيجارة في الحال . ثم ظهر على المائدة الشاي مع القشدة والزبدة والبسكويت . وبعد ذلك اقتاد فاسيلي ايفانوفيتش الجميع الى البستان للتمتع بجمال المساء . وعندما مروا باحد المقاعد همس لاركادي :

– في هذا المكان اهوى التفلسف واتمتع بغروب الشمس كما يليق بالنساك . وهناك ، على مسافة ابعد ، غرست عدداً من الاشجار المحببة الى هوراس (٩٣) .

فسأل بازاروف الذي انصت اليه :

– اية اشجار تلك ؟

– انها بالطبع . . . الاقاصيا

بدأ بازاروف يتثاءب ، فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– اعتقد انه حان الوقت للرحالتين كي يعانقا مورفيوس* .

فقال بازاروف على الفور :

– اي حان الوقت للنوم ! هذا رأي صائب . فقد حان الوقت حقاً .

ودع امه فقبلها في جبينها وعانقته هي ايضاً ، ثم رسمت علامة الصليب خلسة ، من وراء ظهره ، ثلاث مرات . رافق

* اله الاحلام في الميثولوجيا اليونانية . – **المترجم** .

فاسيلي ايفانوفيتش اركادي الى غرفته وتمنى له «استجماماً هنيئاً كالذي تذوقته انا عندما كنت في عمركم السعيد» . وبالفعل فقد غط اركادي في نوم هادئ في غرفة الملابس التي تفوح فيها رائحة النعناع وكان جدجدان يتناوبان الصرير على نحو منوم وراء المدفاة . ترك فاسيلي ايفانوفيتش اركادي وتوجه الى مكتبه فاتكأ على الاريكة عند رجلي ابنه . كان ينوي التحدث معه ، ولكن بازاروف ابعده على الفور وقال انه راغب في النوم ، بينما لم يغمض له جفن حتى الصباح . فتح عينيه باتساع وصار يحدق في الظلمة حانقاً : فلم تكن لذكريات الطفولة سلطة عليه ، زد على ذلك انه لم يتخلص بعد من الانطباعات المريرة الاخيرة . وصلت آرينا فلاسيفنا وابتهلت في البداية ما شاءت ، ثم تحدثت لامد طويل جداً مع انفيسوشكا التي وقفت متسمرة امام سيدتها وغرزت فيها عينها الوحيدة وعرضت عليها بهمس سحري كل ملاحظاتها وآرائها بخصوص يفغيني فاسيليفيتش . ألمّ الدوار براس العجوز من الفرحة والنبيذ ودخان السجائر ، وحاول زوجها ان يتكلم معها ، ولكنه صرف النظر عن ذلك فلوح بيده يائساً .

آرينا فلاسيفنا نبيلة روسية حقاً من نبيلات الماضي . وكان ينبغي ان تعيش قبل مائتي عام في عهود موسكو القديمة . فهي متدينة للغاية ورقيقة الشعور ، تؤمن بكل انواع الفال والعرافة والتعاويذ والاحلام ، وتؤمن بالدراويش والجن والعفاريت وبمصادفات السوء وعين الحسود والادوية الشعبية وملح الخميس ، وبقرب حلول نهاية العالم ، وتعتقد ان محصول الحنطة السوداء يكون جيداً اذا لم تطفأ الشموع اثناء صلاة الليل في عيد الفصح ، وان الفطر لا ينمو بعد ان تراه عين الانسان ، وان الشيطان يحوم حول المياه ، وان هناك بقعة من الدم على صدر كل يهودي . كانت تخشى الفئران والافاعي والضفادع والعصافير والعلق والرعد والماء البارد وهبوب الريح ، والجياد والماعز والاشخاص الشقر والقطط السود ، وتعتبر الجداجد والكلاب حيوانات نجسة ، ولا تأكل لحم العجول والحمام والارنب والسرطان والجبن والبطيخ الاحمر ، لان البطيخ المفتوح يذكرها براس يوحنا المعمدان (٩٤) . وما كانت لتستطيع الكلام عن المحار بدون ارتعاش . كانت نهمة اكولاً ،

ولكنها تلتزم بالصيام كل الالتزام . وكانت تنام عشر ساعات في اليوم ، ولا تنام مطلقاً اذا داهم الصداع فاسيلي ايفانوفيتش . ولم تقرأ اي كتاب ما عدا «الكسيس ، او كوخ في الغاب» (٩٥) . وكانت تحبر رسالة واحدة او رسالتين لا اكثر في العام . لكنها تجيد تدبير الامور المنزلية وتجفيف الفاكهة واعداد المربى ، مع ان يدها لم تمس شيئاً ، ومع انها لا تتحرك من مكانها عموماً الا بشق الانفس . كانت آرينا فلاسيفنا في منتهى الطيبة ، ولم تكن غبية ابداً على طريقتها الخاصة . فهي تعرف ان في الكون اسياداً يجب ان يامروا واناساً بسطاء يجب ان يخدموا ، ولذلك لا تستنكف عن التزلف ولا عن الركوع لحد ملامسة الارض ، ولكنها تعامل مرؤوسيها بلطف ووداعة ، ولا تترك اي متسول دون ان تتصدق عليه ، ولا تلوم احداً على الاطلاق ، مع انها تحب الخوض في مناقشة سلوك الناس . كانت في شبابها مليحة للغاية ، وكانت تعزف على الكلافيكورد * وتتكلم الفرنسية بعض الشيء ، ولكنها اصبحت بدينة ونسيت الموسيقى واللغة الفرنسية خلال الرحلات طوال سنين عديدة مع فاسيلي ايفانوفيتش الذي تزوجته مرغمة . وهي تحب ابنها حباً جماً وتخشاه كل الخشية . وقد تخلت عن ادارة الضيعة لزوجها ، فلم تعد تهتم بشيء فيها ، سوى انها صارت تتأوه وتنش بمنديلها وترفع حاجبيها اعلى فاعلى مرتعبة كلما شرع عجوزها يتحدث عن التحويلات المرتقبة وعن مشاريعه . كانت مرتابة تتوقع على الدوام شراً مستطيراً ، وسرعان ما تنهمر دموعها حالما تتذكر شيئاً محزناً . . . ان عدد امثال هؤلاء النسوة يتضاءل الآن . والله وحده يعلم ما اذا كان يجب ان نفرح لذلك ام لا !

٢١

نهض اركادي من الفراش وفتح النافذة على مصراعيها . واول ما وقعت عليه انظاره هو . . . فاسيلي ايفانوفيتش . كان العجوز في جبة شرقية ، مما يرتديه اهالي بخارى ، وراح يجهد في البستنة

* آلة موسيقية وترية مزودة بلوحة مفاتيح ، تعتبر الاصل الذي تطورت عنه البيانو . — المترجم .

متمنطقاً بمنديل . وعندما لمح ضيفه الشاب بادره مستنداً الى الرفش :

– عم صباحاً ! كيف قضيت ليلتك ؟

– على اروع ما يكون .

– اما انا فكما ترى ، مثل شنشيناتوس (٩٦) ، اعد جنينة للشلجم الافلي المتاخر . لقد حل الآن ، والحمد لله ، زمان يتعين فيه على كل شخص ان يهيئ الاغذية لنفسه بيديه ، فلا مجال للتعويل على الآخرين : ينبغي للمرء ان يعمل بنفسه . ويعني ذلك ان جان جاك روسو محق (٩٧) . كان بوسعك ، يا سيدي ، ان تراني قبل نصف ساعة بهيئة اخرى تماماً . فقد تشكت احدى الفلاحات من الزحار – كما يسمونه ، اي من الدزنتري – كما نسميه نحن ، ففعلت لها . . . كيف لي ان اجد التعبير الافضل ؟ ! حقنتها بالافيون ، ثم اقتلعت سن امراة اخرى . واقترحت عليها استخدام الاثير . . . لكنها رفضت . انني افعل ذلك كله (مجاناً) * كهاو . وبالمناسبة ليس في ذلك ما يثير العجب ، فانا (انسان جديد) ** من الدهماء ، ولست ، كزوجتي الكريمة ، من النبلاء ابا عن جد . . . هلا تفضلت الى هنا ، في الظل ، لتنشق النسيم العليل قبيل شاي الصباح ؟ !

خرج اركادي اليـــه فقال فاسيلي ايفانوفيتش رافعاً يده بالتحية ، على الطريقة العسكرية ، الى الطاقية العتيقة المتسخة التي تغطي راسه :

– اهلاً وسهلاً بك مرة اخرى ! لقد تعودت انت ، كما اعلم ، على الابهة واسباب الراحة ، ولكن حتى عظماء العالم لا يستنكفون من قضاء بعض الوقت تحت سقف كوخ .

فقال اركادي بصوت مرتفع :

– عفواً ، اين انا من عظماء العالـــم ؟ ثم اني لم اتعود على الابهة .

فاعترض فاسيلي ايفانوفيتش بتادب :

– كلا ، كلا . فمع اني محال الآن الى الارشيف ، ولكنني

* في الاصل باللاتينية gratis .

** في الاصل باللاتينية homo novus .

عشت في المجتمع الراقي ايضاً ، وانا اعرف الطير من تحليقه . انا نفساني وسيمائي على طريقتي الخاصة . واتجاسر على القول بانني لو لم املك هذه الموهبة لانتهى امري من زمان ، ولسحقت انا الانسان الصغير . واقول لك بلا محاباة ان الصداقة التي الحظها بينك وبين ولدي تبعث السرور حقاً في نفسي . لقد رايته الآن . فهو ، كعادته ، وهذا امر معروف لك ولا بد ، قد نهض مبكراً وراح يجوب الاطراف . اسمح لي ان استفسر منك : هل تعرفت على ابني يفغيني من زمان ؟

– منذ الشتاء المنصرم .

– هكذا اذن . اسمح لي ان اسالك مرة اخرى ، ولكن الا تجلس ؟ اسمح لي كاب ان اسالك : ما هو رايك بابني يفغيني ؟

فاجاب اركادي بحماس :

– ابنك واحد من اروع الناس الذين تيسر لي ان اقابلهم في اي وقت .

اتسعت عينا فاسيلي ايفانوفيتش فجاة ، واحمرت وجنتاه بعض الشيء . وسقط الرفش من يديه . ثم واصل كلامه :

– هكذا اذن ، تتصور . . .

فعاجله اركادي :

– انا واثق ان مستقبلاً عظيماً ينتظر ابنك ، وانه سيرفع راسك . تاكدت من ذلك منذ لقائنا الاول .

– كيف . . . كيف كان ذلك ؟ – نطق فاسيلي ايفانوفيتش هذه الكلمات بالكاد . وانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة معجبة لم تفارقهما بعد ذلك .

– تريد ان تعرف كيف التقينا ؟

– نعم . . . وعلى العموم . . .

راح اركادي يتحدث عن بازاروف بحماس واعجاب اكبر مما في ذلك المساء ، عندما رقص المازوركا مع اودينتسوفا .

استمع اليه فاسيلي ايفانوفيتش واطال الاستماع ، ثم تمخط ولف المنديل بكلتا يديه وسعل ، ونفش شعره ، واخيراً لم يتمالك نفسه فانحنى على اركادي وقبله في كتفه . ثم قال دون ان تفارقه ابتسامته :

– افرحتني جداً . وعلي ان اقول لك بانني . . . اؤله ابني ،

ناهيك عن عجوزي ، فهي ام ، وهذا امر معروف ، لكنني لا اجرؤ بحضوره على ان اعرب عن مشاعري لانه لا يحب ذلك . فهو خصم لكل العواطف ، حتى ان الكثيرين يلومونه على تصلب الطباع هذا ويرون فيه علامة الغرور او انعدام الشعور ، الا ان امثاله لا يمكن ان يقاسوا بالمعيار المعتاد ، أليس كذلك ؟ وعلى سبيل المثال فان شخصاً غيره لا بد وان ينفق اموال والديه بلا انقطاع ، اما هو فلم يأخذ منّا ، والله ولا كوبيكاً زائداً ، هل تصدق ؟

فقال اركادي :

– انه انسان نزيه غير اناني .

– غير اناني بالفعل . وانا ، يا اركادي نيكولايفيتش ، لا اؤلهه فحسب ، بل افتخر به . ومن دواعي اعتزازي ان ترد ضمن سيرة حياته بمر الزمن الكلمات التالية : «ابن طبيب عسكري بسيط ولكن اباه استطاع ان يكتشف مواهبه مبكراً ولم يبخل بشيء من اجل تربيتـــه . . .» – قال العجوز ذلـــك بصوت متقطع .

فشد اركادي على يده .

وبعد فترة صمت سأل فاسيلي ايفانوفيتش :

– ماذا ترى ؟ سيبلغ الشهرة التي تتنبأ بها له ليس في مجال الطب ، أليس كذلك ؟

– ليس في مجال الطب طبعاً ، مع انه سيكون في هذا الميدان ايضاً واحداً من المع العلماء .

– ففي اي مجال ، يا اركادي نيكولايفيتش ؟

– من الصعب التكهن بذلك حالياً ، ولكنه سيكون شهيراً .

– سيكون شهيراً ! – كرر العجوز وغرق في تأملاته .

مرت انفيسوشكا ازاءهما حاملة طبقاً كبيراً من توت العليق اليانع وقالت:

– امرتني آرينا فلاسيفنا ان ادعوكما لاحتساء الشاي .

فانتفض فاسيلي ايفانوفيتش وقال :

– هل سيقدم التوت مع القشدة الباردة ؟

– اجل ، يا سيدي .

– فلتكن باردة حقاً . لا تعبـــا بالرسميات ، يا اركادي نيكولايفيتش ، خذ المزيد . لماذا لم يحضر يفغيني بعد ؟

– انا هنا – دوى صوت بازاروف الذي اطل من غرفـــة اركادي .

التفت فاسيلي ايفانوفيتش على عجل وقال :

– اها ! اردت ان تزور رفيقـــك ، ولكنك تأخرت (يـــا صديقي) * ، فقد كانت لنا معه محادثة طويلة . اما الآن فينبغي ان نذهب لاحتساء الشاي : امك تدعونا . وبالمناسبة فأنا اريد ان اتحدث معك .

– عم ؟

– في القرية فلاح يعاني من اليرقان . . .

– اي داء الصفر ، أليس كذلك ؟

– بلى ، انه يعاني من يرقان مزمن يكاد يكون عضالاً . وقد نصحته بتناول حشيشة القنطريون وعشبة القديس يوحنا وارغمته على اكل الجزر واعطيته شيئاً من الصودا ، ولكن ذلك كله مجرد ادوية مسكنة ، يجب اعطاؤه شيئاً ناجعاً . ومع انك تسخر من الطب فانا واثق من انك يمكن ان تقدم لي نصيحة حصيفة . لكننا سنتكلم عن ذلك فيما بعد ، اما الآن فهيا لتناول الشاي .

نهض فاسيلي ايفانوفيتش نشيطاً من المصطبة وانشد بيتين من «روبرت» (٩٨) :

ستشرّع لنا قانونا ، قانونا
لعيشة سعيـ . . . سعيـ . . . سعيدة !

فعلق بازاروف مبتعداً عن النافذة :

– يا لها من قدرة رائعة على الحياة ؟

انتصف النهار . وبدت الشمس لافحة من وراء حجاب رقيق من الغيوم البيضاء . كان الصمت يلفع كل شيء ، ما عدا الديكة التي تتصايح بحماسة في القرية مثيرة في فؤاد كل من يسمعها احساساً غريباً بالنعاس والضجر . وفي مكان ما في اعالي الاشجار رن ، كهتاف متباك ، نعيق نسر فتيّ لجوج . اضطجع اركادي

---

* في الاصل باللاتينية amice .

وبازاروف في ظل كومة غير عالية من الاعشاب المجففة . بعد ان افترشا حزمتين من حشيش يابس مخشخش احتفظ بشيء من خضرته وعبقه .

قال بازاروف :

– شجرة الحور تلك تذكرني بطفولتي . فهي تنمو على طرف الحفرة التي تبقت من المستودع القرميدي . كنت آنذاك واثقاً من ان لدى الحفرة والشجرة طلسماً خاصاً : فلم اشعر بالضجر ابداً قربهما . ولم اكن افهم آنذاك انني لم اشعر بالضجر لاني كنت طفلاً . اما الآن فانا انسان راشد ولا يؤثر علي الطلسم .

فسأله اركادي :

– كم من الوقت قضيت هنا ؟

– زهاء عامين متتاليين . وفيما بعد صرنا نأتي الى هنا بين حين وآخر . فقد عشنا حياة الترحل ، اذ كنا نجوب المدن اكثر من غيرها .

– وهل الدار مبنية من زمان ؟

– نعم . بناها جدي ، والد امي .

– ومن هو جدك هذا ؟

– الشيطان وحده يعلم . كان رائداً على ما اعتقد ، خدم عند سوفوروف (٩٩) ، وكان يتحدث دوماً عن عبور الألب . كان يكذب ولا بد .

– ولذلك علقت صورة سوفوروف في غرفة الاستقبال لديكم . انني احب الدور الصغيرة العتيقة والدافئة مثل داركم ، ثم ان لها رائحة خاصة متميزة .

فقال بازاروف متثائباً :

– يفوح منها زيت القناديل والحندقوق . اما عن الذباب في هذه الدور الجميلة . . . فحدّث ولا حرج !

بعد فترة قصيرة سأل اركادي :

– قل لي هل كنت تتعرض لمضايقات في الطفولة ؟

– انت ترى والديّ . انهما ليسا متشددين .

– انت تحبهما يا يفغيني ، أليس كذلك ؟

– طبعاً ، يا اركادي !

– انهما متيمان بك !

لاذ بازاروف باذيال الصمت ، ثم دس يديه تحت رأسه وقال اخيراً :

– هل تحزر بم افكر ؟

– كلا . بم ؟

– افكر ان والديّ يعيشان بهناء ! فابي في الستين وهو مشغول باشغاله ويتحدث عن الادوية «المسكنة» ويعالج الناس ويتسامح مع الفلاحين ، وباختصار ، فهو يعيش حياة مرحة . وامي تعيش بهناء ايضاً . فيومها مشحون بالمشاغل والتأوهات والتحسرات الى درجة لا تترك لها متسعاً من الوقت لالتقاط النفس . اما انا . . .

– وانت ؟

– اما انا فافكر : ها انا ذا اضطجع هنا في ظل الكومة . . . والمحل الضيق الذي اشغله هنا ضئيل جداً بالمقارنة مع ما تبقى من المكان حيث انا غير موجود ولا شأن لاحد بي ، ثم ان ذلك القسم من الزمن الذي سأعيشه ضئيل جداً بالمقارنة مع الخلود حيث لم اكن موجوداً ولن اوجد . . . في حين ان هذه الذرة ، هذه النقطة الهندسية ، يدور فيها دم ويعمل فيها دماغ يريد شيئاً ما . . . فيا للفظاعة ! ويا للسخف !

– عفواً ! ان ما ذكرته ينطبق عموماً على جميع البشر . . .

تعاجله بازاروف قائلاً :

– انت على حق . اردت ان اقول انهما ، اعني والديّ ، مشغولان ولا يفكران بتفاهتهما ، وهي لا تزكم انفيهما . . . اما انا . . . فلا احس بغير الضجر والغضب .

– الغضب ؟ لماذا الغضب ؟

– لماذا ؟ كيف لماذا ؟ فهل نسيت ؟

– انني اتذكر كل شيء . ومع ذلـــك لا اعترف بحقك في الغضب . انت تعيس ، لا اجادل في ذلك ، ولكن . . .

– آ ! يبدو لي انك ، يا اركادي نيكولايفيتش ، تفهم الحب مثل جميع الشباب العصريين : تعالي ، تعالي يا دجاجة ! ولكن حالما تبدأ الدجاجة بالاقتراب تطلق انت ساقيك للريح ! لست من هذا الطراز . ولكن كفانا كلاماً عن ذلك . فمن العيب الكلام عما نحن عاجزون عنه . – استدار على جنبه – اها ! يا لشجاعة هذه

النملة التي تجر ذبابة محتضرة . واصلي عملـك ، يا اختي ، واصليه ! فبالرغم من مقاومتها انتهزي فرصة كونك ، كحيوان ، تتمتعين بحق عدم الاعتراف بمشاعر المؤاساة ، خلافاً للانسان الذي يحطم نفسه بنفسه !

– لا يليق بك هذا الكلام يا يفغيني ! فمتى حطمت انت نفسك ؟

رفع بازاروف رأسه وقال :

– انني افتخر بذلك . فما دمت لم احطم نفسي بنفسي ، فلن تحطمني امرأة . هذا هو القول الفصل ! خلاص ! ولن تسمع مني كلمة واحدة عن ذلك بعد الآن .

ظل الصديقان صامتين بعض الوقت .

ثم طفق بازاروف يتكلم :

– اجل ، الانسان كائن غريب الاطوار . عندما تلقي نظرة جانبية ، عن بعد ، على الحياة الصماء التي يعيشها «الآباء» هنا يخيل اليك انه لا افضل منها ! فيكفي ان تأكل وتشرب حتى تتصور بانك تسلك السلوك الاصوب والاكثر تعقلاً . كلا ! الضجر سيستولي عليك . وبود المرء ان يعاشر الناس ، ولو اضطر الى لومهم ، فلا بد من المعاشرة .

فقال اركادي متأملاً :

– ينبغي تنظيم الحياة بحيث تكون لكل لحظة فيها اهمية .

– لا اعتراض على ذلك . فالشيء المهم حلو بالرغم من الزيف الذي يرافقه احياناً . ويمكن التسامح حتى مع الاشياء التافهة . . . ولكن المشاحنات . . . المشاحنات هي الطامة الكبرى .

– المشاحنات غير موجودة بالنسبة للانسان اذا كان لا يريد الاعتراف بها طبعاً .

– احم . . . لقد قلت الآن عبارة مبتذلة مضادة .

– ماذا ؟ ما الذي تقصده بهذه التسمية ؟

– اليك ما اقصده : اذا قلنا ، مثلاً ، ان التعليم نافع ، فتلك عبارة مبتذلة ، واذا قلنا ان التعليم ضار ، فتلك عبارة مبتذلة مضادة ، فهي ، حسب الظاهر ، اكثر اناقة ، ولكنها نفس الشيء في الواقع .

– ولكن اين الحقيقة ؟ وفي اي جانب هي ؟

– اين ؟ ساجيبك كالصدى : اين الحقيقة ؟

– مزاجك سوداوي اليوم يا يفغيني .

– حقاً ؟ لا بد وان الشمس قد لفحتني ، ثم انني اكلت الكثير من توت العليق .

– اذن فلا بأس بان تغفو قليلاً .

– اجل ، ولكن لا تنظر اليّ : فان وجه اي انسان يبدو بليداً اثناء النوم .

– هل تعير بالاً لما يفكر به الآخرون عنك ؟

– لا ادري بماذا اجيبك . فالانسان الحقيقي لا ينبغي ان يفكر بذلك . والانسان الحقيقي ليس هو الذي يفكر فيه الآخرون ، بل هو الذي يخضعون له او يكرهونه .

– يا للغرابة ! فانا لا اكره احداً – قال اركادي بعد ان تفكر قليلاً .

– اما انا فاكره كثيرين . انت شخص رقيق رخو العود ، فاين منك الكره ؟ ! انك خجول لا تعول على نفسك كثيراً . . .

– وانت ؟ – قاطعه اركادي – هل تعول على نفسك ؟ وهل تقدر نفسك كثيراً ؟

لزم بازاروف الصمت فترة . ثم قال متمهلاً :

– عندما اقابل شخصاً لا يستسلم لي فسوف اغير رايي عن نفسي . اما الكره فانك ، مثلاً ، قلت اليوم حينما مررنا ببيت مختار القرية فيليب – وهو بيت ابيض جميل – قلت ان روسيا ستبلغ الكمال عندما تكون لدى ابسط فلاح مثل هذه البناية ، وان على كل منا ان يساعد في ذلك . . . عند ذاك كرهت انا هذا الفلاح البسيط ، فيليب او سيدور ، الذي يتعين عليّ ان ابذل جهدي من اجله ، اما هو فلن يقدم اليّ حتى كلمة شكر . . . ثم ما حاجتي الى شكره ؟ حسناً ، سيعيش هو في بيت ابيض ، وسينبت على قبري الشوك ، وماذا بعد ؟

– كفاك يا يفغيني . . . من يستمع اليك اليوم يتفق مرغماً مع اولئك الذين يلوموننا على انعدام المبادئ .

– انت تتكلم مثل عمك . ليست هناك مبادئ اطلاقاً ، بل هناك الاحساسات ، وكل شيء متوقف عليها . وانت لم تدرك ذلك حتى الآن .

– كيف ذلك ؟

– انه كذلك بالذات . خذني مثلاً : انني اتمسك باتجاه الرفض ، وذلك بحكم الاحساسات . فالرفض يبعث السرور في نفسي ، ودماغي مبنى على هذا الاساس . ذلك كل شيء ! فما الذي يجعل الكيمياء تعجبني ؟ وما الذي يجعلك تحب التفاح ؟ – ذلك ايضاً بحكم الاحساسات . فالامر سواء . ولن يتغلغل البشر الى اعمق من ذلك ابداً . ولن يقول ذلك اي كان . وحتى انا لن اقوله لك مرة اخرى .

– والنزاهة هل هي احساس ايضاً ؟

– كيف لا ؟ !

– يفغيني ! – شرع اركادي يتكلم بصوت حزين . فقاطعه بازاروف :

– آ ؟ ماذا ؟ لم يعجبك ذلك ؟ كلا ، يا اخي ! فطالما قررت ان تحش كل شيء ، فحش رجليك ايضاً ! . . عليّ وعلى اعدائي يا رب ! ولكننا تمادينا في التفلسف . قال بوشكين «الطبيعة تبعث صمت الكرى» .

فاعترض اركادي :

– لم يقل بوشكين شيئاً من هذا القبيل مطلقاً .

– لم يقل . كان باستطاعته وكان يتعين عليه كشاعر ان يقول ذلك . وبالمناسبة فقد ادى الخدمة العسكرية ولا بد .

– لم يكن بوشكين عسكرياً ابداً !

– كيف لا ؟ فعلى كل صفحة لديه تجد «الى المعركة ! الى المعركة ! دفاعاً عن كرامة روسيا !» (١٠٠) .

– ما هذه الاساطير التي تبتدعها ؟ ! ذلك افتراء .

– افتراء ؟ فليكن ! ابهذه الكلمة تريد ان تخيفني ؟ ! مهما افترينا على الانسان فهو في الواقع يستحق اكثر من ذلك بعشرين مرة .

– من الافضل ان ننام ! – قال اركادي بزعل .

فاجاب بازاروف :

– بكل سرور .

بيد ان النعاس لم يراودهما . واجتاح فؤاديهما شعور يكاد

يكون عدائياً . وبعد خمس دقائق فتحا عيونهما وتبادلا النظرات صامتين .

ثم قال اركادي فجأة :

– انظر ! انفصلت ورقة اسفندان جافة وها هي تسقط على الارض بشكل يشبه كل الشبه تحليق الفراشة . افليس ذلك غريباً ؟ ان اكثر الامور كآبة وموتاً شبيه باكثرها مرحاً وحياة .

فهتف بازاروف :

– يا صديقي اركادي نيكولايفيتش ! ارجو منك شيئاً واحداً : لا تتكلم على نحو جميل .

– انني اتكلم بقدر استطاعتي . . . ثم ان ذلك تعسف في آخر الامر . تبادرت الى ذهني فكرة فما الذي يمنعني من ان اعرب عنها ؟

– هكذا اذن . فما الذي يمنعني انا ايضاً من ان اعرب عن فكرتي ؟ انني ارى ان الكلام على نحو جميل امر معيب .

– فما هو الامر غير المعيب ؟ الشتائم ؟

– هه ! يبدو لي انك تنوي ان تقتفي حقاً آثار عمك العزيز . فما اشد فرحة ذلك الابله لو انه سمعك !

– بم وصفت عمي بافل بتروفيتش ؟

– وصفته بما يستحق : بالابله .

– ذلك امر لا يطاق ! – هتف اركادي .

فقال بازاروف بهدوء :

– اها ! ثارت فيك مشاعر القربى . لقد لاحظت انها راسخة في الناس بتصلب وعناد . فالانسان مستعد للتخلي عن كل شيء ، ولمفارقة كل الاوهام ، ولكن الاعتراف ، مثلاً ، بان اخاه الذي يسرق مناديل الغير لص انما هو فوق طاقته . وبالفعل ، فهل يمكن ان لا يكون اخي عبقرياً اذا كان هو **اخا لي** بالذات ؟ . .

فاعترض اركادي منفعلاً :

– ان ما ثار فيّ هو شعور العدالة البسيط ، وليس مشاعر القربى . ولكنه طالما انك لا تفهم هذا الشعور وليس لديك هذا **الاحساس** ، فليس باستطاعتك ان تحكم عليه .

– وبعبارة اخرى : ان اركادي كيرسانوف فوق مستوى فهمي . لذا اطاطئ راسي والوذ بالصمت .

– كفاك ، ارجوك يا يفغيني ، سوف نتشاجر في آخر الامر .

– آه يا اركادي ! اعمل معروفاً ، فلنتشاجر مرة كما يرام ، حتى النفس الاخير ، حتى الابادة .

– يخيّل اليّ اننا ، على هذا النحو ، سننتهي الى . . .

فعاجله بازاروف :

– . . . ان نتلاكم ؟ اليس كذلك ؟ لا باس ان نتلاكم هنا ، على العشب ، في هذا الجو الشاعري بعيداً عن العالم وعن انظار الناس . ولكنــــك لن تقوى علي . فسوف اتشبث بنحرك على الفور . . .

نشر بازاروف اصابعه الطويلة المتصلبة . . . واستدار اركادي واستعد للمقاومة مازحاً . . . لكن وجه صديقه بدا له شريراً للغاية وخيل اليه ان خطراً فعلياً يتهدده في ابتسامة شفتيه الساخرة المصطنعة وفي عينيه المتوقدتين ، مما جعله يحس بوجل لاارادي . . .

– اها ! هنا اختفيتما ! – دوى في تلك اللحظة صوت فاسيلي ايفانوفيتش . جاء الطبيب العسكري العجوز مرتدياً سترة قطنية بيتية الصنع وقبعة من القش بيتية الصنع ايضاً – بحثت عنكما طويلاً . . . ولكنكما اخترتما مكاناً ممتازاً وانشغلتما بعمل رائع ، حيث تتطلعان الى «السماء» راقدين على «الارض» . . . افلا ينطوي ذلك على اهمية خاصة ؟ !

فقال بازاروف :

– انني لا انظر الى السماء الا عندما تنتابني عطسة . – ثم التفت الى اركادي واضاف همساً : – من المؤسف انه حال بيننا .

فهمس اركادي وشد على يد صديقه خلسة :

– كفاك . فان اية صداقـــة لن تصمد طويلاً لمثل هذه الاشتباكات .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش آنذاك وهو يهز رأسه وقد استند بيديه المتصالبتين على عصا معقوفة بتفنن صنعها بنفسه ووضع مقبضاً لها بشكل راس تركي معمم .

– انني اتطلع اليكما يا عزيزي ولا اشبع منكما . فكم فيكما من قوة وشباب مزدهر وقابليات ومواهب ! انكما . . . مثل كاستوروس وبولوكس * بالضبط !

* ابنا زيوس ، توامان . – **المترجم** .

فقال بازاروف :

– ها قد استشهدت بالميثولوجيا ! واضح تماماً انك كنت في حينه متضلعاً في اللاتينية ! فلقد فزت ، على ما اتذكر ، بالميدالية الفضية لقاء الانشاء ، اليس كذلك ؟

– توامان بالضبط ! – قال فاسيلي ايفانوفيتش .

– ولكن كفاك رقة ، يا ابتي .

فقال العجوز :

– ذلك مسموح به مرة في العمر . وبالمناسبة فقد بحثت عنكما ايها السيدان لا لاعبر لكما عن المجاملات ، بل لاخبركما ، اولاً ، باننا سنتناول طعام الغداء قريباً ، وثانياً ، اردت ان احذرك يا يفغيني . . . فانت انسان ذكي تعرف الناس ، والنساء كذلك ، لذا فسوف تتسامح . . . ارادت امك ان تؤدي مراسيم الصلاة بمناسبة مجيئك . ولا تتصور باني ادعوك لحضور هذه المراسيم ، فقد انتهت ، ولكن الاب الكسي . . .

– خوري ؟

– اجل . الخوري سوف . . . يتغدى عندنا . . . لم اكن اتوقع ذلك ، حتى اني نصحته بعدم . . . ولكني لم انجح . . . فهو لم يفهمني . . . ثم ان آرينا فلاسيفنا . . . علماً بانه انسان متعقل وفي منتهى الطيبة .

فسال بازاروف :

– لن ياكل حصتي من الغداء ، اليس كذلك ؟

فقال فاسيلي ايفانوفيتش ضاحكاً :

– كيف ؟

– انا لا اطالب ، اذن ، باكثر من ذلك . وانا مستعد للجلوس الى المائدة مع اي كان .

عدّل فاسيلي ايفانوفيتش قبعته ، وقال :

– انا واثق مسبقاً من انك اعلى مستوى من جميع الخرافات . فحتى انا العجوز في سني الثانية والستين اخلو من تلك الخرافات . (لم يتجرأ فاسيلي ايفانوفيتش على الاعتراف بانه نفسه رغب في اداء الصلاة . . . كان متديناً لا اقل من زوجته .) اما الاب الكسي فقد كان راغباً اشد الرغبة في التعرف عليك . وسوف يعجبك ،

ستری ذلك بنفسك . وهو لا يعتذر عن لعب الورق . . . حتى انه . . . وهذا سر بيننا . . . يدخن غليوناً .

– ما العمل ؟ سنلعب القمار بعد الغداء وسوف اغلبه .

– هيه ، من يعش ير ! فتلك مسالة فيها نظر .

– ماذا ؟ هل تستعيد ذكريات الماضي ؟ – سال بازاروف بنبرة متعمدة .

فاحمرت وجنتا فاسيلي ايفانوفيتش البرنزيتان على نحو مبهم وقال :

– عيب عليك يا يفغيني . . . ما فات فات . نعم ، انا مستعد للاعتراف امام اركادي نيكولايفيتش بانني كنت مولعاً بذلك في فتوتي . نعم . ولكنني دفعت الثمن ! ما اشد حرارة الجو . اسمحا لي ان اجلس قربكما . فلن اثقل عليكما ، اليس كذلك ؟

– مطلقاً – اجاب اركادي .

ارتمى فاسيلي ايفانوفيتش على العشب متاوهاً ، ثم طفق يتكلم :

– مضجعكما الحالي ، يا سيديّ الجليلين ، يذكرني بحياتي في المخيمات العسكرية ومراكز التضميد في مكان ما قرب اكوام العشب . وكان ذلك في احسن الاحوال – وندت عنه تنهدة – فلقد اجتزت كثيراً من المحن في حياتي . وعلى سبيل المثال احدثكما ، اذا سمحتما ، عن وباء الطاعون في بيسارابيا .

فعاجله بازاروف قائلاً :

– ذلك الذي منحت وسام فلاديمير من اجله ؟ نعرف ذلك جيداً . . . وبالمناسبة فلماذا لا تحمل الوسام ؟

– قلت لك بانـي لا اعبـا بالخرافات – دمدم فاسيلي ايفانوفيتش (وهو الذي امر يوم امس فقط بانتزاع شريط الوسام الاحمر من سترته) ، وراح يتحدث عن وباء الطاعون . ثم همس لاركادي بغتة وهو يشير الى بازاروف وقد غمز بطيبة قلب : – لقد غفا – ثم اضاف بصوت عال : – يفغيني ! انهض ! فلنذهب لتناول الغداء . . .

اتضح ان الاب الكسي ، وهو رجل مكتنز مرموق بشعره الكثيف الممشط بدقة وزناره المطرز على غفارته الحريرية البنفسجية ، يتحلى بقدر كبير من المهارة والفطنة . فقد بادر الى مصافحة اركادي

وبازاروف وكانه يدرك مسبقاً بانهما ليسا بحاجة الى تبريكاته ، وقد تصرف عموماً بلا تكلف . فلم يفضح نفسـه ولم يمس الآخرين . وقد سخر على نحو مناسب من اللغة اللاتينية المدرسية ودافع عن اسقفه ، وارتشف قدحين من النبيـذ ورفض القدح الثالث . وتناول من اركادي سيجاراً ولكنه لم يدخنه ، بل قال انه سياخذه معه الى البيت . كان شيء واحد لا يبعث على الارتياح فيه ، وهو انه يرفع يده ببطء ، وحذر بين حين وآخر ليتصيد الذباب على وجهه ، ثم يهرسه احياناً . وقد جلس الى المائدة الخضراء ، معبراً عن ارتياحه باعتدال ، وانتهـى الى ان غلب بازاروف روبلين وخمسين كوبيكاً ورقية : فان عائلة آرينا فلاسيفنا لم تكن تعرف الحساب بالنقود الفضية . . . جلست الام كعادتها ازاء ابنها (ولم تساهم في لعب الورق) فاسندت خدها بقبضتها كالسابق ، ولم تكن تنهض الا لكي تامر باحضار صنف جديد من اصناف الطعام . كانت تخشى مداراة بازاروف الذي لم يبدر منه ما يشجعها على المداراة ، ثم ان فاسيلي ايفانوفيتش نصحها هو الآخر بان لا «تزعج» ابنها كثيراً .واكد لها «ان الشباب لا يرغبون في ذلك» (ولا داعي للكلام عن غداء ذلك اليوم : فقد ارتحل تيموفييتش بنفسه منذ الفجر لكي يقتني لحم بقر من نوع تشيركاسي خاص ، وتوجه مختار القرية الى جهـة اخرى لاقتناء سمـك البربوط والراف والسرطان ، وتسلمت الفلاحات اثنين واربعين كوبيكاً نحاسياً لقاء الفطر وحده) . بيد ان عيني آرينا فلاسيفنا المتطلعتين الى بازاروف على الدوام لم تعبرا عن الولاء والحنان وحدهما : فقد لاحت فيهما كآبة ممزوجة بالفضول والرعب ، ولاح فيهما شيء من العتاب الرادع .

وبالمناسبة فقد كان بازاروف في شغل شاغل عن تفحص ما تعبر عنه عينا امه . فكان نادراً ما يخاطبها ويطرح عليها سؤالاً موجزاً . طلب منها ان تقدم له يدها «كفال حسن» في لعب الورق ، فوضعت يدها الرقيقـة بهدوء على راحته الواسعـة المتصلبة .

وبعد قليل سالته :

– ماذا ؟ هل اعانك ذلك ؟

فاجاب بابتسامة ساخرة مستهينة :

– اصبح الامر اسوأ .
فقال الاب الكسي متظاهراً بالتاسف ومسد لحيته الجميلة :
– انه يجازف كثيراً .
فتدخل فاسيلي ايفانوفيتش الذي لعب بالآس قائلاً :
– تلك قاعدة نابليونية ، يا ابانا ، قاعدة نابليون .
فقال الاب الكسي وهو يغطي الآس بورقة القشوش الرابحة :
– انها هي التي قادته الى جزيرة سانت هيلانة * .
وسالت آرينا فلاسيفنا :
– الا ترغب في عصير عنب الثعلب ، يا ينيوشا ؟
فاكتفي بازاروف بان هز كتفيه .
وفي اليوم التالي قال لاركادي :
– كلا ! سارتحل غداً . لقد ضجرت . اريد ان اعمل ولكن العمل هنا مستحيل . ساذهب الى قريتكم من جديد ، فقد تركت جميع مستحضراتي عندكم . هناك يمكنني ان انفرد على الاقل . اما هنا فان ابي يؤكد لي : «مكتبي تحت تصرفك ، ولن يشوش عليك احد» ، ولكنه هو بالذات لا يفارقني لحظة . ثم ان انفرادي عنه امر لا يليق . وامي هي الاخرى . . . فانا اسمعها تتنهد من وراء الجدار ، وعندما اخرج اليها لا اجد ما اقوله لها .
فقال اركادي :
– سوف تتالم هي كثيراً ، وهو ايضاً .
– ساعود اليهما مرة اخرى .
– متى ؟
– في طريقي الى بطرسبورغ .
– انني متاسف لامك خصوصاً .
– ماذا ؟ هل اشترتك بالثمار ؟
غض اركادي بصره .
– انت لا تعرف امك جيداً يا يفغينيي . فهي ليست امراة رائعة فقط ، بل هي ذكية جداً في الواقع . تحدثت معي زهاء نصف ساعة صباح اليوم ، وكان حديثها حصيفاً ممتعاً .
– لا بد وانها تحدثت عني طوال الوقت ، اليس كذلك ؟

* منفى نابليون . – المترجم .

– لم يكن الحديث عنك وحدك .
– ربما . انت اعرف . وما دامت المراة تستطيع ان تتجاذب اطراف الحديث طوال نصف ساعة فتلك دلالة حسنة . ومع ذلك سارتحل .
– لن يكون سهلاً عليك ان تخبرهما بهذا النبا . فهما يتحدثان دوماً عما سنفعله هنا بعد اسبوعين .
– ليس سهلاً . كيف اغواني الشيطان ان اتحرش بابي هذا اليوم ؟ ! كان قد امر مؤخراً بضرب احد فلاحيه العاملين بالجزية ، وحسناً فعل . اجل ، اجل ، لا تنظر اليّ مستفظعاً ، حسناً فعل ، فذاك الفلاح لص وسكير رهيب ، لكن ابي لم يكن يتوقع مطلقاً باني ساسمع بذلك . لقد ارتبك اشد الارتباك ، اما انا فسوف اضطر الى ايلامه زيادة على ذلك . . . ولكن لا باس ! هذا امر يمكن تحمله .
قال بازاروف «لا باس !» ، ولكنه لم يتجرأ على اشعار فاسيلي ايفانوفيتش بنيته الا بعد مرور يوم كامل . فبعد ان ودعه اخيراً في المكتب قال بتثاؤبة متصنعة :
– آ . . . كدت انسى ان اقول لك . . . فليرسلوا خيولنا غداً الى فيدوت لتستريح عنده * .
دهش فاسيلي ايفانوفيتش :
– ماذا ؟ هل يغادرنا السيد كيرسانوف ؟
– اجل ، وانا معه .
تبدلت سحنة فاسيلي ايفانوفيتش في الحال :
– انت تنوي السفر ؟
– اجل . . . عليّ ان ارحل . ارجوك ان تامرهم بخصوص الخيول .
فقال العجوز متلعثماً :
– حسناً . . . سنرسل الخيول لتستريح . . . حسناً . . . ولكن ، ولكن . . . كيف ذلك ؟
– عليّ ان ارحل اليه لوقت قصير . وساعود الى هنا فيما بعد .

* بغية استخدامها فيما بعد بدلا من الخيول المتعبة في منتصف الطريق . – المترجم .



– اجل ! لوقت قصير . . . حسنـاً – اخرج فاسيلي ايفانوفيتش منديله وتمخط منحنياً حتى كاد يلامس الارض – وا العمل ؟ سيكون ذلك . . . جاهزاً . ظننت انك ستبقى عندنا . . . امداً اطول . فان ثلاثة ايام . . . بعد ثلاث سنوات . . . شيء قليل ، قليل ، يا يفغيني !

– اقول لك اني ساعود قريباً . من الضروري ان ارحل .

– ما دام ذلك ضرورياً . . . فما العمل ؟ ينبغي اداء الواجب قبل كل شيء . . . اذن سنرسل الخيول ، أليس كذلك ؟ حسناً بديهي اننا ، انا وآرينا ، لم نتوقع ذلك . فهي قد طلبت زهوراً من جارتها وارادت ان تزين غرفتك . (لم يذكر فاسيلي ايفانوفيتش شيئاً عن انه كان ينهض مع بزوغ الفجر كل صباح ويجتمع الى تيموفييتش ، وقوفاً ، ورجلاه في حذائه دون جوارب ، ويخرج باصابعه المرتعشة ورقة نقدية بالية اثر اخرى ، فيكلفه باقتناء مختلف المشتريات ، مؤكداً بصورة خاصة على الاطعمة والنبيذ الاحمر الذي اعجب به الشابان اشد الاعجاب كما يبدو .) الحرية اهم شيء . وتلك هي قاعدتي . . . فلا ينبغي التضييـــق على احد . . . لا . . .

وصمت فجاة ثم اتجه نحو الباب .

– سنلتقي قريباً ، يا ابني ، اعدك .

الا ان فاسيلي ايفانوفيتش لوح بيده يائساً وخرج دون ان يلتفت . عاد الى غرفة النوم فوجد زوجته في الفراش ، واخذ يصلي همساً كيلا يوقظها . لكنها استيقظت ، وسالته :

– هذا انت ، يا فاسيلي ايفانوفيتش ؟

– نعم ، ايتها الام !

– هل انت قادم من ينيوشا ؟ اتدري ؟ اخشى ان لا ينام نوماً هادئاً على الاريكة . طلبت من انفيسوشكا ان تفرش له حشيتك السفرية ووسائد جديدة . وبودي ان اعطيه حشيتنا الريش ، ولكنه ، على ما اتذكر ، لا يحب الفراش الوثير .

– لا تقلقي ، ايتها الام ، فهو مرتاح . يا الهي ، امح خطايانا واعف عنا . – واصل صلاته بصوت خفيض . لقد راف فاسيلي ايفانوفيتش بعجوزه فلم يخبرها في الليل بالمصيبة التي ستلم بها .

سافر بازاروف واركادي في اليوم التالي . خيمت الكآبة على الدار منذ الصباح . كانت صحون قد تساقطت من يدي كل من في الفيسوشكا ، وحتى فيدكا تحير وانتهى الى ان خلع جزمته . كان فاسيلي ايفانوفيتش مضطرباً اكثر من اي وقت مضى : كان يتمالك نفسه على ما يبدو ، ويتكلم بصوت مرتفع ويطقطق برجليه ، لكن وجهه قد ذبل وذوى ، وصارت نظراته تتجنب ولده . انتحبت آرينا فلاسيفنا بخفوت ، وكادت تستسلم للحيرة وعدم ضبط النفس لدرجة اكبر لولا ان صرف زوجها في الصباح الباكر ساعتين كاملتين في اقناعها وتهدئتها. وبعد ان تخلص بازاروف ، اخيراً ، من اليدين اللتين طوقتاه ، وقطع وعوداً متكررة بانه سيعود في وقت لا يتجاوز الشهر مطلقاً ، وصعد الى العربة ، وتزحزحت خيولها ودق جرسها الصغير وتحركت عجلاتها ، ولم يعد هناك داع لملاحقتها بالنظرات ، فسكن الغبار الذي اثارته ، وعاد تيموفييتش محني الظهر كلياً يجر قدميه مترنحاً في مشيته الى غرفته الصغيرة ، وبعد ان ظل العجوزان وحيدين في دارهما التي بدت ، هي الاخرى ، منكمشة هرمة على نحو مباغت ، ارتمى فاسيلي ايفانوفيتش الذي كان قبل بضع لحظات يلوح بمنديله متماسكاً في مدخل الدار ، على الكرسي وتدلى راسه على صدره وتمتم : «تركنا ، تركنا ، ضجر منا وبقي الآن وحيداً ، وحيداً ، كالاصبع !» - كرر هذا القول مراراً ، وكان كل مرة يدفع بيده الى الامام وسبابتـه منتصبة . وعند ذاك اقتربت منه آرينا فلاسيفنا ومالت براسها الاشيب الى راسه الاشيب ايضاً وقالت : «ما العمل يا فاسيلي ! الابن كسرة مقطوعة من رغيف . وهو كالصقر يحط متى شاء ويحلق متى شاء ، اما نحن فمثل نبتتين من الفطر عند تجويف في جذع شجرة ، نجلس جنباً الى جنب ولا نتزحزح من مكاننا . لكنني سأظل مخلصة لك الى الابد ، مثلما انت مخلص لي» .

رفع فاسيلي ايفانوفيتش يديه عن وجهـه وعانق زوجتـه ورفيقة حياته بشدة لم يعانقها بمثلها حتى في زمن الشباب : فقد خففت عليه احزانه .



وصل صاحبانا الى فيدوت صامتين ، فلم يتبادلا الا كلمات لا شأن لها بين الحين والآخر . لم يكن بازاروف راضياً عن نفسه تماماً . وما كان اركادي راضياً عنه . زد على ذلك انه احس بكآبة لا مبرر لها تعتصر قلبه . وهي كآبة لا يعرفها الا من هم في ريعان الصبا . استبدل الحوذي الخيول وصعد الى مقعده وسأل : الى اليمين ام الشمال ؟

ارتعش اركادي . الطريق الى اليمين يؤدي الى المدينة ومنها الى داره . اما الطريق الى الشمال فيؤدي الى اودينتسوفا .

التفت الى بازاروف وسأله :

– يفغيني ، الى الشمال ؟

فأشاح بازاروف بوجهه ودمدم :

– ما هذه الحماقة ؟

فأجاب اركادي :

– انا اعرف انها حماقة . لا ضير في ذلك . فهل هذه هي حماقتنا الاولى ؟

خفض بازاروف عمرته حتى غطت جزءاً من جبهته ، ثم قال اخيراً :

– كما تشاء .

فصاح اركادي :

– الى الشمال !

اسرعت العربة باتجاه نيكولسكويه . الا ان الصديقين اللذين قررا اقتراف تلك **الحماقة** قد صمتا بعناد اشد من السابق حتى لكأنهما حانقان .

ادركا من كيفية استقبال كبير الوصفاء لهما في مدخل دار اودينتسوفا انهما تصرفا بغير حكمة عندما انصاعا لفكرة راودتهما على حين غرة . فمن الواضح ان احداً ما لم يكن يتوقع قدومهما . انتظرا طويلا في غرفة الاستقبال واكتسى وجهاهما بمسحة من البلادة . واخيراً حضرت اودينتسوفا . رحبت بهما بلطفها المعتاد ، لكنها دهشت لعودتهما السريعة ، ولم تكن ، كما بدا من تباطؤ حركاتها ولهجتها ، في غاية السرور لذلك . واسرع الشابان للاعلان

بأنهما عرجا عليها في طريقهما الى المدينة التي سيتوجهان اليها بعد زهاء اربع ساعات . فاكتفت هي بان تأوهت متعجبة بعض الشيء ، ورجت اركادي ان ينقل تحياتها الى ابيه وبعثت في طلب خالتها . حضرت الاميرة ناعسة ، مما اضفى مزيداً من الحنق على ملامح وجهها الهرم المتغضن . وكانت كاتيا متوعكة فلم تغادر غرفتها . احس اركادي فجأة بانه راغب في رؤية كاتيا كما في رؤية آنا سيرغييفنا سواء بسواء ، على اقل تقدير . انقضت الساعات الاربع في احاديث لا اهمية لها عن كيت وكيت ، وكانت آنا سيرغييفنا تستمع وتتكلم دون ان تبتسم . ولم تتحرك المشاعر الودية السابقة في فؤادها ، على ما يبدو ، الا خلال الوداع ، حيث قالت :

– انتابتني الكآبة في الآونة الاخيرة ، ولكن لا تهتما بذلك ، تعالا اليّ معاً بعد حين من الزمن .

رد عليها بازاروف واركادي بانحناءة صامتة ، وصعدا الى مركبتهما واتجها الى البيت في مارينو دون ان يتوقفا في ايما مكان . وصلا بسلام في مساء اليوم التالي . وطوال الطريق كله لم يذكر لا هذا ولا ذاك حتى اسم اودينتسوفا . ولم يفتح بازاروف على الخصوص فمه طوال الوقت تقريباً حيث راح يتطلع بقساوة متوترة الى جانبي الطريق .

سر الجميع في مارينو لوصولهما غاية السرور . فان غياب اركادي ذلك الامد الطويل اخذ يقلق نيكولاي بتروفيتش الذي هتف وطبطب برجليه وتقافز على الاريكة عندما ركضت اليه فينيتشكا بعينين براقتين واعلنت عن وصول «السيدين الشابين» . وحتى بافل بتروفيتش احس ببعض الاضطراب المفرح وابتسم متسامحاً وهو يشد على يدي الجوالين العائدين . وبدأت الاحاديث والتساؤلات . وتكلم اركادي اكثر من غيره وخصوصاً اثناء العشاء الذي استمر لامد طويل بعد منتصف الليل . امر نيكولاي بتروفيتش بتقديم بضع قنان من جعة البورتر المركزة التي جلبت لتوها من موسكو . وافرط هو في الشراب حتى غدت وجنتاه قرمزيتين وراح يضحك بقهقهة فيها شيء من ضحك الاطفال او الضحك العصبي . واجتاحت الفرحة الخدم ايضاً . فكانت دونياشا تتراكض الى هنا وهناك كالمهووسة ، وهي تصفق الابواب بين الحين والآخر . وحاول بيوتر ، حتى في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ان

يعزف فالس القوزاق على القيثارة . كانت الاوتار تنوح بلطف في الجو الجامد ، ولكن الوصيف المتعلم لم يعزف اي شيء على ما يرام ما عدا بعض النغمات الاولية القصيرة : فالطبيعة لم تمنحه موهبة موسيقية ولا اية موهبة اخرى .

بيد ان الحياة في مارينو لم تكن تجري على نحو طيب تماما . كانت حالة نيكولاي بتروفيتش المسكين تسوء احيانا . وكانت الهموم في المزرعة تزداد من يوم لآخر ، وهي هموم مشوشة لا تبعث على السرور . وغدا التعامل مع الاجراء امراً لا يطاق . فالبعض منهم يطالبون بتصفية الحساب او زيادة الاجور ، بينما يترك البعض الآخر العمل مستأثرا بالعربون . كانت الخيول عرضة للامراض ، وعدتها تتلف بلمح البصر . كانت الاعمال تنفذ بدون اتقان ، واتضح ان الآلة الدارسة التي جلبت من موسكو غير صالحة بسبب ثقلها . اما الآلة الاخرى فقد اصابها العطب منذ تشغيلها للمرة الاولى . واحترق نصف حظيرة الماشية لان عجوزا عمياء من الخدم خرجت اثناء هبوب الريح تحمل جذوة «التدخين» بقرتها . . . غير ان هذه العجوز نفسها اكدت بان سبب المصيبة هو نية السيد في استحداث اجبان والبان لا مثيل لها . وعلى حين غرة انتاب الكسل وكيل المزرعة حتى انه اخذ يترهل كما يترهل كل روسي يعيش في بحبوحة . وحالما يرى نيكولاي بتروفيتش قادماً من بعيد يلقي بخشبة على خنوص يمر راكضا قربه او يهدد غلاما شبه عار ، وذلك ليبين له جده واجتهاده ، لكنه في الواقع كان ينام اكثر الاوقات . ولم يكن الفلاحون العاملون بالجزية يدفعون النقود في الموعد المحدد ، وكانوا يسرقون الاخشاب . وفي كل ليلة تقريبا كان الحرس يتصيدون خيول الفلاحين ترعى في مروج «المزرعة» ، واحيانا كانوا يقتادونها منهم بعراك . وقد فرض نيكولاي بتروفيتش غرامة نقدية على اتلاف المزروعات ، لكن الامور تنتهي عادة بان تصرف تلك الخيول يوما او يومين في حظيرة السيد ثم تعاد الى اصحابها . زد على ذلك ان الفلاحين اخذوا يتشاجرون فيما بينهم : صار الاخوة يطالبون بالتقسيم ، ولم تستطع زوجاتهم ان يتعايشن في منزل واحد ، وكان العراك ينشب بينهم فجاة ، فيعم هرج ومرج على حين غرة كما لو ان احداً قد امر بذلك ، ويهرع الجميع الى مدخل المكتب مندفعين الى السيد مخمورين

بوجوه مخدشة في الغالب وهم يطالبون بمحاكمة وعقاب . وترتفع ضجة وعويل وتختلط صاصاة النسوة المنتحبات بشتائم الرجال . كان يتعين الفصل بين الاطراف المتعادية ، ولا بد من الصياح حتى يبح الصوت مع ان الصائح يعلم مسبقاً انه لا يمكن التوصل الى حل صائب . لم تكن الايدي العاملة كافية لجمع الغلة : فالفلاح الغني الوسيم المجاور وعد بان يحضر الحصادين مقابل روبلين عن كل هكتار ، ولكنه خدع نيكولاي بتروفيتش بدناءة . وطلبت فلاحات السيد اجوراً مرتفعة للغاية ، بينما اخذ القمح يتناثر من السنابل . اخفق الحصاد ، في حين صار مجلس الوصاية يهدد ويطالب بدفع الفائدة المئوية بالتمام والكمال فوراً . . .

كان نيكولاي بتروفيتش يكرر بقنوط :

ـ خارت قواي ! ليس بوسعي ان اعارك ، ولا استطيع الاستنجاد بالشرطة . فالمبادئ تحول دون ذلك . بينما لن ينجز احد شيئا بدون الخوف من العقاب !

ـ (هدوءا ، هدوءا) * ـ كان بافل بتروفيتش يجيبه ، ولكنه هو نفسه يدمدم ويعبس وينتف شاربيه .

اما بازاروف فكان بعيداً عن هذه «المشاحنات» ، بل وما كان مضطراً ، كضيف ، ان يتدخل في شؤون الغير . فمنذ اليوم التالي لوصوله الى مارينو انهمك بمعالجة ضفادعه وتقاعياته ومستحضراته الكيمياوية وصرف الوقت كله في ذلك . في حين راى اركادي ، على العكس ، ان من واجبه ان يساعد اباه او ان يتظاهر على الاقل بالاستعداد لمساعدته . كان يستمع اليه بصبر ، وقدم له ذات مرة نصيحة لا لكي يعمل بها احد ، بل لكي يعلن عن مساهمته بشكل ما . ولم يكن تدبير امور المزرعة ليثير اشمئزازه : فهو يحلم ، بارتياح ، بممارسة النشاط الزراعي . بيد ان افكارا اخرى شغلت باله آنذاك . كانت افكار اركادي ، وربما لدهشته هو ، تحوم طوال الوقت حول نيكولسكويه . كان في السابق يكتفي بهز الكتفين لو ان احدا قال له بانه يمكن ان يشعر بالضجر من العيش مع بازاروف تحت سقف واحد ، ناهيك عن سقف الوالدين . اما الآن فقد غدا ضجرا حقا ، وصار شيء

* في الاصل بالفرنسية Du calme, du calme .

ما يدعوه الى بعيد . قرر ان يتمشى حتى الارهاق . لكن ذلك لم يجده نفعاً . تحدث مع ابيه نيكولاي بتروفيتش ذات مرة فعلم ان لديه بضع رسائل ممتعة جدا كانت قد بعثت بها ام اودينتسوفا الى المرحومة زوجته منذ زمان بعيد ، ولم يتركه وشانه الا بعد ان تسلم منه تلك الرسائل التي اضطر نيكولاي بتروفيتش على التفتيش عنها في زهاء عشرين من الادراج والصناديق المختلفة . وعندما غدا اركادي مالكا لهذه الوريقات البالية استقر بعض الشيء كما لو تراءى له الهدف الذي يتعين عليه بلوغه . وصار يهمس بلا كلل «لقد قالت بنفسها : تعالا الي معـــا . . . . ساسافر ، ساسافـــر ، وليكن ما يكون !» . لكنـــــه يتذكر الزيارة الاخيرة والاستقبال الفاتر وارتباكه السابق فيعتريه الوجل . واخيرا سيطرت عليه «عسى ولعل» ورغبة الشباب الخفية في تذوق طعم سعادته وتجربة قواه على انفراد بدون اية وصاية مهمـــا كان مصدرها . لم تمض على عودته الى مارينو عشرة ايام حتى عاد من جديد الى المدينة ، بحجة دراسة نظام مدارس الآحاد (١٠١) ، ومن هناك عرج على نيكولسكويه . كان يستعجل الحوذى بلا انقطاع وهو ينهب الدرب الى هناك كضابط شاب توجه الى المعركة : كان مرتعبا مرحا . وهو ينتظر الوصول بفارغ الصبر . ويؤكد لنفسه «الامر الاهم هو ان لا افكر بشيء» . وقد وقع اختياره على حوذى مغوار ، كان يتوقف امام كل حانـــة قائلا : «هل نتجرع ؟» او «فلنتجرع !» ، ولكنه بعد ان «يتجرع» لا يعود يراف بالجياد . وها قد لاح اخيرا السقف العالي لتلك الدار المعروفة . . . وفكر اركادي على الفور : «ماذا فعلت ؟ ولكن لا مجال للعودة !» . وراحت الخيول الثلاث تنهب الدرب بوئام والحوذي يستحثها بصفيره . ها هو الجسر الصغير قد جلجل تحت السنابك والعجلات ، وها هو ممشى اشجار الشوح الحليقة المقلمة . . . ومرق فستان نسائي وردي وسط الخضرة الداكنة وتطلع وجه فتي من تحت اهداب مظلة خفيفة . . . انها كاتيا ، عرفها وعرفته . امر اركادي الحوذى بوقف الخيول المنطلقة ، فقفز من المركبة واقترب منها . فقالت بعد ان احتقن وجهها كله بالتدريج : «هذا انت ! فلنذهب الى اختي ، انها هنا ، في البستان . وسوف تسر لرؤيتك» .

اقتادت كاتيا اركادي الى البستان . وكان اللقاء معها فالا

حسنا جدا كما خيل اليه . فقد سر لها كما لو كانت من اهله . وجرت الامور على اروع ما يكون : بدون كبير الوصفاء وبدون مراسيم . ففي منعطف الممشى لمح آنا سيرغييفنا التي كانت واقفة وظهرها اليه . وعندما سمعت الخطى استدارت بهدوء .

كاد اركادي يرتبك من جديد ، الا ان اولى الكلمات التي فاهت بها جعلته يهدأ في الحال . «مرحبا ، ايها الهارب !» — قالت بصوتها المتناسق الحنون وتوجهت للقائه باسمة بعينين شبه مغمضتين من الشمس والريح : «اين عثرت عليه يا كاتيا ؟» . فبدا هو كلامه :

— جئت اليك ، يا آنا سيرغييفنـــا ، بشيء لا تتوقعينــــه ابدا . . .

— جئت الي بنفسك ، وهذا افضل شيء .

٢٣

كان بازاروف قد ودع اركادي متاسفا متهكما ولمح له بانه لا يمكن ان يخدع قيد انملة بخصوص الهدف الحقيقي لهذه الزيارة ، ثم اعتكف نهائيا ، حيث انتابته حمى العمل . لم يعد يتجادل مع بافل بتروفيتش ، لاسيما وان هذا صار يتخذ بحضوره هيئـــة ارستقراطية مفرطة ويعرب عن آرائه باصوات متقطعة اكثر مما بكلمات . ومرة واحدة فقط كاد بافل بتروفيتش ينخرط في مساجلة مع النهلستي بصدد المسالة الشائعة آنذاك عن حقوق نبلاء منطقة البلطيق (١٠٢) ، لكنه توقف فجاة وقال بتادب فاتر :

— على كل حال ، ليس بوسعنا ان نفهم بعضنا بعضا . فانا ، على اقل تقدير ، عاجز عن ان اتشرف بفهمك .

— كيف لا ؟ ! — هتف بازاروف — الانسان قادر على فهم كل شيء حتى اختلاج الاثير وما يحدث على الشمس ، لكنه عاجز عن ان يفهم كيف يتمخط انسان آخر بشكل يختلف عن تمخطه هو .

فقال بافل بتروفيتش متسائلا :

— هل هذا شيء ظريف ؟ — وانزوى جانبا . بيد انه كان في بعض الاحيان يستاذن من بازاروف لحضور تجاربه . حتى انه

ذات مرة قرّب وجهه المعطر والمضمخ بعقاقير ممتازة من المجهر لكي يرى كيف التهمت نقاعية شفافة ذرة خضراء وانشغلت بمضغها بواسطة قبضات صغيرة ورشيقة جدا موجودة في حلقومها . الا ان نيكولاي بتروفيتش اكثر من اخيه ترددا على بازاروف . كان بوده ان يحضر كل يوم «للتعلم» ، على حد تعبيره ، لو لا مشاغل المزرعة التي تلهيه . ولم يكن يضايق الباحث الشاب ، فهو ينزوي في احد اركان الحجرة ويتطلع بانتباه ، ونادرا ما يسمح لنفسه بطرح سؤال متهيب . وكان يسعى اثناء تناول طعام الغداء والعشاء الى توجيه الكلام نحو الفيزياء والجيولوجيا والكيمياء ، وذلك لان جميع الامور الاخرى ، حتى ما يتعلق منها بشؤون المزرعة ، ناهيك عن المسائل السياسية ، يمكن ان تؤدي الى عدم ارتياح الطرفين ، ان لم تقل الى الصدامات بينهما . وقد خمن نيكولاي بتروفيتش ان حقد اخيه على بازاروف لم يتقلص قيد شعرة . ثم ان حادثة تافهة ، من بين الحوادث العديدة الاخرى ، قد اكدت تخمينه هذا . اخذت الكوليرا تظهر في بعض الاماكن المجاورة ، بل و«انتزعت» اثنين من سكان مارينو نفسها . وذات ليلة تعرض بافل بتروفيتش لنوبة شديدة . تعذب حتى الصباح ولكنه لم يلجأ الى خدمات بازاروف . وعندما رآه في اليوم التالي وساله بازاروف «لماذا لم يرسل في طلبه ؟» اجابه ، وهو لا يزال شاحبا كليا ، ولكنه تنظف جيدا وحلق ذقنه : «الم تقل بنفسك ، على ما اتذكر ، انك لا تؤمـن بالطب ؟» . مرت الايام على هذا المنوال . وكان بازاروف يعمل بمثابرة وتجهم . . . في حين تضم دار نيكولاي بتروفيتش كائنا بوسعه ان يروح عن بازاروف همومـه ، وعلى الاصـح ان يتجاذب معـه اطراف الحديث بسرور . . . وهذا الكائن هو فينيتشكا .

كان يتقابل معها في اغلب الحالات اثناء الصباح الباكر في البستان او في الباحة . لم يكن يتردد على غرفتها . ولم تكن هي تقترب من غرفته الا مرة واحدة سالته فيها عند الباب عما اذا كان يتعين عليها ان تغسل ميتيا ام لا ؟ كانت تثـق به ، ولا تخشاه ، بل كانت تتصرف بحضوره دون تكلف وبطلاقة اكثر مما بحضور نيكولاي بتروفيتش نفسه . ومن الصعب معرفة السبب في ذلك . لعلها كانت تحس بصورة لاشعورية ان بازاروف خال مما

يميز النبلاء ، من كل ما هو رفيع يستهويها ويخيفها في الوقت ذاته . لقد كان هو في انظارها طبيبا ممتازا وانسانا بسيطا سواء بسواء . كانت لا تشعر بالضيق من وجوده وهي تداري طفلها . ذات مرة اخذ الدوار براسها فجأة واصابها الصداع فتلقت من يده ملعقة الدواء . كانت ، بحضور نيكولاي بتروفيتش ، كالغريبة على بازاروف : ولم تكن تفعل ذلك بسبب الدهاء ، بل بشعور من اللياقة لا اكثر . وصارت تخشى بافل بتروفيتش اكثر من اي وقت مضى . فقد اخذ منذ حين يراقبها ويظهر بغتة وراء ظهرها كما لو انفطرت عنه الارض ببدلته الانجليزية ووجهه العبوس الجامد ويديه المخبأتين في جيبيه . ولقد تشكت فينيتشكا الى دونياشا قائلة : «لتنتابني الرجفة منه» . فاجابت دونياشا بتنهدة وراحت تفكر بانسان آخر «خال من العواطف» . لقد غدا بازاروف ، دون علم منه ، طاغية قاسيا سيطر على فؤادها .

كانت فينيتشكا معجبة ببازاروف ، وكان هو معجبا بها ، حتى ان سحنة وجهه تتغير عندما يتحدث اليها : فتكتسب تعبيرا صافيا يكاد يكون طيبا ، ويختلط باهمالـه المعتاد شيء من الاهتمام الملفع بالفكاهة . كانت فينيتشكا تزداد جمالا من يوم لآخر . ففي حياة النساء الشابات تصادف مرحلة يبدان فيها بالازدهار والتفتح كورود الصيف . وقد حلت هذه المرحلة بالنسبة لفينيتشكا . فكل شيء يساعد على ذلك ، حتى قيظ يوليو الذي خيم آنذاك . كانت ترتدي فستانا خفيفا ابيض تبدو فيه اكثر بياضا وخفة . ولم تكن السمرة لتعلق ببشرتها ، في حين صبغ الحر الذي لم تستطع ان تحتمي منه وجنتيها واذنيها بالحمرة ، واضفى على جسدها كله سكونا هادئا وصار ينعكس في عينيها الجميلتين بشكل فتور ناعس . لم تعد قادرة على ممارسة ايما عمل تقريبا . كانت يداها تكادان تلتصقان بركبتيها . وكادت تكف عن المشي ، فصارت تتاوه وتتشكى بعجز لعوب .

كان نيكولاي بتروفيتش يقول لها :

– من الافضل ان تستحمي كثيرا .

انشا مسبحا واسعا فوقه ظلة من قماش سميك في واحدة من بركه التي لم ينضب ماؤها بعد .

– آه ، يا نيكولاي بتروفيتش ! يموت الانسان قبل ان يصل

الى البركة ، وعندما يعود منها يموت ايضا . فالبستان خال من الظلال .

– حقا ، ليست هناك ظلال – يجيبها نيكولاي بتروفيتش ويمسح حاجبيه .

ذات مرة ، عاد بازاروف من جولته في الساعة السابعة صباحا فوجد فينيتشكا في تعريشة الليلاك التي ذوت زهورها من زمان ، لكنها ظلت كثيفة خضراء . كانت جالسة على المصطبة وقد لفت راسها ، كعادتها ، بمنديل ابيض ، وقربها حزمة كبيرة من ورود حمراء وبيضاء لا تزال ندية . حياها فقالت :

– آ ! يفغيني فاسيليفيتش !

ورفعت طرف منديلها لكي تلقي نظرة عليه فتعرت يدها حتى المرفق .

– ماذا تفعلين هنا ؟ تضفرين باقة ؟ – سال بازاروف وجلس قربها .

– اجل ، باقة لمائدة الفطور . نيكولاي بتروفيتش يحب ذلك .

– الفطور لا يزال بعيدا . ما اكثر هذه الورود !

– قطفتها الآن ، لان من الصعب الخروج فيما بعد بسبب الحر . فالآن فقط يمكن ان تتنسم الهواء . اصابني ضعف شديد من هذا الحر . واخشى ان امرض بسببه .

– ما هذه الاوهام ؟ ! دعيني اجس نبضك – التقط بازاروف يدها وبحث عن العرق فوجده يدق بانسجام حتى انه لم يحسب دقاته . ثم قال :

– ستعيشين مائة عام .

– آه ، الله يستر ! – هتفت فينيتشكا .

– لماذا ؟ الا تريدين ان تعيشي طويلا ؟

– مائة عام ! هذا كثير ! جدتنا بلغت الخامسة والثمانين ، فما كان اعظم آلامها ! غدت سوداء صماء حدباء تسعل طوال الوقت . كانت عالة على نفسها . فما نفع هذه الحياة ؟ !

– تفضلين البقاء شابة ، اليس كذلك ؟

– والا فما الداعي لذلك ؟

– ما هي افضلية الشباب ؟ خبريني !

– كيف ؟ فانا الآن شابة استطيع ان افعل كل شيء بنفسي ،

اروح واغدو واحضر ما يلزم ولا احتاج الى طلب المعونة من احد . . . فهل هناك افضل من ذلك ؟

– اما انا فسيان لدي شابا كنت ام شيخا .

– كيف تقولون سيان ؟ ما تقولونه امر مدهش .

– احكمي بنفسك يا فينيتشكا ، ما نفع فتوتي ؟ انني اعيش وحيدا ، اعزب . . .

– ذلك يتوقف عليكم دوما .

– ليس عليّ . . . تلك هي القضية ! حبذا لو رأف احد بحالي .

القت فينيتشكا نظرة جانبية على بازاروف ولم تقل شيئا . وبعد فترة صمت سالته :

– ما هذا الكتاب الذي معكم ؟

– هذا ؟ كتاب علمي معقد .

– هل تدرسون طوال الوقت ؟ الا يضجركم ذلك ؟ يخيل اليّ انكم تعرفون كل شيء .

– ليس كل شيء ، على ما يبدو . هاك ، اقرأي قليلا .

– لن افهم من ذلك ذرة . هل هو كتاب روسي ؟ – سالت فينيتشكا وهي تتلقى بيديها المجلد الثقيل – ما اثقله !

– روسي .

– لن افهم منه شيئاً مع ذلك .

– لا اقصد بان تفهمي . اريد فقط ان اتطلع اليك عندما تقرأين . فاثناء ذلك تتحرك ارنبة انفك بشكل لطيف جدا .

ضحكت فينيتشكا وتركت الكتاب بعد ان كانت قد تهيأت لتقرأ بصوت خافت المقالة التي فتحته عليها وهي عن «خلاصة القطران» . . . فانزلق الكتاب من المصطبة الى الارض ، فقال بازاروف :

– يعجبني كذلك ان اراك تضحكين .

– ماذا تقولون ؟

– ويعجبني ان اسمعك تتكلمين ، كخرير جدول .

اشاحت فينيتشكا بوجهها . ثم قالت وهي تمس الورود باصابعها :

– ما حاجتكم الى الاستماع اليّ ؟ لقد دارت احاديث بينكم وبين نساء نبيلات ذكيات .
– آه ، يا فينيتشكا ، صدقيني ان كل النبيلات الذكيات في العالم لا يساوين مرفقك .
– ماذا تقولون ؟ – همست فينيتشكا وضغطت يديها الى بدنها .
رفع بازاروف الكتاب من الارض .
– هذا كتاب طبي ، لماذا القيت به ؟
– طبي ؟ – سالت فينيتشكـــا واستدارت نحوه – هل تعلمون ؟ ميتيا ينام نوما هانئا منذ ان اعطيتموني تلك القطرات . هل تذكرون ؟ لا ادري كيف اشكركم على ذلك . ما اطيبكم !
فقال بازاروف ساخرا :
– في الحقيقة ينبغي الدفع للاطباء . فهم ، كما تعلمين ، اناس نفعيون .
رفعت فينيتشكا الى بازاروف عينيها فبدتا اكثر سوادا بسبب الانعكاس الضارب الى البياض والذي وقع على القسم العلوي من وجهها . ولم تكن تعرف ما اذا كان جادا ام مازحا .
– اذا اردتم فنحن على كل استعداد . . . ساطلب من نيكولاي بتروفيتش . . .
– تظنين باني اريد نقودا ؟ – قاطعها بازاروف – كلا ، انني اريد منك شيئا غير النقود .
– ماذا اذن ؟ – سالت هي .
– ماذا ؟ احزري – قال بازاروف .
– كيف لي ان احزر ؟ !
– اذن فساقول لك . انني اريد . . . واحدة من هذه الورود .
ضحكت فينيتشكا من جديد حتى انها ضربت كفا على كف . فقد بدت لها امنية بازاروف مسلية للغاية . كانت تضحك وتشعر في الوقت نفسه بان ذلك اطراء لها . وكان بازاروف يحدق فيها . وقالت اخيرا بعد ان انحنت على المصطبة وراحت تنتقي الورود :
– تفضلوا ، تفضلوا ، اية وردة تريدون حمراء ام بيضاء ؟
– حمراء وغير كبيرة جدا .
عدلت من قامتها وقالت :

– خذوا .
ولكنها سرعان ما سحبت يدها الممدودة وعضت على شفتيها ونظرت الى مدخل التعريشة ثم اخذت تتسمع . فسأل بازاروف :
– ماذا ؟ هل هو نيكولاي بتروفيتش ؟
– كلا . . . ذهب الى الحقل . . . ثم انني لا اخشاه . . . ولكن بافل بتروفيتش . . . خيل اليّ . . .
– ماذا ؟
– خيل اليّ انه هو الذي يتمشى هنا . كلا . . . لا احد . خذوا – سلمت فينيتشكا الوردة الى بازاروف .
– لماذا تخافين من بافل بتروفيتش ؟
– انه يخيفني دومـــا . لا يقول شيئا ولكنه ينظر اليّ بغموض . ثم انكم ايضا لا تحبونه . هل تذكرون كيف كنتم في السابق تتجادلون معه . لا ادرى عم كنتم تتجادلون ولكني رأيت كيف تتلاعبون به هكذا ، ثم هكذا . . .
اومات فينيتشكا بيديها الى كيفية تلاعب بازاروف ببافـــل بتروفيتش ، كما خيل اليها .
ضحك بازاروف ثم سالها :
– لو فرضنا انه تفوق عليّ فهل كنت ستدافعين عني ؟
– كيف لي ان ادافع عنكم ؟ كلا ، لن يقوى عليكم احد .
– حقا ؟ اما انا فاعرف يدا تستطيع ان تقهرني باصبع واحد اذا ارادت .
– اية يد هذه ؟
– الا تعرفينها ؟ شمي هذه الوردة التي اعطيتنيها .
اشرابت فينيتشكا وقربت وجهها من الوردة . . . انزلق المنديل من راسها على الكتفين ، ولاح خضم ناعم من الشعر الاسود اللامع المشعث بعض الشيء .
– تمهلي ، اريد ان اشمها معك – قال بازاروف وانحنى عليها فطبع قبلة شديدة على شفتيها المتفتحتين . ارتعدت ، وانشبت كلتا يديها في صدره ، لكن مقاومتها كانت ضعيفة فتسنى له ان يكرر قبلته ولامد اطول .
تعالى سعال جاف من وراء الليلاك . ابتعدت فينيتشكا الى طرف المصطبة الآخر بلمح البصر . وبان بافل بتروفيتش فانحنى قليلا

وقال بكآبة حاقدة «انتما هنا» ، ثم ابتعد . التقطت فينيتشكا كل الورود في الحال وخرجت من التعريشة هامسة : «حرام يا يفغيني فاسيليفيتش» . ورنت في همسها ملامة غير منفعلة .

تذكر بازاروف المشهد الاخر مع اودينتسوفا فانبه ضميره وشعر بكآبة وبشيء من الاحتقار . لكنه نفض راسه على الفور وهنأ نفسه ساخرا «على الانتماء الرسمي الى سلك العشاق» وتوجه الى غرفته .

اما بافل بتروفيتش فقد خرج من البستان ووصل الى الغابة بخطاه المتباطئة . ظل هناك امدا طويلا ، وعندما عاد لتناول الفطور ساله نيكولاي بتروفيتش بكل اهتمام عن صحته . فقد غدا وجهه في غاية القتامة . واجاب بافل بتروفيتش بهدوء :

– انت تعلم باني اعانى احيانا من داء الصفراء .

٢٤

بعد زهاء ساعتين طرق بافل بتروفيتش باب بازاروف .

– استميحك عذرا لاني الهيك عن مشاغلك العلمية – قال وجلس على كرسي قرب النافذة واستند بكلتا يديه الى عصا ذات مقبض من العاج (وهو يتمشى عادة بدون تلك العصا) – لكنني مضطر لاستعطافك بان تخصص لي من وقتك خمس دقائق . . . لا اكثر .

– وقتي كله في خدمتك – اجاب بازاروف وقد تبدلت سحنته حالما اجتاز بافل بتروفيتش عتبة بابه .

– تكفيني خمس دقائق . جئت لاطرح عليك سؤالا .

– عم ، يا ترى ؟

– تفضل واستمع . اول ما حللت انت في دار اخي ، عندما لم اكن قد حرمت نفسي من متعة التحدث معك ، تعين عليّ ان استمع الى محاججاتك بشأن العديد من الاشياء ، ولكن الكلام ، بقدر ما اتذكر ، لم يتناول بيننا ولا بحضوري ابدا مسالة المنازلات والمبارزة عموما . فاسمح لي ان اعرف رايك بهذا الخصوص .

كان بازاروف الذي نهض لاستقبال بافل بتروفيتش في البداية قد جلس على طرف الطاولة وكتّف يديه . فقال :

– اليك رايي . المبارزة سخافة من الناحية النظرية . ولكنها شيء آخر من الناحية العملية .

– يعني تريد ان تقول ، اذا كنت قد فهمتك جيدا ، انك لن تسمح لاحد في الواقع بان يهينك دون ان تطالب بمبارزته بالرغم من رايك النظري بهذا الخصوص ، اليس كذلك ؟

– لقد حزرت فكرتي تماما .

– حسنا جدا يا سيدي . يسرني كل السرور ان اسمع ذلك منك . كلماتك تنقذني من المجهول .

– تريد ان تقول : من التردد .

– الامر سيان يا سيدي . انني اتكلم بالشكل الذي يفهمني به الآخرون . فانا . . . لست من جرذان المدارس والكليات . كلماتك تحررني من بعض الضروريات المحزنة . لقد صممت على ان اتبارز معك .

جحظت عينا بازاروف :

– معي انا ؟

– معك بالذات .

– معذرة ، لاي سبب ؟

فواصل بافل بتروفيتش كلامه :

– بوسعي ان اوضح لك السبب ، ولكنني افضل السكوت عليه . انك برايي ، شخص نافل هنا . وانا لا اطيق وجودك ، انني احتقرك . واذا كان ذلك لا يكفيك . . .

لمعت عينا بافل بتروفيتش . . . والتهبت عينا بازاروف ايضا ، فقال مدمدما :

– حسنا جدا يا سيدي . لا داعي للمزيد من التوضيح . لقد راودك وهم بان تجرب عليّ فروسيتك . وبوسعي ان ارفض منحك هذه المتعة ، ولكن لا باس ، فليكن !

– انني ممتن لك كل الامتنان . – اجاب بافل بتروفيتش – ويمكنني الآن ان آمل بانك تتقبل التحدي دون ان تحملني على اللجوء الى اجراءات العنف .

– اي اللجوء الى هذه العصا ، اذا تكلمنا بدون مجاز ، اليس كذلك ؟ – سأل بازاروف ببرود – ذلك عين الصواب .

فليس هناك مطلقا ما يدعوك الى اهانتي . ثم ان ذلك ليس بدون مخاطر . بوسعك ان تظل جنتلمانا . . . وانا اقبل تحديك كما يفعل الجنتلمان ايضاً .

– حسناً – قال بافل بتروفيتش ووضـع العصا في ركن الغرفة – سنذكر الآن بضع كلمات بشأن شروط مبارزتنا ، ولكن بودي ان اعرف اولا ما اذا كنت ترى ضرورة للجوء الى شكليات الخصام البسيط الذي يمكن ان يغدو حجة للتحدي .

– كلا . الافضل بدون شكليات .

– وانا من هذا الراي ايضاً . ويخيل اليّ كذلك ان لا داعي للتعمق في الاسباب الحقيقية لنزاعنا . فنحن لا نطيق بعضنا البعض . فهل من داع الى المزيد ؟ !

– حقا ، هل من داع الى المزيد ؟ ! – كرر بازاروف متهكما .

– اما بخصوص شروط المبارزة ، فبحكم عدم وجود شاهدين لدينا . . . من اين لنا العثور عليهما ؟

– اجل ، من اين لنا العثور عليهما ؟

– . . . فانني اتشرف بان اقترح عليك ما يلي : نتبارز غدا في وقت مبكر ، في السادسة مثلا ، وراء الاجمة ، بمسدسين وعلى مسافة عشر خطوات . . .

– عشر خطوات ؟ يعني اننا نحقد على بعضنا البعض بقدر هذه المسافة .

– من الممكن ثماني خطوات – قال بافل بتروفيتش .

– ممكن . لم لا ؟ !

– نطلق الرصاص مرتين ، وتحوطا للطوارئ يضع كل منا في جيبه رسالة يلقي فيها على نفسه مسؤولية وفاته .

– ذلك ما لا اوافق عليه تماما – قال بازاروف – انه يشبه الروايات الفرنسية . ولا يطابق الواقع .

– ربما . ولكن ليس من المريح التعرض لتهمة القتل ، اليس كذلك ؟

– اجل . ولكن هناك وسيلة لتلافي هذه الملامة الكئيبة . لن يكون لدينا شاهدان رسميان ، ولكن من الممكن احضار شاهد عادي واحد .

– من هو يا ترى ؟

– بيوتر .

– اي بيوتر هذا ؟

– وصيف اخيك . انه شخص ارتقى الى مستوى التعلم العصري ، وهو يؤدي واجبه بكل ما تتطلبه هذه الحالات من لياقة .

– يخيل اليّ انك تمزح يا سيدي الجليل .

– ابدا . اذا ناقشت اقتراحي ستتأكد من انه اقتراح وجيه وبسيط . فتلك مسألة لا يمكن اخفاء آثارها . اما بيوتر فاتعهد باعداده بالشكل اللازم وايصاله الى ساحة المعركة .

– انك لا تزال تمزح – قال بافل بتروفيتش ناهضا – ولكن بعد الاستعداد الذي ابديته متفضلا لا يحـق لي ان اعترض عليك . . . وهكذا دبرنا كل شيء . . . وبالمناسبة هل لديـك مسدسان ؟

– من اين لي ، يا بافل بتروفيتش ؟ فانا لست عسكريا .

– اذن اقترح ان نستخدم مسدسيّ . وكن على ثقة بانني لم استعملهما منذ خمس سنوات .

– هذا نبأ يبعث على السرور لدرجة كبيرة .

التقط بافل بتروفيتش عصاه . . .

– لا يتبقى عليّ ، ايها السيد الجليل ، بعد ذلك الا ان اشكرك واتركك تعود الى اشغالك . يشرفني ان انحني مودعا .

– الى لقاء سعيد ، يا سيدي الجليل – قال بازاروف مودعا ضيفه .

خرج بافل بتروفيتش ، فوقف بازاروف امام الباب لحظة ، ثم هتف فجأة : «تفو ! يا للشيطان ! ما اجمل ذلك وما اغباه ! اية ملهاة مثّلنا ؟ ! الكلاب المدربة ترقص على قوائمها الخلفية بهذا الشكل . وما كان بالامكان الرفض ، فلربما سولت له نفسه ان يضربني ، وعند ذاك . . . (شحب لون بازاروف لهذه الفكرة ، وفارت فيه عزة النفس) . عند ذاك ساكون مضطرا الى خنقه كقط صغير» . عاد الى مجهره . لكن قلبه يتفطر ، وفارقه الهدوء اللازم للمراقبة والبحث .

وفكر في نفسه : «لقد رآنا اليوم ، ولكن هل يدافع عن اخيه حقا ؟ ثم ما اهمية القبلة ؟ لا بد وان هناك سببا آخر . يا الهي ! اليس هو مغرما بها ؟ ! بالطبع ، بالطبع . امر واضح وضوح

النهار . ما احرج الموقف ! شيء فظيع ! فظيع من كل الوجوه . ينبغي ان اعرض جبيني للرصاص ، وان اسافر على كل حال . هذا اولا . ثم هناك اركادي . . . وهذا الحمل الوديع نيكولاي بتروفيتش . شيء فظيع ، فظيع» .

مر النهار بهدوء باهت اكثر من المعتاد . واختفى اثر فينيتشكا وكأنما لم تكن موجودة في هذا العالم . قبعت في غرفتها كفأرة في جحر . وبدا نيكولاي بتروفيتش مهموما . فقد ورده نبأ ظهور داء السناج في قمحه الذي علق عليه آماله بخاصة . وكان بافل بتروفيتش بمجاملته الجليديـــة ثقيلا على الجميع ، حتى على بروكوفيتش . بدأ بازاروف بتحرير رسالة الى ابيه ، ولكنه مزقها والقى بها تحت الطاولة . وفكر في نفسه «اذا مت فسوف يعلمان . ولكنني لن اموت . فسوف اجول طويلا في هذا العالم» . طلب من بيوتر ان يأتي اليه عند بزوغ فجر الغد من اجل قضية هامة وتصور بيوتر ان بازاروف يريد ان يصطحبه الى بطرسبورغ . خلد بازاروف الى النوم في ساعة متأخرة ، واخذت احلام مشوشة تعذبه طوال الليل . . . كانت اودينتسوفا تدور امامه ، وكانت هي امه في الوقت نفسه ، وتبعتها قطة ذات شوارب سوداء ، وهذه القطة هي فينيتشكا . وبدا له بافل بتروفيتش بشكل دغل كثيف عليه ان يتبارز معه من كل بد . ايقظه بيوتر في الرابعة صباحا ، فارتدى ملابسه على الفور وخرج معه .

كان الصباح منعشا رائعا . وكانت سحابات صغيرة متموجة تتناثر على زرقة صافية شاحبة ، واستقر ندى رقيق على الاوراق والاعشاب وبيوت العناكب وصار يلمع كالفضة . لاحت الارض الندية القاتمة وكأنها تحتفظ بآثار الفجر الحمراء ، وكانت اغاريد القبرات تصدح من كل ارجاء السماء . بلغ بازاروف الاجمة فجلس في الظل على طرفها ، وعند ذاك فقط كشف لبيوتر عن الخدمة التي ينتظرها منه . ارتعب الوصيف حتى الموت ، ولكن بازاروف هدأ من روعه مؤكدا له بانه ليس عليه الا ان يقف بعيدا ويتطلع وبانه لا يتحمل اية مسؤولية . واضاف قائلا : «ولكن فكر انت اي دور هام ستضطلع به !» . اشار بيوتر بيديه اشارة يائسة واطرق برأسه ممتقعا شاحبا واستند الى جذع بتولا .

الطريق من مارينو يلتف حول الغابة الصغيرة ، وهو مغطى

بغبار خفيف لم تمسه عجلة ولا رجل منذ يوم امس . كان بازاروف ينظر عفويا الى طول هذا الطريق ويقتلع عشبا ويقضمه ويفكر في نفسه مكررا : «يا للغباوة !» . وجعله برد الصباح يرتعش مرتين او ثلاثا . . . نظر اليه بيوتر بكآبة ، فاكتفى بازاروف بابتسامة ساخرة : فهو ليس جبانا .

تهادى وقع سنابك على الطريق . . . ولاح فلاح من وراء الاشجار . كان يقود حصانين معقلين امامه . وعندمـــا مر قرب بازاروف نظر اليه نظرة غريبة دون ان يرفع قبعته ، الامر الذي عين بيوتر باعتباره فالا غير حسن . وفكر بازاروف في نفسه «لقد نهض هذا مبكرا ايضا ، ولكنه على الاقل من اجل العمل . اما نحن فلاي غرض ؟» .

– يخيل اليّ انه قادم ، يا سيدي – همس بيوتر فجأة .

رفع بازاروف رأسه فرأى بافل بتروفيتش في سترة خفيفة مخططة بمربعات وسروال ناصع كالثلج . كان يسير مسرعا في الطريق ، وقد تأبط صندوقا مغلفا بقماش اخضر .

– معذرة ، فقد جعلتكما تنتظران على ما اظن ، – قال منحنيا لبازاروف في البداية ، ثم لبيوتر الذي غدا في تلك اللحظة يحترم فيه شيئا من قبيل الشاهد – ما اردت ايقاظ وصيفي .

– لا بأس . لقد وصلنا نحن ايضاً للتو – اجاب بازاروف .

– آ ! حسنا ! – تلفت بافل بتروفيتش حواليه – لا احد هناك . لن يعيقنا احد . . . هل نبدأ ؟

– اجل .

– اعتقد انك لا تطالب بايضاحات جديدة ؟

– كلا .

– هل تريد ان تشحنهما ؟ – سأل بافل بتروفيتش وهو يخرج المسدسين من الصندوق .

– كلا . اشحنهما بنفسك ، اما انا فسأقيس المسافة . رجلاي اطول – اضاف بازاروف ساخرا – واحد ، اثنان ، ثلاثة . . .

– يفغيني فاسيليفيتش – تمتم بيوتر بصعوبـــة (اذ كان يرتعش كالمحموم) – الامر لكما . سأبتعد .

– اربعة . . . خمسة . . . ابتعد ، يا اخي ، ابتعد . يمكنك ان تقف وراء شجرة ، بل وسد اذنيك ، ولكن لا تغمض عينيك .

وحالما يسقط احدنا اركض نحوه وارفعه . ستة . . . سبعة . . . ثمانية . . . – توقف بازاروف وقال مخاطبا بافل بتروفيتش : – كفاية ؟ ام اضيف خطوتين ؟

– كما تشاء – قال ذاك وهو يعبئ الرصاصة الثانية .

– اذن فلنضف خطوتين اخريين – ورسم بازاروف بطرف جزمته خطين على الارض – ها هما الخطان الفاصلان . وبالمناسبة فكم خطوة ينبغي لكل منا ان يبتعد عن خطه ؟ هذه مسالة هامة ايضاً ، ولكننا لم نناقشها بالامس .

– عشر خطوات على ما اعتقد – اجاب بافل بتروفيتش وقدم كلا المسدسين الى بازاروف – تفضل بالاختيار .

– حسنا . ولكن الا توافقني يا بافل بتروفيتش على ان مبارزتنا غريبة الى حد مضحك . انظر الى الوجه البليد لشاهدنا ، مثلا .

– انت ترغب في المزاح دوما – اجاب بافل بتروفيتش – انني لا انكر غرابة مبارزتنا ، ولكني ارى من واجبي ان احذرك باني انوي المبارزة بكل جد . (فليسمع كل من لديه اذنان !) * .

– هيه ! لا يخامرني شك في اننا عزمنا على ابادة بعضنا البعض . ولكن ما الذي يمنعنا من الضحك والتوفيق بين (المنفعة والمسرة) ** ؟ هكذا اذن : تكلمني بالفرنسية واكلمك باللاتينية .

– ساتبارز بكل جد – كرر بافل بتروفيتش القول واتجه الى مكانه . وحسب بازاروف من جهته عشر خطوات عن خطه وتوقف . فساله بافل بتروفيتش :

– هل انت مستعد ؟

– تماما .

– يمكننا ان نتقارب .

تحرك بازاروف بهدوء الى الامام فاتجه بافل بتروفيتش نحوه وقد دس يده اليسرى في جيبه ورفع فوهة المسدس بالتدريج . . . ففكر بازاروف «انه يهدف نحو انفي مباشرة ، ويفعل ذلك بكل عناية ، يا له من قاطع طريق ! ولكن ذلك احساس غير مسر .

---

* في الاصل بالفرنسية A bon entendeur, salut !

** في الاصل باللاتينية utile dulci .

الافضل ان اتطلع الى سلسلة ساعته . . .» . صر شيء ما بحدة قرب اذن بازاروف ، ودوت اطلاقة في اللحظة ذاتها . وخطرت في ذهنه فكرة «ما دمت قد سمعت فلا خطر هناك» . خطا خطوة اخرى وضغط على الزناد دون تهديف .

ارتجف بافل بتروفيتش رجفة خفيفة وامسك فخذه بيده . وشخب الدم على بنطاله الابيض .

القى بازاروف المسدس جانبا وهرع الى خصمه فساله :

– هل جرحت ؟

فقال بافل بتروفيتش :

– كان من حقك ان تدعوني الى الخط الفاصل . اما الجرح فهو طفيف . لكل منا ، حسب الشروط ، حق في اطلاقة اخرى .

– ولكن معذرة ، فلنؤجل ذلك الى المرة التالية – اجاب بازاروف واسند بافل بتروفيتش الذي بدأ لونه يشحب – فانا الآن لست مبارزا ، بل انا طبيب عليّ قبل كل شيء ان افحص جرحك . بيوتر ! تعال الى هنا . بيوتر ! اين اختفيت ؟

فقال بافل بتروفيتش بصوت متقطع :

– كل ذلك سخف . . . انا لست بحاجة الى معونة احد . ينبغي . . . مرة اخرى . . . – اراد ان يمسك بشاربه ، ولكن قواه خارت ، فغارت عيناه ، وفقد وعيه .

– يا للغرابة ! اغماء ! لاى سبب ؟ – هتف بازاروف ، وهو يضع بافل بتروفيتش على العشب – فلننظر ماذا حدث ؟ – اخرج منديلا ومسح الدم وتحسس الجرح . . . ودمدم : – العظم سليم . والرصاصة اخترقت اللحم سطحيا ، ولم تتلف الا عضلة vastus externus . سيكون بوسعه ان يرقص بعد ثلاثة اسابيع ! . . ومع ذلك اغمي عليه ! يا لهؤلاء الناس العصبيين ! ما اشد نعومة بشرتهم !

– هل قتل يا سيدي ؟ – خف صوت بيوتر اللاهج وراء ظهره . فالتفت بازاروف :

– احضر قليلا من الماء ، يا اخي ، بسرعة . اما هو فسيعيش اطول من عمرك وعمري .

الا ان الخادم العصري المكتمل لم يفهم كلماته ، على ما يبدو ،

فظل واقفا دون حراك . فتح بافل بتروفيتش عينيه ببطء . فهمس بيوتر : «انه يحتضر !» وراح يرسم علامة الصليب .

– انت على حق . . . يا له من وجه بليد ! – قال السيد الجريح بابتسامة مكرهة .

– اذهب لاحضار الماء ، يا للشيطان ! – صاح بازاروف .

– لا داعي . . . كان ذلك مجرد (دوار) * للحظة . . . ساعدني في الجلوس . . . هكذا . . . يكفي لف هذا الخدش بشيء ما وعند ذاك ساذهب الى المنزل ماشيا ، والا فيمكن ارسال عربة مكشوفة . اما المبارزة فيمكن ان لا تستأنف اذا شئت . لقد تصرفت بنبل . . . هذا اليوم ، اليوم فقط ، لاحظ ذلك .

– لا داعي لتذكر الماضي – قال بازاروف – اما المستقبل فلا داعي كذلك لتدويخ الراس بشانه ، لانني انوي الارتحال دون ابطاء . دعني اضمد لك رجلك الآن . جرحك لا خطر فيه ، ومع ذلك من الافضل وقف النزيف . ولكن من الضروري في بادىء الامر اعادة الوعي الى بيوتر .

هز بازاروف بيوتر من ياقته وارسله لاحضار العربة .

فقال له بافل بتروفيتش :

– احذر ، لا ترعب اخي ، واياك ان تخبره .

اسرع بيوتر راكضاً لاحضار العربة ، بينما جلس كلا الخصمين على الارض ولزما الصمت . حاول بافل بتروفيتش ان لا ينظر الى بازاروف ، فلم يكن راغبا في التصالح معه رغم كل شيء . كان خجلا من غطرسته ومن اخفاقه . كان خجلا من هذه البدعة التي اختلقها مع انه كان يشعر بانها لن تنتهي على نحو افضل مما انتهت اليه . وراح يهدىء نفسه : «لن يبقى هنا على الاقل ، والحمد لله» . استمر الصمت ثقيلا مرهقا . وكان كلاهما في حال سيئة . كان كل منهما يدرك ان الآخر يفهمه . وهذا الادراك امر يبعث السرور لدى الاصدقاء ، ولكنه غير مريح مطلقاً للخصوم ، وخصوصا عندما لا تمكن تسوية الامر ولا الافتراق .

سال بازاروف اخيراً :

– هل آلمك التضميد ؟

* في الاصل بالفرنسية vertige .

– كلا ، لا بأس ، رائع – اجاب بافل بتروفيتش ، ثم اضاف بعد قليل : – لن نستطيع خدع اخي ، ولا بد من اخباره باننا تحارشنا بسبب السياسة .

فقال بازاروف :

– حسنا جدا . بوسعك ان تخبره باني شتمت جميع الموالين للانجليز وكان هذا هو سبب المبارزة .

– طيب . ما الذي يظنه بنا هذا الشخص ، على حد اعتقادك ؟ – واصل بافل بتروفيتش كلامه مشيراً الى نفس ذلك الفلاح الذي اقتاد الحصانين المعقلين حيال بازاروف لبضع دقائق قبل المبارزة ، ثم عاد في نفس الطريق ورفع قبعته عندما رأى «السيدين» . فاجاب بازاروف :

– من يدري ؟ ! . انه لا يظن شيئا ، على الاغلب . فالفلاح الروسي هو ذلك المجهول الخفي الذي تحدثت عنه كثيرا السيدة رادكليف (١٠٣) في زمان ما . فمن الذي يفهمه ؟ انه هو لا يفهم نفسه .

– آ ! هذا هو رايك ؟ ! – طفق بافل بتروفيتش يتكلم ، ولكنه هتف فجأة : – انظر ، ماذا فعل صاحبك الابله بيوتر ! ها هو اخي قادم الى هنا !

التفت بازاروف فراى نيكولاي بتروفيتش بوجهه الشاحب جالسا في العربة . قفز من العربة قبل ان تتوقف وهرع الى اخيه . وقال بصوت متهدج :

– ما يعني ذلك ؟ يا يفغيني فاسيليفيتش ، قل لي من فضلك ما هذا ؟

فاجاب بافل بتروفيتش :

– لا شيء . عبثا اقلقوك . لقد تناقشنا قليلا انا والسيد بازاروف ، وقد دفعت الثمن انا بعض الشيء .

– لاي سبب حدث ذلك ، بالله عليكما ؟

– كيف لي ان اوضح الامر ؟ السيد بازاروف تحدث بغير احترام عن السيد روبرت بيل (١٠٤) . واضيف فورا باني انا وحدي المذنب في كل شيء ، فانا الذي تحديته وقد تصرف السيد بازاروف تصرفا ممتازا .

– هذا دم ، كيف ؟ !

– وهل كنت تظن ان ما، يجري في عروقي ؟ هذا الفصاد نافع لي . اليس كذلك يا دكتور ؟ ساعدني في ركوب العربة ولا تجعل الافكار السوداء تسيطر عليك . فسوف اشفى غدا . هكذا . رائع . تحرك يا حوذي .

سار نيكولاي بتروفيتش وراء العربـــة . وكاد بازاروف يتخلف . . . فقال له نيكولاي بتروفيتش :

– ارجوك ان تعتني باخي الى ان يأتي الينا من المدينة طبيب آخر .

طاطا بازاروف راسه صامتا .

وبعد ساعة كان بافل بتروفيتش راقدا على السرير ورجله مضمدة بمهارة . عم الهرج والمرج الدار . واصيبت فينيتشكـا بالدوار . وكان نيكولاي بتروفيتش يتالم في السر ، بينما راح اخوه يضحك ويطلق النكات ، وخصوصا مع بازاروف . وقد ارتدى قميصا قطنيا خفيفا مع سترة الصباح الانيقة وطربوش . لم يسمح بانزال ستائر النوافذ ، واعرب على نحو طريف عن اسفه لضرورة الامتناع عن تناول الطعام .

ولكن حرارته ارتفعت اثناء الليل ، وانتابه الصداع . وصل طبيب من المدينة . (لم يستمع نيكولاي بتروفيتش الى نصيحة اخيه بعدم استدعاء الطبيب . ثم ان بازاروف نفسه اراد ذلك . كان قد قبع في غرفته طوال النهار مصفرا حانقا ولم يغادرها الا ليعود المريض لامد قصير . صادف فينيتشكا مرتين ، بيد انهـا كانت تهرب منه مرتعبة) . نصح الطبيب الجديد المريض بتناول اشربة مرطبة ، واكد ، بالمناسبة ، راي بازاروف من انـه لا يتوقع اي خطر . وقال له نيكولاي بتروفيتش ان اخاه جرح نفسه بسبب قلة حذره . فاجاب الدكتور : «هيه !» ، ولكنه اضاف ، عندما تسلم في الحال خمسة وعشرين روبلا من الفضة : «حقا ! هذا امر غالبا ما يحدث ، بالضبط» .

لم يخلع احد في الدار ملابســه ولم ينم . كان نيكولاي بتروفيتش يتردد على اخيه بين الفينة والفينة سائرا على اطراف اصابعه ، ويخرج منه على اطراف اصابعه ايضاً . كانت تنتاب ذاك الغيبوبة او يئن بخفوت ويقول له بالفرنسية (ناموا) * ، ويطلب

* في الاصل بالفرنسية Couchez-vous

شرابا . وقد رجا نيكولاي بتروفيتش فينيتشكا مرة ان تحمل اليه قدحا من شراب الليمون فحدق بافل بتروفيتش فيها وتجرع القدح حتى الثمالة . وعند الصباح اشتدت حرارته قليلا وانتابه هذيان خفيف . في بادئ الامر تلفظ بافـــل بتروفيتش بكلمات غير مترابطة ، ثم فتح عينيه فجاة ، وقال عندما راى اخاه قرب السرير منحنيا عليه بعناية :

– الا ترى ، يا نيكولاي ، ان فينيتشكا تشبه نيللي بعض الشبه ؟

– من هي نيللي هذه ، يا بافل ؟

– كيف تسال من هي ؟ انها الاميرة ر . . . وخصوصاً في القسم العلوي من الوجه . (من نفس القبيل) * .

لم يحر نيكولاي بتروفيتش جوابا ، بل تعجب في سره من حيوية العواطف القديمة لدى الانسان . وفكر : «ها انبجست بعد كل هذا الزمان» .

وقال بافل بتروفيتش بأنين وهو يضع يديه وراء رأســه كئيبا :

– آه كم احب هذا الكائن الفارغ ! – ثم تمتم بعـــد عدة لحظات : – لن اسمح لأي شخص وقح ان يتجرأ على المساس . . .

تنهد نيكولاي بتروفيتش ، فلم يكن يدرك من يعنى اخوه بهذه الكلمات .

جاء بازاروف في الساعة الثامنة من اليوم التالي . وقد اتسع له الوقت كي يجمع حاجياته ويطلق سراح ضفادعه وحشراتــه وطيوره كلها .

فقال نيكولاي بتروفيتش وهو ينهض لاستقباله :

– جئت لتودعني ؟

– بالضبط يا سيدي .

– انني افهمك واستحسن تصرفك تماما . فاخي المسكين مذنب ، طبعا . وقد تلقى جزاءه . وقال لي بنفسه انه وضعك في موقف يستحيل معه ان تفعل غير ما فعلت . انا واثق من انك لم تستطع ان تتحاشى هذه المبارزة التي . . . التي تعزى بقدر ما

* في الاصل بالفرنسية C'est de la même famille .

الى مجرد التناحر المستمر بين نظرتيكما المتبادلتين (اخذ نيكولاي بتروفيتش يخلط بين الكلمات) . ان اخي انسان من الطراز القديم ، وهو عنيد سريع الغضب . . . والحمـــد لله على هذه النهاية . ثم اني اتخذت كل الاجراءات اللازمة لتلافي اشاعة . . .

فقال بازاروف باستهانة :

– ساترك لك عنواني فيما اذا حدثت ورطة .

– آمل ان لا تقع اية ورطة يا يفغيني فاسيليفيتش . . . ويؤسفني جدا ان وجودك في داري قد انتهت . . . عفوا ، قد انتهى على هذا النحو . ومما يزيد في اسفي ان اركادي . . .

– انني ساراه لا بد – اعترض بازاروف الذي تثير فيه كل انواع «التوضيحات» و«الاعتذارات» دوما شعورا بنفاد الصبر – وفي حالة العكس ارجوك ان تبلغه تحياتي واعتذاري .

– وانا ارجوك . . . – اجاب نيكولاي بتروفيتش مطاطـــا راسه . ولكن بازاروف لم ينتظر ختام عبارته فانصرف .

عندما عرف بافل بتروفيتش باستعداد بازاروف للسفر اعرب عن رغبته في ان يراه ويشد على يده . الا ان بازاروف ظل هذه المرة ايضا باردا كالجليد . فهو يعلم ان بافل بتروفيتش يريد ان يظهر بمظهر النبل . ولم يتسن لبازاروف ان يودع فينيتشكا . فقد تبادل معها النظرات فقط عبر النافذة . وبدا له محياها كئيبا . فقال في سره : «ستهلك على الاغلب ! . . ولربما ستنجو على نحو ما» . اما بيوتر فقد تأثر لدرجة كبيرة حتى صار ينتحب على كتف بازاروف الى ان خفف عليه هذا بسؤاله «عما اذا كانت دموعه قد انهمرت ام لا» ، في حين اضطرت دونياشا للالتجاء الى الاجمة كي تخفي انفعالها . ارتقى المسؤول عن كل هذه الآلام عربة النقل واشعل سيجارا . عندما تماثلت امام عينيه لآخر مرة عند منعطف الطريق ، ضيعة كيرسانوف الممتدة بخط واحد مع دارها الجديدة اكتفى بازاروف بان بصق وتمتـــم : «ارستقراطيون ملاعين» وتلفف بمعطفه على نحو اوثق .

سرعان ما تحسنت صحة بافل بتروفيتش ، ولكنه اضطر لملازمة الفراش حوالي اسبوع . وقد تحمل الاسر ، على حد تعبيره ، بصبر واناة ، بيد انه افرط في الاهتمام بالزينة وطلب مرارا ان يرش بالكولونيا . كان نيكولاي بتروفيتش يقرا له المجلات ،

بينما استمرت فينيتشكا على خدمته كالسابق ، حيث كانت تحمل اليه المرق وشراب الليمون والبيض البرشت والشاي ، ولكن رعبا خفيا كان ينتابها كلما دخلت غرفته . فان تصرف بافل بتروفيتش غير المتوقع قد ارعب كل من في الدار ، وارعبها هي اكثر الجميع . وظل بروكوفيتش هو الشخص الوحيد الذي لم يضطرب وراح يقول ان الاسياد في زمانه ايضاً كانوا يتبارزون . «كان السادة النبلاء فقط يتبارزون فيما بينهم . اما امثال هؤلاء السفلة فكانوا يامرون بمعاقبتهم في الاسطبل لقاء خشونتهم» .

لم تتعرض فينيتشكا لتانيب الضمير تقريبا ، الا ان فكرة السبب الحقيقي للنزاع كانت تعذبها بين الحين والآخر . ثم ان بافل بتروفيتش يسلط عليها نظرات غريبة . . . بحيث كانت تشعر بعينيه تحدقان فيها حتى عندما تدير له ظهرها . وقد اصابها الهزال بسبب القلق الداخلي الذي لا يفارقها ، واصبحت ، كما هي العادة ، اكثر رقة وجمالا .

ذات صباح كان بافل بتروفيتش في حالة جيدة فانتقل من السرير الى الاريكة ، بينما توجه نيكولاي بتروفيتش الى البيدر بعد ان استفسر عن صحته . حملت فينيتشكا قدح الشاي ووضعته على الطاولة وهمت بالخروج . لكن بافل بتروفيتش اوقفها قائلا :

– لمَ انت مستعجلة يا فينيتشكا ؟ عندك شغل آخر ؟

– كلا . . . اجل يا سيدي . . . ينبغي ان نصب الشاي هناك .

– ستصبه دونياشا بدونك . انا مريض فاجلسي معي قليلا . وبالمناسبة فانا اريد التحدث اليك .

جلست فينيتشكا صامتة على طرف المقعد . فقال بافـــل بتروفيتش وهو يمسد شاربه :

– اسمعي ، منذ زمان اردت ان اسالك : يخيل الي انك تخافين مني . حقا ؟

– انا يا سيدي ؟

– نعم ، انت . انك لا تنظرين الي ابدا وكأنما لست بريئة .

احمرت فينيتشكا ، ولكنها نظرت الى بافل بتروفيتش الذي بدا لها غريبا بعض الشيء . فارتجف قلبها قليلا . وسألها هو :

– انت بريئة اليس كذلك ؟

فهمست هي :

– لم لا ؟

– من يدري ؟ ! وعلى كل حال ، فازاء من يمكن ان تكوني مذنبـــة ؟ ازائي انا ؟ امر غير معقول . ازاء اشخاص آخرين في المنزل ؟ شيء غير ممكن ايضاً . لم يبق الا اخي ، ولكنك تحبينه ، اليس كذلك ؟

– احبه .

– بكل روحك وفؤادك ؟

– انني احب نيكولاي بتروفيتش بكل فؤادي .

– حقا ؟ انظري اليّ يا عزيزتي (هذه هي المرة الاولى التي يخاطبها فيها بهذه الصيغة . . .) انت تعلمين ان الكذب خطيئة كبرى !

– انني لا اكذب ، يا بافل بتروفيتش . كيف لي ان لا احب نيكولاي بتروفيتش ؟ انني لست بحاجة الى الحياة بدونه !

– ولن تستبدليه باحد ؟

– بمن استطيع ان استبدله ؟

– من يدري ؟ لنفرض ، بهذا السيد الذي ارتحل من هنا .

نهضت فينيتشكا :

– يا الهي ! لماذا تعذبونني يا بافل بتروفيتش ؟ ما الذي فعلته لكم ؟ كيف يمكن قول ذلك ؟ . .

فقال بافل بتروفيتش بصوت حزين :

– فينيتشكا . لقد رايت . . .

– ما الذي رايتموه يا سيدي ؟

– هناك . . . في التعريشة .

احمرت فينيتشكـــا حتى الشعـــر ، حتى الاذنين . وقالت بصعوبة :

– ما ذنبي في ذلك ؟

فنهض بافل بتروفيتش قليلا :

– ألست مذنبة ؟ كلا ؟ ابدا ؟

– انني احب نيكولاي بتروفيتش وحده في هذا العالم وساحبه الى الابد ! – قالت فينيتشكا بقوة مفاجئـــة ، بينما اختنقت بعبراتها ، – اما ما رايتموه فساقول في يوم القيامة بانني لم اكن

مذنبة فيه ابدا . ومن الافضل ان اموت الآن ما دامت تحوم حولي الشبهات والظنون بانني اكفر بنعمة نيكولاي بتروفيتش . . .

الا ان صوتها خانها هنا ، واحست في الوقت ذاته بان بافل بتروفيتش اخذ يدها وشد عليها . . . نظرت اليه وتجمدت على تلك الحال . لقد غدا اكثر شحوبـــا من السابق ، وكانت عيناه تلمعان . والاغرب من ذلك ان دمعة وحيدة ثقيلة انحدرت على خده . ثم قال بهمس وحنان :

– فينيتشكا ! احبي اخي ، احبيه ! انه انسان في منتهى الطيبة ! ولا تخونيه من اجل اي شخص في الكون ، ولا تسمعي كلاما من اي كان ! فكري انت : ما افظع ان يحب المرء دون ان يكون محبوبا ! لا تتركي ابدا اخي المسكين نيكولاي !

جفت دموع فينيتشكا وفارقها الخوف من اثر دهشتها العظيمة ، ولكن ما اشد ما ارتعبت عندما الصق بافل بتروفيتش ، بافـــل بتروفيتش نفسه ، يدها الى شفتيه وانحنى عليها ، لا ليقبلها ، بل ليتنهد مرتعشا بين الفينة والاخرى .

«يا الهي ! هل اصابته نوبة ؟ . .» – فكرت في نفسها بينما نبضت فيه اثناء تلك اللحظة حياته الموات كلها .

صر السلم تحت خطوات سريعة . . . فدفعها بعيدا عنه والقى براسه على الوسادة . فتح الباب فظهر نيكولاي بتروفيتش مرحا نضرا مورد الخدين . وكان ميتيا الغض المتورد كابيه يتراقص على صدره في قميص لا غير ، وتشتبك رجلاه العاريتان بالازرار الكبيرة لمعطف ابيه الريفي .

هرعت اليه فينيتشكا على الفور وطوقته مع ميتيا بيديها ومال راسها على كتفه . دهش نيكولاي بتروفيتش : فان فينيتشكـــا المتواضعة الخجول لم تكن تلاطفه مطلقا بحضور شخص ثالث .

– ماذا دهاك ؟ – سالها والتفت الى اخيه وهو يسلمها ميتيا . ثم اقترب من بافل بتروفيتش وقال مستفسرا :

– هل ساءت حالتك ؟

فدس هذا وجهه في المنديل القطني وقال :

– كلا . . . بالعكس ، حالتي افضل بكثير .

– عبثا استعجلت في الانتقال الى الاريكة – قال نيكولاي بتروفيتش ، ثم اضاف ملتفتا الى فينيتشكا : – الى اين انت ؟ –

ولكنها كانت قد صفقت الباب خارجة – جئت لاريك طفلي العملاق . لقد اشتاق الى عمه . فلماذا اخذته هي ؟ ولكن ماذا دهاك ؟ هل حدث بينكما شيء ؟

فقال بافل بتروفيتش بصيغة مهيبة :

– يا اخي !

ارتعش نيكولاي بتروفيتش مرتعبا دون ان يعرف السبب . فكرر بافل بتروفيتش قوله :

– يا اخي ، اقطع عهداً بانك ستنفذ طلبا لي .

– اي طلب ؟ قل .

– انه طلب هام جدا ، عليه تتوقف ، كما اعتقد ، سعادة حياتك كلها . طوال هذا الوقت كنت افكر كثيرا بما اريد ان اقوله لك الآن . . . اخي اد واجبك ، واجب الانسان النزيه النبيل ، وضع حدا للغواية والقدوة السيئة من جانبك ، وانت من افضل الناس !

– ما الذي تعنيه يا بافل ؟

– تزوج من فينيتشكا رسميا . . . انها تحبك ، وهي ام لابنك .

تراجع نيكولاي بتروفيتش خطوة وصفق يدا بيد .

– اهذا انت الذي يقول ذلك ؟ انت بافل الذي كنت اعتبره دوما الد خصم لهذا النوع من الزواج ! اهذا انت الذي يتكلم ؟ الا تعلم بان الشيء الوحيد الذي منعني من اداء ما وصفته انت محقا بواجبي انما هو احترامي لك ؟ !

– عبثا كنت تحترمني اذن – اعترض بافل بتروفيتش بابتسامة كئيبة – اكاد اعتقد بان بازاروف محق عندما لامني على النزعة الارستقراطية . كلا ، يا اخي العزيز ، كفانا تظاهرا وتفكيرا بالمجتمع الراقي : فقد غدونا كهولا متواضعين ، وحان الوقت لكي نضع جانبا كل الهموم الباطلة ، ونؤدي واجبنا بالذات ، كما تقول انت . وسوف ترى اننا سنلقى السعادة فضلا عن ذلك .

هرع نيكولاي بتروفيتش ليعانق اخاه هاتفا :

– لقد فتحت عيني نهائياً ! وليس عبثا اني كنت اوكد دوما بانك اطيب واذكى انسان في العالم . وانا ارى الآن ان حلمك يضاهي نبلك .

فقاطعه بافل بتروفيتش :

– على مهلك ، على مهلك . لا تدعس رجل اخيك الحليم الذي تبارز وهو في الخمسين من العمر تقريبا كما يفعل ملازم ثان . هكذا اذن ، تقرر الامر : ستكون فينيتشكا . . . (عديلة لي) *

– آه ، يا عزيزي بافل ! ولكن ماذا سيقول اركادي؟

– اركادي ؟ ما عساه ان يقول ؟ ! سيفرح . انه لا يؤيد الزواج ، ولكنه سيسر للشعور بالمساواة . وبالفعل فما الداعي للتفرقة (في القرن التاسع عشر) ** ؟

– آه ، بافل ، بافل ! دعني اقبلك مرة اخرى . ولا تخف فساكون حذرا .

تعانق الشقيقان . ثم سأل بافل بتروفيتش :

– ماذا ترى ، الا يتعين اخبارها بنيتك في الحال ؟

فاعترض نيكولاي بتروفيتش :

– ما الداعي للعجلة ؟ فهل دار بينكما حديث بهذا الخصوص ؟

– حديث بيننا ؟ (ما هذه الفكرة ؟) ***

– طيب . ينبغي ان تشفى اولا ، اما هذه القضية فليست آنية . ينبغي التفكير في الامر جيدا . . .

– ولكنك صممت ، اليس كذلك ؟

– طبعا ، صممت . وانا ممتن لك من الفؤاد . ساتركك الآن ، اذ ينبغي ان ترتاح ، فان اي انفعال يؤذيك . . . ولكننا سنتحدث في الامر فيما بعد . حاول ان تغفو ، يا حبيبي ، والله يعافيك !

فكر بافل بتروفيتش عندما ظل لوحده : «لماذا يشكرني ؟ وكأنما لم يكن ذلك متوقفا عليه هو ! اما انا فسارتحل ، حالما يتزوج ، الى مكان ما بعيد ، الى درزدن او فلورنسة ، وساظل هناك الى ان افطس» .

بلل بافل بتروفيتش جبهته بالكولونيا واغمض عينيه . كان راسه الجميل النحيل المضاء بنور النهار الساطع مستقرا على الوسادة البيضاء كراس جثة . . . بل كان هو جثة هامدة في الواقع .

* في الاصل بالفرنسية belle-sœur .

** في الاصل بالفرنسية au dix-neuvième siècle .

*** في الاصل بالفرنسية Quelle idée .

٢٥

في ظل شجرة دردار باسقة في بستان نيكولسكويه جلست كاتيا مع اركادي على مصطبة معشوشبة ، وعلى الارض قربهما ربضت الكلبة فيفي ولوت جسمها الطويل على نحو رشيق بالشكل الذي ينعته الصيادون «برقدة الارنب» . لزم اركادي الصمت وكذلك كاتيا . امسك بكتاب مفتوح بالكاد ، في حين راحت هي تلتقط من السلة ما تبقى فيها من فتات الرغيف الابيض وتلقي به الى مجموعة صغيرة من العصافير كانت تتقافز وتزقزق بما يلازمها من تهور وجبن عند قدميها تماما . كان نسيم خفيف يداعب اوراق الدردار ويحرك بهدوء بقعا ضوئية ذهبية باهتة الى قدام والى وراء في الممشى القاتـــم وعلى ظهر فيفي الاصفر . وكان ظل متوازن ينسكب على اركادي وكاتيا . ومن حين لآخر يلمع شريط من الضوء الساطع في شعرها . لزما الصمت ، ولكن تقاربا مطمئنا تجلى في صمتهما وفي هيئة جلوسهما معا : كان كل منهما كانما لا يفكر بجاره ، ولكنه مسرور في الخفاء لقربه منه . تغير محياهما منذ ان رايناهما في آخر مرة : فقد بدا اركادي اكثر هدوءا ، بينما بدت كاتيا اكثر حيوية وجراة .

ثم تحدث اركادي :

– الا ترين ان الدردار اسم على مسمى ؟ ! فليس هناك شجرة تضاهيها في خفتها وشفافيتها .

رفعت كاتيا بصرها الى اعلى وقالت : «اجل» ، بينما فكر اركادي في نفسه : «انها لا تلومني ، مثل بازاروف ، على كلامي **الجميل**» . ثم قالت كاتيــا مشيرة بنظرة من عينيهــا الى الكتاب في يد اركادي :

– لا احب هايني عندما يضحك ولا عندما يبكي . انني احبه عندما يغرق في التأملات والاحزان .

– اما انا فاحبه عندما يضحك . – قال اركادي .

– تلك آثار قديمة من اتجاهك الساخر . . . (ففكر اركادي : «آثار قديمة ! ماذا لو سمع بازاروف ذلك !») تمهل قليلاً ، وسوف نغير آراءك .

– من يغير آرائي ، انت ؟

– اختي ، وبورفيري بلاتونيتش الذي لم تعد تتشاجر معه ، وخالتي التي رافقتها الى الكنيسة اول امس .

– ما كان بوسعي ان ارفض ! اما آنا سيرغييفنا فهي نفسها ، كما تتذكرين ، كانت متفقة مع يفغيني في امور كثيرة .

– كانت اختي آنذاك متأثرة به مثلك تماماً .

– آنذاك ؟ مثلي ؟ هل لاحظت انني صرت اتخلص من تأثيره ؟

لاذت كاتيا بالصمت ، فواصل اركادي كلامه :

– اعرف انه لم يعجبك بتاتاً .

– ليس بوسعي ان احكم عليه .

– هل تعلمين ، يا كاتيا ، بانني كل مرة اسمع فيها هذا الجواب لا اثق به ؟ . . فليس هناك انسان لا يستطيع كل منا ان يحكم عليه ! ذلك مجرد تملص .

– اقول لك الحقيقــة . . . لا استطيـــع القول بانه لا يعجبني . . . ولكنني احس بانه غريب عليّ وبأني غريبة عليه . . بل وحتى انت غريب عليه .

– لماذا ؟

– كيف اجيب ؟ . . انه بري مفترس ، بينما نحن اليفون .

– وانا اليف ايضاً ؟

اومات كاتيا براسها ايماءة ايجاب .

فحك اركادي ما وراء اذنه وقال :

– اسمعي ، يا كاتيا ، ذلك في الواقع امر مغيظ .

– هل تريد ان تكون مفترساً ؟

– كلا ، ولكنني ارغب ان اكون نشيطاً شديد الباس .

– هذا امر لا يخضع للرغبة . . . صديقك ، مثلا ، لا يرغب في ذلك ، ولكنه موجود فيه .

– اهم ! انت تعتقدين بانه اثر على آنا سيرغييفنا تاثيراً كبيراً ، اليس كذلك ؟

– بلى ، ولكن لا احد يستطيع ان يغلبها لامد طويل – اضافت كاتيا بصوت خافت .

– لماذا تظنين ذلك ؟

– انفتها شديدة . . . كلا ، ليس ذلك ما اقصده . . . انها تعتز باستقلالها غاية الاعتزاز .

– فمن لا يعتز به ؟ – قال اركادي وفكر : «وما نفعه ؟» . وفكرت كاتيا ايضا : «وما نفعه ؟» . ان افكاراً متماثلة تتبادر دوماً الى اذهان الشباب الذين كثيراً ما يلتقون برد .

ابتسم اركادي ، واقترب قليلا من كاتيا ، فقال همساً :

– انك تخافين **منها** بعض الشيء ، أليس كذلك ؟ اعترفي .

– ممن ؟

– **منها** – كرر اركادي بلهجة ذات وزن .

– وانت ؟ – سألته كاتيا بدورها .

– وانا ايضاً . لاحظي ، قلت : وانا **ايضاً** .

هددته كاتيا بسبابتها قائلة :

– ذلك يثير دهشتي . فان اختي لم تكن تميل اليك في اي وقت افضل مما هي الآن . انها تميل اليك اكثر بكثير مما في زيارتك الاولى .

– حقاً ؟ !

– الم تلاحظ ذلك ؟ الا يبعث السرور فيك ؟

تفكر اركادي قليلا ثم قال :

– ما الذي جعلني استحق عطف آنا سيرغييفنا ؟ هل السبب اني احضرت لها رسائل والدتك ؟

– اجل . وهناك اسباب اخرى لن اقولها لك .

– لماذا ؟

– لن اقولها .

– آه ! اعرف ذلك . انك عنيدة جداً .

– اجل ، عنيدة .

– وشديدة الملاحظة .

القت كاتيا على اركادي نظرة جانبية .

– ربما يثير ذلك غضبك ؟ بم تفكر ؟

– من اين لك هذه القابلية على الملاحظة الشديدة الموجودة لديك فعلاً ؟ ! انك ترتعبين لابسط الامور ولا تثقين بأحد وتتحاشين الجميع . . .

– عشت لوحدي امداً طويلاً ، لذا صرت اطيل التامل . ولكن هل انا اتحاشى الجميع قاطبة ؟

القى اركادي نظرة ممتنة على كاتيا ، وواصل كلامه :

– ذلك شيء رائع . ولكن الناس في مثل حالتك ، اريد ان اقول الذين يمتلكون ما تمتلكين ، نادراً ما يتمتعون بهذه الموهبة . فالحقيقة يصعب عليها ان تصل اليهم ، كما يصعب عليها ان تصل الى القياصرة .

– ولكنني لست غنية .

استغرب اركادي قولها ولم يفهم في الحال . وخطرت على باله فكرة : «حقاً ، فالضيعة كلها تعود لاختها !» . ولم تكن هذه الفكرة مريرة بالنسبة له . فقال :

– ما احسن لهجة قولك هذا !

– ماذا ؟

– قلت ذلك باطيب وابسط شكل دون خجل ولا تباه . وبالمناسبة فانا اتصور ان الانسان الذي يعلم ويقول انه فقير ينبغي ان ينطوي على شيء خاص ، على بعض الغرور .

– انني لا اشعر بشيء من ذلك بفضل اختي . ولم اشر الى حالتي المادية الا لأن الحديث ساقني الى ذلك .

– حسناً . ولكن اعترفي ، أليس لديك شيء من الغرور الذي ذكرته تواً .

– مثلا ؟

– مثلا ، استميحك عذراً على سؤالي : انك لن تتزوجي من شخص غني ، أليس كذلك ؟

– اذا وقعت في هواه . . . كلا ، يخيل اليّ انني لن اتزوج منه حتى اذا وقعت في هواه .

– هكذا اذن – هتف اركادي ، ثم اضاف بعد برهة : – ما الذي يجعلك ترفضين الزواج منه ؟

– حتى الاغنية تتحدث عن عدم التكافؤ .

– ربما تريدين التسلط ، ام . . .

– كلا ! ما الداعي لذلك ؟ بالعكس ، انني على استعداد للانصياع ، ولكن عدم التكافؤ شيء ثقيل . اما الانصياع المقترن باحترام النفس فامر مفهوم ، انه السعادة . ولكن حالة الخضوع والتبعية . . . كلا فانا غارقة فيها .

– غارقة فيها . . . – كرر اركادي قول كاتيا وواصل

كلامه : – اجل ، اجل . ليس عبثاً انك وآنا سيرغييفنا من صلب واحد ، فانت مستقلة مثلما هي . ولكنك اكثر انطواء . انا واثق من انك لن تبادري ابداً الى الاعراب عن مشاعرك مهما كانت عميقة ومقدسة . . .

– وكيف يكون الامر على غير ذلك ؟ – سألت كاتيا .

– انكما على نفس القدر من الفطنة . ولديك نفس القدر من قوة الطباع كما لديها ، ان لم اقل اكثر منها . . .

– لا تقارن بيني وبين اختي من فضلك – قاطعته كاتيا على عجل – فذلك ليس بصالحي ابداً . يبدو وكأنك قد نسيت ان اختي حسناء ذكية . ولا يجدر بك ، انت يا اركادي نيكولايفيتش على الخصوص . . . ان تقول مثل هذه الكلمات ، وبمثل هذه الملامح الجادة .

– ماذا تعنين بقولك : لا يجدر بي على الخصوص ؟ وما الذي يجعلك تعتقدين باني امزح ؟

– انت تمزح طبعاً .

– حقاً ؟ ولكن ماذا لو كنت واثقاً مما اقول : وماذا لو كنت اعتقد باني لم اعبر عن ذلك بعد بالشكل اللازم ؟ !

– انني لا افهمك .

– حقاً ؟ ها انا ارى الآن بانني بالغت كثيراً في امتداح قدرتك على الملاحظة .

– كيف ؟

لم يجب اركادي بشيء واشاح بوجهه ، بينما وجدت كاتيا في السلة قليلا من فتات الرغيف وراحت تلقي به الى العصافير . الا ان حركة يدها كانت شديدة ، فصارت العصافير تطير بعيداً قبل ان يتسنى لها ان تلتقط الفتات .

وقال اركادي فجاة :

– كاتيا ! ربما لن تعبأى بما ساقول . ولكن اعلمي باني لن استبدلك لا باختك ولا باي كان في هذا العالم .

ثم نهض وابتعد مستعجلا ، كما لو كان قد ارتعب من الكلمات التي افلتها لسانه .

اما كاتيا فقد تراخت كلتا يديها وهوتا مع السلة على ركبتيها ، وطاطات راسها وراحت تنظر طويلاً الى الجهة التي انصرف اليها

اركادي . ظهرت بوادر الحمرة القانية على وجنتيها ، لكن الابتسامة لم تعرف سبيلها الى شفتيها ، وكانت عيناها تعبران عن الحيرة وعن شعور آخر لا يزال غير معروف الهوية .

ودوى قربها صوت آنا سيرغييفنا :

– انت لوحدك ؟ خيل اليّ انك توجهت الى البستان مع اركادي .

حولت كاتيا نظرتها على مهل الى اختها (التي وقفت على الممشى بملابسها الانيقة ، بل الفاخرة ، وراحت تداعب اذني فيفي بطرف مظلتها المفتوحة) وقالت على مهل ايضاً : – لوحدي .

– ارى ذلك – اجابت تلك ضاحكة – يبدو انه ذهب الى غرفته .

– اجل .

– هل كنتما تقرآن معا ؟

– اجل .

لامست آنا سيرغييفنا ذقن كاتيا ورفعت وجهها قليلاً : – الم تتشاجرا ؟

– كلا . – اجابت كاتيا وازاحت يد اختها برفق .

– ما هذه اللهجة المهيبة في الجواب ؟ ! ظننت اني ساجده هنا لاقترح عليه ان يتمشى معي . فقد طلب مني ذلك مراراً . احضروا لك حذاء من المدينة ، اذهبي وقيسيه . فقد لاحظت يوم امس ان احذيتك القديمة قد بليت كلياً . وانت على العموم لا تولين ذلك ما يستحقه من اهتمام ، بينما لديك ساقان رائعتان ! ويداك حلوتان ايضاً . . . ولكنهما كبيرتان ، لذا ينبغي الاستفادة من الساقين . ولكنك لست لعوباً .

واصلت آنا سيرغييفنا سيرها على الممشى بحفيف ينبعث من فستانها الجميل . نهضت كاتيا من المصطبة والتقطت هايني وذهبت ايضاً ، ولكن لا لكي تقيس الحذاء .

فكرت في نفسها وهي ترتقي ببطء وخفة درجات سلم الشرفة الحجري الذي سخنته الشمس : «ساقان رائعتان . تقولين : ساقان رائعتان . . . وسوف يقع عندهما» .

واعتراها الخجل في الحال فصعدت راكضة برشاقة . اجتاز

اركادي الرواق متجهاً الى غرفته ، فلحق به كبير الوصفاء وافاد بان السيد بازاروف ينتظره فيها .

فتمتم اركادي وكاد الرعب يستولي عليه :

– يفغيني ؟ هل وصل من زمان ؟

– وصل تواً وامر بان لا اخبر آنا سيرغييفنا عنه . طلب ان اوصله اليكم مباشرة .

«ماذا ؟ هل حلت باهلي مصيبة ما ؟» – فكر اركادي ، وركض على السلم مستعجلاً وفتح الباب في الحال . كان منظر بازاروف قد جعله يهدأ فوراً ، مع ان العين الثاقبة بوسعها ، على ما يبدو ، ان تستشف في الهيئة النحيلة للضيف غير المنتظر وفي ملامحه النشيطة كالسابق علائم الاضطراب الداخلي . كان جالساً على رف النافذة وعمرته على راسه ومعطفه المغبر على كتفيه . ولم ينهض حتى عندما هرع اليه اركادي وعانقه بصخب واستغراب .

– لم اتوقع مجيئك مطلقاً ! ما الذي دفعك ؟ ! – كرر اركادي وهو يجول في الغرفة كما لو كان يتصور نفسه مسروراً وراغباً في اظهار سروره – كل شيء عندنا على ما يرام ؟ وهل الجميع بخير ؟

– كل شيء عندكم على ما يرام ، ولكن ليس الجميع بخير – تمتم بازاروف – كفاك هذراً ، اطلب لي عصيراً واجلس واستمع الى ما ساقوله لك بعبارات قليلة ولكن شديدة الوقع على ما اعتقد .

سكن اركادي ، بينما حدثه بازاروف عن مبارزته مع بافل بتروفيتش . دهش اركادي اشد الدهشة ، بل وحزن بعض الشيء ، لكنه لم ير ضرورة للاعراب عن ذلك . واكتفى بالسؤال عما اذا كان جرح عمه غير خطر حقاً . وعندما تلقى الجواب بان الجرح مثير جداً ولكن ليس من الناحية الطبية ، ابتسم على مضض ، وانتابه شيء من الرعب والخجل . وبدا بازاروف وكانما قد فهمه ، فقال :

– اجل ، يا اخي ، تلك عاقبة العيش مع الاقطاعيين . فالمرء مضطر الى ان يغدو مثلهم ويساهم في جولات الفروسية . . – واضاف بازاروف في الختام – شددت الرحال الى «الآباء» وعرجت . . . لكي احيطك علماً بذلك . كان بوسعي ان اقول شيئاً من هذا القبيل لولا اني اعتبر الكذب بلا جدوى حماقة . كلا ، الشيطان وحده يعلم لماذا . . . جئتُ الى هنا . من المجدى للانسان ، كما اعتقد ، ان

يمسك احياناً بناصيته ويجتث نفسه كما يجتث الفجل من التربة . وهذا ما فعلته انا مؤخراً . . . ولكنني رغبت في ان القي نظرة اخرى على ما افترقت عنه ، على تلك التربة التي كنت غائصا فيها .

فاعترض اركادي قلقاً :

– آمل بان هذه الكلمات لا تشملني . آمل بانك لا تفكر في الافتراق عني .

القى عليه بازاروف نظرة ثاقبة كادت تنغرز فيه :

– هل تعتقد بان ذلك سيؤلمك ؟ يخيل اليّ انك نفسك قد فارقتني . انت على قدر كبير من الطراوة والنظافة . . . لا بد وان امورك مع آنا سيرغييفنا سائرة على ما يرام .

– اية امور لي مع آنا سيرغييفنا ؟

– افلم تصل من المدينة الى هنا من اجلها يا طائري الصغير ؟ وبالمناسبة كيف حال مدارس الآحاد هناك ؟ . . . ماذا ؟ افلست متيماً بها ؟ ام انه حان الوقت للتواضع ؟

– يفغيني ، انت تعلم باني كنت على الدوام صريحاً معك . واؤكد لك ، واقسم بالله ، انك على خطأ .

– احم ! كلمة جديدة . – قال بازاروف بصوت خافت – لا داعي للغضب . فذلك امر لا يعنيني مطلقاً . وبوسع الرومانسي ان يقول : احس باننا على مفترق الطرق . اما انا فاقول ببساطة ، اننا مللنا بعضنا البعض .

– يفغيني . . .

– لا ضير في ذلك ، يا حبيبي . في العالم اشياء اكثر قيمة ولكنها تبعث على الملل ايضاً ! اما الآن ، افلا يجدر بنا ان نتوادع ؟ ! منذ ان وصلت الى هنا اشعر باني على اسوأ حال ، كما لو قرات المزيد من رسائل غوغول الى عقيلة متصرف كالوغا (١٠٥) . وبالمناسبة فاني لم اطلب حل الخيول .

– كيف ؟ هذا مستحيل .

– لماذا ؟

– ذلك اقصى حد من عدم اللياقة ازاء آنا سيرغييفنا التي سترغب في رؤيتك من كل بد . ناهيك عن اثر ذلك في نفسي انا .

– انك متوهم .

– على العكس ، انا واثق منه – قال اركادي معترضاً – ثم

ما الداعي للتصنع ؟ وما دمنا بهذا الصدد ، افلم تات انت الى هنا من اجلها ؟

– ربما ، ولكنك متوهم مع ذلك .

غير ان اركادي كان على حق . فقد رغبت آنا سيرغييفنا في رؤية بازاروف وبعثت كبير الوصفاء ليدعوه اليهـا . استبدل بازاروف ملابسه قبل ان يتوجه اليها . واتضح انه وضع بدلته الجديدة بين حاجياته بحيث يسهل التقاطها .

استقبلته اودينتسوفا في غرفة الاستقبال وليس في الغرفة التي اعرب فيها ، على نحو مباغت ، عن حبه لها . ومدت له بلطف اصابع يدها ، ولكن مسحة من التوتر العفوي كانت عالقة بمحياها .

فعاجلها بازاروف قائلا :

– يا آنا سرغييفنا ، عليّ في المقام الاول ان احدثـك . فامامك واحد من البشر الفانين ادرك خطاه من زمان ويامل بان الآخرين ايضاً قد نسوا حماقته . انني مسافر لامد طويل ، ومع اني لست كائناً رقيق القلب ، فمن المحزن ان احمل معي فكرة تؤكد لي انك تتذكرينني باشمئزاز . الست محقاً ؟

تنفست آنا سيرغييفنا الصعداء كشخص ارتقى لتوه جبلاً عالياً ، وانعشت الابتسامة محياها . مدت يدها لبازاروف مجدداً وصافحته قائلة :

– الويل لمن يتذكر الغيظ الماضي ، لاسيما واني ، اذا قلت الحق ، اخطأت انا ايضاً آنذاك بشيء ما ، ان لم يكن بالتغنج . وباختصار : فلنبق اصدقاء كالسابق . كان ذلك حلماً ، اليس كذلك ؟ فمن يتذكر الاحلام يا ترى ؟

– من يتذكرها ؟ لاسيما وان الحب شعور متكلف . . .

– حقا ؟ يسرني كل السرور ان اسمع ذلك .

هكذا تكلمت آنا سيرغييفنا ، وهكذا تكلم بازاروف . وفكر كلاهما بانهما يقولان الحقيقة . فهل كانت كلماتهما تنطوي على الحقيقة ، الحقيقة كاملة ؟ ذلك امر لم يكونا يعلمان به هما ، ناهيك عن المؤلف . بيد انهما تجاذبا اطراف الحديث وكانا قد صدقا بعضهما البعض كلياً .

وسالت آنا سيرغييفنا بازاروف ، عرضاً ، عما كان يفعله عند آل كيرسانوف . وكاد يحدثها عن مبارزته مع بافل بتروفيتش ،

لكنه احجم عن ذلك خشية ان تظن بانه يحاول ان يتصنع اموراً مثيرة ، فاجابها بانـه كان يعمـل طوال الوقت . فقالت آنا سيرغييفنا :

– اما انا فقد استولت عليّ الكآبة في بادئ الامر ، والله وحده يعرف السبب ، حتى انني صممت على السفر الى الخارج . هل تتصور ؟ ! . . ثم انقشع ذلك كله ، حيث وصل صديقك اركادي نيكولايفيتش فعدت من جديـد الى حالتي المعتادة ، الى دوري الحقيقي .

– اي دور ، يا ترى ؟

دور المربية والمرشدة والام ، سمه كيفما تشاء . وبالمناسبة هل تعلم بانني في السابق لم اكن افهم جيداً الصداقة الحميمة بينك وبين اركادي نيكولايفيتش . كنت اظن بانه انسان ليس ذا شان كبير . اما الآن فقد عرفته على نحو افضل واقتنعت بانه ذكي . . . والامر الاهم هو انه في ريعان الشباب . . . ليس مثلنا يا يفغيني فاسيليفيتش .

فسال بازاروف :

– الا يزال يتهيب بحضورك ؟

– هل كان . . . – بدات آنا سيرغييفنا كلامها ، ولكنهـا تفكرت قليلاً ، واضافت : – اصبح اكثر اطمئناناً ، وصار يتحدث معي . في السابق كان يتحاشاني . وبالمناسبـة فانا ايضاً لم اكن ابحث عن سبيـل لمعاشرته . فهو وكاتيـا صديقان حميمان .

شعر بازاروف بالاسف وفكر في نفسه : «لا يمكن للمراة ان لا تحتال !» . ثم قال بابتسامة ساخرة فاترة :

– تقولين انه كان يتحاشاك . ولكن ، على ما يبدو ، لم يبق خافياً عليك انه يحبك ، اليس كذلك ؟

– ماذا ؟ وهو ايضـاً ؟ – انفلت السؤال من لسان آنا سيرغييفنا .

– وهو ايضاً . – كرر بازاروف بانحناءة وادعة – هل من المعقول انك لم تكوني تعرفين ذلك ، واني اخبرتك بنبا جديد ؟

غضت آنا سيرغييفنا بصرها وقالت :

– انت على خطا يا يفغيني فاسيليفيتش .

— لا اظن . ولكن ربما ما كان يتعين عليّ ان اذكر ذلك . — ثم اضاف في سره : «ولذا لا تتحايلي بعد الآن» .

— ليمَ لا تذكره ؟ ! لكنني اعتقد بانك ، في هذه الحالة ايضاً ، تعلق اهمية كبيرة على الانطباع العابر . ويخيل اليّ انك تميل الى المبالغة .

— من الافضل ، يا آنا سيرغييفنا ، ان لا نتحدث عن ذلك .

— لماذا ؟ — اعترضت عليه ، ولكنها حولت الحديث الى جانب آخر . كانت مع ذلك تشعر بالخجل من بازاروف ، بالرغم من انها قالت له واقنعت نفسها بان النسيان قد طوى كل شيء . وعندما كانت تتحدث معه بأبسط شكل ، وحتى عندما كانت تمزح معه ، شعرت بان الخوف يأخذ بخناقها بعض الشيء . فالناس على ظهر الباخرة في البحر ، يتكلمون ويضحكون بلا اكتراث ، ويتجاذبون اطراف الحديث كما على الارض الصلبة ، ولكنه حالما تتوقف الباخرة للحظة ، وحالما تظهر اقل اشارة الى شيء ما غير معتاد تلوح على جميع الوجوه فوراً مسحة القلق التي تدل على الاحساس الدائم بالخطر المستمر .

استغرق حديث آنا سيرغييفنا مع بازاروف امداً قصيراً . فقد اخذت تتأمل وصارت تجيب على نحو غير مركز ، ثم اقترحت عليه اخيراً الانتقال الى الصالة حيث وجدا الاميرة وكاتيـــا . فسألت ربة البيت : «اين اركادي نيكولايفيتش ؟» وبعثت في طلبه عندما علمت بانه لم يظهر منذ اكثر من ساعة . لم يعثروا عليه في الحال : فقد اعتكف في لجة البستان وجلس غارقاً في افكاره مسنداً ذقنه الى يديه المتصالبتين . كانت افكاره عميقة هامة ، ولكن غير حزينة . كان يعلم ان آنا سيرغييفنا قد اختلت ببازاروف ، فلم يشعر بالغيرة كما في السابق ، بل ، على العكس ، كان وجهه مشرقاً بهدوء ، وبدا وكأنه مسرور ومستغرب لشيء ما ، ومصمم على امر ما .

٢٦

ما كان المرحوم اودينتسوف يهوى التجديد ، ولكنه كان يتقبل مظاهر «الذوق الرفيع» ، ولذا انشأ في بستانه ، بين المشتل المدفأ والبركة ، بناية من القرميد الروسي تشبه الرواق اليوناني القديـــم . وعلى الجدار الخلفي الاصم لهذا الرواق او الكاليرى ، حفرت ستة محاريب لتماثيل كان اودينتسوف ينوى جلبها من الخارج . وكان على هذه التماثيل ان تجسد : الانفراد والصمت والتأمل والملنخوليا والحشمة والحساسيـــة . جُلب احد هذه التماثيل ، وهو تمثال الهة الصمت واصبعها على شفتيها ، ونصب في محرابه . لكن اطفال الخدم كسروا انف التمثال في اليوم ذاته . ومع ان الجصاص المجاور اعتزم ان ينحت له انفاً «افضل بمرتين من السابق» ، فقد امر اودينتسوف برفعه . ولذا احتل التمثال مكانه في ركن مستودع الطاحونة ، حيث ظل هناك سنين طويلة يثير الرعب الوسواسي لدى الفلاحات . وتغطى الجانب الامامي من الرواق بشجيرات كثيفة ، فلا يلوح فوق بحر من الخضرة الا تيجان الاعمدة . كان الجو في الرواق بارداً حتى في الظهيرة . ولم تكن آنا سيرغييفنا تهوى التردد على هذا المكان منذ ان رات فيه افعى ، الا ان كاتيا غالباً ما تجلس على المصطبة الحجرية الواسعة المبنية عند احد المحاريب . كانت ، وسط النضارة والظلال ، تطالع او تعمل او تنساق للاحساس بالسكون المطبق ، ذلـــك الاحساس المعروف لكل شخص ، على ما يبدو ، وتكمن روعته في التوقع الابكم اللاشعوري تقريبا لموجة الحياة العريضة التي تنداح بلا انقطاع حولنا وفي دخيلتنا .

في اليوم التالي لوصول بازاروف جلست كاتيا على مصطبتها المفضلة ، وجلس اركادي قربها من جديد . فقد رجاها ان تصطحبه الى «الكاليرى» .

بقي على موعد الفطور زهاء الساعة . وحل الضحى اللافـــح محل الصباح الندي . وظل محيا اركادي محتفظاً بمسحة الامس ، وكانت كاتيا مهمومة . فبعد احتساء الشاي مباشرة استدعتها اختها الى مكتبها ونصحتها ، بعد شيء من الملاطفة التمهيدية (الامر الذي كان دوماً يخيف كاتيا لدرجة ما) بان تلتزم الحذر في سلوكها مع

اركادي ، وتتحاشى خصوصاً الاحاديث الانفرادية معه ، مما لاحظته خالتها وكل من في الدار كما زعمت . زد على ذلك ان آنا سيرغييفنا كانت معتكرة المزاج مساء امس ، بل وان كاتيا نفسها كانت تشعر بالخجل وكانما اقترفت ذنباً . وعندما لبت طلب اركادي قطعت على نفسها عهداً بان تلك هي آخر مرة . وبدأ اركادي كلامه بشيء من الحياء وعدم التكلف في الوقت ذاته :

– كاتيا ! منذ ان اسعدني الحظ في التواجد واياك في دار واحدة تحدثت معك عن امور كثيرة ، بينما ظلت مسالة واحدة هامة جداً بالنسبة لي . . . لم اتناولها بعد . – ثم اضاف قائلاً وهو يلاحظ ويتحاشى نظرة كاتيا المتسائلة المسلطة عليه : – لقد قلت هنا امس انني تغيرت . وبالفعل فقد تغيرت لدرجة كبيرة ، وانت تعرفين ذلك افضل من اي انسان آخر ، فانا مدين لك ، في الواقع ، بهذا التغير .

– انا ؟ . . لي ؟ . . – تمتمت كاتيا .

فواصل اركادي كلامه :

– انني لم اعد غلاماً متعجرفا كما كنت عندما وصلت الى هنا . وليس عبثاً اني بلغت الثالثة والعشرين . وانا لا ازال كالسابق راغباً في ان اغدو انساناً نافعاً وان اكرس كل قواي للحقيقة ، ولكنني لم اعد ابحث عن مثلي العليا حيثما كنت ابحث عنها في الماضي . فهي تلوح لي . . . اقرب بكثير . ولم اكن قبل الآن افهم نفسي ، فقد كنت اتوخى حل مهمات فوق طاقتي . . . وقد تفتحت عيناي مؤخراً بفضل شعور واحد . . انني لا اتكلم بشكل واضح تماماً ، ولكنني آمل بانك ستفهمينني . . .

لم تحر كاتيا جواباً ، ولكنها كفت عن التحديق في اركادي ، وتكلم هو من جديد بصوت اكثر اضطراباً ، في حين واصل شرشور بين اوراق البتولا ترتيل انشودته بلامبالاة :

– اعتقد ان من واجب كل انسان شريف ان يكون صريحاً منتهى الصراحة مع الناس الذين . . . مع الذين . . . وباختصار مع الاشخاص الاعزاء عليه ، ولذلك فاني . . . اني انوي . . .

وهنا خانت البلاغة اركادي ، فاضطرب وتلعثم واضطر الى الصمت قليلاً . لم ترفع كاتيا بصرها طوال الوقت . وبدا وكانها

لم تفهم الامَ يقود محدثها هذا الكلام ، فظلت تنتظر شيئاً . ثم بدأ اركادي كلامه بعد ان استجمع قواه من جديد :

– اتوقع باني سأثير دهشتك . لاسيما وان هذا الشعور يمسك انت على نحو ما . . . لاحظي : على نحو ما . . . لقد لمتني امس ، حسبما اتذكر ، على قلة جديتي – واصل اركادي كلامه ومظهره يشبه مظهر شخص تورط في مستنقع وصار يشعر بانه يغوص فيه مع كل خطوة يخطوها ، ولكنه مع ذلك يستعجل الى الامام على امل الخلاص باسرع ما يمكن ، – ان هذه الملامة كثيراً ما توجه الى الشباب . . . وتسلط عليهم . . . حتى عندما لا يعودون يستحقونها . ولو كنت امتلك المزيد من الثقة بالنفس . . . («ساعديني ، ساعديني قليلاً !» – فكر اركادي يائساً ، ولكن كاتيا ظلت كالسابق مشيحة بوجهها) ولو كان باستطاعتي ان آمل . . .

– لو كان باستطاعتي ان اثق بما تقول . . . – تهادى في تلك اللحظة صوت آنا سيرغييفنا الصافي .

صمت اركادي في الحال ، بينما شحب لون كاتيا . كان الممشى يحاذي الشجيرات التي تحجب الرواق . وكانت آنا سيرغييفنا تتمشى هناك بمرافقة بازاروف . وما كان بوسع كاتيا واركادي ان يرياهما ، ولكنهما سمعا كل كلمة ، مع حفيف الفستان ، بل وحتى الانفاس . سارا بضع خطوات وتوقفا ، كما لو كان ذلك عمداً ، في مواجهة الرواق مباشرة . وواصلت آنا سيرغييفنا كلامها :

– الا ترى اننا نحن الاثنين على خطأ ؟ لم نعد في ريعان الشباب ، وخصوصاً انا . عشنا عمراً ، وتعبنا ، وكلانا – فما الداعي للتواضع ؟ – ذكي ، فقد اهتممنا ببعضنا البعض في بادئ الامر ، وثار لدينا الفضول . . . وبعد ذلك . . .

– وبعد ذلك نفقت انا – عاجلها بازاروف .

– انت تعرف ان هذا ليس هو السبب في خلافنا . ومهما يكن من امر ، فالسبب الرئيسي هو اننا لم نكن بحاجة ماسة الى بعضنا البعض . ففينا الكثير من . . . التماثل ، ان صح القول . ولم نفهم ذلك في الحال . اما اركادي فعلى العكس . . .

– هل انت بحاجة اليه ؟ – سألها بازاروف .

– كفاك يا يفغيني فاسيليفيتش . انت تقول بانه يشعر بميل



نحوي . وقد خيل الي دوماً انه معجب بي . وانا اعلم بأني يمكن ان اكون بمثابة مربية له ، ولكن لا اخفي عليك انني صرت افكر به لدرجة اكبر . ففي هذا الشعور الفتي الغض شيء ما رائع . . .

– كلمة **جذاب** اكثر مناسبة لهذه الحال – قاطعها بازاروف ، وكانت فورة المرارة واضحة في صوته المكبوت الهادئ . – تحدث اركادي امس معي ببعض التحفظ فلم يقل شيئاً عنك ولا عن اختك . . . وتلك اشارة هامة .

فقالت آنا سيرغييفنا :

– انه يعامل كاتيا معاملة الاخ لاخته . وهذا شيء يعجبني فيه ، مع انه ربما لا يجدر بي ان اسمح بمثل هذا التقارب بينهما .

– هل ذلك هو شعور الاخت ازاء اختها ؟ – سأل بازاروف متمهلا .

– طبعاً . . . لماذا توقفنا ؟ فلنذهب . ما اغرب هذا الحديث بيننا ، اليس كذلك ؟ وهل كنت اتوقع بأني سأتحدث معك على هذا النحو ؟ انت تعرف بأني اخشاك . . . وانا في الوقت ذاته اثق بك لانك ، في الواقع ، طيب القلب تماماً .

– لست طيب القلب ابداً . هذا اولاً . وثانياً : لقد فقدت اية اهمية بالنسبة لك . ولذا تقولين بأني طيب القلب . . . لا فرق بين ذلك وبين وضع اكليل من الزهور على راس الميت .

– يفغيني فاسيليفيتش ، ليست لدينا سلطة على . . . – تكلمت آنا سيرغييفنا ، الا ان الريح هبت وشوشت الاوراق وطارت كلماتها بعيداً . ثم قال بازاروف بعد برهة :

– انت حرة طليقة .

ولم يعد بالامكان سماع الحوار ، فقد ابتعدت الخطوات . . . وسكن كل شيء .

التفت اركادي الى كاتيا وكانت جالسة بنفس الوضعية ، لكنها طأطأت راسها بدرجة اكبر . فقال بصوت مرتعش وهو يشد يداً على يد :

– كاتيا ! احبك الى الابد دون رجعة ، ولا احب احداً غيرك . كنت اريد ان اقول لك ذلك واعرف رأيك فيه . انني التمس يدك لأني لست غنياً ولاني اشعر بالاستعداد لتحمل كل التضحيات . . .

لماذا لا تجيبين ؟ الا تصدقينني ؟ هل تظنين باني اقول شيئاً طائشاً ؟ ولكن تذكري هذه الايام الاخيرة ! افلم تقتنعي من زمان بان كل شيء ما عداك ، افهميني ، كل شيء اختفى من زمان دون ان يترك اثراً ؟ تطلعي الي ، انطقي ولو بكلمة واحدة . . . انني احب . . . احبك . . . صدقيني !

القت كاتيا على اركادي نظرة صافية ذات شان ، وكادت تبتسم بعد تامل عميق ، ثم قالت :

ـ حسناً .

قفز اركادي من المصطبة :

ـ حسناً ؟ هل قلت : حسناً ، يا كاتيا ؟ ! ماذا تعني هذه الكلمة ؟ هل تعني اني احبك وانك تصدقينني ، أم . . . أم . . . ؟ انا اخشى من اكمال السؤال .

ـ حسناً – كررت كاتيا ، ولكنه فهمها هذه المرة . فتلقف يديها الكبيرتين الرائعتين وضغطهما على صدره وهو يتنفس بعسر من شدة التاثر والاعجاب . كانت ساقاه بالكاد تحملانه ، وراح يكرر : «كاتيا ، كاتيا . . .» . اما هي فقد بكت على نحو عذري ، ثم ضحكت بهدوء لدموعها . من لم ير مثل هذه الدموع في عيني المحبوب لا يعرف ، بعد ، مدى السعادة التي يمكن للانسان على الارض ان يتذوقها وهو متجمد كلياً بسبب الامتنان والحياء .

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي بعثت آنا سيرغييفنا في طلب بازاروف . حضر الى مكتبها فسلمته بضحكة متكلفة ورقة بريدية مطوية . وكانت تلك رسالة من اركادي يلتمس فيها يد اختها .

قرأ بازاروف الرسالة بلمح البصر وبذل جهده كي لا يعرب عن شعور الشماتة الذي استولى عليه في الحال . ثم قال :

– هكذا اذن . ولكنك ، كما يخيل الي ، كنت حتى يوم امس تعتقدين بانه يحب كاتيا حب الاخ لاخته . فما الذي تنوين فعله الآن ؟

– ماذا تنصحني **انت** ؟ – سالته آنا سيرغييفنا وهي تتابع ضحكتها .

فاجابها بازاروف بضحكة ايضاً ، مع انه لم يكن مسروراً



ابداً ، وما كان راغباً في الضحك على الاطلاق ، كما لم تكن راغبة فيه هي :

– اظن ان من الضروري تبريك الشابين . فهما زوج طيب من كل النواحي . ثروة كيرسانوف لا يستهان بها ، وهو وحيد ابيه ، ثم ان اباه طيب القلب ولن يعترض .

جابت اودينتسوفا الغرفة ، وكان الاحمرار والشحوب يتناوبان في الظهور على محياها . ثم قالت :

– هل تعتقد بذلك ؟ حسناً ! لا ارى مانعاً . . . وانا مسرورة لكاتيا . . ولاركادي نيكولايفيتش . . . بديهي انني سأنتظر جواب ابيه . وسوف ابعثه هو اليه . اتضح اني كنت بالامس على حق عندما قلت لك باننا لم نعد من الشباب . . . فكيف لم الحظ شيئاً ؟ ذلك ما يثير دهشتي !

ضحكت آنا سيرغييفنا من جديد واشاحت بوجهها في الحال .

فقال بازاروف وقد ضحك هو الآخر :

– اصبح شباب اليوم اكثر تحايلاً .

وبعد برهة من الصمت قال مجدداً :

– وداعاً . اتمنى لك ان تنجزي هذا الامر على افضل ما يكون . اما انا فسافرح من بعيد .

– ماذا ؟ هل ستسافر ؟ ما الذي يمنعك **الآن** من البقاء ؟ ابق . . . فالحديث معك ذو شجون . . . كما لو كان المرء يسير على شفا هوة سحيقة . في البداية ينتابه الوجل ، وفيما بعد لا يدري من اين تأتيه الشجاعة . ابق .

– شكراً لك يا آنا سيرغييفنا على هذا العرض ، وعلى امتداح مواهبي الحوارية . ولكن يخيل اليّ انني صرفت وقتاً طويلاً جداً في التواجد في وسط غريب عليّ . فالأسماك الطائرة تستطيع البقاء في الجو بعض الوقت ، ولكنها سرعان ما تقع على الماء من جديد . فاسمحي لي ان اندفع انا ايضاً الى بيئتي .

تطلعت اودينتسوفا الى بازاروف . كانت ابتسامة ساخرة مريرة ترتسم على وجهه الشاحب المتشنج . وفكرت في نفسها «كان يحبني !» . واحست بالعطف عليه ، فمدت له يدها بشعور من الود .

فهمها هو ، فقال متراجعاً خطوة الى الوراء :

– كلا ! انني انسان فقير ، ولكنني لم اتقبل الصدقات حتى الآن . وداعاً يا سيدتي ، معك العافية .

فقالت آنا سيرغييفنا بحركة عفوية :

– انا واثقة من ان هذا ليس لقاءنا الاخير .

– وربما . فكل شيء ممكن في هذا العالم – اجاب بازاروف وانحنى لها وانصرف .

وفي اليوم ذاته قال لاركادي وهو جالس القرفصاء يعد حقيبته :

– ها قد صممت على بناء عش لك ، اليس كذلك ؟ لا بأس ، ذلك شيء حسن . ولكن عبثاً تحايلت . كنت اتوقع منك وجهة اخرى تماماً . ام ان ذلك ربما كان مباغتاً لك ؟

فاجاب اركادي :

– لم اكن اتوقعه بالضبط عندما فارقتك . ولكن لماذا تتحايل انت وتقول «شيء حسن» ، كما لو انني لا اعرف رأيك بالزواج ؟

– آه ، يا صديقي العزيز ! ما هذه التعابير ؟ ! لاحظ ما افعل : في الحقيبة مكان فارغ وانا احشوه بالقش . وكذا الامر في حقيبة حياتنا ، نحشوها باي شيء كان على شرط ان لا يظل فيها فراغ . لا تزعل ، ارجوك ، فانت تتذكر ، على ما يبدو ، رأيي في كاتيا . فان سواها من الفتيات يشتهرن بالذكاء لمجرد انهن يتأوهن بذكاء . اما فتاتك فلن تتنازل عن حق لها ، بل وسوف تضبطك انت . وهذا امر طبيعي . – صفق غطاء الحقيبة ونهض – اما الآن فاكرر القول مودعاً . . . ولا داعي لخداع النفس : اودعك الى الابد . ولقد شعرت انت بذلك . . . وتصرفت بحصافة . فانت لم تخلق لحياتنا المريرة اللاذعة ، حياة العزوبة . وليست فيك وقاحة ولا حقد ، بل لديك بسالة الشباب وحماس الشباب . وهذا امر لا يصلح لنا . فالنبلاء ، من امثالك ، لا يمكنهم ان يسيروا الى ابعد من الاستكانة الكريمة او الفوران الكريم ، بينما ذلك شيء تافه . وانتم ، مثلا ، لا تحاربون ، لكنكم تتصورون انفسكم فرساناً ، اما نحن فنبتغي المعركة حقاً . اين انت من ذلك ؟ ! ان غبارنا يؤذي عينيك ، واوساخنا تلوثك ، بل وانك لم تبلغ مستوانا ، فانت معجب بنفسك عفوياً ، ويبعث السرور فيك كونك

تلوم نفسك بنفسك . ذلك شيء ممل بالنسبة لنا . فنحن بحاجة الى التنديد بالآخرين ! نحن بحاجة الى تحطيم الآخرين ! انك شاب رائع ، ولكنك ، مع ذلك ، مجرد نبيل ليبرالي رقيق .

فتمتم اركادي حزيناً :

– تودعني الى الابد ، يا يفغيني ، وليست لديك كلمات اخرى تقولها لي ؟

حك بازاروف قفاه وقال :

– لديّ ، يا اركادي ، لديّ كلمات اخرى ، ولكني لن اقولها لأنها رومانسية ، بكل ما فيها من لطافة تافهة . ولكن عجل انت بالزواج وابن عشك ، وانجب المزيد من الاطفال . وسوف يكونون اذكياء لمجرد انهم سيولدون في الوقت المناسب ، وليس مثلما ولدنا انا وانت . اها ! ارى الخيول جاهزة . آن الاوان . لقد ودعت الجميع . . . ماذا ؟ هل نتعانق ؟

ارتمى اركادي على رقبة معلمه وصديقه السابق فانهمرت الدموع من عينيه .

وقال بازاروف بهدوء :

– ذلك هو فعل الفتوة ! انني اعلق آمالي على كاتيا . فسوف تواسيك بسرعة !

وعندما صعد الى العربة قال لاركادي :

– وداعاً يا اخي ! – ثم اشار الى زاغين جاثمين جنباً الى جنب على سقف الاسطبل واضاف قائلاً : – انظر ! وتعلم !

فسأل اركادي :

– ماذا يعني ذلك ؟

– كيف ؟ هل انت ضعيف الى هذا الحد في علم الطبيعة ؟ ام انك نسيت ان الزاغ افضل طير يحافظ على الاواصر العائلية ؟ اليك مثالاً يحتذى ! . وداعاً ، سنيور !

هدرت العربة وتهادت .

لقد قال بازاروف الحقيقة . فعندما تحدث اركادي مع كاتيا في المساء، نسي معلمه كلياً ، وصار يخضع لها بالتدريج . شعرت كاتيا بذلك ولم تستغرب له . كان يتعين عليه ان يرتحل في اليوم التالي الى مارينو ، الى نيكولاي بتروفيتش . ولم ترغب آنا سيرغييفنا في التضييق على الشابين ، لكنها لم تتركهما وحيدين

لأمد طويل بسبب من اللياقة لا غير . وقد ابعدت عنهما ، بكل لطف ، الاميرة التي تلقت نبأ الخطوبة بهياج ونحيب . في بادئ الامر كانت آنا سيرغييفنا تخشى ان يغدو منظر سعادتهما امراً ثقيلاً عليها بعض الشيء ، ولكن اتضح العكس تماماً : فهذا المنظر لم يثقل عليها ، بل شغلها وجعلها ، في الاخير ، اكثر حناناً . فرحت آنا سيرغييفنا لذلك واغتمت له في الوقت ذاته . وفكرت في نفسها : «يبدو ان بازاروف على حق . فليس هناك غير حب الاستطلاع ، والفضول ، والرغبة في الاستقرار ، والانانية . . .» . ثم قالت بصوت عال :

– اطفال ! فهل الحب شعور متكلف ؟

بيد ان كاتيا واركادي لم يفهماها . فقد غدت غريبة عليهما وظل عالقاً في بالهما الحوار الذي استمعا اليه دون قصد . وبالمناسبة فقد هدأتهما آنا سيرغييفنا في القريب العاجل . ولم يكن ذلك عسيراً عليها : اذ هدأت هي نفسها .

٢٧

سر العجوزان بازاروف لوصول ابنهما سروراً لا حدود له ، فلم يكونا يتوقعان وصوله . واضطربت آرينا فلاسيفنا وصارت تحوم في الدار الى درجة جعلت فاسيلي ايفانوفيتش يشبّهها «بالكروان» . وبالفعل كان الذيل الابتر في بلوزتها القصيرة يضفي عليها مسحة الطيور . اما هو فكان يتمتم ويعض على الطرف الكهرماني لغليونه الطويل ويدير راسه ذات اليمين وذات الشمال ممسكاً عنقه باصابعه وكأنما يجرب ما اذا كان راسه مركباً عليه بالشكل اللازم ام لا . وكان يفتح فمه الواسع على حين غرة ويقهقه دون ضجيج .

وقال بازاروف الابن لابيه :

– جئت ، يا شيخ ، لابقى عندك ستة اسابيع كاملة . اريد ان اعمل ، فلا تشوش عليّ من فضلك .

فاجاب فاسيلي ايفانوفيتش :

– سوف لن ترى وجهي . لن اشوش عليك مطلقا !

وقد وفى بوعده . فبعد ان اسكن ابنه فى مكتبه كالسابق ، كاد يختفي عنه وصار يمنع زوجته من التمادى فى ابداء حنانها ، وقال لها : «كفى ، ايتها الام ، قد اضجرنا ينيوشا بعض الشيء في مجيئه الاول . اما الآن فينبغي ان نكون اكثر دهاء» . ووافقت آرينا فلاسيفنا زوجها في الراي ، ولكنها لم تربح الكثير من ذلك . اذ لم تعد ترى ابنها الا اثناء الطعام ، وصارت تخشى نهائياً التحدث معه . فما تكاد تقول «ينيوشا !» ، وما يكاد ابنها يلتفت اليها ، حتى تنهمك فى ملامسة شراريب حقيبتها وتمتم : «لا شيء ، لا اقصد شيئاً» . ثم تتوجه الى فاسيلي ايفانوفيتش وتقول له بعد ان تسند خدها الى يدها : «كيف لي ، يا عزيزي ، ان اعرف ما يشتهيه ينيوشا في الغداء اليوم ، هل يريد شوربة الكرنب ام حساء البنجر مع الكرنب ؟» . – «لماذا لا تسالينه بنفسك ؟» – «اخشى ان اضجره !» . الا ان بازاروف سرعان ما كف من تلقاء نفسه عن الاعتكاف : فقد **زايلته** حمى العمل وحل محلها ضجر كئيب وقلق مكتوم . ولوحظ ارهاق غريب في حركاته وسكناته ، وحتى مشيته الصلبة الجسورة السريعة قد تبدلت . لم يعد يتمشى على انفراد وصار ينشد المعاشرة . اخذ يحتسي الشاي فى غرفة الاستقبال ويتجول في البستان مع فاسيلي ايفانوفيتش ويدخن معه بصمت . واستفسر ذات مرة عن صحة الخوري الكسي . في بادئ الامر سر فاسيلي ايفانوفيتش لهذا التحول ، ولكن فرحته لم تطل . وصار يتشكى لزوجته هامساً : «ينيوشا يعذبني . لا اعتقد بانه مستاء او غير قانع . فذلك شيء هين . ولكن المصيبة هي انه متالم حزين . وصامت دوماً . فياليته يلومني ويلومك على الاقل . لقد اصابه الهزال وشحب لونه» . فهمست العجوز : «يا الهي ! يا الهي ! حبذا لو البست الطلسم على عنقه . ولكنه لن يسمح لي بذلك» . وحاول فاسيلي ايفانوفيتش عدة مرات ان يسأل ابنه بكل حذر عن عمله وعن صحته وعن اركادي . . . لكن بازاروف كان يجيبه باستهانة وعلى مضض . ذات مرة لاحظ بازاروف ان اباه يحاول ان يوجه الحديث معه بلطف الى وجهة معينة ، فقال له بكآبة : «لماذا تدور حولي وكانك تسير على اطراف الاصابع ؟ هذه العادة اسوأ من سابقتهـــا» . فاجاب فاسيلي ايفانوفيتش المسكين على عجل : «كيف ؟ انا لا اقصد شيئاً !» . وظلت عقيمة

ايضاً تلميحاته السياسية . فعندما تحدث ذات مرة عن قرب انعتاق الفلاحين وعن التقدم كان يأمل باثارة عطف ابنه ، ولكن هذا قال بلا اكتراث : «سمعت ابناء الفلاحين وانا اسير قرب السياج امس ينشدون بدلاً من الاغاني القديمـــــة : **حان زمان الوداد ، والقلب ينبض بالهوى** . . . ذلك هو التقدم الذي تريده» .

كان بازاروف يتوجه احياناً الى القرية فيتحدث مع فلاح ما مازحاً كعادته . وكان يقول له : «اعرض عليّ ، ايها الاخ ،آراءك بشأن الحياة . ففيكم ، كما يقال ، كل قوة روسيا ومستقبلها ، وبكم سيبدا عصر جديد فى التاريخ . سوف تمنحوننا اللغة الحقيقـــة والقوانين» . فيلزم الفلاح الصمت او يجيب بكلمات من نوع : «نحن نستطيع . . . كذلك ، لاننا ، يعني . . . بقدر استطاعتنا» . وكان بازاروف يقاطعه : «ولكن حدثني عن عالمكم ، ما هو؟ هل هو ذلك العالم المستقر على قرن الثور ؟»

– الارض ، يا سيدي ، هي المستقرة على قرن الثور . – اوضح له الفلاح على نحو مسكن وبلهجة ترتيلية خانعة ساذجة . – ومعروف ان ارادة الاسياد تواجهنا ، اي تواجه عالمنا . ولذا فانتم آباؤنا واسيادنا . وكلما كان السيد متشدداً ، كان الفلاح مرتاحاً .

وبعد ان استمع بازاروف الى مثل هذا الحديث ذات مرة هز كتفيه احتقاراً واشاح بوجهه ، بينما عاد الفلاح ادراجه . فسأله فلاح آخر متوسط العمر متجهم الوجه كان قد استمع من بعيد ، من عتبة كوخه ، الى الحديث مع بازاروف :

– عم تحدثتما ؟ عن الضريبة المستحقة ؟

– اية ضريبة يا اخي العزيز ؟ ! – اجابه الفلاح الاول ولم يعد في صوته اثر للهجة الترتيلية الخانعة ، بل ترامت منـــه لهجة مستهينة قاسية – ثرثر شيئاً ما ، اراد ان يحك لسانه . امر معروف . فهو سيد ، وهل يفهم السيد شيئاً ؟

– من اين له ان يفهم ؟ ! – اجاب الفلاح الثاني . ونفض كلاهما قبعتيهما وارخيا زناريهما وراحا يتحدثان عن شؤونهمـــا وحاجاتهما . اما بازاروف المتكابر هذا الذي هز كتفيه احتقاراً والذي يجيد الكلام مع الفلاحين (كما تفاخر في جداله مع بافل بتروفيتش) فلم يكن حتى ليتصور بانه بدا في انظارهما مجرد بهلول لا اكثر . . .

بيد انه عثر في آخر المطاف على ما يشغل به نفسه . ذات مرة ضمد فاسيلي ايفانوفيتش بحضوره رجل فلاح جريح ، ولكن يدي العجوز كانتا ترتعشان فلم يفلح في شد الضماد ، لذا ساعده ابنه ، ومنذ ذلك الحين اخذ يساهم في عمل ابيه دون ان يكف في الوقت ذاته عن التهكم على الوسائل التي ينصح بها هو وعلى ابيه الذي يستخدمها في الحال . الا ان تهكم بازاروف لم يكن يربك فاسيلي ايفانوفيتش قيد شعرة ، فقد وجد فيه مسرة . كان يمسك رداءه المنزلي الملوث باصبعين على بطنه وياخذ انفاساً من غليونه وهو يستمع بمتعة الى بازاروف . وكلما كانت تهجماته اشد كان ابوه السعيد يقهقه بطيبة قلب اكبر فيكشف عن جميع اسنانه السوداء بلا استثناء . وكان يستعيد هذه التهجمات البليدة احياناً او الخالية من المعنى ، ويظل طوال عدة ايام يكرر ، مثلا ، بمناسبة وبغير مناسبة : «تلك قضية لا جدوى فيها !» ، وذلك لمجرد ان ابنه استخدم هذا التعبير عندما علم بان اباه كان يتوجه لاداء صلاة الصبح . وهمس فاسيلي ايفانوفيتش لزوجته : «الحمد لله ! لم يعد كئيباً ! لو تعلمين كيف لامني اليوم . انه معجزة !» . وكانت مشاعر الافتخار والاعتزاز تستحوذ عليه عندما يتذكر ان له معاوناً كهذا . وكان يقول لفلاحة ما ترتدي قفطاناً رجالياً وقبعة ذات نتوءات ، وهو يسلمها قنينة ماء هوليارد او علبة مروخ البنج : «اجل ، اجل ، عليك يا عزيزتي ان تحمدي الله كل لحظة لان ابني قد حل ضيفاً عليّ : فنحن نعالجك الآن بأحدث طريقة علمية ، هل انت فاهمة ؟ وحتى امبراطور الفرنسيين نابليون لا يملك طبيباً افضل» . اما الفلاحة التي جاءت تتشكى من «مغص في البطن» (وهي نفسها لا تفهم معنى هذه الكلمات) فكانت تنحني احتراماً وتدس يدها في عبها كي تستخرج اربع بيضات ملفوفة بطرف منشفة .

ذات مرة اقتلع بازاروف سناً لبائع متجول ، ومع ان هذه السن هي من الاسنان العادية ، فان فاسيلي ايفانوفيتش احتفظ بها كتحفة نادرة ، وعرضها على الاب الكسي وراح يكرر بلا كلل :

– انظر الى جذورها ، ما اقواها ! وما اقوى يفغيني ! لقد تطاير البائع في الجو . . . ويخيل اليّ انه لو كان شجرة بلوط لتطاير ايضاً ! . . .

– شيء يستحق المديح ! – قال الاب الكسي اخيرا دون ان يعلم كيف يجيب وكيف يتخلص من العجوز وهو في اوج حماسه .

ذات مرة احضر فلاح من القرية المجاورة اخاه المصاب بالتيفوئيد الى فاسيلي ايفانوفيتش . كان المريض التعيس يحتضر وهو منبطح على حزمة قش ، وقد اغمي عليه من زمان ، وغطت بقع قاتمة جسده . اعرب فاسيلي ايفانوفيتش عن اسفه لان احداً لم يفكر بالاستفادة من الاسعاف الطبي قبل الآن واعلن عن استحالة انقاذ المريض . وبالفعل فقد قضى نحبه في عربة النقل قبل ان يصل به اخوه الى داره .

وبعد ثلاثة ايام دخل بازاروف على ابيه في غرفته وساله عما اذا كان عنده حجر جهنم .

– نعم . ما حاجتك اليه ؟

– يلزمني . . . في كيّ جرح .

– جرح من ؟

– جرحي .

– جرحك ؟ ! كيف ؟ اي جرح ؟ اين هو ؟

– هنا . على الاصبع . توجهت اليوم الى القرية التي احضروا منها الفلاح المصاب بالتيفوئيد . ولسبب ما قرروا هناك ان يشرحوه . اما انا فلم اتمرن على التشريح من زمان .

– ثم ماذا ؟

– لذا طلبت من طبيب القضاء ان يسمح لي بالتشريح ، فجرحت اصبعي .

شحب لون فاسيلي ايفانوفيتش على الفور ، ولم ينبس ببنت شفة . هرع الى مكتبه وعاد في الحال يحمل قطعة صغيرة من حجر جهنم . هم بازاروف بان ياخذ الحجر ويخرج ، ولكن فاسيلي ايفانوفيتش قال :

– بالله عليك ، اسمح لي ان افعل ذلك بنفسي .

ضحك بازاروف ساخراً :

– ما اشد رغبتك في الممارسة !

– لا تمزح ، رجاء . ارني اصبعك . الجرح طفيف . الا يؤلمك ؟

– اضغط بشدة ، لا تخش شيئاً .

توقف فاسيلي ايفانوفيتش :

– ماذا تعتقد يا يفغيني ، أليس الافضل كيّه بالحديد ؟

– كان ينبغي القيام بذلك في حينه . اما الآن فحتى حجر جهنم لا يفيد في الواقع . فاذا كنت قد اصبت بالعدوى فقد فات الاوان .

– كيف . . . فات الاوان . . . – نطق فاسيلي ايفانوفيتش بالكاد .

– كيف لا ؟ ! مر على ذلك اكثر من اربع ساعات .

كوى فاسيلي ايفانوفيتش الجرح بقدر اكبر وقال :

– الم يكن لدى طبيب القضاء حجر جهنم ؟

– كلا .

– كيف ، يا إلهـــي ؟ ! طبيب ولا يمتلـــك هذا الشيء الضروري .

– يا ليتك رايت مباضعه ! – قال بازاروف وانصرف .

ظل فاسيلي ايفانوفيتش حتى ساعة متأخرة من المساء، وطوال النهار التالي يتحجج باية وسيلة ممكنة لدخول غرفة ابنه ، ومع انه لم يكن يلمح الى الجرح ، بل يحاول التحدث عن امور ثانوية تماماً ، فانه كان يحدق في عيني ابنه باصرار ويراقبه بقلق حتى نفد صبر بازاروف وهدده بالسفر . قطع فاسيلي ايفانوفيتش عهداً بانه لن يقلق ، لاسيما وان آرينا فلاسيفنا التي اخفى عنها هو كل شيء طبعاً ، اخذت تلاحقه متسائلة عما حدث له وعن السبب في عدم نومه . في غضون يومين كاملين كان يتشجع بالرغم من ان مظهر ابنه الذي تفحصه خلسةً طوال الوقت لم يكن يرضيه تماماً . . . ولكن صبره نفد في اليوم الثالث اثناء الغداء . فقد جلس بازاروف مطاطا الراس ولم يمس شيئاً من طعام .

– لِمَ لا تاكل يا يفغيني ؟ – ساله ابوه متظاهراً بعدم القلق – الطعام ، على ما اعتقد ، قد اعد جيداً .

– لا اشتهي ، فلن آكل .

– هل انعدمت شهيتك ؟ وراسك ؟ هل يوجعك ؟ – اضاف الاب بوجل .

– يوجعني . فما الذي يجعله لا يوجعني ؟

عدلت آرينا فلاسيفنا قامتهـــا وتأهبت . وواصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه :

– ارجوك ، يا يفغيني ، لا تزعل . هلا سمحت بان اجس نبضك ؟

نهض بازاروف :

– اقول لك ان حرارتي مرتفعة حتى بدون جس النبض .

– وهل شعرت بقشعريرة ؟

– اجل . انا ذاهب لارقد ، فارسلوا لي قدحاً من نقيـــع الزيزفون . اصبت بزكام ولا بد .

– لذا سمعتك البارحة تسعل – قالت آرينا فلاسيفنا .

– اصبت بزكام – كرر بازاروف وانصرف .

انشغلت آرينا فلاسيفنا باعداد نقيع زهر الزيزفون ، بينما دخل فاسيلي ايفانوفيتش الغرفة المجاورة وتشبث بشعر راسه صامتاً .

لم ينهض بازاروف في ذلك اليوم وقضى ليلته كلها في وسن ثقيل يشبه الاغماء . بُعيد منتصف الليل فتح عينيه بمشقة فرأى في ضوء القنديل وجه ابيـــه الشاحب محنياً عليــــه وامره بالانصراف ، فلبى هذا امره ولكنه عاد في الحال على اطراف اصابعه واطل من وراء باب الخزانة وظل يتطلع الى ابنه طوال الوقت . لم تنم آرينا فلاسيفنا هي الاخرى ، فقد فتحت باب المكتب بعض الشيء وصارت تتردد بين الفينة والاخرى لتسمع «كيف يتنفس ينيوشا» وتلقي نظرة على فاسيلي ايفانوفيتش . كانت ترى فقط ظهره المحدودب الجامد ، ولكن ذلك بحد ذاته كان يخفف عليها احزانها لدرجة ما . في الصباح حاول بازاروف ان ينهض ، لكن الدوار الم به ونزف الدم من انفه فرقد من جديد . وكان فاسيلي ايفانوفيتش يرعاه بصمت . دخلت عليه آرينا فلاسيفنا فسألته عن حاله ، فاجاب : «احسن» ، واستدار نحو الجدار . اوما فاسيلي ايفانوفيتش لزوجته ايماءة غاضبة بكلتا يديه ، فعضت هي على شفتها كيلا تنتحب وانصرفت . احلولك كل ما في الدار فجأة ، واغتمت كل الوجوه وخيم سكون غريب . ونقل من الباحة الى القرية ديك مصياح لم يفهم لامد طويل لماذا تصرفوا معه على هذا النحو .

ظل بازاروف راقداً ووجهه الى الجدار . حاول فاسيلي ايفانوفيتش ان يوجه اليه اسئلة مختلفة ولكنها كانت ترهقه ، فتسمر العجوز في مقعده ، واكتفى بطقطقة اصابعه احياناً . كان يتوجه

للحظات الى البستان فيقف هناك متجمداً كما لو ان حدثاً لا مثيل له اثار دهشته (وكانت الدهشة الشديدة لا تفارق وجهه) ثم يعود الى ابنه من جديد متحاشياً تساؤلات زوجته . واخيراً امسكت بيده وسالته بارتعاشة وبشيء من التهديد : «ماذا به ؟» . تنبه الاب في الحال وحمل نفسه على الابتسام رداً على سؤالها . بيد انه ، ويا للفظاعة ، اطلق ضحكة عفوية بدلاً من الابتسامة . كان قد بعث في طلب الطبيب منذ الصباح . ورأى ان من الضروري اخبار ابنه بذلك كيلا يزعل .

استدار بازاروف على الاريكة فجاة واخذ يحدق في ابيه ببلادة وطلب ماء .

قدم له فاسيلي ايفانوفيتش قدح الماء، ولمس جبهته عرضاً . كانت ملتهبة للغاية .

فقال بازاروف بصوت بطيء ابح :

– يا شيخ ، حالتي سيئة جداً . اصبت بالعدوى . وسوف تدفنني بعد بضعة ايام .

ترنح فاسيلي ايفانوفيتش كما لو ان احداً ضربه على رجليه . ثم تمتم :

– يفغيني ! ما هذا الكلام ! . . سامحك الله ! لقد اصبت بالبرد لا اكثر . . .

– كفاك – قاطعه بازاروف على مهل – لا يجوز للطبيب ان يتكلم هكذا . كل اعراض العدوى موجودة ، وانت تعرف ذلـــك بنفسك .

– اين هي اعراض ال . . . عدوى ؟ عفوك يا يفغيني !

– فما هذا اذن ؟ – قال بازاروف ورفع ردن قميصه وعرض على ابيه البقع الحمراء الفظيعة التي ظهرت واضحة .

ارتعد فاسيلي ايفانوفيتش واقشعر من الرعب . ثم قال في الاخير :

– لنفرض ، لنفرض . . . حتى . . . ولو كان هناك شيء من قبيل . . . العدوى . . .

– تقيح الدم – قال الابن مصححاً .

– نعم . . . من قبيل . . . العدوى . . .

– **تقيح الدم** – كرر بازاروف بوضوح وصرامة – ام انك نسيت دفاترك الطبية ؟

– اجل ، اجـــل ، كما تشاء . . . ومـــع ذلك فسوف نعالجك !

– هيهات ! ولكن القضية ليست في ذلك . فانا لم اكن اتوقع باني ساموت بهذه العجالة . تلك صدفة ، وصدفة ، اذا قلنا الحق ، غير سارة ابداً . عليك الآن مع امي ان تستفيدا من قوة الدين فيكما ، وهذه فرصة سانحة لكي تجرباه . – ارتشف قليلاً من الماء، وواصل كلامه : – لديّ اليك رجاء . . . ما دمت لا ازال مسيطراً على افكاري . فغداً او بعد غد سيحيل دماغي نفسه على التقاعد كما تعلم . وانا الآن ايضاً لست واثقاً تماماً مما اذا كنت اتكلم بوضوح ام لا . فطوال رقادي خيّل اليّ ان كلاباً حمراء تتراكض حولي وانك خيمت عليّ كما لو اني دجاجة برية سوداء ، وانا الآن كالمخمور . هل تفهمني جيداً ؟

– بالطبع يا يفغيني ، انك تتكلم على ما يرام تماماً .

– ذلك افضل . قلت لي انك بعثت في طلب الطبيب . . . لقد هدات نفســـك بذلك . . . اما الآن فهدئني انا : ابعث رسولاً . . .

– في طلب اركادي نيكولايفيتش – عاجله العجوز .

– من هو اركادي نيكولايفيتش هذا ؟ – قال بازاروف كما لو كان يتأمل – آ ، اجل ! ذلك الفرخ ! كلا ، لا تمسه ، اصبح زاغاً . ولا تستغرب ، فليس ما اقوله هذياناً . ابعث رسولاً الى اودينتسوفا ، الى آنا سيرغييفنا . . . تلك الاقطاعية ، هـــل تعرفها ؟ (هز فاسيلي ايفانوفيتش راسه بالايجاب) . وليقل لها ان يفغيني بازاروف يبعث اليها بالتحية وانه يحتضر . هل ستنفذ طلبي ؟

– سانفذه . . . ولكن هل يجوز ان تموت انت ، انت يا يفغيني . . . حكّم عقلك ! فاين هي العدالة اذن ؟

– ذلك امر لا علم لي به . ولكن ابعث الرسول .

– سابعثه في الحال ، وساكتب لها رسالة .

– كلا . لا داعي للرسالة . فليقل باني ابعث اليها بالتحية ولا شيء آخر . اما انا فساعود من جديـــد الى كلابي . ما اغرب

الامر ! اريد ان اوقف التفكير بالموت ، ولكنني لا استطيع . لا ارى غير بقعة ما . . .

استدار بعسر الى الجدار من جديد ، فخرج فاسيلي ايفانوفيتش من المكتب ، وحالما وصل الى غرفة زوجته انهار على ركبتيه امام الايقونات . ودمدم بانين :

– ابتهلي ، يا آرينا ، ابتهلي ! ابننا يحتضر .

وصل الطبيب ، طبيب القضاء، الذي لا يملك حجر جهنم . فحص المريض ونصح بالانتظار وقال في الحال بضع كلمات عن احتمال الشفاء . فسأل بازاروف :

– هل صادف وان رايت اناساً في مثل حالتي لم يتوجهوا الى «دار الخلود» ؟

ثم امسك فجأة بقائمة الطاولة الثقيلة الموجودة قرب الاريكة وهز الطاولة وزحزحها من مكانها . وقال :

– لا ازال قوياً ، بينما يتعين عليّ ان اموت ! . . . ذلك الفلاح العجوز استطاع على الاقل ان يمل من الحياة ، اما انا . . . ولكن من يتجرأ على رفض الموت ؟ ! فهو يرفضنا وكفى ! – واضاف بعد لحظة : – من ينتحب هناك ؟ امي ؟ يا للمسكينة ! فمن الذي ستطعمه بعد الآن حساء الكرنب المدهش ؟ وانت ، يا فاسيلي ايفانوفيتش ، تبكي ايضاً كما يخيل اليّ ؟ فما دامت المسيحية لا تعينك حاول ان تكون فيلسوفاً ، رواقياً على الاقل ! الم تكن تتباهى بانك فيلسوف ؟

– اي فيلسوف انا ؟ ! – جار فاسيلي ايفانوفيتش وانهمرت الدموع على خديه

اخذت حالة بازاروف تتدهور ساعة بعد ساعة ، واستفحل المرض على نحو سريع ، مما يجري عادة في حالات التسمم الجراحي . لم يكن قد فقد وعيه بعد . وكان يفهم ما يقال له ، ولا يزال يصارع الموت . همس شاداً على قبضته : «لا اريد ان اهذي ! فما اسخف ذلك !» ، ولكنه قال في الحال : «اذا خصمنا عشرة من ثمانية فكم يبقى ؟» . كان فاسيلي ايفانوفيتش يجول كالمجنون وهو يعرض هذه الوسيلة او تلك ويغطي رجلي ابنه طوال الوقت . وكان يقول بانفعال : «ينبغي لفه بشراشف باردة . . . واستخدام المقيئات . . . واللصقات على البطن . . . وفصد

الدم» . وكان الطبيب الذي استعطفه كي يبقى يرد عليه بالايجاب ويسقي المريض شراب الليمون ، ويطلب تارة غليوناً وتارة ما «يقويه ويدفئه» هو ، اي الفودكا . وجلست آرينا فلاسيفنا على مصطبة واطئة قرب الباب ، ولم تغادر مكانها الا لتصلي بين حين وآخر . فقبل بضعة ايام انزلقت من يديها مرآة الزينة وتحطمت ، بينما اعتادت هي على اعتبار ذلك فالاً سيئاً . ولم تستطع حتى انفيسوشكا ان تقول لها شيئاً . اما تيموفييتش فقد توجه الى اوديتنسوفا .

قضى بازاروف ليلة سيئة . . . فقد عذبته حمى قاسية ، وعند الفجر تحسنت حاله شيئاً فطلب من آرينا فلاسيفنا ان تمشط له شعره وقبّل يدها واحتسى جرعتين من الشاي . وانتعش فاسيلي ايفانوفيتش بعض الشيء، فقال :

– الحمد لله ؟ حل البحران . . . وانتهى .

فقال بازاروف :

– ما اشد تأثير الكلمة ! عثر عليها فقال : «البحران» وهدأ باله . لا يزال الانسان يؤمن بالكلمات . شيء مدهش . فاذا نعتوه ، مثلاً ، بالاحمق ولم يضربوه اكتاب ، واذا امتدحوا ذكاءه ولم يعطوه مالاً شعر بالارتياح .

تأثر فاسيلي ايفانوفيتش لخطبة بازاروف المقتضبة هذه والتي تشبه «تهجماته» السابقة ، فهتف متظاهراً بالتصفيق :

– عظيم !

ابتسم بازاروف بحزن ، ثم قال :

– ماذا تعتقد ؟ هل انتهى البحران ام حل ؟

– حالك افضل . هذا ما اراه وهذا ما يفرحني – اجاب فاسيلي ايفانوفيتش .

– حسناً . الفرحة لا تضر مطلقاً . ولكن هل بعثت في طلب تلك ؟ اتذكر ؟

– بعثت بالطبع .

لم يستمر التغير نحو الافضل امداً طويلاً . فقد تكررت نوبات المرض . وجلس فاسيلي ايفانوفيتش ازاء بازاروف . وبدا العجوز وكأن الما شديداً ينهشه . همّ بازاروف بالكلام مراراً ولكنه كان عاجزاً عن النطق . ثم قال اخيراً :

– يفغيني ! يا ولدي ، يا عزيزي ، يا حبيبي !

اثرت هذه المناجاة غير المعتادة على بازاروف . . . فرفع رأسه قليلا كي يتخلص على ما يبدو من الغيبوبة التي ارهقته وقال :

– ماذا يا ابتي ؟

واصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه وركع امام بازاروف بالرغم من ان هذا لم يفتح عينيه ولم يكن بوسعه ان يراه :

– يفغيني ، يا يفغيني ! حالك الآن افضل ، وسوف تشفى بعون الله . ولكن انتهز هذه الفرصة وابعث السلوى في نفس امك ونفسي وادِ واجب المسيحي ! ما اصعب عليّ ان اقول لك ذلك ، انه امر فظيع . . . والافظع منه . . . انه الى الابد ، يا يفغيني . . . فكر في الامر ، ما افظعه . . .

تقطع صوت العجوز بينما انسحبت مسحة غريبة على وجه ابنه بالرغم من ان عينيه ظلتا مغمضتين . وقال اخيراً :

– لا ارفض اذا كان ذلك يبعث السلوى فيكما . ولكن يخيل اليّ انه لا داعي للاستعجال . فانت نفسك تقول ان حالتي غدت افضل .

– افضل ، يا يفغيني ، افضل ، ولكن من يدري ؟ كل شيء بيد الله . اما الذي يؤدي واجبه . . .

– كلا . سانتظر قليلاً – قاطعه بازاروف – انا متفق معك بان البحران قد حل . واذا كنا على خطأ ، فما العمل ؟ فالقرابين تستلم حتى ممن هم في غيبوبة .

– ماذا تقول يا يفغيني ؟ . .

– سانتظر . اما الآن فاريد ان انام . لا تزعجني .

وهبط رأسه على الوسادة .

نهض العجوز فجلس على المقعد وامسك بذقنه وراح يعض على اصابعه . . .

طرقت سمعه فجاة طقطقة مركبة ذات نوابض ، وهي طقطقة مسموعة خصوصاً في سكون الارياف . كانت العجلات الخفيفة تقترب اكثر فاكثر ، وها قد ترامى اليه نخير الخيول . نهض فاسيلي ايفانوفيتش على عجل واندفع الى النافذة . دخلت باحة داره مركبة ذات مقعدين تجرها اربعة خيول . فهرع الى الباحة في غمرة

فرحة خرقاء دون ان يميز من هو القادم . فتح خادم ببزة رسمية باب المركبة فظهرت منها سيدة بوشاح اسود وبدلة سوداء . . .

– انا اودينتسوفا . يفغيني فاسيليفيتش على قيد الحياة ؟ انت ابوه ؟ احضرت معي طبيباً .

– سيدتي الكريمة ! – هتف فاسيلي ايفانوفيتش وتلقف يدها وضغطها بارتعاش الى شفتيه ، في حين نزل من المركبة على مهل طبيب قميء بملامح المانية يرتدي نظارات ، – لا يزال حياً ، ولدي يفغيني حي ، وسوف يحيا ! . . يا زوجتي ! هبط علينا ملاك من السماء . . .

– ماذا ؟ يا إلهي ! – تمتمت العجوز راكضة من غرفة الاستقبال وسقطت في الحال عند قدمي آنا سيرغييفنا دون ان تفهم شيئاً وراحت تقبل اذيال بدلتها كالمجنونة .

– لا داعي لذلك ! لا داعي ! – قالت آنا سيرغييفنا ، بيد ان آرينا فلاسيفنا لم تكن تسمعها ، في حين راح فاسيلي ايفانوفيتش يكرر : «ملاك ! ملاك !» .

– (اين المريض) * ؟ اين هو ؟ – سأل الطبيب اخيراً بشيء من الغضب .

فعاد فاسيلي ايفانوفيتش الى رشده وقال :

– هنا ، هنا ، تفضل واتبعني – واضاف مما يتذكره بالالمانية : (ايها الزميل المحترم) ** .

– آ – قال الالماني وابتسم بتكشيرة ذاوية .

اقتاده فاسيلي ايفانوفيتش الى المكتب . وانحنى على اذن ابنه حتى لامسها وقال :

– طبيب من آنا سيرغييفنا اودينتسوفا . وهي هنا ايضاً .

فتح بازاروف عينيه فوراً :

– ماذا قلت ؟

– قلت آنا سيرغييفنا اودينتسوفا هنا وقد احضرت اليك هذا السيد الطبيب .

نظر بازاروف الى ما حواليه :

---

* في الاصل بالالمانية Wo ist der Kranke?

** Wertester Herr Collega

– انها هنا . . . اريد ان اراها .

– ستراها ، يا يفغيني ، ولكن يتعين في البداية التكلم مع السيد الطبيب . سأحدثه عن سير المرض لان طبيب القضاء ارتحل ، وسوف نتشاور بعض الشيء .

– لا بأس ، تحدثا على عجل ، ولكن ليس باللاتينية ، فاني افهم ما تعنيه (jam moritur) * .

وبدأ الطبيب الجديد كلامه مخاطباً فاسيلي ايفانوفيتش :

– (يبدو انك تجيد الالمانية يا سيدي) ** .

– (عندي . . . لديّ . . .) *** ، ولكن حبذا لو تكلمت بالروسية .

فقال الطبيب بروسية ركيكة :

– آ ! هكذا اذن . . . لعل . . .

وبدأ التشاور .

بعد نصف ساعة دخلت آنا سيرغييفنا المكتب بصحبة فاسيلي ايفانوفيتش . وتسنى للطبيب ان يخبرها همساً بانه لا امل مطلقاً في شفاء المريض .

نظرت الى بازاروف . . . فتوقفت عند الباب لشد ما ادهشها وجهه الملتهب والمحتضر في الوقت ذاته بعينيه الغائمتين المتجهتين صوبها . لقد ارعبها خوف بارد مرهق . ولاحت في ذهنها للحظة فكرة : وربما شعرت بشيء آخر لو كانت تحبه حقاً .

فقال هو بجهد :

– شكراً ، لم اكن اتوقع ذلك . فعلت خيراً . ها قد التقينا من جديد كما وعدت انت .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– ما اطيب آنا سيرغييفنا .

– اتركنا يا ابتي . هل تسمحين يا آنا سيرغييفنا ؟ يخيّل اليّ الآن . . .

* يحتضر .

** في الاصل بالالمانية Der Herr scheint des Deutschen mächtig zu sein .

*** في الاصل بالالمانية ich habe .

واومأ برأسه الى بدنه المسجى العاجز .

انصرف فاسيلي ايفانوفيتش . فكرر بازاروف :

– شكراً . لقد فعلت كما يفعل القياصرة . يقال ان القياصرة ايضاً يعودون المحتضرين .

– يفغيني فاسيليفيتش ، آمل . . .

– آه ، يا آنا سيرغييفنا . فلنقل الحقيقة . لقد انتهيت . وقعت تحت العجلة . ولذا ما كان هناك داعٍ للتفكير في المستقبل . الموت شيء قديم ، الا انه يداهم كل شخص بشكل جديد . لم اجبن حتى الآن . . . وستحل الغيبوبة ، ثم النهاية ! (لوح بيده تلويحة يائسة واهنة) . فما الذي ينبغي ان اقوله لك . . . كنت احبك ! وما كان لهذا الامر اي معنى في السابق ، وليس له اي معنى الآن بالطبع . فالحب مجرد شكل ، اما شكلي انا فقد اخذ يتفسخ . الافضل ان اقول : ما اروعك ! انك الآن ايضا جميلة . . . ما احلاك . . .

ارتعشت آنا سيرغييفنا عفوياً .

– لا تقلقي . . . اجلسي هناك . ولا تقتربي مني ، فان مرضي معد .

اجتازت آنا سيرغييفنا الغرفة مسرعة وجلست على المقعد قرب الاريكة التي يرقد عليها بازاروف . فهمس هو :

– ما انبلها ! آه ، ما اقرب ذلك ! وما اشد فتوتها ونضارتها وصفاءها . . . في هذه الغرفة الكريهة ! . . وداعاً ! عيشي طويلاً ، فذلك افضل شيء ، وتمتعي ما دام في الوقت متسع . انظري ما افظع هذا المشهد : دودة تكاد تكون مسحوقة ولكنها لا تزال مغرورة . الم اكن افكر بأني سأنجز اعمالاً كثيرة ولن اموت ؟ فاين مني الموت ؟ لديّ مهمة ، وانا جبار ! اما الآن فان كل مهمة هذا الكائن الجبار تتلخص في ان يقضي نحبه بشكل لائق ، مع ان ذلك لا يشغل بال احد . . . غير انني ، رغم كل شيء ، لا اخاف . . .

صمت بازاروف واخذ يتلمس قدحه بيده . فناولته آنا سيرغييفنا اياه دون ان تخلع قفازها وهي تتنفس بخوف . وتكلم هو من جديد :

– سوف تنسينني . فلا رفقة بين الميت والحي . وسوف

يقول لك ابي ، مثلاً ، ما اعظم خسارة روسيا بفقداني . . . ذلك هراء ، ولكن لا تثنيه عن اعتقاده . فليكن ذلك على الاقل مبعثاً للسلوى في نفسه . . . حاولي ان تداري امي ايضاً . ففي مجتمعك الراقي الكبير لن تجدي اناساً مثلهما ابداً . . . هل ان روسيا بحاجة الي ، يا ترى ؟ . . كلا ، ليست بحاجة الي ، على ما يبدو . فمن هي بحاجـــة اليه ؟ انها بحاجـــة الى الاسكافي والخياط والقصاب . . . يبيع اللحوم . . . والقصاب . . . عفواً ، بدأت افكاري تتشوش . . . هناك غابة . . .

وضع بازاروف يده على جبينه .

وانحنت عليه آنا سيرغييفنا :

– يفغيني فاسيليفيتش ، انا هنا . . .

سحب يده فوراً ونهض قليلاً ، فقال بقوة مفاجئة ولمعت عيناه بآخر بريق :

– وداعاً ، وداعاً . . . اسمعي . . . انني لم اقبلـــك آنذاك . . . فانفخي على القنديل المحتضر كي ينطفئ . . .

لامست آنا سيرغييفنا جبينه بشفتيها فقال :

– كفاية !

وهبط على الوسادة :

– الآن . . . حل الظلام . . .

انصرفت آنا سيرغييفنا بهدوء . فسألها فاسيلي ايفانوفيتش همساً : – ماذا ؟

– غفا – اجابت بصوت يكاد لا يسمع .

ما كان مقدراً لبازاروف ان يستيقظ . فعند المساء غط في غيبوبة مطبقة ، وفي اليوم التالي قضى نحبه . ادى الاب الكسي الطقوس الدينية اللازمة . وعندما جرى تطهيره ولامس الزيت المقدس صدره تفتحت احدى عينيه وخيل للحاضرين ان شيئاً ما يشبه ارتعاشة الرعب انعكس ، للحظة ، على وجهه الجامد ، من رؤية القس بغفارته الكهنوتية والمبخرة المدخنة والشموع امام الايقونة . وعندما لفظ النفس الاخير وعم الدار العويل استولى على فاسيلي ايفانوفيتش هياج مباغت فراح يصرخ بصوت مبحـــوح وبوجه ملتهب معوج ، ويهز قبضته في الهواء كأنه يهدد احداً : «قلت بأني سأثور ، وسأثور ، سأثور !» . الا ان آرينا فلاسيفنا

٢٥*

تعلقت بعنقه والدموع تنهمر من عينيها ، وانكب كلاهما على وجهه . وفيما بعد تحدثت انفيسوشكا في غرفة الخدم فقالت: «انكسا راسيهما جنباً الى جنب كنعجتين في الظهيرة . . .» .

غير ان قيظ الظهيرة يتبدد ويحل المساء ثم الليل ، وعندها تحين العودة الى المأوى الهادئ حيث يحلو المنـــام للمتعبين والمرهقين . . .

٢٨

مضت ستة شهور . خيم الشتاء بصقيعه الصامت القارس الصافي وثلجه الصرار ونداء الوردي المتجمد على الاشجار وسمائه الزمردية الشاحبة ، واكاليل الدخان فوق المداخن واعمدة البخار المتصاعدة من الابواب التي لا تفتتح الا لماماً ، ووجوه الناس الفضة وعناء الجياد المقشعرة من البرد . اشرف ذلك اليوم من شهر يناير على الافول ، وعصر برد المساء الهواء الساكن وضغطه بمزيد من الشدة . وانطفأ الغسق الدامي بلمح البصر . واشتعلت الانوار في نوافذ الدار في مارينو . انشغل بروكوفيتش ، ببدلته الرسمية السوداء وقفازيه الابيضين ومسحته المهيبة اكثر من المعتاد ، في اعداد المائدة لسبعة اشخاص . قبل اسبوع جرت في كنيسة الابرشية الصغيرة ، بهدوء وبدون شهود تقريباً ، مراسيـــم زفاف اركادي وكاتيـــا وزفاف نيكولاي بتروفيتش وفينيتشكا . وفي ذلك اليوم اقام نيكولاي بتروفيتش مأدبـــة توديعيـــة لاخيه الذي ينوى السفر الى موسكو لتصريف بعض الشؤون . اما آنا سيرغييفنا فقد سافرت الى موسكو ايضاً على اثر الزفاف بعد ان انعمت على الزوجين الشابين بسخاء .

في تمام الساعة الثالثة التأم الجمع حول المائدة . اجلسوا ميتيا الى المائدة ايضاً . وقد ظهرت لديه مربية ترتدي قبعة من الديباج المخرم . جلس بافل بتروفيتش بين كاتيا وفينيتشكا واستقر «الزوجان» قرب عروسيهما . لقد تغير اصحابنا هؤلاء في الآونة الاخيرة : فقد بدوا وكأنما اصبحوا اكثر رواء ونضجاً . اما بافل بتروفيتش فهو الوحيد الذي اصيب بهزال ، مما اضفى ،

بالمناسبة ، المزيد من الرشاقة والرصانة على ملامحه المعبرة . . . ثم ان فينيتشكا لم تعد على ما كانت عليه . ارتدت بدلة حريرية جديدة وشدت شريطاً مخملياً عريضاً على شعرها مع سلسلة ذهبية تطوق جيدها . جلست بسكون ووقار ورزانة . فهي رزينة ازاء نفسها وازاء كل ما يحيط بها . كانت تبتسم وكأنما تريد ان تقول : «اعذروني ، فليس الذنب ذنبي» . ولم تكن تبتسم وحدها على هذه الشاكلة . فالآخرون ايضاً كانوا يبتسمون وكأنما هم يعتذرون . لقد كانوا جميعاً يشعرون بشيء من الحرج وبشيء من الحزن ، ولكنهم في الواقع كانوا على احسن حال . كان كل منهم يداري الآخر بحذر مدهش وكأنما اتفقوا جميعاً على تمثيل ملهاة ساذجة . بينما كانت كاتيا اهدأ الجميع : فهي تتطلع الى ما حواليها وادعة اليفة . وكان بامكان المرء ان يلاحظ ان نيكولاي بتروفيتش قد احبها بجنون . وقبيل انتهاء الغداء نهض يحمل قدحاً وتوجه الى بافل بتروفيتش قائلاً :

– انك تتركنا . . . تتركنا ، يا اخي العزيز ، لامد غير طويل طبعاً . ومع ذلك لا يسعني الا ان اقول لك بانني . . . باننا . . . وانني بقدر ما اننا . . . الطامة الكبرى في اننا لا نجيد القاء الخطب ! يا اركادي ، هلا تكلمت انت !

– كلا ، يا ابتي ، فانا لم استعد لذلك .

– وهل تعتقد باني قد تهيأت جيداً ؟ اسمح لي ، يا اخي ، ان اعانقك واتمنى لك التوفيق ، وعد الينا باسرع ما يمكن !

تبادل بافل بتروفيتش القبلات مع الجميع دون ان يستثني ميتيا بالطبع . وبالاضافة الى ذلك قبل يد فينيتشكا التي لم تتعود بعدُ على مد يدها بالشكل اللازم . وارتشف القدح الذي ملأوه له من جديد وقال بتنهدة عميقة : «فلتكونوا سعداء يا اصدقائي !» واضاف بالانجليزية Farewell * . لم ينتبه احد الى هذه الكلمة ولكن الجميع تأثروا تأثراً شديداً .

– تكريماً لذكرى بازاروف – همست كاتيا في اذن زوجها وقرعت كأسها بكأسه . ورد عليها اركادي بأن شد على يدها بقوة ، ولكنه لم يتجرأ على رفع هذا النخب بصوت عال .

* وداعا .

تلك هي الخاتمة ، اليس كذلك ؟ ولكن ربما يرغب احد من القراء في معرفة ما يفعله الآن ، الآن بالذات ، كل من شخوص روايتنا . فنحن على استعداد لتلبية رغبته .

تزوجت آنا سيرغييفنا مؤخراً ليس بدافع من الحب ، بل بدافع من المعتقد . وزوجها انسان لبيب للغاية ، قانوني شديد البأس في بلوغ مقاصده العملية ، وهو يتحلى بارادة صلبة وموهبة كلامية رائعة ، وهو انسان طيب وبارد كالثلج ، لا يزال في مقتبل العمر ولكنه سيغدو فيما بعد من الشخصيات الروسية المرموقة . وهما يعيشان في وئام تام ، ومن المحتمل انهما سيتمتعان بالسعادة . . . بل ومن المحتمل انهما سيبلغان الحب . اما الاميرة خ . . . فقد توفيت وطواها النسيان منذ يوم وفاتها . وسكن الاب كيرسانوف مع ابنه في مارينو واخذت احوالهما تتحسن . فصار اركادي اقتصادياً غيوراً وغدت «المزرعة» تعود بدخل غير ضئيل واصبح نيكولاي بتروفيتش وسيطاً عقارياً (١٠٦) ، وهو يعمل بكل ما اوتي من قوة ، فيتجول بلا كلل في منطقة عمله ويلقي الخطب المسهبة (كان متمسكاً بالرأي القائل بضرورة «افهام» الفلاحين ، اي تكرار كلمات بعينها طوال الوقت حتى يستولي عليهم الارهاق) ، ومع ذلك ، اذا قلنا الحق ، فهو لم يكن يرضي تماماً لا النبلاء المثقفين الذين يتكلمون عن «الانعتاق» تارةً بلهجة حماسية وتارةً بلهجة سوداوية ولا النبلاء غير المتعلمين الذين يتهجمون بوقاحة على «حبّذا الانعتاق» . فان نيكولاي بتروفيتش بالنسبة لاولئك وهؤلاء متساهل اكثر من اللازم . اما كاتيا فقد رزقت ولداً اسمته نيكولاي . وصار ميتيا يمشي على نحو ممتاز ويتكلم بطلاقة . ولا تعجب فينيتشكا بأحد ، بعد زوجها وميتيا ، اعجابها بكنتها . وعندما تجلس هذه الى البيانو تستطيع فينيتشكا ان تظل قربها مسرورة طوال النهار . ونذكر بالمناسبة شيئاً عن بيوتر . فقد تحجر نهائياً بسبب الغباوة والغطرسة وصار يتلفظ الكلمات بغير الصيغة المعتادة . ولكنه تزوج هو الآخر وتسلم صداقاً كبيراً من اهل العروس . وهي ابنة بستاني من سكان المدينة رفضت خطيبين صالحين لمجرد انهما لا يمتلكان ساعة يد . اما بيوتر فكانت لديه جزمة قصيرة لماعة فضلاً عن الساعة .

على مدرج برول (١٠٧) في درزدن بوسعكم ان تروا ، في افضل اوقات النزهة ما بين الثانية والرابعة ، رجلاً في حوالي الخمسين اشيب الشعر كلياً وكأنما يعاني من النقرس ولكنه لا يزال وسيما انيق الملبس ، يتحلى بتلك السمة الخاصة التي لا تتهيأ الا لشخص يتواجد امداً طويلاً في ارقى فئات المجتمع . انه بافل بتروفيتش . غادر موسكو الى الخارج من اجل استعادة صحته وصمم على الاقامة في درزدن حيث يتلاقى اكثر ما يتلاقى مع الانجليز والسياح الروس . كان يسلك مع الانجليز سلوكاً بسيطاً اقرب الى التواضع ، ولكنه يحافظ على كرامته . وكانوا هم يعتبرونه شخصاً مملاً بعض الشيء الا انهم يحترمون فيه رجلاً نبيلاً حقا « a perfect gentleman » . وكان هو اقل تكلفاً مع الروس ، حيث يطلق العنان لحدة طباعه ويسخر مازحاً من نفسه ومنهم ، الا ان ذلك كله يصدر عنه بشكل مقبول تماماً لا يتعارض واصول اللياقة . وهو يتمسك بالنزعة السلافية ، الامر الذي يحظى ، كما هو معروف (بالاحترام والتقدير) * في المجتمع الراقي . انه لا يقرأ شيئاً بالروسية ، ولكن لديه على مكتبه منفضة فضية بشكل خف فلاحي روسي . ثم ان سياحنا يتقاطرون عليه بكل رغبة . وقد تفضل ماتفي ايليتش كوليازين ، الذي اصبح في **المعارضة الموقتة** ، بزيارته وهو في طريقه الى مياه بوهيميا المعدنية . اما السكان المحليون الذين نادراً ما يتقابل معهم ، والحق يقال ، فيكادون يبجلونه تبجيلاً . وما كان بوسع احد ان يحصل على تذكرة الى جوقة البلاط او المسرح والخ . بنفس السهولة والسرعة اللتين يحصل بهما عليهما (البارون كيرسانوف) ** . ولا يزال يعمل المعروف على قدر المستطاع ، ولا يزال يخلق ضجة بعض الشيء : فليس عبثاً ان كان في وقت ما كالليث . ولكن حياته غدت عسيرة . . . اكثر عسراً مما يتوقع هو . . . فيكفي لمعرفة ذلك القاء نظرة عليه في الكنيسة الروسية ، حيث يغرق في تاملاته مائلاً الى الجدار في ركن ما دون حراك ، ويعض على شفتيه بمرارة ، ثم يعود الى رشده فجأة ويرسم شارة الصليب على نحو لا يكاد يلحظ . . .

* في الاصل بالفرنسية très distingué .

** في الاصل بالالمانية der Herr Baron von Kirsanoff .

ولقد سافرت كوكشينا هي الاخرى الى الخارج . فهي حالياً في هيديلبرغ تدرس المعمار الذي اكتشفت فيه ، على حد تعبيرها ، قوانين جديدة ، ولم تعد تدرس العلوم الطبيعية . ولا تزال كالسابق تعاشر الطلبة وخصوصاً طلبة الفيزياء والكيمياء الروس الذين تعج بهم هيديلبرغ والذين يدهشون للوهلة الاولى الاساتذة الالمان السذج بنظرتهم الواقعية الى الامور ، كما يدهشون نفس اولئك الاساتذة فيما بعد بتبطرهم التام وكسلهم المطبق . ومع اثنين او ثلاثة من امثال هؤلاء الكيمياويين الذين لا يميزون بين الاوكسجين والآزوت ، ولكنهم مفعمون بالرفض والاعتزاز بالنفس ، ومع يليسيفيتش العظيم في بطرسبورغ ، يتسكع سيتنيكوف الذي يستعد هو الآخر لكي يكون عظيماً ، ويواصل ، على حد قوله ، «قضية» بازاروف . ويقال ان شخصاً ما ضربه مؤخراً ، ولكنه ثار منه ، حيث لمح في مقالة تافهة مشبوهة دست في مجلة تافهة مشبوهة الى ان ذاك الذي ضربه جبان . وهو يسمي ذلك تهكماً . ولا يزال ابوه متعسفاً ازاءه ، اما زوجته فتعتبره مغفلاً و . . . اديباً .

هناك مقبرة ريفية صغيرة في احد ارجاء روسيا النائية . وهي ، شأنها شأن جميع مقابرنا تقريباً ، ذات منظر كئيب : فقد اعشوشبت من زمان الخنادق المحيطة بها ، وتدلت الصلبان الخشبية الرمادية اللون وصارت تتعفن تحت سقوفها التي كانت مطلية بالاصباغ في غابر الزمان ، وازيحت الالواح الحجرية عن اماكنها جميعا كما لو ان احداً قد دفعها من الاسفل ، وبالكاد تعطي شجرتان منتوفتان او ثلاث ظلالاً شحيحة ، وتجول الاغنام بين القبور دون عائق . . . ولكن بين تلك القبور قبراً لا يمسه انسان ولا يدوسه حيوان . الطيور فقط تحط عليه وتصدح عند الفجر . يحيط به سياج من حديد وقد غرست شوحتان فتيتان عند جانبيه . في هذا القبر يرقد يفغيني بازاروف . ومن قرية غير بعيدة غالباً ما يتردد عليه عجوزان بلغا من العمر عتياً . يسيران بمشيتهما المتثاقلة وهما يستندان بعضهما البعض ، وعندما يقتربان من السياج يهبطان فيركعان على ركبيهما ويبكيان بمرارة لأمد طويل ، ولأمد طويل ايضاً يتطلعان بانتباه الى الحجر الصامت

الذي يرقد ابنهما تحته . ويتبادلان بضع كلمات ، وينفضان الغبار عن الحجر ويعدّلان وضعية بعض اغصان الشوحتين ، ويصليان من جديد ولا يقويان على مغادرة هذا المكان الذي يبدو وكأنه اقرب الاماكن الموصلة الى ابنهما ، والى الذكريات المرتبطة به . . . فهل يُعقل ان صلواتهما ودموعهما عقيمة يا ترى؟ وهل يُعقل ان الحب المقدس ، الحب المخلص ، عاجز يا ترى ؟ كلا ! فمهما كان القلب الذى اطبقت عليه ظلمة القبر متحمساً متمرداً خاطئاً ، فان الزهور التي تنمو على ترابه تتطلع الينا مطمئنة بعيونها البريئة : فهي لا تحدثنا فقط عن السكون الابدي ، عن لجة سكون الطبيعة «اللاابالية» ، بل تحدثنا ايضاً عن الرضوان الابدي وعن الحياة اللانهائية . . .

١٨٦٢

بصدد «الآباء والبنون»

كنت استحم على ساحل البحر في مدينة فينتنور الصغيرة بجزيرة وايت في اغسطس ١٨٦٠ ، وعندها تبادرت الى ذهني لاول مرة فكرة «الآباء والبنون» ، هذه القصة التي انتهى بسببها – والى الابد كما يبدو – ميل جيل الشباب الروسي اليّ وحسن موقفهم مني . وقد سمعت وقرات مرارا في المقالات النقدية بانني ، في مؤلفاتي ، «انطلق من الافكار» او «امرر الافكار» . امتدحني البعض على ذلك ، ولامني البعض الآخر . اما انا فاريد ، بدوري ، ان اؤكد بانني لم احاول مطلقا ان ارسم اية شخصية الا اذا توفر لدي منطلق استند اليه ، ومنطلقي هذا ليس فكرة بل هو شخص حي تضاف اليه العناصر المناسبة وتختلط به تدريجيا . وبما انني لا امتلك قدرا كبيرا من حرية الابتكار ، فانا اشعر دوما بحاجة الى هذه التربة التي اتمكن من السير عليها بثبات . وهذا بالذات ما حدث لقصة «الآباء والبنون» ، فقد استندت في تصوير بطلها الرئيسي بازاروف الى شخصية فعلية لطبيب من الاقاليم اثار دهشتي واعجابي (توفي قبيل عام ١٨٦٠ بقليل) . وقد تجسدت في هذا الانسان الرائع ، في رأيي ، تلك البداية التي ولدت للتو وكانت في دور الاختمار والتي سميت فيما بعد بالنهلستية او الرفض . كان تأثير هذه الشخصية عليّ شديدا للغاية ، ولكنه غير واضح تماما في الوقت ذاته . فانا نفسي ، في بادئ الامر ، لم اتمكن من فهمه بشكل عميق . فصرت انصت واتطلع باهتمام كبير الى كل ما يحيط بي وكأنني اريد التثبت من صحة احاسيسي . ومما كان يحيرني انني لم اجد في اي نتاج من نتاجاتنا الادبية ولا تلميحا لما كان يلوح امام انظاري ويخيل اليّ في كل مكان ، فاخذ الشك يدب في ذهني : ألست اركض وراء شبح لا غير ؟ واتذكر ان روسيا كان يعيش معي في جزيرة وايت ، وهو يتحلى بذوق رهيف جدا وتقبل رائع لما نعته المرحوم ابولون غريغوريف* «بنفحات العصر» . اطلعته على الافكار التي تشغل بالي ، فعقدت الدهشة لساني عندما سمعته يقول : «اعتقد انك سبق وقدمت نموذجا من هذا

* شاعر وناقد ادبي روسي (١٨٢٢–١٨٦٤) .

النوع . . . في شخصية رودين ، أليس كذلك ؟» . لم احر جوابا ، فبماذا اجيب ؟ رودين وبازاروف نموذج بشري واحد !

تأثرت بهذه الكلمات لدرجة كبيرة حتى بقيت عدة اسابيع احاول التفكير بما عزمت عليه . ولكنني عندما عدت الى باريس شرعت بالعمل من جديد : فالحبكة قد اختمرت في ذهني شيئا فشيئا . وفي الشتاء كتبت الفصول الاولى ، الا انني اكملت القصة في روسيا ، في الريف ، خلال تموز . وفي الخريف قرأتها على بعض معارفي واجريت بعض التنقيحات والاضافات عليها . وفي اذار ١٨٦٢ نشرت «الآباء والبنون» في مجلة «روسكي فيستنك» («البشير الروسي») .

واقول هنا ، دون الدخول في تفاصيل الاثار التي تركتها هذه القصة ، انني عندما عدت الى بطرسبورغ . . . سمعت آلاف الاصوات تكرر كلمة «نهلستي» . . . وشعرت آنذاك باحاسيس متنوعة ولكنها مرهقة مضنية بقدر واحد . شعرت بالبرود الذي بلغ حد الغضب عند الكثيرين من الذين اعزهم واتعاطف معهم ، وتلقيت التهاني التي تقرب من التقبيل من الناس اكرههم ، من معسكر الاعداء . اربكني ذلك وحيرني . . . وآلمني . لكن ضميري لم يؤنبني : فكنت اعرف جيدا ان موقفي من النموذج الذي ابتدعته موقف نزيه خال من التحيز ضده ، بل هو موقف متعاطف معه * ، فانا احترم رسالــة الفنان والاديــب لدرجة لا تسمح لي بالافتراء في هذا المجال . ولعل كلمة «احترم» في غير محلها تمامـا هنا . فانا ، ببساطة ، لا استطيع ، ولا اجيد العمل على نحو آخر . كما لم يكن هناك ما يدفعني الى ذلك . . .

ان السادة النقاد لا يتصورون بشكل صائب تماما ما يعتمل في نفس الكاتب ولا يعرفون ممّ تتكون على وجه التحديد افراحه واتراحه ، امانيه وطموحاته ، نجاحاته واخفاقاته . فلا علم لهم ، مثلا ، بتلك المتعـة التي يشير اليها غوغول وتتلخص في تعذيب النفس وسوط عيوبها من خلال الشخوص الوهميين الذين يصورهم الكاتب . والنقاد واثقون تماما من ان الكاتب لا يفعل شيئا غير «تمرير افكاره» من كل بد ، ولا يريدون ان يصدقوا بان تجسيد الحقيقة ، وتصوير واقع الحياة بقوة ودقة ، اعظم

* اسمح لنفسي هنا بايراد المقطع التالي من يومياتي : «الاحد ، ٣٠ يوليو . قبل ساعة ونصف تقريبا فرغت ، اخيراً ، من كتابـة روايتي . . . ولا ادري هل ستلقى نجاحا . ربما ستنهال عليّ «سوفريمنك» («المعاصر») بسيل من الاهانات بسبب بازاروف ، ولن تصدق بانـي كنت ، طوال كتابتي للرواية ، اشعر بميل عفوي نحوه . . .» (ملاحظة تورغينيف) .

سعادة للاديب حتى اذا كانت هذه الحقيقة تتعارض مع ميوله . . . عندما صورت شخصية بازاروف استبعدت من مجال اهتماماته كل ما له علاقـة بالفن واضفيت عليه حدة وخشونة في اسلوب الكلام ، ولم يكن ذلك بسبب رغبة هوجاء في اهانة جيل الشباب (! ! !) ، بل بفعل مراقبتي لصاحبي الدكتور د . وامثاله . «وتلك هي الصورة التي نشأت عليها الحياة» ، وهذا ما اوحته لي التجربة التي ربما كانت خاطئة ، ولكنها ، وانا ، اكرر ذلك ، تجربة نزيهة . ما كان يلزمني ان افتعل وانتحل ، ولذا توجب علي ان اصور شخصية بازاروف على هذا النحو بالذات . ولم تلعب ميولي الشخصية اي دور بهذا الخصوص . وربما سيدهش الكثيرون من قولي اذا قلت لهم باني اؤيد بازاروف في كل معتقداته تقريبا ، ما عدا آراءه في الفن . كل ذلك والبعض يقول باني التزم جانب «الآباء» . . . مع اني جانبت الحقيقة في تصوير شخصية بافل كيرسانوف وبالغت في عرض نواقصه بصورة كاريكاتورية تقريبا وجعلت منه اضحوكة !

ويكمن سبب سوء الفهم كله ، و«الطامة الكبرى» ، كما يقال ، في ان النموذج الذي عرضته بشخصية بازاروف لم يمر بعد بالاطوار التدريجيـة التي تمر بها النماذج الادبية عادة . ولم يكن من نصيبه – كما كان من نصيب اونيغين * وبيتشورين ** – عصر كامل من التمجيد والمديح والرضا . فمنذ لحظة ظهور هذا الانسان الجديد – بازاروف – كان موقف المؤلف منه انتقاديا . . . موضوعيا . وهذا ما شوش على الكثيرين . ومن يدري ؟ وربما كان في ذلك ظلم ان لم نقل خطأ . فان لنموذج بازاروف ، على الاقل ، حقوقا في المديح والرضا بقدر حقوق النماذج التي سبقته . وقد ذكرت توا ان موقف المؤلف من بطل الرواية قد شوش على القارئ . فالقارئ يشعر بالحرج دوما وسرعان ما تستولي عليه الحيرة ، وحتى الكآبة ، عندما يرى المؤلف يعامل الشخصية التي يصورها معاملته لكائن حي ، فيلاحظ ويعرض على الملأ جوانبها الرديئة والجيدة ، والاهم اذا كان المؤلف لا يبدي تعاطفا جليا او نفوراً واضحا ازاء بطله . والقارئ على استعداد للانسياق وراء الغضب ، اذ يجد نفسه مضطراً الى ان يشق الطريق بنفسه بعد ان اعتاد السير على درب مطروق . وتتبادر الى ذهنه افكار من قبيل : «هذه قضية شاقة ! الكتب موجودة لاجل التسلية وليس لاجهاد الفكر . ثم هل كان من الصعب على المؤلف ان يخبرني كيف افكر بهذه الشخصية كما يفكر فيها هو ؟ !» اما اذا كان موقف المؤلف من تلـك الشخصية اقل تحديداً ووضوحاً ، واذا كان المؤلف نفسه لا يدري هـل يحب بطله ام لا (كما حدث لي بخصوص بازاروف ، «فالميل العفوي» الذي اشرت اليه في يومياتي لا يعني الحب) فالحال تغدو على اسوأ مـــا

* بطل ملحمة بوشكين «يفغيني اونيغين» .
** الشخصية الرئيسية في رواية ليرمونتوف «بطل زماننا» .

يكون ! والقارئ مستعد ، عندئذ ، ان ينسب الى مؤلف او يفرض عليه تعاطفا لا وجود له او نفورا لا اساس له ، وذلك لمجرد ان يخرج من حالة «اللاتحديد» المزعجة .

قالت لي سيدة ظريفة بعد ان فرغت من مطالعة كتابي : «العنوان الحقيقي لقصتك هو «لا الآباء ولا البنون» . وانت نفسك نهلستي» . واعرب البعض عن مثل هذا الرأي بشدة اكبر عندما صدرت «الدخان» * . وانا هنا لا اجرؤ على الاعتراض . فلربما كانت هذه السيدة على حق . في مجال التاليف (وانا احكم على ذلك من تجربتي) يفعل المرء ليس ما يريده بل ما يستطيع فعله وبالقدر الذي يوفق فيه . اتصور ان الحكم على النتاجات الادبية ينبغي ان يصدر en gros ** ، وعندما نطالب المؤلف بالنزاهة الكاملة ينبغي ان ننظر الى سائر جوانب نشاطه بهدوء ، ان لم اقل بلاابالية . ورغم رغبتي الشديدة في ارضاء نقادي فانني لا استطيع القول باني مذنب في تجنب النزاهة .

تجمعت لدي بخصوص «الآباء والبنون» طائفة من الرسائل والوثائق الاخرى التي تستحق الاهتمام . وقد لا تخلو المقارنة بينها من فائدة . ففي الوقت الذي يتهمني فيه البعض باهانة جيل الشباب وبالتخلف والظلامية ويقولون لي انهم «يحرقون صوري الفوتوغرافية وسط قهقهة الاحتقار» ، يلومني البعض الآخر غاضبين ، على العكس ، بالتزلف الى نفس جيل الشباب هذا . وكتب لي احدهم قائلا : «انك تزحف عند قدمي بازاروف ! انت تتظاهر فقط بانك تشجبه ، ولكنك في الواقع تتزلف اليه وتنتظر منه ، كالصدقة ، ابتسامة تافهة !» . . .

وهكذا يا اخواني الشباب ، اوجه كلامي اليكم . اريد ان اقول لكم على لسان غوته معلمنا جميعا :

Greift nur hinein ins volle Menschenleben !
Ein jeder lebt's — nicht vielen ist's bekannt,
Und wo ihr's packt — da ist's interessant !***

---

* صدرت رواية ايفان تورغينيف «الدخان» عام ١٨٦٧ .

** عموما (بالفرنسية) .

*** اغرز يدك (لا استطيع ان اترجم هذا التعبير بشكل افضل) في الداخل ، في اعماق الحياة البشرية ! الجميع يعيشون تلك الحياة ، ولكن ما اقل الذين يعرفونها . وعندما تتشبث بركن منها ستجد المتعة هناك ! (ملاحظة تورغينيف) .

ان قوة هذا «التشبث» ، قوة «تصيد» الحياة هذا ، لا تمنحها الا الموهبة ، ولكن الموهبة لا تكتسب ، ثم ان الموهبة وحدها غير كافية . فلا بد من التفاعل المتواصل مع البيئة التي ينوي الكاتب تجسيدها : لا بد من الصدق ، الصدق الذي لا يرحم ، فيما يخص احاسيس الكاتب الشخصية ، ولا بد من الحرية ، الحرية الكاملة في الآراء والمعتقدات ، ولا بد ، اخيرا ، من التعلم والمعرفة ! . . فالعلم نور ، كما يقول المثل الشعبي ، ولكنه ليس نورا فقط ، انه الحرية ايضا . ليس هناك ما يحرر الانسان اكثر من المعرفة ، وليس هناك ميدان يحتاج الى الحرية اكثر من ميدان الفن والشعر ، وليس من قبيل الصدفة ان يقال عن الفن حق في اللغة الرسمية بانه حر «طليق» . فهل يستطيع الانسان ان «يتشبث» بما يحيطه و«يتصيده» اذا كان مقيدا من الداخل ؟ كان بوشكين قد تحسس هذه الحقيقة بعمق . فليس عبثا ان قال في السوناتا الخالدة التي يتعين على كل كاتب مبتدئ ان يحفظها عن ظهر قلب ويتذكرها كالوصية :

سر على طريق الحرية
يهدي العقل الحر . . . *

. . . كلا ، لا يمكن للفنان الحقيقي ان يعيش بدون الصدق ، بدون المعرفة باوسع معاني الكلمة ، في الموقف من نفسه ومن الافكار والانظمة التي يتبناها ، بل وحتى في الموقف من شعبه ومن تاريخ بلاده . لا يمكن العيش بدون هذا الهواء . . .

ايفان تورغينيف
١٨٦٨-١٨٦٩
بادن-بادن

---

* من قصيدة الكسندر بوشكين «ايها الشاعر» ، ١٨٣٠ .

تعليقات

١ – في العشية . ص ٥

ظهرت الفكرة الاولى لرواية «في العشية» في عام ١٨٥٣ او ١٨٥٤ ، على ما يبدو . وفي نحو نيسان ١٨٥٩ اكمل تورغينيف وضع خطة الرواية ، وفي الخريف كانت مسودة المخطوطة جاهزة تماما . وفي صفحة العنوان لهذه المخطوطة المحفوظة في المكتبة العامة المسماة باسم سالتيكوفشيدرين (لينينغراد) توجد هذه الملاحظة للمؤلف :

«بُدئت في فيشي ، يوم الثلاثاء ٢٨ (١٦) حزيران ١٨٥٩ ، وانهيت في سباسكويه يوم الأحد ٢٥ تشرين الاول (٦ تشرين الثاني) من عام ١٨٥٩» . نشرت الرواية لاول مرة في العدد الاول من مجلة «روسكي فيستنيك» ، عام ١٨٦٠ . وذكر تورغينيف في احدى رسائله في ١٨٥٩ : «اقيمت هذه الرواية على فكرة تقول بضرورة الشخصيات البطولية الواعية . . . لتتقدم القضية الى الامام» . وفي رسالة أخرى ، بعد ذلك ، في عام ١٨٧١ اوضح تورغينيف ان «رواية «في العشية» سُميت بهذا الاسم في الاكثر إشارة لوقت ظهورها (١٨٦٠ ، اي قبيل عام واحد من تحرير الاقنان) . . . بدأت في روسيا حقبة جديدة ، والشخصيات من مثل يلينا ، واينساروف ، ما هي الا تباشير لما حدث فيما بعد» .

كان الجمهور ، حسب ذكريات المعاصرين عن تقييم «في العشية» بدا وكأنـــه منقسم الى معسكرين : في الاول استقبلت الرواية بتجاوب حار ، وفي الثاني بفزع وحيرة .

وكانت المقالة الشهيرة «متى يحل اليوم الحقيقي ؟» للناقد والكاتب الاجتماعي الروسي نيقولاي دوبرولوبوف (١٨٣٦–١٨٦١) والمنشورة في مجلـــة «سوفريمينيك» (١٨٦٠ ، العدد الثالث) اسهاما كبيراً في مناقشة الرواية . فقد حظيت الرواية في هذه المقالة بتقييم عميق من المواقع الديموقراطية الثورية المبدئية . ونورد هنا بعض المقتطفات من هذه المقالة :

«ويمكن ان يسمىّ السيد تورغينيف ، عن احقية ، برسّام

ومغنى تلك الاخلاقية والفلسفة اللتين كانتا سائدتين ، في مجتمعنا المتنور ، في الاعوام العشرين الاخيرة . لقد كان يلتقط ، بسرعة ، الاحتياجات الجديدة ، والافكار الجديدة ، المتبلورة في الوعي الاجتماعي ، وكان في اعماله يلفت الانظار على الدوام (بقدر ما كانت الظروف تسمح له) الى المسالة الآتي دورها ، والتي اخذت ، بالفعل ، تشغل بال المجتمع على نحو مبهم .

وهكذا نستطيع ان نقول بجراة ان السيد تورغينيف اذا كان قد مسّ مسالة في رواية له ، واذا كان قد صوّر ناحية جديدة من العلاقات الاجتماعية ، فان ذلك بمثابة ضمان على ان هذه المسالة ، بالفعل ، تبرز او على وشك ان تبرز في وعي المجتمع المتنور ، وعلى ان تلك الناحية الجديدة من الحياة تبدأ بالظهور او ستبرز عن قريب امام انظار الجميع بحدة وسطوع . ولهذا فكلما ظهرت رواية جديدة للسيد تورغينيف يطرح سؤال ملفت للنظر : تُرى اية جوانب من الحياة صورت فيها ، واية مسائل عالجتها ؟

وهذا السؤال مطروح الآن ايضا ، وهو لعلاقته في روايـــة السيد تورغينيف الجديدة اكثر اثارةً للاهتمام من اي وقت مضى . لقد كان طريق السيد تورغينيف ، لحد الآن ، مع طريق تطور مجتمعنا ، سائرا بدرجة كافية من الوضوح ، في اتجاه واحد . كان ينطلق من دائرة الافكار السامية والمطامح النظرية ، ويتجه نحو ادخال هذه الافكار والمطامح في الواقع الفظ المبتذل الذي انحرف عنها بعيداً . وكانت قصص السيد تورغينيف تهتم ، في العادة ، بالتهيئات لنضال وعذاب البطل المثابر على انتصار افكاره ، ثم سقوطه امام القوة الساحقة لوضاعة الناس . لقد كان ابطال السيد تورغينيف حَمَلة الافكار الجديدة في وسط معلوم ، ومتنورين ودعائيين ، ولو بين النساء فقط ، ولكنهم دعائيون ، على اية حال . وكانوا يجدون الثناء الجميل على ذلك ، وبالفعل ، فقد كانوا ، في زمانهم ، ضروريين جداً ، على ما يبدو ، وعملهم كان صعبا جداً ومحترما ومثمرا . ولهذا السبب كان الجميع يستقبلونهم بحب شديد ، ويتعاطفون كثيراً مع عذاباتهم الروحية ، ويشفقون على مساعيهم غير المجدية . والسيد تورغينيف نفسه في وصفـــه لشخصياتهم في اوضاع ومصادمات مختلفة كان ينظر اليهم ، في العادة ، بتعاطف مؤثر ، والم قلبي على عذاباتهم ، ومثل هذا الشعور كان يثيره في جمهور القراء دائما .

في رواية السيد تورغينيف الجديدة نواجه اوضاعاً جديدة ، ونماذج جديدة بالمقارنـــة مع ما تعودناه في اعماله في الفترة السابقة . فقد انعكس في كامل تركيب قصته الجديدة المطلب الاجتماعي لنشاط حي ، وبداية ازدراء المبادئ الميتة التجريدية ، والفضائل الخاملة .

ذلك لان الشخصية الرئيسية في «في العشية» هي يلينا ، ونحن ملزمون ، بخصوصها ، ان نتعامل مع شخصيات اخرى . فقد تبدّى فيها شوق غامض الى شيء ما ، حاجة غير واعية تقريباً ، ولكنها ملحاحة ، الى حياة جديدة ، واناس جُدُد ، تلك الحاجة التي تعم الآن كل المجتمع الروسي . لقد انعكست في يلينا بسطوع كبير افضل مطامح حياتنا المعاصرة ، بينما يبرز في المحيطين بها ، وبشكل مجسَّد جداً ، كل ركاكة النظام المألوف لهذه الحياة بنفسها .

. . . لم يبن تطور يلينا على اساس علمي ، ولا على تجربة واسعة في الحياة : تفتح الجانب المثالي الافضل في وجودها ، وتنامى ونضج فيها . لدى رؤيتها للحزن الوادع على وجه احد من اقاربها ، لدى رؤيتها للفقراء والمرضى والمقهورين الذين كانت تجدهم وتراهم في كل مكان حتى في احلامها . افليس على مثل هذه الانطباعات نما وتربى افضل ما في المجتمع الروسي ؟ افلا يتميز كل انسان بيننا معتبر حقاً بالكراهية لكل قهر ، للتعسف ، للاضطهاد ، وبالرغبة في مساعدة الضعفاء والمقهورين ؟ ولا نقول : «بالنضال دفاعا عن الضعفاء من اهانة الاقوياء» لان ذلك لا وجود له ، ولكننا «نرغب» بالفعل ، مثل يلينا تماماً . ثم اننا مسرورون في فعل الخير ايضاً ، حين ينطوي على جانب ايجابي فقط ، اي حين لا يتطلب اي نضال ، ولا يواجه اية معارضـــــة . اننا نقدم الصدقات ، ونقيم الحفلات الخيرية ، بل ونضحي بجزء من ثروتنا عند الحاجة . على شرط ان يقتصر الامر على ذلك فقط ، وان لا نضطر الى تكليف انفسنا العناء ، ومواجهة مختلف المنغصات من اجل فقير او متشرد . ان لنا «الرغبة في عمل الخير» ولنا القدرات ايضاً ، ولكن الخوف ، وعدم الوثوق في قوانا ، واخيراً ، عدم معرفتنا ماذا نفعل تصدنا دائماً ، فاذا نحن ، نجد انفسنا ، ولا نعرف كيف ، في معزل عن الحياة الاجتماعية ، باردين وغرباء عن اهتماماتها ، تماماً مثل يلينا في الوسط المحيط بها . وفي الوقت ذاته تغلي الرغبة ، كما في السابق ، في الصدور (ونحن نعني اولئـــك الذين لا يحاولون اصطناعيا كبح هذه الرغبة) ونبحث طوال الوقت ، ونتعطش ، وننتظر . . . ننتظر ان يوضح لنا ولو انسان واحد ، ماذا نفعل . تكتب يلينا في يومياتها بألم الحيرة ويأس تقريبا : «آه ، لو ان احداً قال لي : هذا ما ينبغي ان تفعليه ! قليل ان يكون الانسان خيِّراً ، المهم ان يفعل الخير . . اجل ، ذلـــك هو الاساسي في الحياة . ولكن كيف يفعل الخير ؟» ومَنْ مِنْ اهـــل مجتمعنا ، الشاعرين بان في صدورهم قلوبا حية ، لم يلق على نفســـه هذا السؤال بعذاب ؟ ومَنْ لم يكن يعتبر هزيلة وتافهة كل تلك الاشكال مـــن النشاط التي كانـــت رغبتـــه في الخير تظهر بهـــا بقدر امكانيتـــه ؟ ومَنْ لـــم يكـــن يشعـــر بان هنـــاك

شيئا آخر ، ارفع ، كان في وسعنا حتى ان نفعله ، لا نعرف كيف ينبغي ان نبدأ . واين هو علاج الشكوك ؟ اننا نبحث عنه باجهاد وتعطش في اللحظات الوضاءة من وجودنا ، ولا نجده في اي مكان . ان كل ما يحيط بنا يبدو لنا إما غارقا في نفس الحيرة التي نغرق فيها ، وإما قد قضى في نفسه على صورته الانسانية ، واقصر نفسه على متابعة مصالحه التافهة الانانية الحيوانية فقط . وهكذا تنقضي الحياة يوما بعد يوم الى أن تموت هذه الحياة في قلب المرء ، ومـــن يوم الى يوم ينتظر الانسان الحي : لعل وعسى ان يكون الغـــــد احسن ، وان يأتي اليوم المقبل بحل الشكوك ، ويظهر مَنْ سيقول لنا كيف نفعل الخير .

ان لهفة الانتظار هذه ترهق المجتمع الروسي منذ زمن بعيد ، وكم من مرة اخطأنا ، مثلما اخطأت يلينا ، مفكرين بان المنتظر قد ظهر ، ثم نبرد .

وكانت يلينا في حاجة بالذات الى ظهور انسان طليعي لا ينتظر ان يُعَيِّن له احدٌ مهمة ، بل يسعى بنفســه وبلا هوادة نحو هدفه ، جاذبا الآخرين نحو هذا الهدف . وبهذه الصورة ظهر اينساروف امامهـــا اخيراً ، فوجدت فيه تجسيداً للمثال الذي تريده ، ورأت فيه امكانية الجواب عن السؤال : كيف نفعل الخير ؟

ولكن لماذا لم يكن في الامكان ان يكون اينساروف روسيا ؟ فهو في الرواية لا يعمل بل يتهيأ للعمل فقط . وهذا ما يستطيعه الروسي ايضا . كما ان طبعه ايضا يمكن ان يكون في بشرة روسية ، لاسيما على تلك الصور التي يظهر بها . فهو يصوَّر في الروايـــــة على انه يحب بقوة وتصميم ، فهل من المعقول ان ذلك غير ممكن للروسي ؟

كل هذا صحيح ، ومع ذلك فان تعاطف يلينا ، تلك الفتاة التي نفهمها ، ما استطاع ان يتجه الى رجل روسي بالأحقيـــــة والطبيعية اللتين اتجـــــه بهما الى هذا البلغاري . ان كل سحر اينساروف ينحصر في عظمة وقدسية الفكرة التي تشبع بها كيانه كله . فاذا بيلينا الظامئة الى الخير ، وغير العارفة في الوقت ذاته كيف تفعله تنبهر بعمق وعلى الفور ، وحتى قبل ان ترى اينساروف بالحديث عن مشاريعه . فتقول: «يحرر وطنه . حتى النطق بهاتين الكلمتين رهيب ، لعظمتهما !» فتحس بان كلمة قلبها قد وُجدت ، وانها قد وجدت بُغيتها ، وليس من الممكن ان تضع لنفسها هدفا ارفع من هذا الهدف ، وانها ستجد ما يكفي من عمل الخير لطول حياتها ، لطول مستقبلها ، بشرط ان تهتدي بهدف هذا الرجل .

ان اينساروف كانسان مشبـــع بوعي وبكل كيانه بالفكرة العظيمة ، فكرة تحرير وطنه ، ومستعد لأن يؤدي فيه دوراً نشيطا ما كان من الممكن ان ينمو ويطرح نفسه في المجتمـــع الروسي

المعاصر . وحتى يلينا التي تمكنت كليا من ان تحبه ، وتمتزج بافكاره على تلك الصورة ، حتى يلينا لا تقدر على البقاء في وسط المجتمع الروسي ، رغم انه يضم كل اهلها والقريبين اليها . أيعني ذلك ان الافكار العظيمة ، والتجاوبات العظيمة ما تزال لا تجد مكانا لها بيننا ؟ . وان كل ما هو بطولي ومجاهد لا سبيل له الا بالهروب منا ، اذا كان لا يريد ان يموت من الخمول ، او يفنى سدى ؟ أليس الأمر كذلك ؟ أليس ذلك فحوى الرواية التي نحن بصددها ؟

لا نعتقد ذلك . صحيح ان النشاط الواسع لا يجد بيننا ميدانا مفتوحا ، وصحيح ان حياتنا تنقضي في الصغائر ، في الاحابيل ، في المكائد الصغيرة ، في الاقاويل والدسائس ، صحيح ان رجالات مجتمعنا بلا قلوب ، وضحال التفكير ، والفهامين بيننا متقاعسون عن احراز النصر لمعتقداتهم ، والليبيراليين والاصلاحيين عندنا ينطلقون في مخططاتهم من الدقائق القانونية ، وليس من انين وعويل اخوانهم التعساء . كل ذلك صحيح ، وكل ذلك واضح جزئيا في «في العشية» ايضا ، كما في العشرات من الروايات الأخرى في الفترة الاخيرة . ولكننا نرى ، على اية حال ، ان في مجتمعنا **الآن** مكانا للافكار العظيمة والتجاوبات العظيمة ، وان الزمن لن يطول ليتاح المجال لهذه الافكار لتتحقق فعلاً .

لأن حياتنا ، مهما تكن سيئة ، فان فيها ، على ما يبدو ، امكانية لظواهر من مثل يلينا . بل وبالاضافة الى ان مثل هذه الشخصيات صارت ممكنة في الحياة ، فقد صارت ايضا تستوعب فنيا ، وتدخل الادب ، وتحوّل الى نموذج . ويلينا شخصية مثالية ، ولكن صفاتها معروفة لنا ، ونحن نفهمها ونتجاوب معها . فماذا يعني هذا ؟ ان اساس خَلقها — حب المعذبين والمضطهدين ، والرغبة في الخير ، والبحث المضني عن منْ يمكن أن يدلها على الطريق الى عمل الخير — ان كل ذلك محسوس في الجزء الافضل من مجتمعنا . والاحساس هذا من القوة والقرب من التحقيق بحيث لم يعد ، كما كان من قبل ، يستجيب لغواية موهبة وعقل لامع ولكنه مجدب ، او علمانية سليمة الطوية ولكنها تجريدية ، او لمزايا الوطنية ، بل وحتى لغواية قلب طيب ، شهم ، ولكنه خامل في تطوره . فلارضاء هذا الاحساس عندنا ، ارواء عطشنا نحتاج الى اكثر من ذلك . نحتاج الى انسان مثل اينساروف ، ولكنه اينساروف روسي .

وما زالت هناك صعوبة لظهور مثل هذا البطل . ذلك لأن ظروف تطوره ، ولاسيما بالنسبة لأول مظهر لنشاطه غير مؤاتية الى اقصى حد ، ومهمته اعقد بكثير واصعب مما لدى اينساروف . فان الظفر بالعدو الخارجي ، المضطهد صاحب الامتيازات وقهره اسهل بكثير من العدو الداخلي ، المبثوث في كل الارجاء في الف

نوع مختلف ، الزلق والحصين ، بينما هو يروّعك في كل مكان ، ويسمم حياتك كلها ، ولا يعطيك استراحة ولا تمعنا في النضال . والسلاح الاعتيادي لا يجدي شيئا مع هذا العدو الداخلي ، ولا يمكن التخلص منه الا بتبديل جو حياتنا المعلول الذي ولد فيه وترعرع واشتد ساعده وبتهوية انفسنا بهواء لا يستطيع ان يتنفسه .

فهل هذا ممكن ؟ ومتى يكون ممكنا ؟ لا يمكن الجواب بشكل قاطع الا عن السؤال الاول من هذين السؤالين . اجل ، ان ذلك ممكن . وهذا هو السبب : تحدثنا فيما سبق كيف ان وسطنا الاجتماعي يخنق شخصيات من مثل اينساروف . ولكننا نستطيع الآن ان نقدم اضافة الى كلامنا ان هذا الوسط وصل الآن الى درجة يمكنه بها ان يساعد هو نفسه على ظهور مثل هذا الانسان . ان الابتذال المستديم ، والوضاعة والخمول لا يمكن ان تكون النصيب الشرعي للانسان ، والناس الذين يشكلون وسطنا الاجتماعي ، والمقيدون في ظروفه قد ادركوا منذ زمن بعيد كل وطأة وسخافة هذه الظروف . بعضهم ضجر ، والبعض الآخر يريد الانفلات الى اي مكان بكل ما لديه من قوة ، لمجرد التخلص من هذا النير . لقد كانت توضع مختلف المنطلقات ، وتستخدم مختلف الوسائل لبث شيء من الحيوية في موات وتعفن حياتنا ، ولكن كل ذلك كان ضعيفا وغير مؤثر . والآن ، وفي آخر الامر ، تظهر مفاهيم ومتطلبات كتلك التي نراها في يلينا ، والمتطلبات هذه يستقبلها المجتمع بتعاطف . وهي فضلاً عن ذلك تنزع الى التحقيق الناشط . وهذا يعني ان الروتين الاجتماعي القديم يقترب من نهايته . وما هي الا بعض من الترددات الاخرى ، وبعض من الكلمات القوية ، والوقائع المؤاتية الاخرى ، حتى يظهر رجال العمل !

وعند ذلك ستظهر في الادب ايضا شخصية اينساروف روسي كاملة حية وقوية الملامح . ولن ننتظره طويلاً . تتكفل بذلك حالة نفاد الصبر الوهاجة الموجعة التي ننتظر بها نحن ظهوره في الحياة . انه ضروري لنا ، وبدونه تضيع حياتنا وكأنها تهدر هدراً ، وكل يوم لا يعني شيئا بحد ذاته ، بل كعشية يوم آخر لا غير . وسيأتي اخيراً ، ذلك اليوم الموعود ! وعلى كل حال فان عشية اليوم التالي ليست بعيدة . لا يفصل بينهما غير ليلة ! ..»

٢ — ص ١٠

جان بيير دانتان (١٨٠٠—١٨٦٩) — نحات كاريكاتوري فرنسي .

٣ — ص ١٢

بيت من اغنية طلابية مرحة لملحن مجهول عن كلمات الشاعر الغنائي الروسي نيقولاي يازيكوف (١٨٠٣—١٨٤٦/٤٧) .

٤ ـ ص ١٤

اوبيرون ـ حسب اسطورة اسكندنافية ، هو ملك ارواح الطبيعة . وبيرسينيف يقصد قصيدة «اوبيرون» (١٧٨٠) الرومانسية للشاعر الالماني فيلاند (١٧٣٣ـ١٨١٣) . وفي هذه القصيدة يحمي اوبيرون الفارس غيونا ومعشوقته اموئس . فيهدي لهما بوقا سحريا تطرد انغامه المصائب التي تهدد هما .

٥ ـ ص ١٧

بيتر الدريفيتش ستافاسير (١٨١٦ـ١٨٥٠) ـ كاتب روسي .

٦ ـ ص ٢٤

المقصود هنا العالم البارز والشخصية الاجتماعية الروسي تيموفي نيقولايفيتش غرانوفسكي (١٨١٣ـ١٨٥٥) الذي كان في الاربعينات من القرن الماضي استاذ التاريخ العام في جامعة موسكو ، وكانت له شهرة كبيرة في الاوساط التقدمية للمجتمع الروسي .

٧ ـ ص ٢٥

هو الفيلسوف المثالي الالماني فردريك ويلهلم شيلينغ (١٧٧٥ـ١٨٥٤) .

٨ ـ ص ٣٢

يوهان فريدريك شيللر (١٧٥٩ـ١٨٠٥) ـ شاعر الماني ومؤلف مسرحي ومنظر فن التنوير .

٩ ـ ص ٣٤

راومر فريدريك لودفيغ غيورغ (١٧٨١ـ١٨٧٣) ـ بروفيسور الماني ، ومؤرخ . وكتابه «تاريخ غوغينشتاوفين» ذو المجلدات الستة مكرس لعشيرة فرسان المانية اندثرت في القرن الثالث عشر .

١٠ ـ ص ٤٧

اغنية رومانس على كلمات قصيدة «اللحن» (١٨٤٢) للشاعر الروسي المعروف افاناسي فيت (١٨٢٠ـ١٨٩٢) .

١١ ـ ص ٥٣

جمعية المتنورين السرية شكلها في العقد السابع من القرن الثامن عشر البروفيسور البافاري المتصوف ادام فايسهاوبت (١٧٤٨ـ١٨٣٠) وكان تنظيمها وروح تعاليمها تشبه جمعية الماسونيين .

والماسونية هي حركة دينية اخلاقية ظهرت في انكلترا في بداية القرن الثامن عشر ، وانتشرت في العديد من الاقطار ومن ضمنها روسيا . وكان الماسونيون يسعون الى تشكيل منظمة عالمية سرية لها هدف طوباوي هو توحيد الانسانية كلها في اتحاد ديني اخوي .

١٢ ـ ص ٥٣

عمانوئيل سفيدينبورغ (١٦٨٨ـ١٧٧٢) ـ هو العالم والمتصوف السويدي . وكان في مؤلفاته الدينية الصوفية يؤكد بانه يتصل بالقديسين والملائكة وغيرهم .

١٣ ـ ص ٥٣

جورج واشنطن (١٧٣٢ـ١٧٩٩) ـ شخصية سياسية تقدمية امريكية كان يساند النضال التحريري للمستعمرات في امريكا الشمالية ضد السيطرة الانجليزية . وكان اول رئيس جمهورية للولايات المتحدة الامريكية (١٧٨٩ـ١٧٩٧) .

١٤ ـ ص ٥٤

يقصد العقد الثالث من القرن الماضي ، حين كانت جامعة موسكو منتدى للتفكير الحر والآراء الاجتماعية السياسية والفلسفية والادبية المتقدمة . وكان طلاب جامعة موسكو ينتظمون في حلقات فلسفية وسياسية كثيرة اسسها الناقد والديموقراطي الثوري الروسي العظيم فيساريون بيلينسكي (١٨١١ـ١٨٤٨) ، والفيلسوف والشاعر نيقولاي ستانكيفيتش (١٨١٣ـ١٨٤٠) والكاتب الثوري الروسي الكسندر غيرتسن (١٨١٢ـ١٨٧٠) ورفيقه في العمل وصديقه الشاعر نيقولاي اوغاريف (١٨١٣ـ١٨٧٧) . وقد تغيّر وجه جامعة موسكو بشكل حاد نظراً للموجة الرجعية التي اثارتها الاحداث في الغرب (ثورة ١٨٤٨) .

١٥ ـ ص ٦٠

لودفيغ فورباخ (١٨٠٤ـ١٨٧٢) ـ فيلسوف مادي وملحد الماني .

١٦ ـ ص ٦٣

فينيلين يوري ايفانوفيتش (١٨٠٢ـ١٨٣٩) ـ عالم لغوي مؤرخ . انكب على دراسة تاريخ بلغاريا وابداعها الشعبي .

كروم (توفي عام ٨١٥) ـ امير بلغاري وقائد عسكري كبير انتصر على قوات البيزنطيين في عامي ٨١١ و٨١٣ .

١٧ – ص ٦٦

ماكس واغاثا – شخصيتان من اوبرا «الرامي الساحر» (١٨٢٠) للمؤلف الموسيقي الالماني كارل ماريا فون فيبر (١٧٨٦–١٨٢٦) .

١٨ – ص ٦٦

في ذلك اشارة الى دعاة النزعة السلافية الذين كانوا يرون في الحفاظ على الاعراف البطريقية التي يمجدونها وفي ازدهارها وفي «خضوع» الشعب ضمانا لمستقبل عظيم لروسيا ، ويدعون فئات المجتمع المثقفة الى «الاندماج» بالشعب . أي ان يتقبلوا منه هذه «الاسس الاصيلة الراسخة» .

١٩ – ص ٧٠

ثيميستوكليس (حوالى ٥٢٦–٤٦١ قبل الميلاد) – شخصية سياسية في اثينا في عهد الحروب الاغريقية الفارسية ، وهو صاحب المبادرة في انشاء اسطول حربي اغريقي قوي . وبقيادته احرز الاسطول الاغريقي النصر الحاسم على الفرس في معركة سالومي (٤٨٠ قبل الميلاد) .

٢٠ – ص ٨٠

لوي نيدرميير (١٨٠٢–١٨٦١) – مؤلف موسيقى فرنسي ، كانت اغنيته الرومانس «البحيرة» بشعر الشاعر الفرنسي الفونس لامرتين (١٧٩٠–١٨٦٩) تحظى بشعبية كبيرة .

٢١ – ص ٨٧

هوميروس – شاعر ملحمي اغريقي قديم ، صاحب «الالياذة» و«الاوديسه» وغيرهما من الاعمال .

٢٢ – ص ١١١

جملة قيلت على لسان الأمير ، وهو شخصية في اوبرا «فيليزاري» للمؤلف الموسيقي الايطالي غايتانو دونتسي (١٧٩٧–١٨٤٨) . وقد عرضت في بطرسبورغ في موسم ١٨٣٩–١٨٤٠ .

٢٣ – ص ١١٢

لعل شوبين يقصد بهذه الجملة كتابات علماء الجماليات الالمان ك . روزنكرانتس ، وا . روغه ، وت . فيشر الذين كانوا ينادون بمذهب القبح .

٢٤ – ص ١٢٢

الامارتان المقصودتان هنا هما امارتا مولدافيا وفالاخيا الواقعتان على الدانوب ، وكانتا تحت الحكم التركي . وقد رفضت تركيا تنفيذ مطلب الحكومة القيصرية في الاعتراف بحقوق الكنيسة الارثدوكسية ، في «العتبات المقدسة» . ورداً على ذلك دخلت القوات الروسية مولدافيا وفالاخيا (حزيران ١٨٥٣) .

٢٥ – ص ١٢٣

هو شعار تشيزار بورجيه (١٤٧٥–١٥٠٧) الذي حكم روماليا منذ عام ١٤٩٩ . وقد سعى الى توحيد ايطاليا تحت سلطته . وكان في صراعه مع المدن والاسياد الاقطاعيين لم يتورع عن اية وسيلة ، مستخدما شراء الذمم والخيانة والقتل .

٢٦ – ص ١٢٣

جورج غروت (١٧٩٤–١٨٧١) مؤرخ انجليزي ، ومؤلف «تاريخ اليونان» (في ١٢ مجلداً ، ١٨٤٦–١٨٥٦) .

٢٧ – ص ١٢٨

«آلام فرتر» (١٧٧٤) – رواية للكاتب الالماني العظيم يوهان فولفانغ غوته (١٧٤٩–١٨٣٢) .

٢٨ – ص ١٤٧

فيثاغورس – فيلسوف اغريقي قديم ، وعالم رياضي وشخصية سياسية .

٢٩ – ص ١٥٣

في ١٨ (٣٠) تشرين الثاني ١٨٥٣ حطمت العمارة البحرية الروسية بقيادة القائد البحري الروسي الرائع الاميرال بافل نخيموف (١٨٠٢–١٨٥٥) الاسطول التركي في معركة بالقرب من سينوب (الساحل الجنوبي للبحر الاسود) . وقد أسر في هذه المعركة القائد الاعلى التركي عثمان باشا .

٣٠ – ص ١٥٨

ماركوس يوليوس بروتوس (٨٥–٤٢ قبل الميلاد) – شخصية سياسية في روما القديمة ، واحد المناضلين في سبيل الجمهورية ، ورأس المؤامرة على يوليوس قيصر .

٣١ – ص ١٥٨

جملة مقتبسة من تراجيدية شكسبير «يوليوس قيصر» (الفصل الخامس ، المشهد الخامس) (١٥٩٩) .

٣٢ – ص ١٦٥

مطلع قصيدة «النشيد الجنائزي لاياكينف ماغلانوفيتش» («اغاني السلافيين الغربيين») للشاعر الروسي العظيم الكسندر بوشكين (١٧٩٩–١٨٣٧) .

٣٣ – ص ١٦٧

كانت روسيا قد اعلنت الحرب على تركيا في ٢٠ تشرين الاول (المصادف اليوم الاول من تشرين الثاني) ١٨٥٣ .

وقد دخلت فرنسا وانجلترا حملة القرم (١٨٥٣–١٨٥٦) الى جانب تركيا باعلانهما الحرب على روسيا في ١٩ (٢١) آذار ١٨٥٤ .

خلال حرب القرم كان الوطني البلغاري نيقولا فيليبوفسكي يعد للانتفاضة في تيرنوف ، والثوري البلغاري راكوفسكي قد عزم على الانضمام مع الفصيلة التي شكلها الى القوات الروسية . وكان سكان الصرب معادين للغاية للمحتلين الاتراك .

٣٤ – ص ١٦٨

حقيقة تاريخية عرفها تورغينيف من مقالة «حياة ووفاة حاكم مونته نيغرو (الجبل الاسود) وما تبع ذلك من احداث» بقلم صديقه الرحالة الشهير والكاتب يغور كوفاليفسكي (١٨٠٩ او ١٨١١–١٨٦٨) .

٣٥ – ص ١٦٨

مبعث موقف اينساروف العدائي من الضابط النمساوي هو أن النمسا في ذلك الحين كانت العقبة الرئيسية في طريق ايطاليا الى الاستقلال الوطني .

٣٦ – ص ١٧٠

انتوني كانالِتي (او كانالوتو) (١٦٩٧–١٧٦٨) – رسام ونقاش فينيتسي وفرانتشيسكو غواردي (١٧١٢–١٧٩٣) – رسام فينيتسي صوّر في لوحاته وجه فينيتسيا في القرن الثامن عشر .

٣٧ – ص ١٧٠

اكاديمية الفنون الجميلة متحف للرسم الفينيتسي ، أسس في عام ١٨٠٧ .

٣٨ – ص ١٧١

«معجزة القديس ماركو الذي حرر عبداً حكم عليه بالتعذيب» – لوحة للرسام الفينيتسي تينتوريتو . واسمه الحقيقي روبوستي ياكوبو (١٥١٨–١٥٩٤) .

٣٩ – ص ١٧١

تشيما داكونيليانو – لقب جوفاني باتيست (١٤٥٩–١٥١٧/١٥١٨) وهو أحد الممثلين البارزين لمدرسة فينيتسيا في الرسم .

٤٠ – ص ١٧١

«ترافياتا» – اوبرا للموسيقار الايطالي جوزيبه فيردي (١٨١٣–١٩٠١) وقد قدمت على مسرح بطرسبورغ لأول مرة في موسم ٥٩/١٨٥٨ . وقد غنّت الدور الرئيسي فيها المغنية الايطالية الشهيرة بوزيو ، وتوفيت بعد ذلك بزمن قصير .

٤١ – ص ١٧٥

اندريه بالاديو (١٥٠٨–١٥٨٠) – معماري ايطالي ، ومنظر في الفن . اقام كنيسة il Redentore (المُفْتدي) في عام ١٥٧٦ .

٤٢ – ص ١٧٧

كانت صحيفة «مراقب تريسته» تصدر في تريسته منذ عام ١٧٨٤ .

٤٣ – ص ١٧٨

كل هذه الاحداث من مختلقات لوبياروف . فالقوات الروسية مثلاً ، ليس فقط لم تستول على قلعة سيليستريا التركية ، بل اضطرت ايضاً ان ترفع عنها الحصار بعد وقت قصير (٩ نيسان ١٨٥٤) تحت ضغط النمسا التي طالبت روسيا اخلاء امارتي الدانوب ، وجمّعت ، لهذا الغرض ، قوات عسكرية كبيرة في ترانسيلفانيا .

٤٤ – ص ١٧٨

مارينو فالياري(١٢٧٨–١٣٥٦) – حاكم فينيتسي ، اعدم

على تنظيمه مؤامرة جمهورية ضد سيطرة اعيان فينيتسيا الاستبدادية . من بين ٧٦ صورة لحكام فينيتسيا في قصر الدوجي ترك الموضع المخصص لفالياري فارغاً واسبلت عليه قماشة مخملية سوداء كتب عليها «هذا موضع فالياري الذي قُطع رأسه لجرائمه» .

٤٥ـ ص ١٧٨

الشطر الأول من الفصل الرابع لقصيدة بايرون «اسفار تشايلد هارولد» . وجسر التنهدات كان يربط قصر الدوجي بسجن فينيتسيا ؛ كان المجرمون السياسيون المحكومون بالاعدام يسيرون عليه . وجورج نويل بايرون (١٧٨٨ـ١٨٢٤) ـ شاعر انجليزي رومانسي .

٤٦ـ ص ١٧٨

بوسترابا ـ كنية نابليون الثالث (١٨٠٨ـ١٨٧٣) كان امبراطور فرنسا في اعوام ١٨٥٢ـ١٨٧٠ . وتتالف هذه الكنية من المقاطع الاولى لاسماء المدن الذي حاول فيها القيام بانقلاب عسكري لاعادة الملكية (بولون ، ستراسبورغ ، باريس) .

بالمرستون هنري جون تمبل (١٧٨٤ـ١٨٦٥) ـ رجل دولة انجليزي عمل بنشاط ضد روسيا خلال حرب القرم بالتعاون مع نابليون الثالث .

٤٧ـ ص ١٧٨

هي مجموعة من القصائد السياسية (١٨٥٣) للكاتب الفرنسي فيكتور هيغو (١٨٠٢ـ١٨٥٥) مناوئة لدكتاتورية نابليون الثالث .

٤٨ـ ص ١٧٨

الشطر الأخير من قصيدة فيكتور هيغو «مكشوف على الليل» من مجموعة قصائد «العقوبات» . وقد صوّر نابليون الثالث واعوانه في هذه القصيدة حوّلوا «اللوفر» ـ وهو من اكبر المتاحف الفنية في العالم ـ الى خان قذر .

٤٩ـ ص ١٧٩

اقتباس من قصيدة للشاعر الروسي الشهير بيتر فيازيمسكي (١٧٩٢ـ١٨٧٨) يمجد فيها النصر في معركة سينوب . وقد نشرت هذه القصيدة في مجموعته «الى السلاح» (١٨٥٤) .

واوربا المصعوقة بدوي الانتصارات
لا تفتأ تردد باش ـ كاديكلار
وابصارها مثبتة في سينوب .

في ١٩ تشرين الثاني ١٨٥٣ حطمت القوات الروسية تحت قيادة فاسيلي بيبوتوف (١٧٩١ـ١٨٥٨) الجيش التركي قرب باش ـ كاديك ـ لار (قرب كارس) . وقد اثار هذا الحدث ومعركة سينوب مداً في الروح الوطنية في روسيا ، وقلقاً كبيراً في الاقطار التي كانت تساند تركيا . راجع التعليق (٢٩) .

٥٠ـ ص ١٧٩

بيير جوزيف برودون (١٨٠٩ـ١٨٦٥) ـ اشتراكي طوباوي فرنسي واحد مؤسسي الفوضوية وآخر كتبه «La revolutione sociale» («الثورة الاجتماعية») صدر في عام ١٨٥٢ .

٥١ـ الاباء والبنون . ص ١٩١

عالج تورغينيف فكرة رواية «الآباء والبنون» في اغسطس ١٨٦٠ وفرغ من تاليفها في ضاحية سباسكويه في ٢٠ يوليو ١٨٦١ . ونشرت الرواية في مجلة «روسكي فيستنك» (١٨٦٢ ، العدد الثاني) . وفي العام ذاته صدرت في طبعة مستقلة «تكريما لذكرى فيساريون غريغوريفيتش بيلينسكي» .

وفي الحال بدأت مجادلات حادة بخصوص هذه الرواية المكرسة لواحدة من اهم قضايا العصر ـ مسالة جيل الشباب ، واستمرت تلك المجادلات عقداً كاملاً من السنين .

وكانت انضج محاولة موضوعية لتحليل الرواية في الصحافة الديمقراطية في الستينات هي مقالة الكاتب الاجتماعي والناقد الادبي دميتري بيساريف (١٨٤٠ـ١٨٦٨) المنشورة في العدد الثالث من مجلة «روسكويه سلوفو» («الكلمة الروسية») لعام ١٨٦٢ .

كان بيساريف اول من اشار الى الصدق المدهش عند تورغينيف الفنان في رسم شخصية بازاروف . وكتب بيساريف في مقالته بهذا الخصوص : «عندما ابتدع تورغينيف بازاروف اراد ان يهشمه تهشيماً ، ولكنه ، بدلاً من ذلك ، قدم له بالقدر الكامل آيات الاحترام عن جدارة واستحقاق» .

وفيما بعد ، وبسبب التهجمات المتواصلة على الرواية ، اوضح تورغينيف مرارا فكرتها في مقالاته ورسائله (واهمها المقالة المنشورة باختصار في مكان آخر من هذا المجلد بعنوان «بصدد «الاباء والبنون»») . وكتب تورغينيف الى الكاتب الروسي العظيم

فيودور دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١) الذي فهم ، باعتقاد تورغينيف ، مهمة الرواية باعمق من الآخرين : ولا يتصور احد ، على ما يبدو ، انني حاولت ان اجسد في بازاروف شخصية ماساوية . فالجميع يتساءلون : لماذا هو سيئ الى هذا الحد ؟ او لماذا هو جيد الى هذا الحد ؟» . وتحدث دوستويفسكي في سلسلة مقالاته : «ملاحظات شتوية عن الانطباعات الصيفية» (١٨٦٣) عن تهجمات النقاد على تورغينيف فقال : «وما اكثر ما عاناه بسبب بازاروف ، بسبب هذا الانسان القلق المتململ (وتلك سمة القلب الكبير) رغم عدميته التهلستية» . ومن اهم اقوال الكتاب اللاحقين عن «الآباء والبنون» ما قاله الكاتب الروسي الفذ انطون تشيخوف (١٨٦٠-١٩٠٤) : «وما اروع رواية «الاباء والبنون» . . . وما اشد تاثير نهاية بازاروف ؟ والعجوزان ؟ وكوكشينا ؟ تلك شخوص موفقة الى ابعد الحدود . تلك هي العبقرية» .

٥٢ - ص ١٩٥

في عام ١٨٤٨ قامت ثورتا فبراير ويونيو في فرنسا . وكان الرعب من الثورة قد حمل قيصر روسيا نيكولاي الاول على اتخاذ اجراءات مشددة منها منع السفر الى الخارج . فترة حكم الامبراطور نيكولاي الاول هي ١٨٢٥-١٨٥٥ .

٥٣ - ص ٢٠٢

عهد امبراطورة روسيا يكاتيرينا الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦) .

٥٤ - ص ٢٠٤

مقتطف من ملحمة «يفغيني اونيغين» (الفصل السابع) للشاعر الروسي العبقري الكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) .

٥٥ - ص ٢٠٧

في ٣ يناير ١٨٥٧ تشكلت برئاسة القيصر الاسكندر الثاني لجنة سرية لاعداد اصلاح عام ١٨٦١ بغية منح الحرية للفلاحين الاقنان . وبعد عام (٨ يناير ١٨٥٨) تحولت هذه اللجنة الى اللجنة الرئيسية . وفي عام ١٨٥٨ تشكلت باوامر قيصرية في كافة ارجاء روسيا لجان الاولية ، وهي هيئات انتخابية للنبلاء والاقطاعيين مهمتها اعداد مشاريع تحرير الاقنان .

٥٦ - ص ٢١٦

مقتطف من مسرحية «مصيبة الذكاء» الهزلية (الفصل الثاني ، المشهد الخامس) للكاتب الروسي غريبويدوف (١٧٩٥-١٨٢٩) .

٥٧ - ص ٢٢٠

يوستوس ليبيخ (١٨٠٣-١٨٧٣) عالم كيمياوي الماني مؤلف عدة كتب في نظرية وتطبيق الزراعة .

٥٨ - ص ٢٢١

«سلك الوصفاء» مدرسة عسكرية لابناء الوجهاء يتخرج منها وصفاء البلاط القيصري .

٥٩ - ص ٢٢٣

ابو الهول الاسطوري كائن خرافي في الميثولوجيا الافريقية له جسم اسد وجناحان وراس امراة وصدرها . وقد اصبح رمزاً للاحاجي والالغاز .

٦٠ - ص ٢٢٦

ارثر وليم ولنغتون (١٧٦٩-١٨٥٢) قائد عسكري وسياسي انجليزي انتصر على نابليون في معركة واترلو عام ١٨١٥ بمساعدة الجيش البروسي .

٦١ - ص ٢٢٦

لودفيغ-فيليب ملك فرنسا (١٨٣٠-١٨٤٨) ارغمته ثورة فبراير ١٨٤٨ على التنازل عن العرش والفرار الى بريطانيا حيث توفي هناك .

٦٢ - ص ٢٣٠

الكسي يرمولوف (١٧٧٢-١٨٦١) جنرال روسي بطل الحرب الوطنية ١٨١٢ ضد نابليون . في الفترة ١٨١٦-١٨٢٧ كان قائداً عاماً للقوات الروسية في القوقاز .

٦٣ - ص ٢٣٠

صدرت رواية الكاتب الروسي ماسالسكي (١٨٠٢-١٨٦١) التاريخية باربعة مجلدات في عام ١٨٣٢ .

٦٤ - ص ٢٤٥

المقصود عهد امبراطور روسيا الاسكندر الاول (١٨٠١-١٨٢٥) حيث شاع في الاوساط الارستقراطية الاهتمام باللغة الفرنسية والاستهانة بقواعد اللغة الروسية .

٦٥ – ص ٢٤٦

المقصود رفض بازاروف ولكل القرارات المتعارف عليها في «حياة الناس» ، اى النظام السياسي والاجتماعي القائم والتصورات الدينية وغيرها .

٦٦ – ص ٢٥١

في الفاتيكان (المقر البابوي في روما) كثير من المتاحف التي تضم آثارا فنية قيمة (من رسم ونحت وغيرهما) . في خمسينات وستينات القرن التاسع عشر نشأ في الرسم الروسي اتجاه واقعي جديد . ورفض الرسامون الشباب الطريقة الاكاديمية التقليدية التي تطالب بتقليد النماذج الكلاسيكية ، والفن الايطالي على الخصوص ، واخذوا ينادون بخلق فن روسي اصيل مشبع بالافكار التقدمية الديمقراطية . وهذا هو ، اساسا ، السبب في نسيان الرسامين الروس لكنوز الفاتيكان .

٦٧ – ص ٢٥٧

فرانسوا غيزو (١٧٨٧–١٨٧٤) مؤرخ وسياسي فرنسي .

٦٨ – ص ٢٥٨

في السنوات الاخيرة من عهد الاسكندر الاول اولعت الارستقراطية الروسية بمختلف التعاليم الدينية والغيبية .

٦٩ – ص ٢٥٨

ايتين دي بونوكونديلياك (١٧١٥–١٧٨٠) فيلسوف مثالي فرنسي ، صدر مؤلفه الاساسي «بحث في الاحاسيس» عام ١٧٥٤ .

٧٠ – ص ٢٥٨

صوفيا سفيتشينا (١٧٨٢–١٨٥٩) كاتبة روسية غيبية الاتجاه ، حظيت مؤلفاتها التي صدرت عام ١٨٦٠ باهتمام كبير لدى اوساط النبلاء من المجتمع الروسي .

٧١ – ص ٢٦٤

يبدو ان كيسلياكوف شخص متخيل . اما «الوقائع الموسكوبية» فهي جريدة يومية بدأت تصدر في عام ١٧٥٦ . واعتبارا من ستينات القرن التاسع عشر صارت تعبر عن آراء اكثر فئات الاقطاعيين ورجال الدين رجعية .

٧٢ – ص ٢٦٥

جورج صاند هو الاسم المستعار للكاتبة الفرنسية اورورا دوديفان (١٨٠٤–١٨٧٦) التي تناولت في مؤلفاتها قضايا حقوق المرأة .

٧٢ – ص ٢٦٥

رولف امرسون (١٨٠٣–١٨٨٢) كاتب وفيلسوف اميركي .

٧٤ – ص ٢٦٥

يلمح تورغينيف هنا ساخرا الى محرري مجلة «سفريمنك» غ . يليسييف (١٨٢١–١٨٩١) وم . انتونوفيتش (١٨٣٥–١٩١٨) ، حيث نحت من اسميهما اسم يليسيفيتش .

٧٥ – ص ٢٦٥

بالفايندر (المنقب) بطل روايات الكاتب الاميركي جيمس فينيمور كوبر (١٧٨٩–١٨٥١) «الجورب الجلدي» و«المنقب» و«البراري» و«آخر الموهيكان» .

٧٦ – ص ٢٦٦

روبرت بونزين (١٨١١–١٨٩٩) عالم الماني شهير استاذ الكيمياء في جامعة هيدلبيرغ .

٧٧ – ص ٢٦٧

جوزيف بيير برودون (١٨٠٩–١٨٦٥) كاتب اجتماعي واقتصادي فرنسي من مؤسسي الفوضوية وخصم حرية المرأة . كان يعتبر الوظيفة الرئيسية للمرأة هي الامومة .

٧٨ – ص ٢٦٧

توماس ماكولي (١٨٠٠–١٨٥٩) مؤرخ انجليزي ، من اشهر كتبه «تاريخ انجلترا» (١٨٤٨–١٨٥٥) .

٧٩ – ص ٢٦٨

مقطع من قصيدة «السكير وزوجته» للشاعر الفرنسي بيرانجيه (١٧٨٠–١٨٥٧) .

٨٠ – ص ٢٦٩

المقصود موال «ليل غرناطة» للملحن سيمور-شيف الذي

اشتهر كذلك بتلحين ارتجالي لقطع موسيقية مقتبسة من اوبرا ميخائيل غلينكا «ايفان سوسانين» و«روسلان ولودميلا» .

٨١ – ص ٢٨٠

ميخائيل سبيرانسكي (١٧٧٢–١٨٣٩) من رجالات الدولة في روسيا ، ابن قسيس ريفي ، واضع مشروع التحويلات في جهاز الدولة في عهد القيصر الاسكندر الاول .

٨٢ – ص ٣١٩

كريستوفور هوفيلاند (١٧٦٢–١٨٣٦) طبيب الماني مؤلف كتاب «فن اطالة العمر البشري» (١٧٩٦) الذي حظى باقبال واسع في حينه .

٨٣ – ص ٣٢١

المقصود الجريدة الطبية التي صدرت في بطرسبورغ من عام ١٨٣٣ حتى عام ١٨٦٩ .

٨٤ – ص ٣٢٢

لوكاس شينلين (١٧٩٣–١٨٦٤) بروفسور الماني في الطب .

٨٥ – ص ٣٢٢

يوهان راديماخير (١٧٧٢–١٨٤٩) عالم الماني في الطب .

٨٦ – ص ٣٢٢

فريدريك هوفمان (١٦٦٠–١٧٤٢) عالم الماني في الطب .

٨٧ – ص ٣٢٢

جون براون (١٧٣٥–١٧٨٨) طبيب انجليزى في الباطنية .

٨٨ – ص ٣٢٢

بيوتر فيتغينشتين (١٧٦٨–١٨٤٢) فيلدمارشال ساهم في الحرب الوطنية ١٨١٢ . وفي الفترة ١٨١٨–١٨٢٨ قاد الجيش الثاني (الجنوبي) الذي تشكلت فيه جمعية الديسمبريين السرية .

٨٩ – ص ٣٢٢

فاسلي جوكوفسكي (١٧٨٣–١٨٥٢) شاعر ومترجم روسي كبير .

٩٠ – ص ٣٢٢

يلمح الى الجمعية الجنوبية السرية للديسمبريين بزعامة الثوري بافل بيستل (١٧٩٣–١٨٢٦) .

٩١ – ص ٣٢٣

باراسيلس اسم مستعار للطبيب والعالم الطبيعي السويسري ثيوفراست هونهايم (١٤٩٣–١٥٤١) الذي اكتشف كثيرا من الاعشاب الطبية واستخدم طريقة المراقبة في دراسة الامراض .

٩٢ – ص ٣٢٤

حظي نضال ايطاليا في سبيل التحرر من نير الاجنبي وفي سبيل توحيد الوطن باهتمام المجتمع الروسي في الستينات . ونوقشت هذه المسألة بحماس في الصحافة الدورية الروسية وفي مجلة «سوفريمنك» الثورية الديمقراطية ومجلة «الصفير» .

٩٣ – ص ٣٢٥

هوراس (٦٥–٨ قبل الميلاد) شاعر روماني شهير تغنى في قصائده ورسائله بالتمتع بالحياة في احضان الطبيعة .

٩٤ – ص ٣٢٦

يوحنا المعمدان ، كما يقول الانجيل ، بشر بظهور المسيح ، فقطعت رقبته وحمل رأسه على طبق .

٩٥ – ص ٣٢٧

رواية عاطفية وعظية للكاتب الفرنسي دوكريه-دومينيل (١٧٦١–١٨١٩) صدرت ترجمتها الروسية في السنوات ١٧٩٤ و١٨٠٠ و١٨٠٤ .

٩٦ – ص ٣٢٨

لوتسوس تشنيناتوس (القرن السادس –القرن الخامس قبل الميلاد) ارستقراطي روماني كان يعيش ببساطة ويحرث الارض بنفسه فاشتهر صيته كمواطن مثالي .

٩٧ – ص ٣٢٨

اعتبر جان جاك روسو(١٧١٢–١٧٧٨) العمل البدني واحدا من شروط تربية الانسان وحياته السعيدة .

٩٨ ـ ص ٢٢١

من اوبرا الملحن الايطالي جاكومو مايربر (١٧٩١ـ١٨٦٤) «روبرت الشيطان» (١٨٣١) .

٩٩ ـ ص ٢٢٢

الكسندر سوفوروف(١٧٢٩ـ١٨٠٠) قائد روسي كبير عبرت قواته جبال الالب عام ١٧٩٩ .

١٠٠ ـ ص ٢٣٦

هذا القول تكرار حرفي تقريبا لما قاله عن شعر بوشكين الكاتب ن . اوسبينسكي اثناء لقائه مع تورغينيف في باريس عام ١٨٦١ . وكتب تورغينيف الى اينكوف بهذا الخصوص يقول : «وقبل ايام مر بنا اوسبينسكي (نيكولاي) الحاقد على البشر ، وتناول الغداء عندي . ورأى ان من واجبه ان يتهجم على بوشكين مؤكدا بان بوشكين لم يفعل شيئا في كل قصائده غير الصراخ : والى المعركة ! الى المعركة ! دفاعا عن روسيا المقدسة» . (اينكوف ، مذكرات ادبية ، بطرسبورغ ، ١٩٠٩) .

١٠١ ـ ص ٣٥٢

ظهرت اولى مدارس الآحاد لمحو الامية بين الكبار في بطرسبورغ وكييف (١٨٥٩) ثم في مدن اخرى كثيرة . ولعب المثقفون الثوريون دورا كبيرا في تأسيس هذه المدارس معتبرينها ليس فقط شكلا لتنوير الشعب بل وشكلا علنيا للدعاية ضد الحكومة .

١٠٢ ـ ص ٣٥٣

كان الفيلسوف والمؤرخ الروسي يوري سامارين قد فضح في «رسائله من ريغا» والتي انتشرت مخطوطة في موسكو وبطرسبورغ في أواخر الاربعينات الاستغلال البشع الذي تعرض له فلاحو البلطيق من قبل البارونات الالمان . واعتبارا من عام ١٨٥٦ انتقدت الصحافة مرارا سياسة نبلاء البلطيق الرجعية في المسألة الفلاحية ، وفيما بعد اثار الكاتب الروسي الكبير نيكولاي تشيرنيشيفسكي (١٨٢٨ـ١٨٨٩) الى الطابع الوحشي «لحقوق» وامتيازات بارونات البلطيق .

١٠٣ ـ ص ٣٦٩

المجهول الخفي بطل عدة روايات للكاتبة الانجليزية آن

رادكليف (١٧٦٤ـ١٨٢٣) التي تتميز مؤلفاتها بوصف الفظائع والاهوال الخيالية والحوادث المثيرة .

١٠٤ ـ ص ٣٦٩

روبيرت بيل(١٧٨٨ـ١٨٣٠) سياسي انجليزي محافظ .

١٠٥ ـ ص ٣٨٥

المقصود الرسالة التي بعثها الكاتب الروسي العظيم نيكولاي غوغول (١٨٠٩ـ١٨٥٢) الى سميرنوفا في ٤ يوليو ١٨٤٦ . وادرجت بتحوير طفيف ضمن كتاب غوغول «مقتطفات من المراسلات مع الاصدقاء» (١٨٤٧) ولكن الرقابة حذفتها . ودعا الكاتب فيها الى الكمال الاخلاقي الديني وتخلى عن مؤلفاته الادبية . ونشرت الرسالة لاول مرة في جريدة «العصر والنشرة الاقتصادية» عام ١٨٦٠ تحت عنوان «هذه هي عقلية المتصرف» .

١٠٦ ـ ص ٤١٧

الوسيط العقاري موظف في روسيا في فترة تطبيق الاصلاح الفلاحي لعام ١٨٦١ . كان يعين من بين النبلاء لاقرار الوثائق العقارية وحل الخلافات بين الفلاحين والاقطاعيين ، وكان يمتلك سلطة قضائية وبوليسية على الفلاحين .

١٠٧ ـ ص ٤١٨

يقع مدرج برول على اسوار قلعة درزدن ، سمي باسم هنري برول (١٧٠٠ـ١٧٦٣) وزير الملك البولوني اغسطس الثالث .

محتويات

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧

موسكو — الاتحاد السوفييتي